

قبعة فيرمير

(القرن السابع عشر وفجر العولمة)

تيموثي بروك

ترجمة:

د.شاكر عبد الحميد

نبذة عن المؤلف:

ولد تيموثي بروك عام 1951 في تورنتو، بكندا، عام 1951، وهو مؤرخ متميز له العديد من الكتب والبحوث العلمية المهمة التي يدور معظمها حول تاريخ الصين. تبوأ بروك العديد من المناصب الأكاديمية والجامعية منها: أستاذ كرسي الدراسات الصينية بجامعة أكسفورد وأستاذ ومدير كلية القديس جون بجامعة كولومبيا البريطانية ومدير برنامج دراسات التبت المعاصرة في الجامعة نفسها - معهد الدراسات الآسيوية. له عدد كبير من المؤلفات المهمة حول المجتمعات الآسيوية وحول التاريخ والاقتصاد والسياسة والتجارة الدولية الخاصة بهذه المجتمعات ومن أهم أعماله:

1. الصلاة من أجل السلطة: البوذية وتكوين مجتمع الطبقة العليا في الصين في أواخر عهد أسرة المنغ 1993.
2. فوضى المتعة: التجارة والثقافة في الصين في عهد أسرة المنغ 1998.
3. إخضاع الشعب: القمع العسكري لحركة بيجين الديمقراطية 1992.
4. المصادر الجغرافية لتاريخ سلالتي منغ - شنغ، 2002.
5. التعاون: الوكلاء اليابانيون والنخبة الصينية في وادي نهر يانجتسي، 2004.
6. الدولة الصينية في عهد أسرة منغ، 2005.

تيموثي بروك

قبعة فيرمير

(القرن السابع عشر وفجر العولمة)

ترجمة: د. شاكر عبد الحميد

الطبعة الأولى 1433هـ 2012م

قبعة فيرمير : القرن السابع عشر وفجر العولمة
تيموثي بروك
CB401 .B7612 2011
Brook, Timothy,1951-
[Vermeer's hat]
قبعة فيرمير : القرن السابع عشر وفجر العولمة / تيموثي بروك ؛ ترجمة شاكر عبد الحميد.-ط.-1
أبوظبي : هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، كلمة، 2011.
ص 537 ؛ 14×21 سم.
ترجمة كتاب: Vermeer's hat : the seventeenth century and the dawn of the global world
تدمك: 978-9948-01-820-9
1. Vermeer, Johannes,1632-1675. 2. الحضارة الحديثة-- القرن السابع عشر.
3. الثقافة. 4. العولمة. أ. عبد الحميد، شاكر، -1952 ب. العنوان

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنجليزي:

Timothy Brook
Vermeer's Hat: The 17th Century and the Dawn of the Global World

www.kalima.ae
KALIMA
ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 468 6314 2 971+ فاكس: 462 6314 2 971+

أبوظبي للثقافة والتراث
ABU DHABI CULTURE & HERITAGE
www.cultural.org.ae
ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 300 6215 2 971+ فاكس: 059 6336 2 971+

قبعة فيــرميــــر

(القرن السابع عشر وفجر العولمة)

«إن وصولنا إلى المعنى والقيمة هو مجرد لحظات من التوقف المؤقت في حوارنا الدائم مع الآخرين، والذي من خلاله ينبثق المعنى والقيمة دائماً».

جاري توملنسون

«الموسيقى في سحر عصر النهضة»

المحتويات

توطئة بقلم المترجم

قليلة هي الكتب التي يشعر المرء وهو يقرؤها أو يترجمها أنها تُحدث حالة من التغير المعرفي داخله، وهي حالة يتمنى عندما تحدث له أن تمتد تأثيراتها، وتصيب جميع من يقرأ هذا الكتاب. لقد أسعدني اختيار مشروع «كلمة» للترجمة لهذا الكتاب الممتع والمفيد، إذ أتاحت الفرصة لي للاطلاع عليه، وحملتني كذلك مسؤولية ترجمته إلى العربية، وقد سعدت كثيراً عندما دخلت إلى أعماق هذا الكتاب، وتجولت في عوالمه، وعرفت بعض أهم ما فيه، كما أشرقت في عقلي أفكار عدة، بفضل ما حملته كلماته وسطوره، فالكتاب يندرج ضمن ما يمكن أن يسمى – بشكل عام – بالدراسات الثقافية، وبشكل خاص، بالنقد الثقافي. هكذا أخذني مؤلفه – تيموثي بروك – معه، زمانياً إلى القرن السابع عشر، وأخذني مكانياً إلى هولندا، أو ما كان يسمى بالأراضي الواطئة، وهناك في مدينة دلفت، ولد فيرمير؛ أشهر فناني الضوء، ربما في تاريخ الفن التشكيلي عامة، حيث قد لا يذكر تاريخ الفن بعده مثل هذا الشغف بالضوء، إلا مقترناً باسم «فان جوخ» وشموسه المشعة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

في دلفت، غرب هولندا، على بحر الشمال، ولد فيرمير، ورسم لوحاته المهمة، ومنها لوحة «الضابط والفتاة الضاحكة»، حيث يرتدي الضابط قبعة خاصة كبيرة من الفرو – ومن هنا جاء عنوان الكتاب– وفي «دلفت» كان الفرع الرئيسي لشركة الهند الشرقية الهولندية أيضاً،

ومن هناك انطلقت السفن نحو الشرق وعادت منه، انطلقت بالبحارة والسلع، وعادت ببعض البحارة فقط، وبسلع أخرى كثيرة متنوعة، هكذا بدأ التاريخ الحقيقي للعولمة – كما يقول تيموثي بروك – من هناك، من ذلك المكان، وذلك الزمن.

هكذا ينتقل بنا مؤلف هذا الكتاب من الفن إلى الحياة، ومن الحياة إلى الفن، من الفن الذي في الحياة: كتجارة اللوحات والخزف والفراء والمنسوجات وغيرها، إلى الحياة التي في الفن: كصناعة السفن، وتجارة التبغ، وعمليات التبادل الثقافي، والحروب والصراعات الكبرى التي دارت، هنا وهناك، واستهلت الحقبة الاستعمارية الكبرى في تاريخ البشرية، التي رصدها الفن أو سَجّلَ آثارها المتناثرة.

ولغة مؤلف الكتاب الإنجليزية ممتعة في معظمها، وهي لغة زاخرة بالاستعارات والتشبيهات والأمثولات والأبيات الشعرية والإشارات الثقافية إلى الشرق تارة، وإلى الغرب تارة أخرى، وخلال ذلك كله هناك حضور كثيف للفن والتاريخ والجغرافيا وعالم البحارة والتجارة، وصناعة السفن، والممارسات الثقافية والتبادلات الإنسانية، والحضارة والاكتشافات العلمية.

وهنا – في هذا الكتاب– لغة تكون كلاسيكية حيناً، ومعاصرة حيناً آخر، والمفردات والتعبيرات وأسماء الأعلام الصينية والغربية، وغيرها، حاضرة بكثافة عبر هذا النص الممتع الذي يجعل المرء يشعر بالغبطة الثقافية نحو صاحبه، ويتمنى أن ينجز كتاباً مثله يدور حول الثقافة العربية، ويحيط ببعض مناراتها الثقافية والفنية. وهي أمنية تبدو

للمرء – الآن – بعيدة مثل مدينة دلفت، ومثل القرن السابع عشر ومثل فجر العولمة.

لقد عاش الفنان الهولندي الشهير «فيرمير» (31 أكتوبر 1632 – 16 ديسمبر 1675) خلال القرن السابع عشر، وهو قرن كان يموج بكثير من التغيرات الضخمة، وقد جسد فيرمير كثيراً من هذه التحولات والتغيرات في لوحاته، واستعان في هذا التجسيد بتقنيات الخداع البصري والغرف المظلمة Camera obscura، ولقد كان رائد الإبداعات الخاصة بها العالم والفيلسوف المسلم الحسن بن الهيثم (965–1039) إذ تمتلك صور «الغرف المظلمة» «ذات الجودة» المعقولة «إحساساً» بصرياً خاصاً. إنها تنتج أو تحدث إحساساً مكثفاً بالنغمة واللون، وتقدم تكثيفاً مرهفاً دون خشونة أو بهرجة أو زخرفة مصطنعة. كما أن الفروق الطفيفة بين الضوء والظل فيها، والتي تبدو منتشرة جداً، وغير مدركة لضآلتها، بحيث يصعب تسجيلها في المشهد الأصلي، تصبح هنا – بواسطة الغرف المظلمة – واضحة، كما تكتسب التأثيرات النغمية للألوان درجة جديدة من التماسك، وقد تجلى ذلك كله في أعمال فيرمير الذي قيل إنه استخدم هذه الغرف المظلمة للكشف عن بعض الخصائص البصرية المميزة التي تكون أقل وضوحاً، أو غير واضحة في الطبيعة والإبراز لها(1).

وقد اهتم فيرمير بهذه الخصائص في لوحاته، وقام بتعزيزها بطريقة جعلتها تتحول إلى ملامح أسلوبية مميزة له، فاللوحات تكشف عن اهتمام

(1) Neta, I (2004) Vermeer's World. An Artist and his Town. N.Y: Prestel.

مكثف بالضوء، والظل، واللون، والمكان، وأشكال التمثيل وتصاويره المتنوعة للخرائط والمرايا. وتكشف اللوحات التي على الجدران في المساحات الداخلية من بيته وحياته الخاصة، عن اهتمام مستمر بالطرائق التي ينعكس من خلالها الواقع ويتجلى. ويتأكد ذلك كله أيضاً من خلال ولعه ومتعته الخاصة بالأنماط المتنوعة الأشكال من الأرضيات المغطاة بالمطاط، والسجاجيد الشرقية، والزجاج المنقوش الملون، والخشب المحفور والمرصع، وأعمال التطريز على القماش بالإبر، وهي خصائص تكشف كلها عن وعي عميق لديه، ورغبة في فحص الطرائق التي تبدو من خلالها هذه السطوح ذات الأنماط الخاصة تحت تأثير الضوء والظل. وقد درس فيرمير مجموعة كبيرة من الملامس المختلفة، مثل الزجاج شبه الشفاف، والخرائط القديمة، والخشب المصبوغ، ومجموعات من الخيول المعدنية البراقة المطلية بالنحاس، وكذلك ملابس كثيرة خشنة وناعمة، وأوانٍ وأوعية من مواد مختلفة تنوعت ما بين المعادن البراقة والأواني الخزفية المطفأة التي يعوزها البريق، ويكشف ذلك كله عن اهتمام كبير لديه بالانعكاس والانكسار الخاصين بالضوء. وقد كان تظليله المتدرج البارع للظلال البسيطة والمركبة، وكاستجابة لأنواع مختلفة من الإضاءة المباشرة وغير المباشرة، محصلة لكثير من الساعات التي قضاها وهو ينظر ويستكشف الواقع والحياة. ومن السهل أن نتخيل أن هذا الفنان قد انجذب نحو الجوانب الساحرة الخاصة بالغرف المظلمة.

عندما ننظر مثلاً إلى لوحة «الضابط والفتاة الضاحكة»، التي أنتجها عام 1660م، والتي اتخذ تيموثي بروك من إحدى مفرداتها،

وهي القبعة، عنواناً لكتابه الحالي (لوحة رقم 2 في الكتاب)، حيث تظهر الكتل المصقولة المتعلقة بالنغمات اللونية الخاصة بالشكل الكبير الذي في خلفية اللوحة، التي تكتسب قوة إضافية، أو شدة، من خلال عمليات التضاد الساحرة الموجودة عند الحواف أو الأطراف الخاصة بالأشكال والصورة الظلية المعتمة أو السوداء للضابط، ولذراعه خاصة، التي تكتسب اهتزازاً أو تذبذباً نابضاً بالحياة والحركة من خلال ذلك الضوء المدرك للجدار المضيء، الذي أمامه عند الطرف أو الهامش نفسه من الحد النغمي اللوني - كما يظهر - الأثر البصري المميز أيضاً في اللوحة، وهو ما ميز المرحلتين الوسيطة والأخيرة من تطور الفن عند فيرمير، حيث توزيع دوائر من التداخل اللوني عبر كل تلك الأشكال الرئيسية المضيئة.

ثم هناك أيضاً تلك الأمور المتعلقة بالرموز والتفسيرات الخاصة بالعمل، والتي لا تكون موجودة داخله حرفياً، بل مجازياً، ورمزياً، وأمثولياً، فلوحة فيرمير «امرأة تزن الفضة» (1657) يمكن تفسيرها على أنها تمثل امرأة تقوم بوزن سلع أو حلي أو ذهب أو فضة...إلخ، أي أشياء العالم المادي، بميزان حساس، وتقف أمام لوحة تمثل يوم الحساب، حيث ستوضع أعمال الإنسان وتوزن بميزان يفصل بين حسناته وسيئاته، والمقارنة بين هاتين العمليتين من الوزن أمر لا يمكن تجاهله في هذه اللوحة. وهي أمور عقلية أو معرفية غير مجسدة تكوينياً. لكنّ آخرين منا قد يهتمون أكثر بتلك العناصر التكوينية التي في اللوحة، مثل

صورة يوم الحساب تلك(2).

إن خلفية الصورة مظلمة رغم ذلك الضوء الجانبي الذي يتسلل إليها، وهو ضوء يسقط مباشرة على وجه المرأة ويضيئه، ويتحول في اتجاه الأسفل ليشير إلى بطنها؛ ذلك الذي يكاد يوضح أن هذه المرأة تحمل طفلاً في أحشائها، وهي على وشك أن تلده وتسلمه إلى هذا العالم، حيث سيبدأ ميزان عمله الجديد في الوزن والمعايرة، لحسناته وسيئاته، وهكذا.

ولعل الملمح الأكثر قوة للصورة أو اللوحة المعلقة على الجدار، لهذه اللوحة داخل اللوحة، هو ذلك الإطار المعتم الشديد الصلابة فيما يشبه الرف أو الإفريز الرأسي الشديد الصلابة، الذي يهبط إلى مركز التكوين. إن هذا الشكل القوي يستحوذ على يد المرأة ويثبتها، ويجعلها تتوقف مؤقتاً عن الحركة، ومن خلال هذه الحيلة تم إيقاف المشهد الدنيوي الذي في أمامية اللوحة، في حين يتسلل إليه ضوء من أعلى، ضوء أقوى من الضوء الناتج من تلألؤ الجواهر التي تزنها المرأة. وقد تسببت قوة هذا الضوء في أن تغمض هذه المرأة عينيها، أو على الأقل تخفضهما متجهة بهما نحو جواهرها، ومستغرقة داخلها في عالمها الداخلي، في حملها الذي يوشك على الظهور، وفي مسراتها الخارجية التي تكاد تزنها بميزان صغير حساس، لقد تم التعبير عن الموضوعات والأفكار المعرفية بشكل بصري أيضاً، فالفن في جوهره، ينبغي أن يتم إدراكه

(2) انظر كذلك كتابنا: الفنون البصرية وعبقرية الإدراك القاهرة: دار العين للنشر والتوزيع، 2007.

بصرياً، ومعرفياً، وتاريخياً، وإنسانياً.

أسلوب تيموثي بروك، مؤلف هذا الكتاب - كما قلنا سابقاً - أسلوب ممتع، يجمع بين المتعة والفائدة، إنه مولع بالتفاصيل، لكن هذه التفاصيل سرعان ما تنتظم في صورة كلية عامة ونافعة، ويشكل السرد لدى هذا المؤلف عالماً يتجلى على أنحاء شتى، نجد فيه الحكاية، والمعلومات التاريخية، والسياسية، والاقتصادية، والأدبية، ونجد الاستعارة والمجاز والأمثولة والشعر، ونجد التفكه والتهكم والسخرية والتندر والتورية، ونجد مصائر البشر ونهايات الأشياء وبداياتها، ونجد أنفسنا نقرأ كتاباً مثيراً يجمع بين الفن التشكيلي والأدب والاقتصاد والسياسة، ونجد «فيرمير» ورمبرانت وعالم القرن السابع عشر، ونجد البدايات الحقيقية للعولمة كما تشكلت في مسارات واتجاهات حدثت على أنحاء شتى، متفاعلة ما بين الشرق والغرب، والشمال والجنوب، ونجد أنفسنا وقد خرجنا من هذا الكتاب، لكنه يظل - مع ذلك - موجوداً داخلنا، ونجد تغيراً معرفياً قد حدث لنا، وعوالم تصطخب وترتطم وتتصادم وتتوازن بداخلنا، ونجدنا وكأننا ولدنا من جديد، ونجدنا نتمنى أن نكتب، ويكتب كتابنا ومفكرونا كتاباً مثل هذا عن واقعنا وتاريخنا العربي والإسلامي من خلال مثل هذا المنحى الثقافي الجديد.

استمتعت كثيراً بقراءة هذا الكتاب وترجمته، وأتمنى أن يعود بالفائدة على جميع من يقرؤه من المتخصصين وغيرهم من القراء العرب الأعزاء.

لا يسعني إلا أن أشكر في النهاية كل من أسهم في جعل ترجمة هذا الكتاب إلى اللغة العربية أمراً ممكناً.

وأخص منهم بالشكر مشروع «كلمة» للترجمة، وعلى نحو خاص: الدكتور علي بن تميم؛ مدير المشروع، والأستاذة تهاني عبد العزيز، ثم الصديق الدكتور طارق النعمان الذي قرأ معي القصائد الموجودة في بعض فصول الكتاب وراجعها معي مراجعة دقيقة بثت فيها روحاً جديدة، كما أشكر الأصدقاء: راشد زايد، من مملكة البحرين، وصابر أحمد، وحامد إبراهيم، وأحمد رمضان من أكاديمية الفنون، من جمهورية مصر العربية.

شاكر عبد الحميد

المنامة – مملكة البحرين، في مارس 2010

قائمة الأشكال التوضيحية والخرائط

ب- الخرائط:

1–الأقاليم الواطئة. رسمت بتاريخ 1650.

2–طرق التجارة في منطقة البحيرات العظمى.

3–طرق التجارة العالمية في القرن السابع عشر.

4–طرق التجارة حول بحر الصين الجنوبي.

الفصل الأول

منظر من «دلفت»



ذات صيف، وبينما كنت في العشرين من عمري، اشتريت دراجة في مدينة أمستردام، وتحركت بها نحو الجنوب عبر الأقاليم الواطئة[1] متجهاً نحو ما قد يكون المرحلة الأخيرة من رحلة ستأخذني من دبروفينيك Dubrovnik على البحر الأدرياتيكي إلى بن نيفيس Ben Nevis في اسكتلندا. وخلال اليوم الثاني من رحلتي، وبينما كنت أتحرك بالدراجة عبر الريف الهولندي، بدأ الضوء في الخفوت. وبدأ رذاذ أمطار ما بعد الظهر يتساقط قبالة بحر الشمال، فتحولت التربة تحت عجلات دراجتي إلى أرض زلقة، ودفعتني شاحنة تدريجياً حتى صرت قريباً من شفير البحر، وغاصت دراجتي أكثر فأكثر في الطين. صحيح أنه لم يلحق بي أي أذى، ولكن القطر بللني، وصارت ملابسي متسخة، وأصبح الجزء الأمامي من دراجتي معوجاً ينبغي إصلاحه. ولم يكن هناك جسر ألوذ به كعادتي عندما يدهمني مثل ذلك الطقس السيء خلال جولاتي الحرة. ثم إنني طرقت أول باب وجدته كي ألتمس من

أصحابه منحي بضع دقائق فقط بعيداً عن المطر. وقد كانت السيدة «أووددشورن» قد لاحظت ما حدث لي من نافذة بيتها الأمامية، وهي تلك النافذة التي أعتقد أنها كانت تقضي وقتاً طويلاً بجوارها في فترات ما بعد الظهر، ومن ثم، فإنني لم أشكل مفاجأة بالنسبة إليها عندما فتحت باب بيتها فتحة ضيقة وحدقت فيّ. وقد ترددت تلك السيدة برهة، ثم نحت حذرها جانباً وفتحت باب بيتها على اتساعه، بحيث تمكن ذلك الشاب الكندي الصغير[2] الملطخ بالوحل من الدخول.

كان كل ما كنت أريده أن أقف بضع دقائق بعيداً عن المطر، ثم أستجمع شتات نفسي وأتماسك وأمضي، لكن تلك السيدة صبت عليَّ ماءً ساخناً فاغتسلت، وطَهَتْ لي طعاماً لعشائي، ومنحتني سريراً كي أنام فيه، وقامت بكي ملابس كثيرة خاصة بزوجها المتوفى، بما في ذلك المعطف المقاوم للمطر من أجلي.

وفي الصباح التالي، وعندما انسكب ضوء الشمس فوق منضدة مطبخها، قدمت لي تلك السيدة أفضل طعام تناولته في حياتي، وخلال ذلك كانت تضحك خلسة بصوت خافت، متحدثة عن كيف سيكون غضب ابنها شديداً لو عرف أنها استضافت رجلاً غريباً في بيتهما.

وبعد طعام الإفطار قدمت لي هذه السيدة بطاقات بريدية كتذكارات، عليها مشاهد صُوِّرت من مواقع محلية، واقترحت عليَّ أن أذهب كي أرى بعضها قبل أن أعتلي دراجتي وأنكص على أعقابي ثانية عبر ذلك الطريق، وقد كانت الشمس مشرقة مشعة في صباح ذلك الأحد، ولم تكن هناك وجهة محددة في ذهني أذهب إليها، لذلك فإنني

ذهبت أجوب المكان متمهلاً كي ألقي نظرة هنا وهناك. وقد ظلت مدينة السيدة أودشورن بداخلي منذ ذلك الوقت. لقد منحتني في بيتها شيئاً يفوق كرم ضيافتها، لقد منحتني دلفت Delft.

لقد وصف صمويل بيبز Samuel pepys كاتب اليوميات في «لندن مدينة دلفت عندما زارها عام 1660 فقال «إنها أكثر المدن جمالاً، بجسورها، ونهرها الذي يجري عبر الشوارع كلها». وهو وصفٌ ينطبق تماماً على تلك المدينة التي رأيتها؛ وذلك لأن دلفت قد ظلت حتى الآن تشبه إلى حدٍّ كبير ما كانت تبدو عليه خلال القرن السابع عشر، فشوارعها المرصوفة بالحصى الصغير، وجسورها الضيقة كانت مزدانة في ذلك الصباح بسحب شبيهة بالسفن الشراعية الضخمة التي تسوقها إلى الأمام هبات ريح تأتي من بحر الشمال، ومن مسافة عدة كيلومترات ناحية الجنوب الغربي، وقد كانت الشمس التي تنعكس أشعتها على القنوات، تضيء الواجهات الحجرية للمنازل.

فعلى غير شاكلة مدينة البندقية (فينيسيا)، المدينة ذات القناة البالغة الكبر والضخامة، التي بناها الإيطاليون فوق سطح البحر من خلال دحرجتهم لكتل الأخشاب، ودفعها إلى الأمام في مجرى الماء نحو المرتفعات الرملية التي كونت بفعل عمليات المد والجزر، على غير شاكلة ذلك، فإن الهولنديين قد بنوا دلفت تحت سطح البحر، حيث أقيمت الجدران الحجرية بجوار بحر الشمال لصد مياهه، ثم حفرت فتحات وقنوات لتصريف مياه المستنقعات التي تكونت هناك.

يكمن تاريخ مدينة دلفت في اسمها؛ فكلمة delven هي الكلمة

الهولندية التي تشير إلى عملية «الحفر»، وما زالت القناة الرئيسية التي تجري عبر الجانب الغربي كله من المدينة تسمى Aude Delft؛ أي القناة، أو المصرف المائي القديم في مدينة دلفت.

أما ذكريات القرن السابع عشر فهي حاضرة على نحو خاص في الكنيستين الكبيرتين في مدينة دلفت. ففي ميدان السوق الكبير هناك الكنيسة الجديدة Nieuwe Kerk، وقد سميت كذلك لأنها أُسّسَتْ بعد قرنين من الزمان من بناء الكنيسة القديمة بجوار قناة دلفت القديمة.

وقد بنيت هاتان الكنيستان وزخرفتا ككنائس كاثوليكية (بالطبع بنيت الكنيسة القديمة في القرن الثالث عشر، والجديدة في القرن الخامس عشر) مع أنهما لم تظلا كذلك. فالضوء الذي كان يأتي عبر الزجاج الرائق الصافي في نوافذ هاتين الكنيستين، ويضيء أرجاءهما الداخلية، قد حول ذلك التاريخ القديم لصالح ما سيأتي لاحقاً، ألا وهو التخلص التخلص من المذهب الكاثوليكي –بما تضمنه ذلك من إزالة للزجاج الملون من نوافذ الكنائس خلال ستينيات القرن السادس عشر– وهو الخلاص الذي مثّل جانباً مهماً من كفاح الهولنديين للاستقلال عن الحكم الإسباني، وأيضاً ذلك الانتشار الكبير لأماكن التجمعات البروتستانتية ذات الولع بكل ما هو مدني. وقد كانت أرضيات تلك الكنيستين تنتمي على نحو مؤكد تماماً إلى القرن السابع عشر، ومن ثم فإنها غُطّيَتْ بنقوش تميز قبور أكثر مواطني دلفت ثراءً خلال القرن السابع عشر، فقد كان الناس، في تلك الأيام، يأملون أن يدفنوا على مقربة بقدر الإمكان من مكان مقدس ما، وهكذا فإنهم بدلاً من أن

يدفنوا بجوار كنيسة ما، كان الأفضل بالنسبة إليهم أن يدفنوا تحت أرضها. وتظهر كثير من اللوحات المتعلقة بالأماكن الداخلية لهاتين الكنيستين، حجراً مبلطاً مرصوفاً مرتفعاً، وأحياناً حفار قبور يمارس عمله، في حين يقوم أناس آخرون (وكلاب أيضاً) بالانشغال بأمورهم. وتحتفظ هاتان الكنيستان بسجلات تتعلق بأماكن قبور كل عائلة، لكن معظم هذه القبور لا تحوي أية كتابات للذكرى والتذكر، وفقط هؤلاء الذين كانوا قادرين على دفع النفقات كان الشاهد الموضوع فوق قبورهم يحوي أسماءهم ومآثرهم.

كانت الكنيسة القديمة هي التي وقفت داخلها أحدق في حجر نقشت الكتابة فوقه بدقة وعناية، وفي نوع من التقشف والإيجاز، وكان كل ما حوته هو: «**يوهانس فيرمير: 1632–1675**». لقد عثرت مصادفة على البقايا الأخيرة للفنان الذي كنت قد رأيت لوحاته وأعجبت بها في المتحف القومي في هولندا Rijksmuseum أو المتحف الوطني في أمستردام، منذ أيام قليلة مضت. ولم أكن أعرف شيئاً عن دلفت، ولا عن علاقة فيرمير بهذه المدينة ومع ذلك فإن ذلك الفنان أصبح فجأة أمامي، ينتظر أن أنتبه له.

بعد سنوات عدة، عرفت أن ذلك الحجر المبلط المرصوف قد وضع فوق قبر فيرمير عندما مات، ففي ذلك الوقت لم يكن فيرمير إنساناً ذا شأن كبير كي يستحق مثل هذا الحجر المنقوش بالكتابة فوق قبره؛ وإنما كان مجرد رسام حرفي (صانع) لإحدى السلع الجميلة.

لقد كان فيرمير حقيقةً، رئيساً لطائفة الصناع في سانت لوك

St. Luke، كما كان ينعم بمكانة شرفية في قوات الاحتياط النظامية في المدينة، ولكن ذلك التميز كان ينعم به معه أيضاً نحو ثمانية آخرين في الجوار. وحتى لو كان فيرمير قد امتلك بعض الأموال عند وفاته، فإن تلك المكانة لم تكن تؤهله لأن يحظى بشرف نقش اسمه على قبره. فقط في القرن التاسع عشر بدأ هواة جمع اللوحات وأمناء المتاحف في التفكير في لوحات فيرمير البارعة والمحيرة؛ وذلك بوصفها حصيلة لذلك لجهد الذي قام به فنان عظيم، وهكذا فإن ذلك الحجر المنقوش على قبر فيرمير لم يكن قد وضع حتى بداية القرن العشرين، لقد وضع هناك كي يحظى برضى كثير من الناس، ولمن أكن – وقتئذ – من هؤلاء الذين كانوا يعرفون أنه كان هناك، وأنه ينبغي أن يحضروا إليه لتقديم احترامهم وتقديرهم إليه. ولا يحدد هذا اللوح المنقوش معالم المكان الدقيق الذي دفن فيه فيرمير؛ وذلك لأن معظم تلك الأحجار المنقوشة قد انتزعت، ثم أعيدت إلى أماكنها عندما جُدِّدَت الكنيسة ورُمِّمَتْ بعد أن التهمها حريق ضخم عام 1921. إن كل ما تعرفه الآن هو أن بقايا (جثمان) فيرمير موجودة هناك، في مكان ما، تحت تلك الكنيسة. لم يبق شيء آخر من حياة فيرمير على قيد الحياة في دلفت. ونحن نعرف الآن أنه ترعرع في حانة أبيه، قبالة ميدان السوق الكبير، وأنه عاش معظم حياته في بيت زوجة أبيه، ماريا ثينز Maria Thins، في الخندق بجوار ذلك الجدار الحجري القديم الطويل، محاطاً بمجموعة من الأطفال الصغار الدائمي التوالد والنمو وهو يرسم لوحاته في الدور العلوي، وأنه مات فجأة في الثالثة والأربعين من عمره، حيث كانت

ديونه متراكمة، وإلهامه المتأجج قد نضب، وقد هدم منزله خلال القرن التاسع عشر، ولم يبق شيء مادي حقيقي يدل على حياة فيرمير هناك في «دلفت».

هكذا فإن الطريقة الوحيدة التي يمكن أن ندخل من خلالها إلى عالم فيرمير هي من خلال لوحاته، لكن هذا لم يكن ممكناً من خلال دلفت وحدها. فمن بين تلك اللوحات الخمس والثلاثين التي بقيت من أعماله (اللوحة السادسة والثلاثون سرقت من متحف إيزابيلا ستيوارت جاردنر في مدينة بوستون عام 1990 وما زالت مفقودة) لم يبق شيء منها في دلفت. لقد بيعت كلها عقب موته، أو أجريت عليها المزادات، هنا وهناك، فأصبحت الآن متناثرة عبر سبع عشرة قاعة عرض مختلفة تمتد من مانهاتن إلى برلين، واللوحات الثلاث الأقرب إلى دلفت موجودة في موريتشيوس Mauritshuis، بقاعة الصور الملكية في «لاهاي» The Hague. وهذه اللوحات ليست بعيدة تماماً عن دلفت، حيث كانت لاهاي تقع على بعد أربع ساعات عندما كان يتم الانتقال إليها بواسطة البَرَجْ Barage أو الزورق النهري البخاري خلال القرن السابع عشر، أما الآن، فإنها على بعد عشر دقائق فقط بالقطار، لكن هذه اللوحات لم تعد أيضاً موجودة في ذلك المكان الذي رسمها فيه، ومن ثم فإنه من أجل أن ترى فيرمير ينبغي أن تكون في مكان آخر غير دلفت، وإن كنت في دلفت فينبغي ألا تضيع الفرصة أيضاً كي تنظر إلى فيرمير.

يمكن تقديم أي عدد من المبررات لتفسير السبب الذي كان ينبغي أن يظهر من أجله فيرمير من داخل دلفت. وتبدأ تلك المبررات من تقاليد

التصوير المحلي هناك، وتنتهي عند الطبيعة الخاصة للضوء الذي يسقط على المدينة، ولكن هذه المبررات كلها لا تمنحنا الفرصة لأن نستنتج أن فيرمير لم يكن ليستطيع أن ينتج لوحاته بالبراعة نفسها التي أنتجها بها، لو كان قد عاش في مكان آخر في هولندا. إن السياق مهم، لكنه لا يكفي لتفسير كل شيء. وبالطريقة المدّعَمة نفسها، فبإمكاني أن أطرح أي عدد من المبررات لتفسير ذلك السبب الذي جعل تاريخاً عالمياً خاصاً بالتحولات عبر الثقافية في حياة القرن السابع عشر لا بد أن يبدأ من دلفت. لكن هذه المبررات لن تقنعك بأن دلفت كانت المكان الوحيد الذي ظهرت فيه تلك البداية. وحقيقة الأمر هي أن لا شيء قد وقع فأحدث تغيراً خاصاً في مسار التاريخ هناك، ما عدا -ربما- ما يتعلق منه بتاريخ الفن، وأنا لن أحاول أن أزعم ذلك بطريقة أخرى. لقد بدأت ببساطة من دلفت؛ لأنه قد حدث مصادفة أنني سقطت من فوق دراجتي ذات مرة هناك، وكذلك لأنه قد حدث مصادفة أن فيرمير قد عاش هناك، وحدث مصادفة كذلك أنني قد استمتعت بالنظر إلى لوحاته. وبما أن دلفت لن تعوق نظرتنا المشهدية إلى عالم القرن السابع عشر، فإن هذه المبررات جيدة، مثل غيرها، لاختيار دلفت مكاناً نقف عنده، ونتأمل المشهد.

افترض أنني اخترت مكاناً آخر أحكي من خلاله هذه القصة، ألا وهو: مدينة شانغهاي مثلاً، وذلك لأن رحلاتي قد أخذتني إلى هناك مرات كثيرة بعد زيارتي الأولى إلى دلفت، وقادتني لأن أصبح أحد المؤرخين لتاريخ للصين.

ربما سيكون هذا الأمر متفقاً مع التخطيط الخاص بهذا الكتاب حقيقة؛ وذلك لأن أوروبا والصين هما قطبا المجال المغناطيسي للتجاذب المشترك الذي أصفه هنا. فإلى أي حد كان اختيار (شانغهاي) بدلاً من دلفت سيغير من طبيعة القصة التي أوشك أن أحكيها؟ من المحتمل أن ذلك لن يغير الأمر بقدر كبير، فقد كانت شانغهاي إلى حد ما، تشبه دلفت حقاً، إذا أردنا أن ننظر إلى تلك التشابهات الموجودة فيما وراء تلك الاختلافات الواضحة بينهما. فمثلها مثل دلفت، كانت شانغهاي قد بنيت على أرض كانت ذات مرة موجودة تحت سطح المحيط، وهي تعتمد كذلك على قناة مائية يتم التحكم في المياه الخاصة بها عن طريق بوابة لتصريف مياه المستنقعات التي تقوم عليها. واسم شانغهاي والذي يمكن ترجمته على أنه: بجوار المحيط (أو على شاطئ المحيط) هو في واقع الأمر اختصار للتعبير shanghaibang الذي يعني مصرف المحيط الأعلى. وقد كانت شانغهاي كذلك مدينة محاطة بجدار عازل (وقد أُحيطت بذلك الجدار في منتصف القرن السادس عشر وذلك من أجل حمايتها من المغيرين الذين كانوا يأتون من اليابان).

وشانغهاي أشبه بشبكة متقاطعة من القنوات والجسور، كما أن لها منفذاً مائياً مباشراً على المحيط، وقد بني مركز التسويق الخاص باقتصاد زراعي مزدهر – ومنتج – على أرض استصلحت من قبل، واعتمد ذلك السوق، وأصبح المكان الذي يربط شبكة من الصناع المهرة الذين يقومون بالإنتاج للسلع الماهرة في المناطق الريفية المجاورة (المنسوجات القطنية مثلاً).

لم يكن هناك، في شانغهاي، طبقة من برجوازيي المدينة الذين رسمهم فيرمير، والذين لأجلهم أنتج لوحاته أيضاً، ولا حتى من المستوى نفسه من الثقافة والحنكة، وقد عبر أكثر أبناء شانغهاي نبوغاً (وكان متحولاً إلى الكاثوليكية)، تسو كوانغ تشي Xu Guangqi، عن تذمره وشكواه في خطاب كتبه عام 1612 قال فيه «إن شانغهاي هي مكان لكل أنواع السلوك الفجة أو المبتذلة». ومع ذلك فإن عائلات شانغهاي الموسرة كانت مندمجة في ممارسات خاصة بالشراء المنتظم والاستهلاك الواضح، اللذين اشتملا على الشراء والعرض للوحات الفنية، وقد كانت تلك السلوكيات شبيهة إلى حد ما بما كان يقوم به التجار في دلفت.

وهناك اتفاق آخر مثير للاهتمام بين ما كان يحدث في دلفت وما كان يحدث في شانغهاي، ويتمثل ذلك في أن شانغهاي كانت تمثل مسقط رأس دونغ تشيتشانغ Dong Quichang، أعظم مصور وفنان حفرٍ في عصره، فهو الذي حول تقاليد فن التصوير، ووضع الأسس التي قام عليها الفن الصيني الحديث، ولن يكون ذا معنى بالنسبة إلينا أن نطلق على دونغ لقب «فيرمير الصين»، ولا على فيرمير لقب «دونغ هولندا»، لكن التماثل بينهما لافت للانتباه على نحو يصعب معه أن نتجاهله.

قد تبدو أوجه التشابه بين دلفت وشانغهاي سطحية، وخاصة عندما نضع الفروق بينهما في حسباتنا، فهناك – أولاً وقبل كل شيء ذلك الفارق الخاص بالوزن النسبي؛ فعدد سكان دلفت في منتصف القرن السابع عشر كان خمسة وعشرين ألف نسمة فقط، وكان ترتيبها – في

هذا السياق- السادسة بين المدن الهولندية، في حين كانت شانغهاي، وقبل تلك المجاعة التي اجتاحتها، والدمار الذي لحقها، في أربعينيات ذلك القرن - قد سجلت عدداً من سكان المدن الذين استحقوا المساعدة يفوق عدد سكان دلفت مرتين، وعدداً من سكان الريف أيضاً يصل إلى نصف مليون نسمة.

والأكثر دلالة، كذلك، ما يتعلق بالفروق في السياقات السياسية لسكان هاتين المدينتين؛ فقد كانت دلفت قاعدة مهمة ومركزاً لجمهورية جديدة ناشئة نجحت في التخلص من إمبراطورية هابسبرج الإسبانية التي كانت مسيطرة عليها، في حين كانت شانغهاي مقراً إدارياً يقع ضمان نطاق السيطرة الآمنة المطمئنة لإمبراطوريتي منغ وشنغ.(1)

كذلك ينبغي التمييز بين دلفت وشانغهاي في ضوء سياسات الدولتين التي نظمت التفاعلات مع العالم الخارجي؛ فقد كانت الحكومة الهولندية منغمسة على نحو شديد النشاط في بناء شبكة علاقات تجارية تمتد حول العالم كله، في حين كانت للحكومة الصينية سياسة من قبيل: افتح ثم أغلق بسرعة، ثم افتح وبسرعة أغلق، أي سياسة تقوم على أساس الاتصال المحدود والتجارة المقيدة مع العالم الخارجي (وهي سياسة خضعت للجدال الشديد والنقاش داخل الصين نفسها).

إن هذه الفروق شديدة الدلالة والأهمية، ولكني وإن كنت قد مررت بهذه الفروق مرور الكرام، فإن ذلك مرجعه أنها فروق لن تؤثر كثيراً في هدفي الرئيس، والذي يتمثل في التقاط ذلك الإحساس أو المعنى الخاص بالعالم الأكبر، والذي كانت دلفت وشانغهاي جزأين منه، وإنه

عالم كان الناس فيه ينسجون شبكة من العلاقات والتبادلات لم تحدث هكذا من قبل. هكذا تخبرنا هذه القصة، وإلى حد كبير، بالأمر نفسه، بصرف النظر عن المنطقة التي يبدأ المرء عندها في سرد هذه القصة.

إن اختيار دلفت، بدلاً من شانغهاي له علاقته بما بقي حياً واستمر منهما، فعندما سقطتُ من فوق دراجتي في دلفت، خطوت تواً فدخلتُ ذاكرة خاصة بالقرن السابع عشر. ولن يكون الأمر كذلك إذا سقط المرء من فوق دراجة هناك في شانغهاي، حيث الماضي قد طُمِسَ أو مُحِيَتْ آثاره على نحو عميق، أولاً بفعل النزعة الاستعمارية الخارجية، ثم بفعل النزعة الاشتراكية للدولة أيضاً، ثم بتأثير النزعة الرأسمالية العالمية حديثاً، فهناك لن نجد أبواباً يمكن فتحها والدخول من خلالها إلى عالم سلالة المنغ الحاكمة إلا فوق رفوف المكتبات.

إن قطعة صغيرة الذاكرة تظل باقية في تلك الشوارع القليلة الموجودة حول يويوان Yu Yuan، حديقة الراحة The Garden of Ease، في قلب ما كان عادة للمدينة القديمة، وقد أُنشئت تلك الحديقة عند نهاية القرن السادس عشر كهدية تقاعد للأب البنّاء المؤسس، وحولها نمت وتطورت منطقة عامة صغيرة، وقد كان من بين الأشياء الكثيرة التي استخدمت فيها أن كان الفنانون يأتون إليها لتعليق أعمالهم وبيعها، وهكذا بنيت هذه المنطقة بعناية كبيرة أيضاً فيما بين تلك القرون المتخللة الوسيطة.

لا يوجد سوى القليل الذي يمكن أن ينم عنه أو يكشفه ما كان موجوداً خلال حكم سلاسة «المنغ».

لكني أبدأ قصتي من دلفت بدلاً من شانغهاي لسبب محدد: ذلك

الملف الشخصي غير العادي لتلك اللوحات حول دلفت التي رسمها بوهانس فيرمير، فلم يترك دونغ تشيتشانغ مثل هذا الملف الشخصي من اللوحات حول شانغهاي؛ تلك التي غادرها سريعاً لحظة تلقيه عرضاً كي ينتقل إلى عاصمة المقاطعة. أما فيرمير فظل في موطنه ورسم ما رآه.

وعندما نتجول بأعيننا فوق لوحات فيرمير، نكون وكأننا ندخل عالماً حياً يزخر بالبشر الحقيقيين، هؤلاء الذين تحيط بهم الأشياء التي تضفي معنى خاصاً على وجودهم في بيوتهم أو في موطنهم الأليف. وتحمل تلك الشخصيات، وكذلك الأشكال الملغزة الغامضة في اللوحات، أسراراً لن نستطيع أبداً معرفتها؛ لأن ذلك هو عالمهم وليس عالمنا. لكن فيرمير قد رسم هذه الشخصيات أيضاً بطريقة تبدو معها وكأنها تمنحنا ذلك الإحساس بأننا دخلنا مكاناً حميماً، وحيث كل شيء «يبدو» وكأنه كذلك.

وقد توافر له «التحكم» في تقنية أو فنية التصوير الخاصة به، وإلى الحد الذي كان عنده قادراً على أن يخدع العين حتى تعتقد أن قماشة الرسم (الكانفاس) كانت مجرد نافذة يمكن للمشاهد أن ينظر من خلالها مباشرة إلى تلك الأماكن التي صورها، وكما لو كانت حقيقية، ويطلق الفرنسيون على مثل هذا الخداع في فن التصوير الخداع البصري trompe l'oeil، أو خداع العين.

في حالة فيرمير، كانت الأماكن حقيقية، لكن ربما ليس بالطريقة نفسها تماماً التي رسمها هنا الفنان من خلالها، فلم يكن فيرمير – أولاً وقبل كل شيء– مصوراً فوتوغرافياً[3]؛ بل كان فناناً إيهامياً حاول أن

يدخلنا ويقربنا من عالمه، ذلك العالم الخاص بعائلة من الطبقة المتوسطة كانت تعيش هناك في دلفت، عند منتصف القرن السابع عشر. وحتى لو كانت دلفت لا تبدو – في مجملها– هكذا، كما صورها فيرمير، فإن تلك الصور (الفاكسية) أو السريعة المرسلة منه عبر لوحاته، تُعدُ – مع ذلك– صوراً مطابقة بدرجة كبيرة بالنسبة إلينا، وكافية أيضاً كي ندخل من خلالها ذلك العالم، ونفكر كذلك فيما نجده فيه.

إننا سوف نتريث ونبطئ خطونا – في هذا الكتاب– متأملين خمس لوحات لفيرمير، ولوحتين أخريين لفنانين زميلين له في دلفت، هما هندريك فان دير بيرش Henderik Van der Bursh، وليونارت بريمر Leonaert Braemer، ثم لوحة أخرى على طبق من الخزف، وهذه كلها تبدو أنها كانت علامات مناسبة للحياة في دلفت.

وقد اخترت هذه اللوحات الثماني لا من أجل ما تكشفه أو تبديه من أمور، بل من أجل تلك التلميحات والإشارات التي تتضمنها حول تلك القوى التاريخية الأوسع التي كانت تكمن وتتوارى خلف تلك التفاصيل، وإنه عندما نقتنص تلك التفاصيل أو نلتقطها، سوف نكتشف روابط خفية لها مع أشخاص لم تذكرها تلك التفاصيل صراحة، ومع أماكن لم تعرضها تلك اللوحات على نحو واضح، وحيث تعد العلاقات أو الروابط التي تنم عنها تلك التفاصيل مجرد علاقات ضمنية، لكنها علاقات موجودة هناك أيضاً على نحو ما.

ولو كانت هناك صعوبة ما تمنعنا أن نرى تلك الروابط أو العلاقات مباشرة؛ فذلك لأنها كانت علاقات جديدة؛ فالقرن السابع عشر لم يكن،

بدرجة كبيرة، حقبة للاتصالات الأولى، بقدر ما كان حقبة للاتصالات الثانية، وقد حدث ذلك حين تحولت مناطق «المواجهة الأولى» إلى أماكن للقاءات المتكررة. لقد أصبح البشر الآن يصلون على نحو منظم من مكان ما ويرحلون إلى مكان آخر، ومع ذهابهم يحملون معهم أشياء، ويعني ذلك أيضاً أن الأشياء كانت تصل في النهاية إلى أماكن أخرى غير التي صنعت فيها، ومن ثم كانت ترى في تلك الأماكن الجديدة للمرة الأولى، ذلك، ففي التو واللحظة، وعلى نحو مناسب، انطلقت التجارة.

ولم تعد عملية نقل الأشياء تعتمد على مسافرين عابرين، فقد كانت السلع تُنْتَج من أجل توزيعها وبيعها، وقد كانت هولندا واحدة من تلك الأماكن التي تجمعت فيها هذه السلع الجيدة وتركزت، وكانت أمستردام الموضع المحوري لمثل هذه التجمعات التي جذبت انتباه الفيلسوف الفرنسي رينيه ديكارت. ففي عام 1631 كان ديكارت في منتصف فترة نفيه الطويلة في هولندا، فلقد طردته كنيسة فرنسا الكاثوليكية بسبب بعض أفكاره المثيرة للجدل. وقد وصف ديكارت أمستردام في تلك السنة بأنها «مستودع لكل ما هو ممكن ومحتمل»، فأي مكان على الأرض كما تساءل «يمكن للمرء اختياره بحيث يجد فيه كل تلك السلع وكل هذه الغرائب المثيرة للاهتمام التي يريدها، وكما هي متوافرة في تلك المدينة». وقد كانت أمستردام فعلاً وعلى نحو خاص مكاناً مناسباً كي يجد المرء فيه «كل تلك السلع والغرائب المثيرة التي يريدها»، ولأسباب ستصبح واضحة عندما نتقدم عبر هذا الكتاب.

وقد كانت تلك الأشياء تأتي إلى دلفت، وإن بأعداد قليلة، لكنها كانت تظل تأتي، وربما وصل عدد قليل منها إلى أهل ذلك البيت الذي كان فيرمير يعيش فيه على نحو مشترك مع والدة زوجته، ماريا ثاينز، ويمكننا أن نحكم بذلك من خلال حصيلة الممتلكات التي عرضتها زوجته كاترينا بلونز خلال العملية الخاصة بإشهار إفلاسه بعد وفاته. ولم يكن فيرمير ثرياً بدرجة كافية تمكنه من امتلاك أشياء كثيرة نفيسة، لكن تلك الأشياء التي امتلكها تكشف أيضاً شيئاً من مكانته الخاصة في ذلك العالم. إنها تلك الأشياء التي سنراها نشيطة وفعالة في لوحاته أيضاً.

ومن أجل إضفاء الحياة على القصص التي أريد سردها في هذا الكتاب، فإنني سأطرح تساؤلاتي الخاصة بها من خلال فحصي للوحات، أو بالأحرى على نحو دقيق، فحص الأشياء الموجودة في اللوحات. ويتطلب هذا الأمر منا التعليق أو الإيقاف المؤقت لبعض عاداتنا التي اكتسبناها عندما ننظر إلى الصور، ومن أبرز تلك العادات ذلك الميل نحو عدّ اللوحات نوافذ مفتوحة على نحو مباشر، على زمان آخر، ومكان آخر، فمن الوهم المضلل أن نعتقد أن لوحات فيرمير هي صور مأخوذة على نحو مباشر من الحياة في القرن السابع عشر في دلفت. فاللوحات لا «تُؤخذ» (أو تلتقط) كما هي حال الصور الفوتوغرافية؛ وإنما اللوحات «تصنع» على نحو متسم بالعناية والتروي، وليس الهدف من اللوحات أن تقدم واقعاً موضوعياً، بقدر ما يكون الهدف من ورائها أن تقدم وتعرض لنا سيناريو خاصاً بها. وهذا الاتجاه هو الذي يؤثر في الطريقة التي ننظر من خلالها إلى الأشياء الموجودة

في اللوحات؛ فعندما نعتقد أن اللوحات أشبه بنوافذ، فإننا سنتعامل مع الأشياء التي فيها على أنها تفاصيل ذات بعدين يمكنها أن تكشف عن أنه: إما أن الماضي كان مختلفاً عمّا نعرفه اليوم، وإما أنه هو نفسه كما نعرفه اليوم، وكما لو كانت هنا صورة فوتوغرافية قد التقطت له، إننا هنا، نرى قدحاً من القرن السابع عشر ونفكر: هذا ما كان عليه القدح في القرن السابع عشر، وأيضاً: ألا يشبه ذلك القدح على نحو ملحوظ هذه الأقداح الموجودة في أيامنا هذه؟ هنا لا نميل إلى التفكير في أمور من مثل: ما الذي كان يقوم به قدح ما هناك؟ أو: ما الذي كان يستخدم فيه؟ ما الذي صنع منه؟ من أين جاءت المادة التي صنع منها؟ لماذا اختار الفنان أن يضمن في لوحته، بدلاً من أي شيء آخر، أحد أكواب الشاي، أو إناء زجاجياً مثلاً؟

وعندما نحدق في كل لوحة من اللوحات السبع التي يزدان بها هذا الكتاب، أريد أن نطرح أسئلة مثل هذه، إننا يمكن أن نظل نستمتع بمسرات سطح اللوحات، لكني أريد أن نغمر أنفسنا أيضاً تحت ذلك السطح ونغوص، وننظر جيداً إلى الأشياء بوصفها علامات على الزمن والمكان اللذين صنعت فيهما تلك اللوحات. لقد تسللت هذه العلامات إلى الصور بينما كانت تنتج على نحو غير واعٍ إلى حد كبير، ومهمتنا الأساسية هنا هي أن نستخرج منها ما نريده، وبرفق، وإلى الدرجة التي نستطيع عندها أن نستخدم تلك اللوحات كي تروي لنا، ليس فقط قصتها الخاصة، ولكن قصتنا نحن أيضاً. وكما قال الناقد الفني جيمس الكنز James Elkins فاللوحات ألغاز نجد أنفسنا مجبرين على حلها

من أجل أن نخفف عن أنفسنا ونستريح من كل تلك التعقيدات التي تحيرنا، والخاصة بهذا العالم الذي نجد أنفسنا فيه، وكذلك من أجل أن نتحرر من بعض مظاهر الحيرة والفقدان لليقين، المتعلقة بكيف حدث أننا وجدنا أنفسنا هناك.

وقد حشدتُ هذه اللوحات الهولندية السبع للوفاء بهذه الخدمة؛ وذلك لأننا لو فكرنا في الأشياء الموجودة في اللوحات، ليس بوصفها مهمات أو ملحقات مساعدة Props خلف النوافذ، بل بوصفها أبواباً ينبغي فتحها، فإننا سوف نجد أنفسنا في طرق وممرات تقودنا نحو اكتشافات مهمة حول عالم القرن السابع عشر لم تكن تلك اللوحات في ذاتها تقر بها، وهي اكتشافات ربما كان الفنان نفسه أيضاً غير واع بها. فخلف تلك الأبواب تمتد الممرات غير المتوقعة. والطرق الفرعية الغامضة التي تربط حاضرنا المثير للارتباك – بدرجة ربما لم نكن قادرين على التكهن بها، وبطرائق قد تصيبنا بالدهشة – بماضٍ كان أبعد ما يكون عن البساطة، وإنه إذا كان هناك موضوع رئيسٍ متكرر يمتد عبر ماضي دلفت، المعقد خلال القرن السابع عشر، فهو أن كل شيء نفحصه في تلك اللوحات، سوف يكشف لنا عن أن دلفت لم تكن وحدها؛ وإنما كانت في عالم يمتد إلى خارجها، ويصل نحو العالم كله.

دعنا نبدأ بلوحة «منظر من دلفت» [انظر اللوحة رقم 1]، إذ تعد هذه اللوحة غير عادية ضمن مجموعة الأعمال الفنية التي تركها فيرمير. فمعظم أعمال فيرمير يتجسد ما يحدث فيها في الغرف الداخلية، وحيث تُزَيّن تلك الغرفة بعناية بموضوعات متفرقة من حياة الفنان العائلية.

أما لوحة «منظر من دلفت» فهي مختلفة تماماً، إنها واحدة من لوحتين فقط من اللوحات الباقية لهذا الفنان التي جسد فيها مناظر خارجية، وهي أيضاً المحاولة الوحيدة فقط من محاولاته لتمثيل حيز مكاني كبير، فالأشياء- وحتى البشر - تتضاءل هنا في حجمها ودلالاتها عندما توضع في مواجهة أو مقابل تلك البانوراما (المشهدية) الواسعة للمباني، وكذلك تلك السماء الفسيحة الممتدة أعلاها.

وهذه اللوحة على كل حال هي أي شيء آخر، عدا أن تكون منظراً طبيعياً أصيلاً، إنها منظر خاص لـ«دلفت» كما تبدو من موضع مميز للنظر إليها موجود مباشرة خارج الجهة الجنوبية من المدينة يظهر شمال حيث يتم الإطلال عليها من كولك Kolk أو عبرها، وهي مرفأ (ميناء) دلفت النهري، وعبر سطح المياه الذي يأخذ شكلاً مثلثياً كما يظهر في أمامية اللوحة، هناك بوابات شايدمان schiedam وروتردام التي تحيط بمصب نهر أو قناة دلفت، تلك التي تشق طريقها بعد ذلك إلى كولك، وخلف البوابات توجد المدينة نفسها، حيث ينجذب انتباهنا نحو برج الكنيسة الجديدة الذي تضيئه الشمس، وهنا يُرى البرج خالياً من الأجراس. ومن المعروف أن الأجراس قد بدأ تعليقها في البرج في مايو 1660، ومن ثم يمكننا أن نرجع تاريخ تلك اللوحة إلى ما قبل تلك اللحظة مباشرة.

وعندما نتحرك ناحية اليسار يمكننا أن نرى القبة أعلى بوابة شايدام، ثم نرى البرج الأصفر المخروطي الشكل الخاص بمصنع «جعة الببغاء»، وقد كانت دلفت مركزاً لصناعة الجعة في القرن السادس عشر، ثم إنه

عندما نتطلع، في فضول، فننظر على نحو جانبي داخل المشهد، فإننا نرى قمة برج الكنيسة القديمة.

هذه كانت دلفت في ربيع عام 1660. لقد وقفتُ أمام هذه اللوحة، للمرة الأولى، عندما زرتُ موريشيوس بعد خمس وثلاثين سنة من رسوِّي في دلفت، لقد ذهبت إلى هناك ولدي توقع أن أرى لوحة الفتاة «ذات القرط اللؤلؤي» Girl with a pearl Earring [4]. وقد حدث ذلك فعلاً، وقد عرفت خلال ذلك، بوجود أعمال أخرى لفيرمير معروضة كذلك هناك، ولم أكن أعرف تلك اللوحات، حتى تحولت بجسدي متجهاً نحو إحدى الغرف الجانبية في الطابق الأعلى، وهناك وجدت نفسي في مواجهة «منظر من دلفت».

وقد كانت اللوحة أكبر مما توقعت، محتشدة بالتفاصيل، وأكثر تركيباً من حيث المعالجة للضوء والظل مقارنة بما قد تكشف عنه المستنسخات الخاصة بها. وبينما كنت أحاول الكشف عن المعاني الغامضة لتلك المباني الموجودة في اللوحة في ضوء ما عرفته من خرائط القرن السابع عشر، بزغت في عقلي فكرة أن دلفت نفسها على بُعد عشر دقائق فقط بالقطار، فلماذا لا أقارن تمثيل فيرمير الفني لها بما هو في الحياة الواقعية، وخاصة إذا كان القرن السابع عشر ما زال ماثلاً هناك كما أعتقد ذلك. هكذا هبطتُ سلالم المبنى بسرعة متجهاً نحو دُكَّان الهدايا، واشتريت بطاقة بريدية خاصة باللوحة، ثم أسرعت متجهاً نحو محطة القطار. وقد تحرك القطار بعد ذلك، بأربع دقائق، وفي لمحة من الزمن كنت قد عدت مرة أخرى إلى دلفت.

وقد كنت قادراً على أن أمشي متجهاً نحو البقعة التي شكل فيرمير من خلالها لوحته. هذا مع أن تلك الهضبة الصغيرة المستديرة الخاصة بالمتنزه العام الصغير، والتي توجد الآن هناك في أمامية المشهد، لم تكن عالية على نحو مناسب كي أقدر منه المشهد على نحو يتفق تماماً مع منظور فيرمير، فلا بد أنه قد رسمه من نافذة ثانوية[5] ومن ثم تظل هناك بعض التعديلات الصغيرة فقط، مطلوبة؛ حتى نطابق على نحو دقيق المشهد الذي كانت عليه في دلفت بما تبدو عليه اليوم، فقد أدت تعاقبات الزمن وتبدلات عمليات تخطيط المدينة، إلى تبدد كثير من تلك التفاصيل التي كانت في المشهد الأصلي. لقد ذهبت بوابات شايدام وروتردام وغيبها الزمن، وكذلك حال مصنع جعة «الببغاء». وحل شارع يعج بالحركة والنشاط محل ذلك الجدار الذي كان يحيط بالمدينة، لكن القمم المستدقة العالية لأبراج الكنيستين القديمة والجديدة استمرت واقفة هناك في مكانها نفسه، وحيث وضعهما فيرمير في لوحته. لم تكن هذه دلفت كما كانت في عام 1660، لكنها كانت وثيقة الصلة، أو قريبة بدرجة كافية بمشهد المصور في «منظر من دلفت»، وقد كانت قريبة منه إلى الحد الذي تستطيع منه أن تخبرني أين كنت. فعندما أنظر إلى تلك اللوحة الآن، ينفتح الباب الأول أمامي بسهولة ويسر. لقد كانت تلك هي دلفت، كما نظرت إليها من ناحية الجنوب. فهل هناك باب ثانٍ؟ نعم. وفي الحقيقة هناك أبواب كثيرة. والمكان الأول الذي سنبحث من خلاله عن باب ثانٍ هو الميناء (أو مرفأ المدينة).

كانت كولك تتولى شؤون الزوارق والسفن التي تسافر من دلفت

وإليها على قناة شاي schie، التي تجري جنوباً نحو شايدام وروتردام على نهر الراين، وهناك في اللوحة بَرْج أو مركب لنقل الركاب مربوط بإحكام إلى رصيف الميناء في الأمام وناحية اليسار. وقد بني هذا المركب بحيث كان طويلاً ضيقاً من أجل أن يتمكن من المرور بسهولة عبر أهوسة (جمع هويس)[3] القناة، وقد كانت تلك المراكب التي تجرها الخيول تعمل وفقاً لجداول ثابتة[6]، والتي تربط دلفت بالمدن الكبرى والبلدان الأخرى عبر جنوب هولندا كله. هكذا كان هناك أفراد كثيرون قد تجمعوا تواً على رصيف الميناء على مقربة من ذلك المركب. وقد كانت ملابسهم وسلوكياتهم توحي بأنهم سيتخذون أماكنهم بين ركاب الدرجة الأولى الثمانية الذين دفعوا ما يتناسب مع جلوسهم في قَمْرة الركاب في القسم الخلفي من ذلك المركب (البَرْج) بدلاً من أن يحتشدوا متدافعين بالمناكب بين ركاب الدرجة الثانية، الذين يجلسون في القسم الأمامي، وقد هبت نسمة هواء فحركت الماء على نحو سريع، لكن لا شيء آخر كان يتحرك على نحو مغاير. وعلى جانبي الميناء الآخرين، كانت كل السفن مقيدة بحبال إلى رصيف الميناء، أو كانت غير صالحة للخدمة الفعلية، وقد كانت الإيحاءات الوحيدة الدالة على غياب القلق وعدم الاستقرار متمثلة في تلك الصورة الظلية المثلومة للمباني، وكذلك ذلك الظل الذي

(3) أهوسة: جمع هويس، وهي منشأة ملاحية تقوم بنقل السفن والمراكب وغيرها من منسوب أو مستوى مياه (مرتفع مثلاً) إلى منسوب آخر (منخفض مثلاً) في المجرى المائي سواء كان ترعة أو نهراً أو قناة مائية. ويكون الاختلاف في مستوى المياه هنا ناتجاً عن وجود اختناق في المجرى المائي بسبب وجود منشآت فيه مثلا الجسور أو القناطر. ويكون الهدف من الهويس تجنب انقلاب السفن بسبب هذا الاختلاف في منسوب المياه.

ألقت به السحب الضخمة المدورة المتراكمة والمعلقة أعلى قمة اللوحة. لكن الأثر الإجمالي، أو الانطباع الإجمالي للوحة، كان أكثر تعلقاً بيوم لطيف ساده الهدوء التام والسكينة. وهناك سفن أخرى مربوطة بحبال إلى رصيف الميناء حول كولك. ثمة سفن نقل وشحن صغيرة مربوطة بإحكام أسفل بوابة شايدام، وهناك أيضاً أربعة مراكب أخرى لنقل الركاب مقيدة بحبال بجوار بوابة روتردام، وهناك مركبان أريد على كل حال أن ألفت أنظارنا إليهما، إنهما المركبان متسعا القاع اللذان رُبط كل منهما بالآخر على الجانب المواجه لليد اليمنى من اللوحة. وهذا الامتداد لرصيف الميناء أمام بوابة روتردام كان هو الموقع الخاص ببناء السفن وإصلاحها في دلفت. وقد فقدت الساريتان الخلفيتان لهذين المركبين، كما أن الساريتين الأماميتين لهما قد ارتطمتا ولحقهما دمار ما، مما يشير إلى أنهما وضعا هناك من أجل إصلاحهما أو ترميمهما. وهناك مراكب لصيد الرنكة (وهو سمك من جنس السردين)، وهي مراكب ذات ساريات ثلاث بُنيت لصيد سمك الرنكة من بحر الشمال. هنا باب آخر ينفتح على عالم القرن السابع عشر، لكن هذا الباب يحتاج إلى بعض الشرح أو التفسير حتى ينفتح أمامنا على نحو مناسب.

فإذا كان هناك ظرف بالغ الأثر قد قام بتشكيل التاريخ الخاص بالقرن السابع عشر أكثر من غيره، فربما كان هو ذلك البرد الذي اجتاح العالم خلال قرن ونصف، ما بين عامي 1550و 1700، حين انخفضت درجات الحرارة عبر العالم كله، ليس بشكل مستمر أو منتظم، ولكنها انخفضت في بقاع العالم كلها، وفي أوروبا الشمالية خاصة كان أول

شتاء قارس حقيقي يندرج ضمن ما سمي «العصر الجليدي الصغير»، هو ذلك الشتاء الخاص بالفتــرة من عام 1564 إلى 1565.

في يناير من عام 1565 رسم المصور الشهير الذي صور عامة البشر الذين كانوا يعيشون في الأقاليم الواطئة، وهو بيتر بروجل الكبير، أول لوحة من لوحات المنظر الطبيعي الخاصة بالشتاء، وفيها صور الصيادين والثلج يتساقط فوقهم، في حين يلعب أفراد آخرون فوق الجليد. وربما اعتقد بروجل أنه كان يرسم ظاهرة غريبة لن تعود، لكنها عادت، فقد رسم بروجل لوحات كثيرة أخرى لمشاهد شتائية تالية جاءت في السنوات التالية لتلك السنة، بادئاً بها ذلك الطراز الفني المميز الخاص بصور الشتاء ومناظره الطبيعية.

لم يرسم فيرمير مشاهد للتزلج على الجليد، لكننا نعرف أنه مر عبر تلك المشاهد؛ وذلك لأنه كان قد اشترى مركب جَمَد Iceboat (7) بشراع من صانع لمثل تلك المركبات في دلفت عام 1660، ومن أجل هذا المركب وافق فيرمير على أن يدفع إلى ذلك الصانع مبلغاً معتبراً قدره ثمانون جيلدراً، لكن توقيت ذلك الشراء لم يكن في صالح فيرمير أبداً؛ وذلك لأن القنوات المائية في هولندا لم يحدث فيها التجمد في الشتاءين التاليين، ثم إن البرد القارس عاد بعد ذلك، وانخفضت درجات الحرارة في شتى بقاع الأرض أيضاً بدرجات واضحة. وفي الصين أهلك الصقيع ما بين عامي 1654 و 1676 بساتين البرتقال والمندرين (اليوسفي) التي كانت تنتج الفاكهة عبر قرون عدة. لم يكن العالم قد اعتاد على مثل تلك البرودة دائماً، لكن تلك البرودة كانت هي الظرف الذي عاش

الناس فيه، وفي ظله، حياتهم، أو أمضوها خلال القرن السابع عشر.

تعني الشتاءات القارسة ما هو أكثر من الإبحار عبر الجليد. إنها تعني مواسم شتاء أقصر، وتربة أكثر بللاً، وارتفاعاً في أسعار الحبوب، وزيادة في الإصابة بالأمراض. إن انخفاضاً في درجة حرارة الجو خلال الربيع بمعدل نصف درجة مئوية يؤخر نمو النباتات نحو عشرة أيام، وانخفاضاً مماثلاً، خلال الخريف، يؤخر عملية حصاد الزرع بمعدل عشرة أيام أخرى، أما في ظل المناخات المعتدلة فقد يكون مثل هذا الانخفاض في درجات الحرارة كارثياً من حيث تأثيره.

ووفقاً لما تقوله إحدى النظريات، فإن الطقس البارد قد يستحضر معه نتيجة أخرى بالغة الضرر، إنه الطاعون، فعبر العالم، وخلال القرن الذي يمتد من خمسينيات القرن السادس عشر إلى ستينيات القرن السابع عشر، تفشى الطاعون على نحو مطرد في المجتمعات المزدحمة بالسكان. هكذا ضرب الطاعون مدينة أمستردام عشر مرات على الأقل فيما بين عامي 1597 و 1664، وفي ضربته الأخيرة قتل ما يربو على أربعة وعشرين ألفاً من سكانها، لكنه ضرب أيضاً جنوب أوروبا على نحو أكثر قسوة. وخلال إحدى جائحاته فيما بين عامي 1576و1577، فقدت فينيسيا خمسين ألفاً من البشر (28٪ من إجمالي سكانها في ذلك الوقت)، وخلال جائحة وبائية كبيرة أخرى فيما بين عامي 1630و1631 قتل الطاعون ستة وأربعين ألفاً آخرين (وهي نسبة تزيد على 33٪ من عدد السكان الذي كان قد تناقص فعلاً قبل ذلك). وفي الصين، فإنه عقب موجة قاسية من الطقس البارد في أواخر ثلاثينيات القرن السابع

عشر، جاء وباء خبيث قاسٍ على نحو خاص عام 1642.

لقد أبطأ المرض من سرعة النهر العظيم فأباد مجتمعات وترك الدولة معرضة للاحتجاجات وعمليات التمرد الأولى التي قام بها الفلاحون، هؤلاء الذين استولوا على بيجين عام 1644، ثم إنها تعرضت بعد ذلك لهجوم جحافل جيوش المانشو المنغولية الذين أسسوا سلالة حاكمة هناك (الشنغ)، وحكموا الصين خلال القرون الثلاثة التالية[8].

لقد أصاب البرد والطاعون ذلك المعدل الذي كان ينمو السكان به عبر العالم بالانبعاج، لكننا عندما نتأمل ذلك الأمر بنظرة استرجاعية، فإنه يبدو لنا الآن، كما لو كان الجنس البشري يعد نفسه وقتذاك للوثبة التي بدأت نحو عام 1700، وهي وثبة لا تزال تحافظ على وضعنا الذي بدأناه من خلالها، أي وسط الهواء.

كان عدد سكان العالم قد تجاوز النصف بليون فعلاً قبل أن يبدأ القرن السابع عشر. وقد كان عددنا كبشر قد تجاوز الستمائة مليون فعلاً مع نهاية ذلك القرن. وقد قدم يوهانس فيرمير وكاترينا بولنز إسهامهما الصغير في النمو الخاص بسكان العالم أيضاً، هذا مع أن ذلك الإسهام لم يكن أمراً سهلاً، فقد واريا الثرى أربعة على الأقل من أطفالهما، وقد دُفِنَ ثلاثة منهم في مقبرة العائلة في الكنيسة القديمة، وليس هناك سجل مكتوب يدلنا على الأسباب التي أدت إلى وفاتهم، على الرغم من تلك الشكوك التي قد تُستثار بداخلنا من أن ذلك الطاعون الذي ذكرناه من قبل، ربما كان سبباً من بين تلك الأسباب التي أدت إلى ذلك الموت. لكن حصيلة من ظلوا على قيد الحياة من تلك الأسرة قد فاقت أيضاً عدد من

فقدتهم؛ وذلك لأن أحد عشر طفلاً آخرين قد بقوا أحياء حتى وصلوا إلى مرحلة الرشد، وقد كان خمسة أو ستة منهم قد ولدوا فعلاً عندما جاء الوقت الذي اشترى فيه فيرمير مركبة التزلج على الجليد تلك، وربما كان قد اشتراها من أجل أن يسعد أطفاله، وكذلك من أجل سعادته هو. وعلى المدى الطويل، فإن أربعة من أطفاله فقط قد تزوجوا بعد ذلك وأنجبوا أطفالاً أيضاً.

وفي العائلات الأخرى غير عائلة فيرمير فإن هؤلاء الذين أخفقوا في أن يتزوجوا، كانوا يندفعون بقوة خارج مجتمعاتهم المحلية باحثين عن العمل والبقاء مستمرين على قيد الحياة. ولقد أصبح الشباب بحارة يبعثون الحياة في السفن، ومستخدمين وموظفي جمارك، يهتمون بشؤون أرصفة الموانئ ومستودعات البضائع، أو السلع، ويقومون على أمر التجارة العالمية الجديدة، كما كان منهم أيضاً الجنود المتطوعون الذين زخرت بهم الجيوش، وقاموا بحماية تلك التجارة كذلك. وقد شكَّل بعض هؤلاء الرجال صغار السن (الشباب) أساس طواقم سفن القراصنة التي نهبت محتويات تجارة النقل البحري الجديدة الصاعدة، أما النساء الصغيرات فقد أصبحن خادمات أو بائعات هوى.

وتعد مراكب صيد سمك الرنكة، كما تظهر في لوحة «منظر من دلفت» علامة على هذا التاريخ، فإحدى الفوائد التي جناها الهولنديون من ذلك الشتاء الذي ساد العالم كانت تلك الحركة الخاصة التي قامت بها أسراب الأسماك الموجودة في بحر الشمال، فاتجهت نحو الجنوب، حيث تعني الشتاءات الأكثر برودة أن الجليد الموجود

في القطب الشمالي قد تحرك أسرع نحو الجنوب، محدثاً تجمداً كبيراً على طول سواحل النرويج، حيث المكان التقليدي الذي استقرت فيه تجمعات سمك الرنكة، وقد تحركت هذه التجمعات جنوباً نحو بحر البلطيق، وهناك أصبحت تحت سيطرة الصيادين الهولنديين. ولعل هذا هو السبب الذي يجعلنا نرى مراكب صيد أسماك الرنكة تلك، راسية خارج دلفت في تلك اللوحة.

هكذا قال أحد الباحثين البارزين في تاريخ الفن أيضاً إن الرخاء الذي نعم به الهولنديون، في النصف الأول من القرن السابع عشر، وهو الرخاء نفسه الذي جسده فيرمير في لوحاته التي صور خلالها مشاهد بيتية داخلية – قد حدث بسبب ذلك المورد المربح غير المتوقع، فلقد منح صيد سمك الرنكة الهولنديين دعماً مالياً كانوا قادرين على استثماره بعد ذلك في مشروعات أخرى، وخاصة ما يتعلق منها بصناعة الشحن بالسفن والتجارة البحرية. إن مركبي صيد سمك الرنكة الاثنين في اللوحة – هما دليلا فيرمير وشاهده على ذلك التغير في المناخ.

وهناك باب آخر موجود في لوحة «منظر من دلفت» يمكن أن نفتح من خلاله القرن السابع عشر أيضاً؛ لننظر ثانية إلى برج الكنيسة القديمة الأقرب إلى برج قلعة «مصنع جعة الببغاء»، وسنرى سطحاً طويلاً يمتد عبر خط مستقيم نحو الجانب الأيسر من اللوحة (ولو كان فيرمير قد واصل عمله في اللوحة على نحو أبعد قليلاً ناحية اليسار، فإنه كان لا بد أن يضمن لوحته تلك الطاحونة الهوائية الضخمة الموجودة في ذلك الركن الخاص من جدار المدينة الذي يتم عنده ضخ الماء واستخراجه من

تلك القناة، وقد كان ذلك سيعمل على تغيير البنية الأساسية للوحة).

وقد اتهم نقاد سابقون فيرمير بتبسيط الصورة الظلية للمباني(9)، كما تبدو على خلفية السماء؛ من أجل ألا ينتقص شيئاً من قيمة العناصر الأخرى في اللوحة.

وعندما ذهبت كي أقف عند الجانب البعيد من كولك، نظرت إلى خط السقف، ولم تكن الأسقف التي رأيتها تشبه في تكوينها تماماً ما رسمه فيرمير، لكن وعلى الرغم من عمليات الإضافة والحذف المعمارية التي حدثت هناك منذ عام 1660، كان بمقدوري أن أرى ما كان يرسمه ويصوره، إنه السقف أو السطح الخاص بمستودع سلع كبير يتسع ليشمل الكتلة الكلية الممتدة من The Aude Delft حتى ذلك الخندق المائي على الجانب الغربي من المدينة. لقد كان ذلك مستودع سلع شركة الهند الشرقية، حيث كنت قادراً على تحديد ذلك من خلال تجوالي عبر قناة دلفت، وتفحصي الواجهات الأمامية للمبنى. لقد كان ذلك هو المقر الخاص بغرفة دلفت الخاصة، أو فرعها من شركة الهند الشرقية الهولندية Verenigde Oostindiscke Compagnie (VOC)، وقد كان ذلك هو المركز الخاص بشبكة واسعة من التجارة العالمية التي ربطت بين دلفت والشرق.

وتمثل شركة الهند الشرقية الهولندية، أو ال VOC – كما عرفت اختصاراً – بالنسبة إلى الرأسمالية الاندماجية ما تمثله طائرة بنجامين فرنكلين الورقية بالنسبة إلى علم الإلكترونات الحديث، أي إنها تمثل البداية لشيء له أهمية بالغة لم يكن ممكناً التنبؤ بها – أي هذه الأهمية –

عندما ظهرت تلك البداية أول مرة، وقد تشكلت أول شركة مساهمة مشتركة عالمية كبيرة، وهي شركة الهند الشرقية الهولندية عام 1602، وذلك عندما ألزمت الجمهورية الهولندية شركات التجارة المتعددة أن تحث خطاها وتندفع نحو الحصول على قصب السبق والأفضلية بالتجارة الآسيوية المتزايدة، وأن تندمج معاً في منظمة تجارية واحدة وقد كانت العصا هنا، هي الاحتكار، فالمشروعات التجارية التي لم تلتحق بشركة الهند الشرقية الهولندية لم يكن يسمح لها بالتجارة في آسيا، أما الجزرة فكانت فوائد وأرباحاً غير محدودة لم تكن الدولة تتدخل فيها، ما عدا حصولها على حصة منخفضة من ضرائب الأرباح الموزعة التي تجنيها تلك الشركة.

وقد كدح التجار بشدة في التزامهم بهذا الترتيب، وبزغت شركة الهند الشرقية الهولندية كشركة واتحاد فيدرالي يجمع بين ست غرف تجارية إقليمية هي: غرفة أمستردام، التي أسهمت بمقدار النصف من رأس المال، ثم غرفتا هورن Hoorn وأنفويزين Enkhuizen في شمالي هولندا، ثم ميدلبرج Middelburg عند مصب نهر الراين زيلاند Zealand في الجنوب، وأخيراً روتردام ودلفت في قلب هولندا ووسطها. وهكذا فإن ما كان يبدو من النظرة الأولى تسوية، أو حلاً وسطاً غير فعال – من خلاله تنظم الغرف المستقلة رأسمالها الخاص وعملياتها كما تلتزم بالولاء بخطوط موجهة وسياسات موحدة – قد تحول إلى أن يصبح ابتكاراً ألمعياً رائعاً، ولم تكن إلا دولة فيدرالية فريدة مثل الجمهورية الهولندية هي القادرة على الحلم حينذاك بشركة ذات

بنية فيدرالية (أو اتحادية). هكذا دمجت شركة الهند الشرقية الهولندية داخلها بين المرونة والقوة، فمنحت الهولنديين أفضلية كبيرة في عمليات المنافسة التي جرت من أجل السيطرة على التجارة البحرية في آسيا.

وخلال عقود قليلة – من السنوات – أثبتت شركة الهند الشرقية الهولندية نفسها على أنها أكثر المؤسسات التجارية قوة ونفوذاً في عالم القرن السابع عشر، كما أصبحت النموذج – أو المثال – الذي اقتدت به المشروعات التجارية الكبرى التي تهيمن الآن على الاقتصاد العالمي.

كذلك أصبحت علامتها التجارية العلامة التجارية الأكثر شهرة في ذلك العصر، وربما كانت تلك العلامة هي أول شعار عالمي Logo، حيث تتكون العلامة التجارية الكبيرة للشركة من الحروف الثلاثة الأولى الخاصة باسم الشركة، فيوجد الحرف V (الذي يشير إلى هولندا) في المنتصف، في حين يتداخل الحرف O (الذي يشير إلى الهند الشرقية) والحرف C (الذي يشير إلى كلمة شركة) معاً مع قمتي الحرف V الموجود في المنتصف، الشبيهتين بقرون الاستشعار. وقد ترك الأمر بالنسبة إلى كل غرفة تجارية لأن تضيف حروفها الأولى وتضعها إلى الأعلى أو الأدنى من حروف الشركة الأولى (VOC)، هكذا وضعت غرفة دلفت التجارية مثلاً الحرف الأول من اسمها (Delft)، وهو حرف D، فوق الجزء الأسفل من حرف V مما نتج منه علامة تجارية يمكن رؤيتها حتى اليوم على واجهة مكاتب غرفة تجارة دلفت السابقة على الجانب الغربي من قناة دلفت القديمة.

كانت غرفة دلفت التجارية قد حصلت على هذا المبنى عام 1631،

وعبر الزمن أضافت إليه مباني جديدة، وقد زُيّن كل مبنى منها بالعلامة التجارية المميزة نفسها. وقد تحول المبنى الأصلي منذ وقت طويل إلى شقق خاصة – وقد أفلست شركة الهند الشرقية الهولندية في تسعينيات القرن الثامن عشر، ثم حُلّتْ عام 1800 – لكن الرمز المصور الخاص بعلامتها التجارية لا يزال هناك كي يذكرنا بذلك التاريخ. وبسبب كونه مألوفاً بشكل عام لدى الهولنديين، فإن هذا الرمز المصور لا يزال يمثل حضوراً افتراضياً خاصاً في نفوس الهولنديين، وربما حتى اليوم، لتلك الشركة التي لم تعد موجودة على قيد الحياة منذ وقت طويل.

ربما عرف كل شخص كان يعيش في دلفت خلال القرن السابع عشر، أين تقع غرفة دلفت التجارية، فقد كانت شركة الهند الشرقية الهولندية بالغة الأهمية بالنسبة إلى اقتصاد دلفت، ومن ثم، لم تكن المعلومات الخاصة بها شأناً محلياً مألوفاً فقط، ولو وقف بعض سكان دلفت معي الآن على الجانب البعيد من الميناء عند النقطة التي يعبر عندها قناة دلفت القديمة تحت جسر كابلز Cables bridge فيما بين بوابات شايدام وروتردام وحتى يصب في كولك فإن هؤلاء السكان، ربما كانوا سيشيرون بأصابعهم نحو تلك السطوح المتكونة من القرميد الأحمر، والخاصة بمستودعات شركة الهند الشرقية الهولندية، وكذلك مجمع المكاتب الخاصة بها دون صعوبة تذكر، وربما كان بإمكانهم كذلك أن يتحولوا كي يشيروا بأصابعهم إلى الأسفل نحو جنوب القناة في اتجاه ديلفشيفن Delfshaven وشايدام وروتردام؛ تلك الموانئ البحرية للمدينة الموجودة عند مصب نهر الراين. ويشكل هذا الامتداد الخاص

لـ«دلفت» الوجه التجاري للمدينة والمكان الذي قام سكانه بالتجارة منه مع العالم كله، وبمجرد ما أن نكون قد لاحظنا ذلك الحضور الخاص لشركة الهند الشرقية الهولندية فإن لوحة فيرمير «منظر من دلفت» تبدأ في لفت انتباهنا، فندركها على أنها أقل زخرفية مما تبدو، وأقل اعتباطية في الاختيار لموضوعها، وأنها قد أُنجزت أيضاً، على نحو أكثر قصدية.

وعلى الرغم من ذلك الظهور المرئي لشركة الهند الشرقية الهولندية في اللوحة، وكذلك في دلفت، فليس هناك من دليل على أن فيرمير نفسه كانت لديه صلات شخصية بموضوعه هذا الذي وضعه في لوحته. لقد أفلس جدّه تقريباً عبر مضارباته في أسهم الشركة في سنواتها الأولى، وبعد ذلك لم يكن لدى تلك العائلة ما تفعله إزاء هذا الأمر، لكن لم تستطع عائلة من عائلات دلفت أن تنجو من شركة الهند الشرقية الهولندية. أما والد فيرمير، راينر فوس Reyner Vos (لم تكن العائلة قد اتخذت بعد لقب فيرمير عندما ولد راينر)، وقد كان تاجر اللوحات الفنية، وصاحب نُزل وحانة، فربما لم يكن قد عمل في الشركة، لكن عمله كان يعتمد على هؤلاء الذين يمرون عبر دلفت، ومعظمهم كانوا يأتون بالطبع لأمور تتعلق بعمل الشركة هناك، وهكذا فإن أي فنان ربما قد يجد نفسه داخل المدار الخاص بالشركة، أو كان يدور في فلكها بطريقة ما.

وفي أمستردام مثلاً حصل رمبرانت على أجور كبيرة كي يرسم صوراً شخصية (Portrait) لمديري الشركة، لكن فيرمير في حدود ما نعرف لم يرسم صوراً شخصية نظير عمولات معينة، ربما أصبحت دلفت مدينة

خاصة بشركة ما، لكن فيرمير لم يصبح قط الرسام الخاص بأية شركة.

على الرغم من أن فيرمير لم يعمل لصالح شركة الهند الشرقية الهولندية، فإن عشرات الآلاف من الهولنديين قد فعلوا ذلك، وقد قدر فريق من المؤرخين الهولنديين خلال السنوات العشر الأولى من تاريخ العمليات الخاصة بتلك الشركة، والتي تصادف أن كانت هي السنوات العشر الأولى من القرن السابع عشر، أن نحو ثمانية آلاف وخمسمائة من الرجال قد غادروا الأراضي الواطئة على متن سفن تابعة لشركة الهند الشرقية الهولندية، وفي العقود التالية، تزايدت أعداد المغادرين على نحو مطرد. وفي خمسينيات ذلك القرن، كان نحو أربعين ألفاً يرحلون عن هولندا كل عقد من الزمان، وخلال الفترة التي تقع عبر قرنين، أي من عام 1595 حتى 1795، كان هناك ما يقرب من مليون شخص قد قاموا بتلك الرحلة البحرية من هولندا إلى آسيا. وقد كان معظمهم من الشباب الذين فضلوا وظيفة مع شركة الهند الشرقية بدلاً من البقاء عاطلين من العمل، في منازل اكتظت بسكانها الذين يعيشون على موارد محدودة توارثوها عن آبائهم.

وقد كانت آسيا تمثل بالنسبة إليهم الأمل الخاص بإمكانية صنع حياة أفضل في مكان آخر. وعلى الأقل كان هناك ثلاثة من أبناء عمومة أو خؤولة فيرمير من بينهم، أي من بين المهاجرين الذين حملتهم سفن شركة الهند الشرقية الهولندية إلى آسيا.

ووفقاً لما نستخلصه من وصية عم فيرمير، ديرك فان دير مانيه Dirk Van der Manne، كان ابن عمه كلايز يعمل «جراحاً في شركة الهند

الشرقية»، أما الاثنان الآخران من أبناء عمومته فإنهما بمجرد ما تم استبعادهما من الوصية، وهما إرين وفان ديرك جيرتشوزن فان سانين Aryen and Dirk Gerritszoon Van Sanen وهما من أبناء أخوة كلايز، فإنهما سرعان ما التحقا بشركة الهند الشرقية في الوقت نفسه الذي كانت تتم تلاوة الوصية فيه.

لم يمر ذلك المليون من البشر كلهم عبر دلفت في طريقهم إلى الشرق، لكن آلافاً كثيرة قد فعلت ذلك، إذ اتخذوا طريقهم هبوطاً عبر القناة ونحو روتردام على مصب نهر الراين. وربما تقابل فيرمير معهم وهو ما يزال طفلاً في حانة أبيه، وربما استمع منهم أيضاً إلى بعض ما يدل على التفاخر أو التباهي، وكذلك تلك الحكايات الطويلة التي كان هؤلاء الذين يعودون إلى أرض الوطن يحكونها.

ولم يكن الذهاب إلى آسيا يعني دائماً العودة؛ فقد كان الفارق بين الذهاب والإياب يسير حقيقة على نحو عكسي، فقد عاد إلى الوطن رجل واحد من بين كل ثلاثة رجال ركبوا سفينة نحو آسيا، ولم يعد الاثنان الآخران. بعضهم مات في أثناء الرحلة، في حين استسلم آخرون فاقوهم عدداً لتلك الأمراض التي لم تكن تتوافر لديهم مناعة ضدها بعد أن وصلوا إلى هناك، لكن الموت لم يكن السبب الوحيد الذي جعل الرجال لا يعودون، فلقد اختار كثير منهم البقاء في آسيا، بعضهم من أجل تحاشي أن يدفعوا كلفة عار الإخفاق عندما يعودون إلى الوطن، والآخرون لأنهم كانوا قادرين على بناء حياة جديدة في تلك الأماكن التي انتهى المطاف بهم فيها، ومن ثم لم تكن لديهم أية رغبة في العودة إلى

كل ما تركوه وراء ظهورهم في وطنهم. وعلى الرغم من تلك الحصيلة الثقيلة لعدد الوفيات بين رجال شركة الهند الشرقية الهولندية، فإنها قد ازدهرت، ومع ازدهارها ازدهرت هولندا أيضاً.

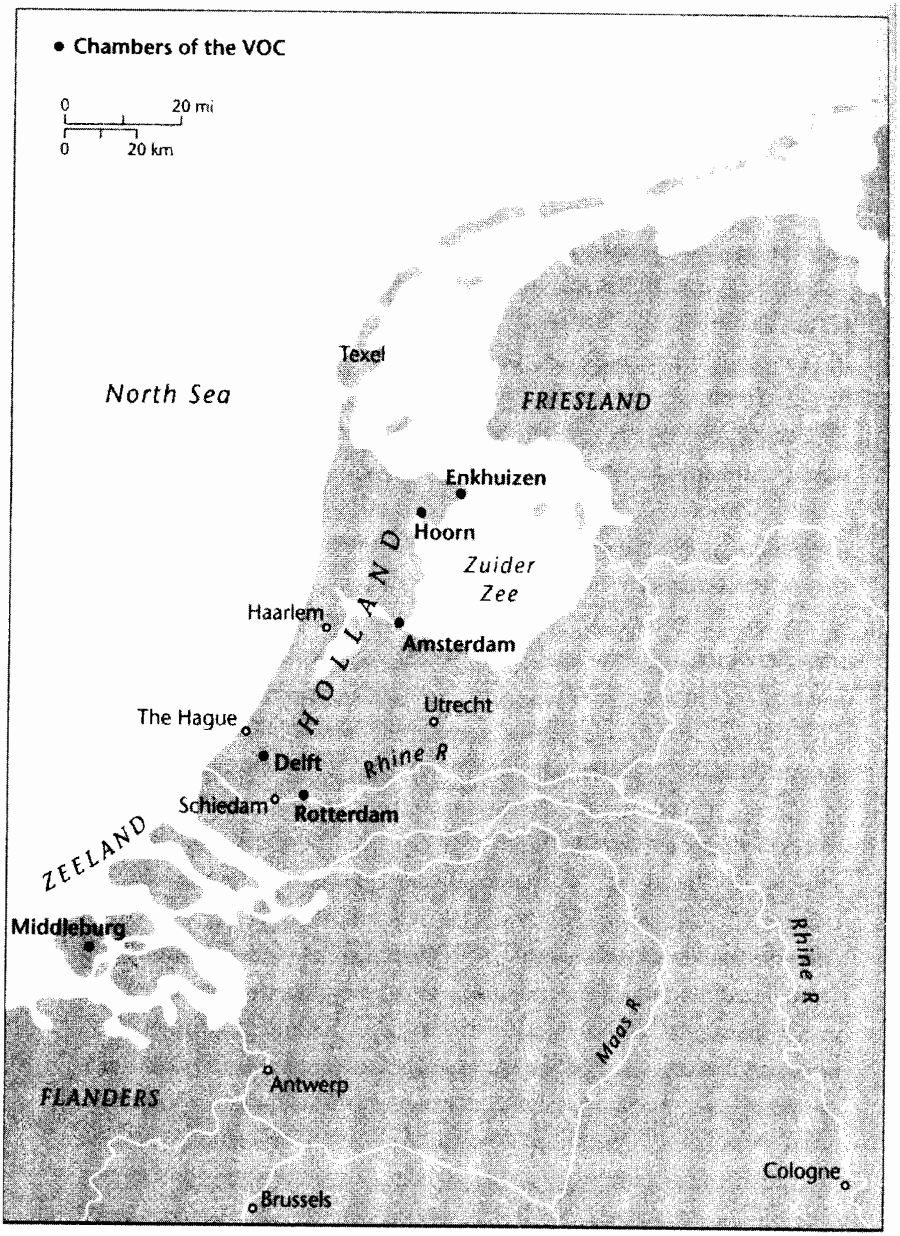
لقد اعتمدت القدرة الأوروبية على الهيمنة والحفاظ على العمليات التجارية الواسعة النطاق في جانب كبير منها على تلك الأنماط التكنولوجية الجديدة التي صاحبت التجارة البحرية، وقد اختار المفكر الموسوعي الإنجليزي فرنسيس بيكون Francis Bacon عام 1620 أن يذكر مع الإشادة على نحو خاص ثلاثة من بين هذه الاكتشافات الميكانيكية التي قامت من وجهة نظره «بتغيير الوجه الكلي للأشياء، والحالة الخاصة بها عبر العالم كله»، وكان من بين هذه الاكتشافات: البوصلة المغناطيسية التي مكنت الملاحين البحريين من الإبحار نحو أراضٍ بعيدة لا تدركها العين، ومن أن يكونوا قادرين في الوقت نفسه على تخمين أو تقدير المكان الذي وصلوا إليه. وكان الاكتشاف الثاني هو الورق، وهو الاكتشاف الذي سمح للتجار بأن يحتفظوا بالسجلات التفصيلية المكتوبة التي كانوا يحتاجون إليها بالنسبة إلى العمليات الخاصة بالصفقات والمعاملات التجارية المتعددة، وأن يحتفظوا كذلك بالمراسلات الكثيفة المتبادلة التي كانت التجارة عبر مسافات بعيدة تتطلبها.

أما الاختراع الثالث فكان البارود. فدون عمليات التقدم السريعة التي قامت بها مصانع الأسلحة في تكنولوجيا المقذوفات (أو القذائف) خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر ربما كان

التجار الأوروبيون الذين كانوا يقومون بتجارتهم خارج أوروبا قد خضعوا لضغوط شديدة من جانب المعارضة المحلية الكبيرة لتلك التنظيمات التجارية غير المرغوب فيها. كما أنهم ربما عجزوا عن حماية تجارتهم من عمليات النهب والسلب المستمرة التي كان اللصوص يقومون بها. وقد استفادت شركة الهند الشرقية الهولندية من هذه الاكتشافات العلمية الثلاثة في بناء شبكة تجارية امتدت عبر ذلك الطريق الطويل الذي يصل إلى شرق آسيا. «ليست هناك إمبراطورية، ولا طائفة، ولا نجم لامع» كما أكد بيكون «يبدو أنه قد مارس تأثيراً ونفوذاً على الشؤون الإنسانية» أعظم مما قامت به هذه الاختراعات الثلاثة.

وقد كان بيكون غير مدرك كما هو واضح أن هذه الاكتشافات الثلاثة قد جاءت جميعها من الصين؛ وذلك لأنه ذكر أن أصل هذه الاكتشافات «غامض وغير معروف على نحو كبير»، ولو كان أحد قد أخبره أن أصل هذه الاكتشافات هم الصينيون، فربما لم تكن الدهشة الكبيرة لتصيبه.

ولا بد لنا أن نذكر هنا بالعرفان تلك التوصيفات النابضة بالحياة والحيوية التي ذكرها «ماركو بولو» في «رحلاته» حول «بلاط المغول» في القسم الأخير من القرن الرابع عشر، والتي احتلت الصين خلالها وعن طريقها موقعاً بالغ الأثر في الخيال الشعبي، فقد تصورها الأوروبيون مكاناً للقوة أو النفوذ والثروة التي تتجاوز أية معايير معروفة. وقد أدت هذه الفكرة بكثيرين منهم إلى الاعتقاد بأن الطريق الأسرع نحو الصين



الأقاليم الواطئة عام 1650

سيكون هو أيضاً الطريق الأسرع نحو ثرائهم ونفوذهم الخاص، ومن ثم فقد كان عليهم أن يسلكوا هذا الطريق.

وقد كان السعي من أجل الوصول إلى الصين أشبه بقوة لا تلين ولا تهدأ، وقوة قامت بالكثير من أجل تشكيل تاريخ القرن السابع عشر، لا داخل أوروبا والصين فقط، بل في معظم الأماكن التي تقع بينهما، ولعل هذا هو السبب الذي يجعل الصين موجودة وكامنة خلف كل قصة في كتابي هذا، بل حتى خلف تلك القصص التي تبدو للوهلة الأولى غير ذات صلة بالصين، إن إغواء الثروة الصينية يسكن عالم القرن السابع عشر، ويهيم على نحو كبير.

لقد استهل انفجار الهجرة الذي حدث في القرن السابع عشر، وسبقه نوع من الانجذاب نحو الصين كان قد بدأ فعلاً يشكل الاختيارات الأوروبية في القرن السادس عشر. لقد كان القرن السادس عشر قرناً متميزاً بالاكتشاف والمواجهات العنيفة، سلسلة متواصلة من الأخطاء من عبور للحدود وإغلاق لها، وكذلك تكوين شبكة من الاتصالات امتدت في الاتجاهات كلها، أما القرن السابع عشر فكان أمراً مختلفاً، فاللقاءات الأولى سرعان ما أصبحت ارتباطات دائمة، والتبادلات العابرة كانت تُحَوّل على نحو منتظم إلى تجارة، كما حلت لغات التفاهم المحلية المبسطة وعمليات التواصل الحقيقية محل لغة الإيماء والإشارة السابقة، وداخل كل تلك التغيرات كان ثمة عامل مشترك يجري عبرها أو يتخللها، ألا وهو عامل الحراك Mobility، حيث كان هناك أناس كثيرون يتحركون عبر مسافات طويلة، ويقيمون مؤقتاً بعيداً عن

أوطانهم، ولفترات زمنية أطول مما حدث في أي وقت آخر، عبر التاريخ الإنساني. لقد كان هناك أناس كثيرون منهمكين في معاملات تجارية مع أناس آخرين لا يعرفون لغاتهم، ولم يتعايشوا قط من قبل مع ثقافتهم. وفي الوقت نفسه، كان هناك أناس كثيرون يتعلمون لغات جديدة ويتكيفون مع أعراف وعادات غير مألوفة بالنسبة إليهم. لقد انتهت تلك اللقاءات أو الاحتكاكات من الطراز الأول أو العابر، وحلت محلها خلال القرن السابع عشر الاحتكاكات من الطراز الثاني أو المتكرر.

ومع احتكاكات الطراز الثاني، تغيرت ديناميات المواجهة، فقد أصبحت التفاعلات أكثر استمرارية، وقابلية للتكرار، ولم تكن التأثيرات التي أفرزتها تلك المواجهات (أو المقابلات) شيئاً يسهل فهمه أو التنبؤ به، فأحياناً ما استحثت تلك المقابلات تحولاً عميقاً في الممارسات الخاصة بالحياة اليومية، وهو أثر أسماه الكاتب الكوبي فرناندو أورتيز Fernando Ortiz التبادل الثقافي أو العبور الثقافي. أما في أحيان أخرى، فقد أنتجت مثل تلك المقابلات أنواعاً من المقاومة، والعنف، والفقدان للهوية. وقد تولدت عن المواجهات (أو اللقاءات) من الطراز الثاني خلال القرن السابع عشر تأثيرات تقع فيما بين هذين الطرفين، أي نوع من التكيف الانتقائي الذي تشكل عبر عملية خاصة من التأثير المشترك؛ فبدلاً من التحول الكامل أو الصراع المميت كان هناك التفاوض والاستعارة، وبدلاً من النصر والخسارة، كان هناك الأخذ والعطاء، وبدلاً من التحويل للثقافات كان هناك نوع من التفاعل بينها. لقد كان ذلك هو الزمن الذي وجد فيه أنه ينبغي لهم أن يكيفوا طرائق سلوكهم وتفكيرهم من أجل أن

يتفاوضوا أو يتبادلوا النقاش حول الفروق الثقافية التي يواجهونها، وأن يتحاشوا التهديدات غير المتوقعة، وأن يستجيـبوا بحذر ووعي للفرص الماثلة غير المتوقعة. ولم يكن ذلك وقت تنفيذ التصميمات الكبيرة، بل زمن التجريب والارتجال، وقد كان عصر الاكتشاف قد انتهى إلى حد كبير، ولم يبدأ عصر الاستعمار بعد، هكذا كان القرن السابع عشر، عصر الارتجال أو المحاولة والخطأ، وكانت التغيرات التي تدفع نحو مثل ذلك الارتجال صغيرة دقيقة مرهفة، لكنها كانت عميقة أيضاً.

لنضع في حسباننا مرة أخرى «دونغ تشيتشانغ»، الفنان من شانغهاي الذي أشرت إليه من قبل. لقد كان جيل «دونغ تشنج شانج» أول جيل في الصين يرى الصور المطبوعة الأوروبية. لقد جلب المبشرون الجزويت أو اليسوعيون بعضها معهم إلى الصين، لنقل رسالتهم في شكل بصري، ولمساعدة المتحولين منهم إلى المسيحية على تخيل حياة المسيح. وتمثل إحدى لوحات دونغ الخاصة عام 1597 علامة تحول كبرى في ذلك الأسلوب الذي وضع الأسس أو القواعد لبزوغ الفن الصيني الحديث. وقد ظهرت بعض الاقتراحات النقدية القائلة هنا إن تلك الحيل البصرية في اللوحات الأوروبية المطبوعة ربما كانت ما دفع هذا الفنان نحو هذا الأسلوب الجديد. أو لنفكر في فناننا الذي كان في دلفت، فقد كان فيرمير فناناً ينتمي إلى الأجيال الأولى من المصورين الهولنديين الذين رأوا لوحات فن التصوير الصيني على نحو نادر وهي مرسومة على الحريـر أو الورق، وعلى نحو أكثر شيوعاً، وهي مرسومة على الخزف الصيني أو البورسلين، وهناك من قال أيضاً إن استخدام فيرمير

للون الأزرق في دلفت (أو لون دلفت الأزرق) وتفضيله كذلك لأن يضع في خلفيات اللوحات لوناً أبيض باهتاً كي يبرز بالمغايرة والتضاد العناصر الزرقاء أو يوازن بينها، وتفضيله للمنظور المحرف distorting، وكذلك التكبير في حجم ما هو في أماميات اللوحات (كما فعل ذلك في منظر من دلفت)، ورغبته كذلك في أن يترك الخلفيات فارغة أو شبه خالية، كلها أمور تنم عن تأثير صيني خاص. وعلى افتراض أننا نعرف القليل حول فيرمير، فإنه من غير المرجح أن تظهر دلائل أخرى تؤدي إلى إثبات مثل ذلك الاقتراح أو الإيحاء السابق أو نفيه. إنها فقط ببساطة فكرة التأثر والتأثير، وهو أمر ربما كان من المستحيلات في جيل سابق على ذلك، كما أن التلميحات الخاصة من هذا القبيل حول التأثير عبر الثقافي المشترك، حتى لو كان مرهفاً ودقيق الحجم بحيث لا يمكن إدراكه، هي تماماً ما ينبغي أن نتعلم أن نتوقعها هنا.

عندما نعود إلى القرن السابع عشر، وعندما ننظر إلى اللوحات التي نبحث داخلها عن علامات خاصة بالقرن السابع عشر، ونراها بهذه الطريقة، فإن بإمكاننا النظر إلى تلك اللوحات لا بوصفها مجرد أبواب يمكن أن ندلف من خلالها لاكتشاف الماضي وحسب، وإنما أيضاً مرايا تعكس تلك التعددية وذلك التنوع الخاص بالأسباب والنتائج التي أفرزت ذلك الماضي وهذا الحاضر.

تستخدم الديانة البوذية صورة استعارية مماثلة لوصف تلك العلامات المشتركة المتبادلة بين الظواهر كلها. ويطلق على هذه الصورة الاستعارية اسم «شبكة إندرا» Indra Net، فعندما (حسب اعتقاد البوذية) صنع

«الإله» إندرا العالم، فإنه صاغه مثل نسيج الشبكة، وعند كل عقدة داخل هذا النسيج ربط لؤلؤة، وكل شيء فيها، أو كان فيها من قبل، وكل فكرة يمكن أن تظهر، وكل معلومة حقيقية أو صادقة، وكل فصيلة، وصفة جوهرية في لغة الفلسفة الهندية، هي لؤلؤة في شبكة إندرا. وهي لا تكون فقط مرتبطة بكل لؤلؤة أخرى عن طريق نسيج الشبكة التي تكون كل تلك اللآلئ معلقة فيها، بل أيضاً أنه فوق سطح كل لؤلؤة تنعكس كل جوهرة أخرى في تلك الشبكة الكبرى، وهكذا فإن كل شيء في شبكة «إندرا» يتضمن داخله كل الأشياء الأخرى الموجودة فيها أيضاً.

ربما تذوق فيرمير هذه الاستعارة أو استمتع بتفهمه لها، فقد أحب أن يضع الأسطح المقوسة – أو المنحنية – في لوحاته، وأن يستخدمها كي تعكس كل شيء حولها. هكذا كانت الكريات الزجاجية والأوعية النحاسية التي تشبه العدسات – التي ربما استخدمها لمعاونته في الرسم – مناسبة للكشف عن أنماط الواقع الموجودة خلف ما كان يحيط به على نحو مباشر هنــاك. وداخل ما لا يقل عن ثماني لوحات من لوحاته رسم فيرمير نساءً بأقراط مدلاة من آذانهن على شكل لؤلؤي. وفوق تلك اللآلئ رسم أشكالاً باهتة أو تخطيطات عامة تشير بدورها على نحو خفي، وتعكس أشياء موجودة عند أطراف الغرف التي كانت تقطنها تلك النساء، وليست هناك لؤلؤة بين تلك اللآلئ أكثر إثارة للاهتمام من تلك التي في لوحته «الفتاة ذات القرط اللؤلؤي» Girl with a pearl earring، فعلى سطح تلك اللؤلؤة – والتي كانت كبيرة جداً بدرجة يحتمل معها أنها لم تكن لؤلؤة قط،

لكنها ربما كانت كأساً زجاجياً على شكل لؤلؤة، وأنه اختفى إلى حد التلاشي، أو ابتعد كي يمنح ذلك القرط لمعاناً شبيهاً بلمعان اللؤلؤ – على سطح تلك اللؤلؤة نرى منعكساً عليه ياقة ردائها والقبعة النسوية الضيقة التي كانت ترتديها، وكذلك النافذة التي ناحية اليسار والتي ينعكس الضوء القادم منها على تلك المرأة، وكذلك، وعلى نحو مميز، تلك الغرفة التي كانت تجلس فيها الفتاة انظر جيداً إلى لآلئ فيرمير، وسوف يطفو مرسمه الشبحي ذلك ويظهر مهيمناً على المشهد[2].

وتومئ هذه الانعكاسية التي لا نهاية لها– تلك الوثيقة الكبيرة التي تشير إلى ذلك الاكتشاف العظيم الذي قدمه الناس في القرن السابع عشر أن هذا العالم يشبه هذه اللؤلؤة، كرة أرضية واحدة معلقة في الفضاء، وقد كان ما وضعه الناس على عاتقهم في ضوئها هو أن يجابهوا الفكرة التي فحواها أن العالم هو سطح مستمر متواصل ليس فيه نقطة لا يمكن الوصول إليها، وأنه ليس هناك مكان في العالم ليس مشمولاً داخل كل مكان آخر، وليس هناك من حدث ينتمي إلى عالم محدد بعينه، بل أنه ينتمي إلى العالم الذي ينبغي أن يكونوا جميعاً مشاركين فيه. وقد كان واجبهم كذلك هو أن يؤسسوا واقعاً مفعماً بالتوتر الدائم، حيث كان البشر يعيشون حالة من الحركة الدائمة، وحيث كان ينبغي أن تنقل الأشياء، أو تسافر، مسافة تصل إلى نصف الكرة الأرضية حتى تجد مشترياً ما، هنا، يمكنه أن يحصل على ما أنتجه الصانع هناك. وقد ألزم ذلك الواجب – أو العبء الثقيل – الناس، بالتفكير في حياتهم بطرائق جديدة وغير مألوفة، وبالنسبة إلى بعضهم، مثل سونغ – ينغ هسينغ

song Yingxing؛ مؤلف أول موسوعة حول التكنولوجيا الصينية، وعنوانها «الاستغلال لأعمال الطبيعة» Exploitations of the works of Nature (1637)، فإن ذلك الحراك كان علامة على العيش في أزمنة أكثر انفتاحاً وأفضل حالاً، إذ ربما كانت كل تلك المركبات القادمة من الغرب الجنوبي البعيد، تشاهد وهي تجتاز سهول الشمال الشرقي البعيد. وكذلك كان «الموظفون الرسميون والتجار الذين ينتمون إلى الساحل الجنوبي يسافرون، هنا وهناك، بحرية عبر سهل الصين المنبسط في الشمال».

في تلك الأيام الخاصة بذلك الماضي كان «ينبغي لك أن تتردد على أحد الطرق الخاصة بالتجارة الدولية كي تحصل على قبعة من الفرو»، فقد كانت تلك القبعات التي تجيء من البلاد الأجنبية، أما الآن فإنه يمكنك الحصول عليها من بائع سلع صغيرة يقف في أحد الشوارع. وبالنسبة إلى آخرين، لم يكن بزوغ الحركة عبر العالم مجرد إعادة تحديد أو تعريف لفكرتهم حول العالم، لكنه – أي ذلك البزوغ – كان يعني آفاقاً أوسع، وفرصاً مفتوحة، بشكل لم يكن ليوجد منذ عقود قليلة سابقة. وأياً ما كانت تلك المتعة التي حظى بها سونج ين تشينغ من معرفته بأن عالماً جديداً وأكثر رحابة قد أصبح موجوداً الآن، فإن قدره الخاص كان أن يقضي حياته في مكانه، هناك، في بقاع الصين الداخلية يقوم بما يشبه عمل مساح الأراضي النظري، وقد كان بعيداً بدرجة كبيرة عن المحيط، بعيداً بدرجة تجعلنا نقول إنه ربما لم يشاهده قط، فضلاً عن الإبحار عبره أو من خلاله، ولو كانت قد أتيحت لكاتب الموسوعات

الصيني هذا، تلك الفرص التي أتيحت لرجل هولندي آخر من جيله، على كل حال، فإنه ربما أصبح شخصاً آخر مثل «وليم كورينليس شوتن W.C. Schouten، فقد جاء شوتن من ميناء هورن الهولندي، موطن كثير من جيل ربابنة البحر الأوائل من الهولنديين، وقد أبحر حول العالم أولاً فيما بين عامي 1615 و1617، ثم عاد إلى المياه الآسيوية ثانية مع شركة الهند الشرقية الهولندية في عشرينيات القرن السابع عشر. وعلى كل حال، فإن شوتن لم يعش حتى يكمل رحلة عودته الطويلة إلى وطنه عبر المحيط الهندي في عام 1625. لقد مات لأسباب لم تدون في السجلات، وقد حدث ذلك مباشرة قبل أن تصل سفينته إلى خليج أنتونجيل Antongil على الساحل الشرقي لمدغشقر، ودُفِنَ هناك. وهناك كلمة قصيرة في أبيات شعرية مجهولة المؤلف تصفه بشكل موجز على أنه يجسد روح عصر وتقول:

«في مثل عالمنا الغربي هذا، حيث ولد وعاش شوتن الشجاع،
لم يكن من الممكن له أن يستريح، فروحه المفعمة بالتوهج دائماً كالنار،
كانت تدفعه دائماً أن ينشد التجاوز،
وأن يرتحل ويرتقي دائماً الأفق.»

هنا كان يمكن للشاعر أن يتحسر على موت شوتن ويشعر بالأسى عليه بوصفه يمثل إخفاقاً في العودة إلى موطنه في هورن، لكنه لم يفعل ذلك، وإنه بدلاً

من ذلك احتفى بموت ذلك البحار، بوصفه نجاحاً
عظيماً، والذروة الخاصة بالحياة العالمية التي اختار
شوتن أن يحياها.
وهناك حيث يرقد، لاقى عالم رغباته،
آمنا بعد رحلاته الكثيرة.. أوه، يا أيها العقل العظيم
التواق
ارقد في سلام مبارك من رب العالمين.

لم يكن الموت في الخارج خلال القرن السابع عشر يُعد نفياً أو إبعاداً عن الوطن بالنسبة إلى «شوتن»، بل إقامة دائمة في ذلك العالم الذي رغب فيه وتمناه، ولم تكن نقطة الوصول أو الخاتمة النهائية بالنسبة إليه، لو كان قد شعر بالتبرم من وجوده في مدغشقر، ربما لم تكن لتكون هي هورن، بل السماء.

«وحتى لو رفضت روحه
أن تظل حبيسة إلى الأبد في أنطونجيل الضيقة
فإنه سيختار بجساره شديدة: (فكما في الحياة الدنيا،
وحيث تظهر الأفعال المفعمة بالجسارة دون أن
نتوقعها، فكذلك الطريق المجهول الذي يمزج بحار
الشرق والغرب ويتجاوز الشمس في دورتها بيوم
وليلة)
إنه يحلق عالياً ويسبق هذه المرة في صعوده الشمس
ويجد في حضرة السماء مع الرب

البركة والراحة الأبدية

وقد كان الشغف الغالب على القرن السابع عشر، وعلى جانبي الكرة الأرضية، متمثلاً في تلك الرغبة في الإبحار عبر «الطريق المجهول الخاص ببحار الشرق والغرب»، ومن أجل اختزال تلك المسافة التي بدت يوماً غير قابلة للاختزال من خلال السفر، والاحتكاك، والمعرفة الجديدة، وأن يترك المرء موضع مولده مؤقتاً مقابل عالم من الرغبات المحركة له. لقد كانت تلك هي النار المتأججة في أرواح البشر خلال القرن السابع عشر. ولم يكن كل هؤلاء البشر يشعرون بمثل تلك الحالة من الإثارة التي نشأت عن الاضطراب وتغيير المواضع التي أنتجتها العقول العظيمة التواقة المتلهفة في ذلك الوقت. هكذا تذمر أحد الموظفين الرسميين الصينيين شاكياً عام 1609 من أن محصلة هذا التغير الذي يجتاح العالم إنما كانت هي أن «الغني أصبح أكثر ثراءً والفقير أصبح أكثر فقراً». وحتى شوتن ربما كانت قد تولدت لديه مثل تلك الشكوك لو تمكن من الجلوس على أرجوحته الخشبية في بيته ثم مات بعد ذلك، لكن دوامة الحركة كانت تجذب عدداً كبيراً من الناس، وتجعلهم يشعرون بأنهم يمكنهم أن يسبقوا الشمس في مسارها.

إن عالمهم – والذي سرعان ما أصبح عالمنا – لم يعد بعد ذلك، قط هو العالم نفسه، ثم إننا لن نشعر بالدهشة إذن، عندما نلحظ أن فنانين، كما أنهم قد ظلوا –على الرغم من ذلك– ملتزمين بالبقاء في مواطنهم الأصلية، وكانوا قادرين على التقاط تلك اللمحات الخاطفة لذلك التغير.

الفصل الثاني

قبعة فيرمير



لا بد أن فيرمير قد امتلك قبعات كثيرة، ولم تذكر أية وثائق ذلك، لكن لا أحد من الرجال الهولنديين من جيله ومركزه كان يمشي خارج بيته عاري الرأس. انظر إلى الناس في خلفية لوحته «منظر من دلفت»، وسوف ترى أن كل إنسان فيها ذكراً كان أو أنثى لديه قبعة، أو كان رأسه مغطى بشيء ما. لقد كان الرجل الفقير يقوم بذلك من خلال ارتدائه «القلنسوة أو القبعة المترهلة» Klapmats[1]. أما الرجل الأفضل منه منزلة فقد يزدهي متباهياً كالطاووس بقبعة شبيهة بتلك التي في لوحة «الضابط والفتاة الضاحكة» Officer and the laughing girl (انظر إلى صورة اللوحة رقم 2).

ولا ينبغي لنا أن نشعر بالدهشة إذن عندما نرى ذلك الضابط وهو يرتدي قبعته الباذخة داخل البيت، فعندما كان فيرمير يرسم رجلاً لا يرتدي قبعة، فإنه يكون إنساناً منهمكاً في عمل، معلم موسيقي أو عالماً مثلاً. أما الرجل الذي يلاطف أو يغازل امرأة فلم يكن ليذهب إليها دون

أن يعتمر قبعة. ولم تكن العادة الخاصة بخلع الرجال لقبعاتهم عندما يدخلون مبنى أو يحيون امرأة (وهي العادة التي نُسيت بشكل عام في أيامنا هذه) قد شوهدت بعد في ذلك الزمن. والشخص الوحيد الذي كان الرجل الأوروبي المهذب الراقي السلوك يعري رأسه أمامه، كان هو ملك البلاد أو ملكتها، ولكن دائماً ما كان الهولنديون يتفاخرون دائماً بأنهم لا ينحنون لأي ملك، بل يحتقرون من يفعل ذلك، ومن ثم فإن قبعاتهم كانت تظل في مكانها أعلى رؤوسهم. وقد ارتدى فيرمير نفسه تلك القبعات الموجودة في المشهدين اللذين صور نفسه فيهما، فخلال ظهوره البارز كنقش بارز على حجر كريم كعازف موسيقى في إحدى لوحاته ارتدى فيرمير «بيريه» باهظ الثمن وقد ترهل شكله حتى كاد يصل إلى كتفه. أما في لوحة «فن التصوير» The Art of painting التي رسمها بعد ذلك بسنوات عشر، فقد ارتدى «بيريه» سوداء أصغر كثيراً في حجمها، ومنذ ذلك الوقت أصبحت تلك البيريه هي الشارة أو العلامة المميزة للفنان عموماً.

وقد كانت هنا أدوار أخرى لفيرمير كي يلعبها، ومن ثم فإنه كان يحتاج إلى أزياء أخرى كي يلعب تلك الأدوار. لقد نعم فيرمير بالمكانة المميزة الخاصة بالرجال النبلاء بسبب كونه «أحد الرماة البارعين» في قوات دلفت العسكرية الخاصة، مع أنه ليس هناك من دليل يؤكد أنه كان يعرف كيف يستخدم أي سلاح ناري صغير. لقد ظهر رمح ودرع للصدر وخوذة حديدية بين قائمة ممتلكاته التي صنفتها زوجته «كاترينا بلونز» كوديعة ضمان خلال تقدمها بطلب لإشهار إفلاس الأسرة بعد

وفاته. ولم تكن هناك من بين تلك الممتلكات، أية بندقية أو أزياء عسكرية. وكي نحكم من بين الصور الشخصية (Portrait) الكثيرة الخاصة بتلك الفترة التي يظهر فيها رجال هولنديون مهذبون يرتدون مثل تلك الأزياء، فإن فيرمير كان لا بد أن يحتاج إلى قبعة كبيرة مصنوعة من اللباد كتلك التي يرتديها ضابط في لوحة «الضابط والفتاة الضاحكة»، ربما كانت «البيريه» ستعد هنا دالةً على الوقاحة، أو قلة الاحترام، كما أن خوذة حديدية ستكون شيئاً غير مريح عندما يرتدى، وأنه مناسب فقط للمواجهات القتالية. إن كون المرء أحد أفراد القوات المسلحة يشتمل على نوع من التميز الاجتماعي، ويقتضي مثل هذا التميز أن يداوم على ارتداء ملابسه بشكل مناسب، وهكذا فإن فيرمير لا بد أنه امتلك قبعة كتلك التي نراها في لوحة «الضابط والفتاة الضاحكة».

لكن ما لا نعرفه هو ما إذا كان فيرمير قد امتلك تلك القبعة المميزة بالذات، فليست هناك علامة على مثل تلك القبعة في مجموعة الممتلكات التي بقيت بعد وفاته، ولكن وحيث إن قبعة من هذا النوع كانت غالية الثمن، وإن كاترينا زوجته غدت في حالة بائسة من العجز المالي بعد وفاته، فإن الأكثر احتمالاً هو أنها قد باعتها خلال فترة الشهرين ونصف الشهر التي فصلت ما بين موته وإجراءات إشهار الإفلاس وطلب المساعدة، لكن ما نعرفه أيضاً هو أنه كان هناك «صانع قبعات» واحد على الأقل في عائلة فيرمير.

لقد كان «ديرك فان دير مانيه»، عمه الذي كان له ابن وحفيدان في الهند الشرقية عندما قُرئت وصيته في عام 1657، صانع لباد وقبعات،

وربما صنع العم ديرك قبعات لـ «فيرمير»، ونحن ربما كنا ننظر الآن نحو واحدة منها في لوحة «الضابط والفتاة الضاحكة».

ستكون القبعة هي الباب الموجود داخل هذه اللوحة، والذي سنفتحه، ولكن دعنا نضع في حسباننا أولاً اللوحة نفسها بشكل سريع، فماذا نرى فيها؟ إننا نرى ضابطاً مفعماً بالحيوية والنشاط وقد ارتدى سترة قرمزية اللون قصيرة وضيقة، وحجم جسمه أكبر في حجمه من الطبيعي (وذلك من أثر الخداع الخاص بالتحريف البصري الذي كان فيرمير مولعاً باللعب به)، والضابط يتودد إلى امرأة جميلة صغيرة السن (وقد أخمن أننا ننظر هنا إلى كاترينا). وقد ينظر بعضهم إلى محتوى هذا المشهد على أنه حالة فردية أو خاصة إلى حد كبير، لكنه محتوى ينتمي على نحو وثيق إلى تلك الفترة التي رسمه فيرمير فيها؛ وذلك لأنه يعرض تفسيراً شاملاً إلى حد كبير للقواعد الجديدة التي كان يقوم من خلالها الشبان والشابات بالغزل في المجتمع الهولندي الراقي، وفي أواخر خمسينيات القرن السابع عشر.

فمنذ عقود قليلة سابقة على ذلك التاريخ، لم تكن تتاح للضباط الفرصة للجلوس كي يتمازحوا هكذا مع نساء ينتمين إلى الطبقة الاجتماعية الأعلى. فلم تكن الأعراف الاجتماعية تتسامح مع، أو تتحمل، مثل تلك اللقاءات الخاصة بين المتودد والمتوددة، وخلال حياة فيرمير تغيرت قواعد التواد والغزل، على الأقل في الأماكن التي تنتمي إلى المدن من هولندا. لقد نحت المدينة جانباً البسالة العسكرية بوصفها الطريقة المناسبة لكسب ود النساء، وأصبحت الغلبة في العواطف الرومانسية

للنقود المتاحة في اليد، بوصفها عملة الحب الخاصة المتداولة، وأصبح البيت مسرحاً جديداً للتنفيس عن التوتر أو الصراع الموجود بين الذكور والإناث. لقد كان الرجال والنساء لا يزالون يتفاوضون حول الجنس والصحبة، وهذا ما كان يفعله، بالضبط، الضابط والفتاة الضاحكة، لكن تلك التفاوضات قد أصبحت ترتدي الآن زي أو قناع المزاح لا المقايضة، فموضوعها هو الزواج، والبيت الراسخ البنيان، المزود بألواح زجاجية في النافذة الأمامية، والأثاث المرتفع الثمن، وليس مجرد قضاء ساعة في الفراش.

وفي حين أن شعارات الحياة البرجوازية الجديدة قد تمثلت في تكديس الأموال، وحلت الكياسة محل الخشونة أو الفظاظة؛ فقد أصبح تفاعل الرجال والنساء أكثر تقييداً، وأكثر رهافة وتهذيباً، ومن ثم فإن الفنانين الذين كان يرسمون مشاهد الغزل لم يعودوا كذلك، يرسمونها داخل (المواخير) الصاخبة كما كانوا يفعلون في السنوات المبكرة من القرن السابع عشر، بل في أماكن منزلية داخلية أليفة. وقد عاش فيرمير خلال فترة حاسمة تمثل القمة من ذلك التحول في العلاقات بين الذكور والإناث، وكذلك التحول في أعراف فن التصوير وتقاليده التي تساوقت وتراصفت معها، وتكشف لوحة «الضابط والفتاة الضاحكة» عن تجسيد فيرمير للنتائج المترتبة على مثل تلك التغيرات.

فالجنود الذين حاربوا في الحرب الهولندية الطويلة الخاصة بالاستقلال ضد إسبانيا ربما زعموا أن النساء هن غنائم حرب ينبغي أن يحصلوا عليها، لكن مثل هذا العصر قد انتهى وولى. وربما كان ذلك هو

السبب الذي جعل فيرمير يعلق خريطة الطوبوجرافيا الجديدة والدقيقة لهولندا الكبرى والفرايسلاند على الجدار الخلفي للغرفة، وخلف ذلك الثنائي (الضابط والفتاة) الذي يقوم بالمحادثة في اللوحة، وهذه الخريطة مأخوذة من لوحة إعلانية حكومية تحتفي بنضال الهولنديين من أجل الاستقلال قبل عقد معاهدة عام 1609. لكن تلك الحرب قد أصبحت الآن شيئاً من الماضي[1]. فلم يعد للضباط الدور نفسه الذي كانوا يقومون به في ميدان المعركة، ولم يعد في مقدورهم الزعم، الآن، بامتلاكهم السلطة والاحترام نفسيهما اللَّذين. كانا لهم في الماضي. وقد يكون هذا العكس أو التحول لمكانة الجنود المحاربين ما ألمح إليه فيرمير في لوحته من خلال عكسه لذلك التخطيط الخاص باللون في الخريطة، بحيث إنه جعل الأرض فيها زرقاء والمياه بنية. فبين الأرض والبحر أماكن للتجارة، من ثم أصبح الجنود والأشخاص من أهل المدينة يواجهون بعضهم من خلال نظام اجتماعي مختلف، وكذلك فإنه ربما أصبح للرجال والنساء أدوار متغيرة، وذلك لأنه على الرغم من هذا الاختيال والتباهي اللذين يتبدى من خلالهما الضابط في اللوحة، فإنه هو أيضاً الذي يلتمس رضا الفتاة ويخطب ودها، في حين تتحكم هي في شروط المقايضة الخاصة بالزواج الذي قد يحدث بينهما.

وقد كان هذا التحول والقلب للأدوار يمثل جانباً واحداً من ذلك التحول الكبير الذي مر به المجتمع الهولندي في زمن فيرمير؛ من مجتمع عسكري إلى مجتمع مدني، ومن الملكية إلى الجمهورية، ومن الكاثوليكية إلى الكالفنية calvanism [2]، ومن البيوت أو المؤسسات التجارية إلى

الشركات الاندماجية، ومن الإمبراطورية إلى الأمة، ومن الحرب إلى التجارة.

وهكذا فإن الباب الذي سندلف من خلاله إلى داخل هذه اللوحة ليس هو الخريطة، بل القبعة؛ وذلك لأنه على الجانب الآخر من هذا الباب، هناك ممر يقودنا نحو عالم أوسع. فعند نهاية ذلك الممر سوف نجد أنفسنا في مكان يعرف الآن باسم نقطة التاج Crown point على بحيرة شامبلين Champlain، في صباح يوم الثلاثين من يوليو 1609.

«لقد حدقوا فيّ، وحدقت أنا فيهم»، هذا ما كتبه صمويل شامبلين، متذكراً تلك اللحظة التي خطا فيها إلى الأمام من بين المواطنين المحليين أصحاب البلاد وهو يحمل بندقية القربينة القديمة arquebus بين يديه. كان شامبلين قائداً لحملة فرنسية موجودة عند نهر سانت لورنس تسعى من أجل سبر أغوار منطقة البحيرات العظمى واكتشاف ممر شمالي، وقد اصطف في مواجهته عشرات من المحاربين «الموهوك» خلف درع خشبية، وقد وقف ثلاثة من زعمائهم في الأمام، متجمدين في أماكنهم عندما شاهدوه، ثم بدؤوا يتقدمون نحوه، ولحظة أن رفعوا أقواسهم (لرمي السهام) كما كتب شامبلين «رفعت بندقيتي وصوبتها مباشرة نحو واحد من زعمائهم الثلاثة، وقد كانت الشرائح الخشبية لدرعهم أضعف كثيراً من أن تحميهم من نيران البندقية ومع هذا الإطلاق للنيران من البندقية سقط اثنان من الزعماء على الأرض، وأصيب واحد من زملائهما بجراح، مات على إثرها، بعد ذلك، بوقت قصير».

وقد كانت هناك أربع رصاصات في خزانة بندقية شامبلين، على بعد

مسافة تصل إلى ثلاثين متراً لم يكن هناك من ضمان أن أحداً سيكتشف علامة على آثار تلك الطلقات، لكن على نحو ما اكتُشِفَتْ ثلاث من علاماتها تلك. «عندما سقط ثلاثة من زعماء الموهوك على الأرض، ومات اثنان منهما في موقعهما، تجمد المحاربون خلفهم من الصدمة وارتفعت صيحات الابتهاج الشديد خلف شامبلين من حلفائه. «وقد كانت صيحات حلفائه تلك عالية جداً» إلى درجة أن هزيم الرعد ربما لم يكن ليسمع في تلك اللحظة». وقد كان شامبلين يحتاج إلى مثل ذلك التشويش؛ وذلك لأن الأمر احتاج إلى نحو دقيقة كاملة كي يعيد حشو بندقيته بالذخيرة، وخلال ذلك الوقت كان معرضاً لإعادة إطلاق النيران عليه من الجانب الآخر. ولكن، وقبل أن يتوافر الوقت للمهاجمين كي يفيقوا من ذهولهم، كان أحد الاثنين من حاملي البنادق الذين كانوا مع شامبلين قد انطلق إلى الغابة، ومن هناك أطلق النار على أحد أفراد جيشهم من خلال الأشجار، وقد أصابهم إطلاق النار بالدهشة ثانية، ونتيجة لرؤية زعمائهم موتى فإنهم فقدوا شجاعتهم، وبدؤوا في الفرار، وغادروا ميدان القتال، وتركوا قلعتهم وهربوا نحو أعماق الغابة».

وقد اشترك حلفاء شامبلين من أصحاب الأرض الأصليين في ذلك الهجوم، فانطلق وابل من السهام في سرعة البرق على نحو متواصل فوق رأسه، فأوقع الرعب في قلوب الرماة من أعدائه ووفر الغطاء اللازم لشامبلين كي يعيد حشو بندقيته، وقد أعاد إطلاق النار ثانية على ظهور المنسحبين من الموهوك، وقتل كثيراً منهم. وقد انتهت المعركة تقريباً بعد دقائق قليلة من بدايتها، وقد سلخ حلفاء شامبلين فِراء رؤوس كثير من



«صمويل شامبلين وهو يطلق النار على محاربي الموهوك على شاطئ بحيرة شامبلين في عام 1690» (صورة مأخوذة من: صمويل شامبلين، «رحلات على بحيرة شامبلين»).

الموهوك الموتى وأخذوها كعلامات دالة على النصر يمكنهم أن يحملوها معهم خلال عودتهم إلى قراهم، حيث يمكنهم أن يحظوا بالتحية من النساء اللائي يسبحن نحو زوارق «الكَنْو» التي تحمل هؤلاء الرجال، ويعلقن فِراء الرؤوس المسلوخة حول أعناقهم.

لقد أسروا أيضاً حفنة من الموهوك كي يأخذوهم شمالاً ويستبدلوا بهم شباباً من الذكور، والذين كانت منزلتهم هي الأضعف دائماً على جانبي الحروب التي كانت تدور بين القبائل. وقد أصيب عدد من حلفاء شامبلين في الحرب، لكن أحداً منهم لم تكن إصابته قاتلة. لقد كان ذلك النزاع غير متوازن الأطراف، حيث كان هناك الموت والهزيمة على أحد الجوانب، وجراح قليلة بفعل السهام – على

الجانب الآخر - كما كان النصر حاسماً.

إن ما حدث في ذلك الصباح بدا نقطة تحول، وقد أعلن المؤرخ المولّد أوليف ديكاسون Olive Dickason أن تلك المعركة كانت نقطة التحول في تاريخ العلاقة بين الأوروبيين - والسكان الوطنيين (المحليين): البداية لعملية طويلة، بطيئة من التدمير للثقافة، ولطريقة في الحياة، لم يَعُد أحد منهما بعدها، إلى حياته السوية السابقة حتى الآن. ولكن كيف حدث ذلك كله؟

لقد كان صمويل شامبلين جزءاً من تلك الموجة الأولى من الغزوات التي قام بها الأوروبيون لقارة أمريكا الشمالية. وقد قام برحلته الأولى متجهاً إلى أعلى (شمالاً) عبر نهر سانت لورنس ونحو منطقة البحيرات العظمى - وهي منطقة أطلق عليها شامبلين اسم كندا - وقد حدث ذلك عام 1603 حين كان شامبلين بعد ذلك مجرد عضو في تلك الحملة الفرنسية الموجهة إلى هناك لإقامة تحالفات تجارية، وقد كان أكثر الشخصيات التي قابلها أهمية خلال تلك الرحلة هو «أنادابيجو» Anadabijou، وهو زعيم إحدى القبائل التي أطلق الفرنسيون عليها اسم قبيلة المونتاني Montagnais (2)، وقد كان خمسة آلاف من أفراد هذه القبيلة يعيشون في ذلك الوقت على طول الشاطئ الشمالي لنهر سانت لورنس حول تادوساك Tadoussac، حيث كان نهر ساجوني Saguenay يتدفق ويصب في نهر سانت لورنس.

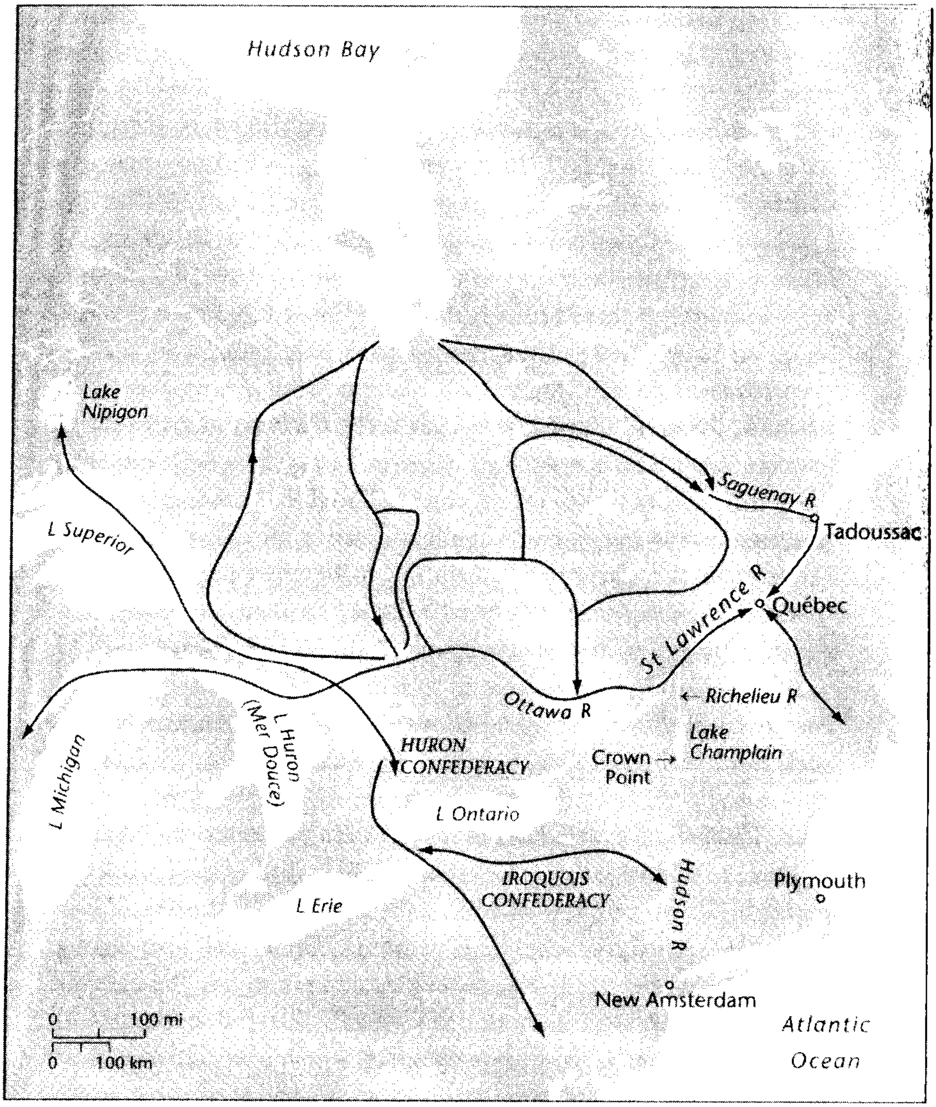
وقد كان نهر ساجوني يمثل أحد طرق التجارة المهمة حتى قبل أن يصل الفرنسيون ويظهروا في المشهد، لكن بضائعهم المصنعة في

فرنسا، وبخاصة الأدوات الحديدية، قد عملت على زيادة تدفق الفرو والنحاس عبره، والتي كانت تأتي من الشمال البعيد بمقدار بعد خليج هدسون. وقد مكنت السيطرة على «تادوساك» الزعيم «أنادابيجو» وقبيلة المونتاني من الوصول إلى الرخاء، كما أنها جعلتهم هدفاً لهجوم القبائل الأخرى التي كانت تواقة للتحكم في التجارة، وبخاصة قبيلة الموهوك، وقد حيا «أنادابيجو» شامبلين، ورحب به في موكب عظيم وولائم، فقد كان يحتاج إلى تحالف مع الفرنسيين مثلما كانوا يحتاجون إلى تحالفهم معهم. وقد فهم شامبلين أنه دون مساندة قبيلة المونتاني، فإن الفرنسيين لن يستطيعوا البقاء أحياء، ولو لشتاء واحد، فضلاً عن ذكر ما يتعلق بإمكانية أن يبدؤوا طريقهم ويتسللوا داخل شبكات التجارة التي كانت موجودة فعلاً. وفي الوقت نفسه، على كل حال، فإن شامبلين قد أدرك أن السماح لـ«أنادابيجوا» بالتحكم فيما يقع في متناوله من التجارة، سيعمل على خفض أرباحه هو منها؛ ومن ثم كان عليه أن يتقدم بوثبات متجاوزاً قبيلة المونتاني، وأن يتوسع في تعاقداته شمالاً نحو نهر لورنس من أجل أن يتحرك على نحو يكون عنده أقرب ما يكون من إقليم فرو القُنْدُس.

ولعل هذا هو السبب الذي جعله يذهب من أجل القتال عند بحيرة شامبلين في عام 1609، فقد كان يحتاج من حلفائه في الداخل أن يرشدوه نحو الإقليم الأبعد شمالاً، وكانت الطريقة الأكثر ضماناً لولائهم وثقتهم هي أن يذهب معهم إلى الحرب.

إن التجارة قد تدفع نفقات استكشافه ذلك، لكن الحرب هي ما قد

تجعله يكسب الثقة التي تعتمد تلك التجارة عليها. لقد كان أفراد قبيلة «المونتاني» هم أولى «الأمم»، كما سماهم شامبلين، التي بنى معها سلماً من التحالفات عبر الثلاثين سنة التالية من حياته، مع أنه كان مستعداً عام 1608 لأن يتجنب «أنادابيجو»، وأن ينقل القاعدة الفرنسية إلى مكان آخر أبعد، أعلى النهر،عند تلك الممرات الضيقة في كيبك Quebec، لكنه كان لا يزال يتاجر مع قبيلة «المونتاني»؛ ومن ثَمَّ فإنه كان حريصاً على يكرِّمهم، وأن يحظى بشرف أن يسافر مع قواربهم عندما اتجه في طريقه عبر النهر شمالاً نحو بحيرة شامبلين خلال السنة التالية. خلال ذلك الصيف شكَّل شامبلين تحالفاً مع أحد أبناء يوروكيه Iroquet وهو أحد زعماء الألجونكين(3) وقد كان يوروكيه تواقاً إلى أن تطوير عملية وصوله إلى السلع التجارية الأوروبية، وكان يريد حليفاً أيضاً؛ وذلك لأن «الألجونكين» كانوا أكثر عرضة للإغارة خلال الصيف من جانب الموهوك أكثر من تعرضهم لذلك من جانب قبيلة المونتاني، وقد تعهد شامبلين لابن ذلك الزعيم بأنه سيعود في يونيو من العام القادم كي يلحق بفرقة محاربي «يروكيه» خلال قيامهم بغارة على الموهوك. ومع الألجونكيين والمونتانيين جاء أعضاء من أمة ثالثة هم «الهيورون» Hurons(4)، وقد شكلت هذه القبائل الأربع اتحاد «هيورون» الذي عاش سكانه في نحو أربع وعشرين مستوطنة كبيرة عبر الغابات المنتشرة شمال بحيرة أونتاريو، أولى البحيرات العظمى. وقد كانوا يتكلمون لهجة قبائل الايروكوا بدلاً من اللهجة «الألجونيكية»، لكنهم كانوا حلفاء الألجونكين وليس الإيروكوين شمال بحيرة أونتاريو.



«طرق التجارة في منطقة البحيرات العظمى»

لم يكن شامبلين حينئذ قد نجح في أن يخترق منطقة الهيورون، لكنه كان معروفاً بالنسبة إليهم فعلاً. وقد كان «أوتشاجوين» Ochasteguin أحد الزعماء القبليين من الهيورون حليفاً لـ«أيروكويت»)، كما أنه استخدمه كي يحظى من خلاله بأن يُقدم إلى شامبلين عام 1609. ومثله مثل يوروكيه، كان أوتشاجوين يريد التجارة، لكنه كان يريد أيضاً حليفاً له في مسعاه إلى الحرب مع اتحاد قبائل الإيروكوا.

وقد كان الموهوك هم الأمة المتمركزة أقصى الشرق من بين الأمم الخمس التي شكلت اتحاد قبائل الأيروكوا الكونفدرالي خلال القرن السادس عشر، والذي تحكَّم في المنطقة الكلية الخاصة بالغابات الموجودة شمال بحيرة أونتاريو. وقد كانت قبيلة الموهوك تعرف بأنها البوابة الشرقية لاتحاد قبائل الإيروكوا، وقد كُلِّفت بحماية ذلك الجناح (الشرقي) من ذلك الاتحاد؛ مما جعل أفراد قبيلة الموهوك أول من تعرضوا لوصول الأوروبيين قبل غيرهم من حلفائهم من القبائل الأخرى، وقد كانوا تواقين إلى الوصول إلى السلع التجارية الأوروبية، وبخاصة الفؤوس، ومن ثَمَّ فإنهم أغاروا سنوياً على وادي سانت لورنس للحصول عليها. وقد أطلق شامبلين عليهم اسم «الإيروكوا الأشرار» من خلال نوع من التضاد مع الهيورون، الذين أطلق عليهم اسم «أفراد الأيروكوا الطيبون» (وقد كان أفراد قبائل الهيورون يتكلمون لغة محلية أيروكية)[5].

وقد استحث التهديد الذي شكله الموهوك قبائل الهيورون والألجونكين والمونتاني لبعث الحياة مرة أخرى بقوة في ذلك التحالف بينهم من أجل أن يتعاملوا مع ذلك التهديد. لقد كانوا غير واثقين في

البداية من مدى ما سيكون عليه إخلاص حلفائهم من الفرنسيين لهم، فقد تشككوا فيهم، لأنهم – بوصفهم تجاراً– قد لا تكون لديهم أية حماسة كبيرة للذهاب إلى الحرب، وقد أفضى يوروكيه واوتشاجوين كلاهما بدخيلة نفسيهما حول هذا الأمر إلى شامبلين قائلين له: إنه كانت هناك شائعة منتشرة خلال الشتاء الشديد في عام 1608، مفادها أن الفرنسيين تجار ليس لديهم أي اهتمام بالقتال.

وقد تحدى شامبلين تلك الشائعة، وأكد لهم أنها ليست حقيقية، قائلاً «إنني ليس لدي أية نية أخرى ما عدا القيام بالحرب، لأن ما معنا هو السلاح فقط، وليس سلعاً للمقايضة». وقد أعلن في اللقاء الأول معهم أيضاً: «إن رغبتي الأولى هي أن أقوم بما وعدتكم به»، بل إنه عاد وأكد تحديه السابق قائلاً: «لو أنني قد عرفت من قبل ما أحدثته تلك الشائعات الشريرة عليكم من أثر، فإنني كنت سأجعل من الذين أطلقوا تلك الشائعات أعدائي اللَّدودين قبل أن يكونوا أعداءكم».

وقد ردَّ يوروكيه وأوتشاجوين عليه بابتهاج قائلين إنهما لم يصدقا قط تلك الشائعة، بل إنهما بالفعل لم يصغيا إليها. ويعرف كلُّ امرئ أنهما كانا يتحدثان عن قبيلة المونتاني، التي لم يكن أفرادها سعداء لكونهم على وشك أن يفقدوا تميزهم الخاص بحرية الحصول على السلع الفرنسية، لكنهم كانوا يشتركون مع القبائل الأخرى في هدف أكبر، وهو: الهجوم على قبيلة الموهوك، وهكذا انطلق التحالف المتعدد الأمم في العشرين من يونيو.

بعد أن تفرق قسم من الجماعة وابتعدوا كي يأخذوا زوجاتهم والسلع

التجارية معهم في أثناء عودتهم إلى هيورونيا Huronia، تشكلت مفرزة الحرب من أربعة وعشرين زورقاً من زوارق (الكَنْو)، على كل واحد منها ثلاثة رجال. وقد أحضر الفرنسيون معهم قاربهم الصغير، وكان (الشالوب)، وهو مركب نهري صغير مزود بساريتين، يمكن أن يجلس فيه عشرة رجال يجدفون، في حين يجلس رجل واحد آخر عند ذراع الدفة. وقد أبحر الفرنسيون في ذلك القارب الصغير، مع أن شامبلين قد فضَّل أن يلحق بأفراد قبائل المونتاني في قواربهم الطويلة. وفي التو أصبح القارب الفرنسي (الشالوب) يمثل مشكلة، وقد كان على تلك المفرزة الحربية أن تجدف صعوداً متجهة نحو الشمال عبر نهر ريتشيليو في اتجاه بحيرة شامبلين، ولكن هناك أمامها منحدرات مائية داخل النهر ينبغي لها أن تصعدها أيضاً. وقد كان القارب الفرنسي أثقل كثيراً من أن يتمكن من صعود تلك المنحدرات، وغير ملائم تماماً كي ينقل السلع أو غيرها من الأثقال، بحراً من مكان إلى آخر.

وفي مذكراته التي كتبها شامبلين للاستهلاك العام (وكي يحصل أيضاً على دعم مالي لمغامرته) في فرنسا، قال إنه شكا لزعماء تلك القبائل من أنهم «قد أخبرونا بعكس ما رأيناه عند تلك المنحدرات النهرية»، بمعنى أنه كان من المستحيل عبور تلك المنحدرات باستخدام القارب (الشالوب) الفرنسي وقد عبَّر هؤلاء الزعماء عن تعاطفهم مع ما شعر به شامبلين من ضيق وانزعاج، ووعدوه بتعويضه عن ذلك بأن يقدموا له «أشياء أخرى جميلة»، ولم يكن أوتشاجوين ويوروكيه شديدي الفظاظة كي يخبرا شامبلين مباشرة أن إحضار ذلك القارب الفرنسي معه كان

فكرة سيئة، فقد كان الأفضل له أن يتعلم من خلال خبرته الخاصة كما اعتقدا، بدلاً من مواجهته وإثارة مشاعر سيئة لديه منذ البداية.

مع تقدم الدورية الحربية إلى الأمام، أُرْسِلَ عدد من الأشخاص لاستكشاف بضع علامات خاصة بالعدو، وكلَّ مساء مع هبوط الظلام كان هؤلاء الكشافة المستطلعون يعودون إلى الدورية. الرئيسية، ثم يستغرق المعسكر كلُّه في النوم. ولم يكن هناك أحد يأخذ على عاتقه مهمة الحراسة. وقد أثار هذا التراخي غضب شامبلين الشديد، وعبر متذمراً عن إحباطاته التي شعر بها من سلوك حلفائه من المواطنين الأصليين وأخبرهم قائلاً لهم: «ينبغي لكم وضع رجال كي يستمعوا ويروا ما إذا كانوا يلاحظون أي شيء، إنهم ينبغي ألا يعيشوا مثل البهائم كما تفعلون الآن». وكلمة bestes التي استخدمها هي التهجي الفرنسي القديم لكلمة bestes أو beasts، وقد يحسن ترجمتها إلى «مخلوقات سخيفة»، أو على نحو أسوأ: «حيوانات غبية»، وقد كان هناك مستوى معين من عدم الفهم اللغوي، الذي ربما أشعر الجانبين، كلاً على حدة، بالإهانة من بعض التعليقات اللفظية اللاذعة التي قالها الطرف الآخر. وفي كلِّ الأحوال، لم تكن المشكلة الموجودة بينهما لغوية، فذلك الاحتراس الحساس الضروري من وجهة نظر شامبلين لم يكن يُنْظَرُ إليه على أنه كذلك من جانب المواطنين الأصليين.

«لا نستطيع أن نبقى مستيقظين»، هكذا شرح أحدهم ذلك وهو يتجمل بالصبر إزاء الأوروبي الشديد الغضب، «فنحن نعمل كثيراً خلال النهار ونقوم بالصيد»، ولم تستطع وجهة النظر العسكرية الفرنسية أن

تلتقط المنطق النشيط في ذلك الموقف: إن الإنسان يؤدي ما ينبغي له أن يؤديه، وليس ما يريد منه شخص آخر أن يؤديه. لقد كان من الحمق عدم وضع حراس عندما يكون محاربو اتحاد قبائل إيروكوا قريبين، لكن الأسوأ حماقة أيضاً أن يتم هدر الطاقة الثمينة لهؤلاء الحراس عبر وضعهم في أماكن معينة، عندما لا يكون العدو داخل نطاق مسافة تثير البلبلة. وأما شامبلين فقد تخيل الأمور الحربية بطريقة أخرى. ولم يستطع أن يفهم أن المواطنين المحليين ينظمون كذلك شؤون الحرب بحيطة وحذر أيضاً، ولكن بطريقة تختلف عما يقوم به الأوروبيون.

عندما أصبحت الدورية الحربية على مسافة رحلة يوم من بحيرة شامبلين، كان عليها أن تقرر ما إذا كان ينبغي التقدم إلى الأمام أو أن تعود على أعقابها إلى الخلف. وخلال ذلك كلّه كان المحاربون المحليون يبذلون جهداً كبيراً في البحث عن علامات لا تدل فقط على أن الأيروكوا قريبين أو في منطقة مجاورة، ولكن أيضاً عن علامات تدل على ما إذا كان الحظ سيكون معهم في هذه المغامرة أو لا. وقد كان تبادل الكلام واستماع بعضهم إلى أحلام بعض، الوسيلة الخاصة لديهم لاكتشاف المستقبل، ومع ذلك لم يكن هناك حلم لدى أحدهم يحسم الأمر، ومن ثَمَّ كان عليهم أن يستشيروا «الشاماني» (shamani).

وقد نصب «الشاماني» كوخه البيضوي الشكل بإحكام تلك الليلة كي يتكهن بالمسار الأكثر حكمة. وعندما نظم ذلك الكوخ بشكل يرضيه، فإنه خلع ثوبه ووضعه فوق الكوخ، ثم دخله عارياً، استغرق في حالة ما من الغشية، حيث كان العرق يتفصد منه، وجسده يتشنج بعنف

بحيث اهتزت جوانب الكوخ بفعل قوة تلك الحالة التي تلبسته.

وقد تحلَّق المحاربون في دائرة حول ذلك الكوخ المسحور، وكانوا يصغون إلى ذلك التتابع المستمر من الكلمات غير المفهومة التي كانت تصدر عنه، وتبدو مثل محادثة تدور بين صوت الشاماني (الطبيب الساحر) الواضح، والصوت الخفيض الخشن للروح التي كان يتحدث إليها. وقد راقبوا أيضاً احتمال ظهور علامات تدل على وجود «نار تلك الروح» في الهواء فوق ذلك الكوخ المنصوب.

وقد كانت نتيجة عملية الكهانة أو التنبؤ بالغيب تلك إيجابية، فالدورية الحربية ينبغي أن تتقدم، هكذا اتُخذ القرار، وقام الزعماء بجمع المحاربين معاً، وحددوا الخطة الخاصة بنظام المعركة، فوضعوا عصياً في أماكن واضحة على الأرض، عصا بالنسبة إلى كلِّ محارب، كي يبينوا لكلِّ رجل الموضع الذي ينبغي أن يتخذه عندما يحين وقت المعركة. وقد تدرب الرجال على هذه التشكيلات مرات كثيرة بحيث إنهم استطاعوا أن يدركوا كيف ستُنَفذ هذه الخطة عندما يواجهون العدو. وقد أحب شامبلين عملية التخطيط هذه، لكنه لم يحب عملية الكهانة فقال: «وغالباً ما كنت أشير إليهم وأوجه أنظارهم إلى أن ما يفعلونه هو محض حماقة، وأنه ينبغي لهم ألا يعتقدوا في مثل هذه الأشياء». ولا بد أن حلفاءه قد اعتقدوا أنه مُعَوَّق روحياً بسبب فشله في فهم تلك الحاجة إلى الاقتراب من المعرفة العليا.

وفيما يتعلق بموضوع الكهانة توصل شامبلين في النهاية إلى حالة من التسوية، أو الحل الوسط بينه وبين تلك الممارسات المحلية. فقد كان

رفاقُهُ الوطنيون المحليون يسألونه على نحو منتظم عن أحلامه، مثلما كان بعضهم يسأل بعضاً أيضاً، وقد كان ينكر على نحو مستمر وجود أية أحلام لديه. لكنه بعد ذلك أخبرهم بوجود بعض الأحلام لديه. وقد جاءه الحلم عندما كانت الدورية العسكرية على مسافة يومين أو ثلاثة من لحظة الاشتباك. عند تلك النقطة كان المحاربون يحركون مجاديف في قواربهم بسرعة متجهين شمالاً نحو بحيرة شامبلين. ثم إنه وبمحاذاة الشاطئ الغربي للبحيرة، وبعيداً بدرجة كافية عن الجنوب، لاحت جبال أديرونداك Adirondack أمام البصر، وعرف المحاربون أنهم يقتربون حثيثاً من المنطقة التابعة للموهوك، وأن عليهم الآن أن يسافروا خلال الليل، وان يقضوا ساعات النهار مختبئين في الأرجاء الكثيفة من الغابة، حيث لا نار توقد، ولا صوت يصدر، ثم أخيراً استسلم شامبلين للحلم.

«لقد حلمت أنني أرى أعداءنا وهم يغرقون أمام أعيننا في البحيرة القريبة من جبل ما»، وقد أفضى لهم بذلك عندما استيقظ، وسألوه كما كانوا يفعلون دوماً – عمّا إذا كان لديه حلم يحكيه أو لا، وقد شعر حلفاؤه بالإثابة الشديدة والرضا عندما تلقوا هذه العلامة. وعندما حاول أن يشرح لهم أنه رغب في أن ينقذ الرجال الغرقى «في حلمه» ضحكوا ساخرين منه: «ينبغي أن نتركهم جميعاً كي يهلكوا» كما قالوا في إصرار – «وذلك لأنهم رجال جديرون بالاحتقار».

ومع ذلك، فإن حلم شامبلين قد حقق الخدعة التي كان ينطوي عليها؛ لقد منح هؤلاء الحلفاء الثقة بأن نتيجة تلك الغارة مؤكدة في صالحهم.

وربما تضايق شامبلين من احتفالاتهم غير العادية المتعلقة بالخرافات كما وصفها، لكنه كان ماكراً بدرجة كافية مكنَّته من عبور ذلك الخط الفاصل بين ذلك الاعتقاد الذي يفصله عنهم وبين أن يعطيهم ما يريدون.

عندما بزغ فجر التاسع والعشرين من يونيو نصب المحاربون معسكراً بعد نهاية ليلة من الحركة السريعة بالقوارب، وقد التقى القادة كي يراجعوا خططهم الحربية القصيرة وقد أخبروا شامبلين أنهم سيشكلون أنفسهم في نظام دقيق كي يواجهوا العدو، وأن عليه أن يتخذ موقعاً خاصاً في الجبهة الأمامية، وقد أراد شامبلين أن يقترح خطة بديلة يمكن الاستعانة خلالها بالبنادق الصغيرة (القَربَينة) التي كان الفرنسيون يحملونها، وقد ضايقه أنه لم يستطع أن يشرح التكتيكات الخاصة بمعركته، والتي لم تكن تهدف فقط إلى تحقيق النصر، بل إلى إلحاق هزيمة ماحقة بالعدو أيضاً. وقد ذكر المؤرخ جورج سيوي Sioui، وهو من طائفة الويندات «الموهوك» wendat ومنحدر من الهيورون، شكوكه التي فحواها أن هدف شامبلين تمثل في إبادة الموهوك، وليس هزيمتهم في معركة واحدة فحسب. ولم تكن المعتقدات الحربية الأوروبية ترضى بمثل ذلك الإذلال للعدو وتركه يفر مولياً الأدبار، مثلما كانت حروب السكان المحليين هناك تتقبل ذلك.

لقد كان هدفهم – كما عبروا عنه من خلال لغتهم – هو أن يعيدوا ترسيم الحدود البيئية بين القبائل في تلك المنطقة. أما هدف شامبلين – على العكس من ذلك– فكان يتمثل في إقامة موقع حصين للفرنسيين في الداخل. وقد أراد أن يقتل أكبر عدد يستطيع قتله من الموهوك، لا

مجرد أن يحظى بالمجد كمحارب، بل أن يمنع «الموهوك» من إعاقة الاحتكار الفرنسي للتجارة، وقد كان لديه سلاح واحد كي يحقق من خلاله ذلك، وهو: القَرَبِيْنة، تلك البندقية القديمة.

لقد كانت بندقية شامبلين العالم الحاسم الذي حوَّل مسار تلك الغارة، والحجر الذي بعثر التوازن غير الوطيد بين أمم محلية كثيرة، ومن ثَمَّ فإنه منح الفرنسيين السلطة الخاصة لإعادة تنظيم اقتصاد تلك المنطقة، ففي عام 1609 كانت تلك البندقية ابتكاراً حديثاً نسبياً. لقد كانت ابتكاراً أوروبياً، هذا مع أن الأوروبيين لم يكونوا هم الذين اخترعوا الأسلحة النارية؛ فقد كان الصينيون أول من صنّع البارود واستخدموه لإطلاق الشعل الملتهبة والقذائف. لكن الحدادين الأوروبيين هم من أثبتوا براعة خاصة أيضاً في تطوير تلك التكنولوجيا، وكذلك خفض حجم المدفع الصيني ووزنه، بحيث تحول إلى سلاح ناري ثابت ويمكن حمله. وقد جاء اسم «القَرَبِيْنة» أو البندقية الخطافية hook gun نسبة إلى ذلك الخُطَّاف (أو الكُلاَّب) الذي كان يحملها.

وقد كان وزن الأجزاء وعدم التحامها هما ما جعلا من الصعب تثبيت تلك البندقية وتصويبها نحو الهدف بدقة، أما الخطاف فقد أتاح الفرصة لمستخدم البندقية أن يعلقها على حامل ثلاثي الأضلاع، ومن ثَمَّ يجعلها ثابتة في مكانها قبل أن يطلق النار. وقد كانت الطريقة الأخرى لتثبيت البندقية هو وضعها مستندة إلى دعامة أو مسند ثنائي القوائم يوضع على نحو مرتفع بقدر ارتفاع عيني الرامي، لكن وعلى نحو مبكر خلال القرن السابع عشر أنتج

صناع الأسلحة النارية بنادق أخف وزناً يمكن من خلالها الاستغناء عن كل تلك الأجزاء الإضافية السابقة، فقد خَفّضَ صناع الأسلحة الهولنديون وزن تلك البندقية بشكل مذهل، فبلغ وزنها أربعة كيلو جرامات ونصف الكيلوجرام فقط. وقد كانت البندقية التي حملها شامبلين من ذلك الوزن، وكانت مصنوعة في فرنسا لا في هولندا، لكنها كانت قابلة لأن توجه نحو الهدف دون أن يعوقها خُطّاف أو دعامة ثابتة.

على كلٍّ حال، فإنه بقدر تلك الانسيابية التي أصبحت عليها تلك البندقية، فإن عملية إطلاق النار من خلالها كانت لا تزال عملية مرهقة، وقد كان المقداح أو زند البندقية لا يزال في طور عملية الاختراع والتطوير في عام 1609. وبالنسبة إلى ذلك التاريخ كان لا يزال على مستخدم تلك البندقية أن يتعامل بدقة مع فتيل إشعال البندقية – وهو مشبك معدني متصل بفتيل مشتعل عُرِفَ على أنه فتيل لإطلاق البارود الموجود في مخزن داخل البندقية. فعندما كان مستخدم البندقية يحرك ذلك الفتيل بسرعة إلى أسفل في اتجاه مخزن البارود، فإن البارود يشتعل ويواصل اشتعاله متجهاً عبر فجوة في ماسورة البندقية، مما يجعل شحنة البارود داخل تلك الماسورة تنفجر (وفي منتصف القرن السابع عشر اكتشف الحدادون وصناع الأسلحة كيف يمكنهم صناعة مقداح أو زناد بندقية، لا يكون عرضة لأن ينفجر عندما تسقط البندقية من يد حاملها، وعند تلك المرحلة حلّت البندقية المسماة المَسْكِت محل البندقية المسماة القَرَبِيْنة).

على الرغم من تلك الآلية المرهقة المزعجة الخاصة بإطلاق النار من «القَرَبِيْنة»، فقد كانت هي الأداة التي أعادت رسم خريطة أوروبا، فمن خلالها لم يعد حجم أحد الجيوش هو العامل المحدد للنصر، فقد أصبح المهم هو الكيفية التي يتم من خلالها تسليح الجيش. وقد وضع صناع الأسلحة الهولنديون أنفسهم في الجبهة الأمامية لتكنولوجيا الحروب، فزودوا جيوش الدولة الهولندية الجديدة بأسلحة كانت أكثر سهولة في الحمل وأكثر دقة، وأكثر قابلية كذلك للإنتاج الوافر الكبير، وقد أنهت «بندقية القَرَبِيْنة» الهولندية الهيمنة الإسبانية على القارة في أوروبا، كما أنها أتاحت للهولنديين أن يقفوا موقف التحدي للهيمنة الإيبيرية خارج أوروبا كذلك، وقد منح مستخدمو القَرَبِيْنة الفرنسيون أمثال شامبلين بلدهم فرنسا، القوة كذلك لأن تنفذ إلى منطقة البحيرات العظمى، وتلحق هزيمة نكراء بالنفوذ الهولندي في أوروبا بعد ذلك.

كان تطوير «القَرَبِيْنة» مدفوعاً بالتنافس بين الدول الأوروبية، لكنه كان أيضاً التطوير الذي منح الأوروبيين أفضلية على الشعوب الأخرى في بقاع العالم. فدون ذلك السلاح، لم يكن الإسبان قد استطاعوا غزو المكسيك وبيرو، ودون تلك البندقية لم يكن ذلك الغزو ممكناً على الأقل قبل أن تضرب هذين البلدين الأوبئة وتهلك كثيراً من سكانهما المحليين. وقد سمح ذلك التفوق التكنولوجي للإسبان بأن يأخذوا المهزومين عبيداً لهم، وأن يجبروهم على العمل في مناجم الفضة عبر ذلك العمود الفقري الأساسي للقارة في جبال الإنديز في أمريكا الجنوبية. وقد أنتجت تلك المناجم كميات ضخمة من ذلك المعدن النفيس قامت بدورها

بتمويل مشترياتهم من أسواق البيع بالجملة العالمية في الهند والصين. لقد قامت سبائك الفضة (والذهب) المنتجة من أمريكا الجنوبية بإعادة تنظيم الاقتصاد العالمي، فربطت أوروبا بالصين، وبطريقة لم يتصلا من خلالها من قبل قط، ومع ذلك فإن تلك السبائك قامت بذلك السحر الخاص بها من خلال ذلك الطرف المستدق للبندقية.

وقد انسل سحر الأسلحة الصغيرة متحرراً من قبضة التحكم الأوروبية عندما دخلت تلك الأسلحة إلى ثقافات أخرى تعمل بالمعادن، وقد كانت أول بنادق «من نوع القَرَبِيْنة» تدخل اليابان، هي تلك التي جلبها اثنان من المغامرين البرتغاليين معهما عندما حصلا على إذن بالمرور إلى هناك على سفينة صينية عام 1543. وقد كان الحاكم الإقطاعي هناك شديد التأثر والاهتمام بذلك، إلى حد أنه دفع فدية ضخمة كي يحصل على بنادقهما، ثم قام بتسليمها فوراً إلى صانع سيوف محلي، كان قادراً بدوره على أن يصنع نسخاً مطابقة على نحو مقبول خلال سنة. وخلال عقود قليلة من السنوات، كانت اليابان مسلحة على نحو تام.

وعندما قامت اليابان بغزو كوريا عام 1592، كان ذلك الجيش الغازي يحمل معه عشرة آلاف من بنادق «القَرَبِيْنة» في معركته ضد المدافعين عن كوريا. وما لم يكن الهولنديون قد وصلوا بأسلحتهم الأكثر تفوقاً، والتي كان اليابانيون حريصين على امتلاكها، فإنه ربما لم يكن ليسمح لهم بفتح أول مراكزهم التجارية في اليابان عام 1609، وهي تلك السنة نفسها التي أظهر خلالها شامبلين قدرة «القَرَبِيْنة» على صعق قبيلة الموهوك، أما عندما توحدت اليابان تحت إمرة قيادة موحدة، اختار

قادتها خلال ثلاثينيات القرن السابع عشر، أن يكفوا عن مواصلة تلك الحلقة المفرغة الخاصة بالتصعيد في عملية التطوير للأسلحة النارية من خلال التحريم لكلِّ عمليات الاستيراد التالية لها، ولذلك فإنهم فرضوا نوعاً من النزع للسلاح متسماً بالكفاءة داخل البلاد، وهو اتجاه استمر موجوداً هناك حتى منتصف القرن التاسع عشر.

لم تكن الثقافات الأمريكية المحلية قد استطاعت أن تعرف كيف تصنع المعادن، لكنها سرعان ما تعلمت كيف تستخدم الأسلحة النارية الصغيرة، كما أنها حصلت عليها أيضاً من خلال التجارة. وقد حاول شامبلين «أن يوقف تسرب الأسلحة إلى تلك الثقافة المحلية»، فقد كان يدرك أن ذلك قد يقتطع جانباً مهماً من تميزه الحربي هناك، لقد كان قادراً على كسب معركته بجوار بحيرة شامبلين في عام 1609؛ لأنه لم تكن ثمة أية بنادق قد وقعت بعد في يد الموهوك، لكنّ تجاراً أوروبيين آخرين لم يكونوا على مثل ذلك الحذر، فقد باع الإنجليز البنادق هناك، في مقابل جلود الفرو غير المدبوغة، لكن المشترين كانوا فقط من حلفائهم. أما الهولنديون، والذين كانوا يتاجرون في أمستردام الجديدة (نيويورك الآن)، فقد كانوا أقل تمييزاً بين المشترين، فقد باعوا بنادق «القَرَبِيْنة» لأي إنسان راغب في الشراء. وقد تعلَّم التجار المحليون في التو واللحظة قيمة البنادق. وجعلوا من الحصول عليها أساس أسعار السوق؛ ونتيجة لذلك كلِّه تدفقت البنادق إلى داخل البلاد وأصبحت سوقها رائجة، بعيداً عن تحكم الأوروبيين. وقد أدرك الهولنديون أخيراً أن البنادق التي كانوا يبيعونها لحلفائهم كانت تصل في النهاية

إلى أيدي أعدائهم، ومن ثَمَّ فإنهم أعلنوا صراحة أن أي أوروبي يبيع البنادق للسكان المحليين سيُعْدَم، ولسوء الحظ، فإن ذلك الأمر المعلن كان متأخراً بالنسبة إليهم بما مقداره عقد من الزمان على الأقل.

ولقد لعبت «القَرَبِيْنة» دوراً إضافياً آخر في تلك الحملة. وقد تجلى ذلك بعد يوم واحد من نهاية المعركة، حيث كان هناك ثمن آخر للهزيمة يتمثل في الأضاحي، أو تلك القرابين التي تقدم في أرض المعركة. فقد توغل أفراد قبائل الألجونكين والهيورون بعمق داخل إقليم الموهوك، بحيث إنهم خشوا من العودة السريعة لأعدائهم، وبأعداد غفيرة. ولم تكن الدهشة التي أصابتهم بعد ذلك النصر الأول قابلة للتكرار، وكان عليهم أن يغادروا المكان، ولكنهم لم يكونوا راغبين في ترك محاربي الموهوك الذين أسروهم، أو التخلي عنهم بسهولة. فقد كان شبان الموهوك الأُسَارَى ذوي قيمة عالية ينبغي عدم إضاعتها، حيث كان ينبغي أخذ بعضهم إلى الموطن الخاص بالمنتصرين وتحويلهم – لو كان ذلك ممكناً – إلى أعضاء في القبائل التي أسرتهم، لكن ينبغي التضحية بواحد منهم على الأقل، وقد كانوا يصيبون الأسرى بالعرج من خلال قطع بعض أوتار سيقانهم، ثم يقيدون أيديهم، ويدحرجونهم داخل قواربهم، ثم يتجهون بأقصى سرعة يستطيعون من خلال حركة مجاديف هذه القوارب بها نحو الجنوب.

ومع غروب شمس ذلك اليوم كانوا قد قطعوا نحو أربعين كيلومتراً في طريقهم، وقد كانت تلك مسافة كافية لكي يقوموا بمهمة التضحية أو تقديم القرابين التي أرادوها. وقد كانت تلك مهمة

شاقة جداً، وسوف تستغرق الليل كلَّه.

كانت التضحية بمحارب من الموهوك تحدث من أجل تقديم الشكر للأرواح التي ساعدتهم في المعركة، أو كرمتهم بعلامات الحلم التي منحت لهم، في أثناء النوم، وكذلك من أجل الانتقام من أرواح المحاربين الذين قتلهم قبائل الإيروكوا في غاراتهم السابقة. وقد كان ذلك أيضاً أحد الطقوس الشديدة القسوة بالنسبة إلى الضحية، لقد كان الاختبار النهائي للشجاعة التي ستعلي من قدره كمحارب عظيم، أو تقوم بإذلاله كجبان رعديد. وقد كان ذلك الطقس يبدأ بدعوة للضحية أن يغني أغنيته الحربية الخاصة، وبمجرد أن يبدأ في الغناء، فإن آسريه كانوا يجذبون بعض العصي المتوهجة من النار المشتعلة ويحرقون جذع ذلك الأسير. وقد كانوا يفعلون ذلك ببطء. واستمرت محاكمة التعذيب حتى شروق الشمس. وعندما كان محارب الموهوك يصاب بالإغماء فإنهم يصبون ماءً بارداً على ظهره من أجل إفاقته ثانيةً. وقد كانت ليلة التعذيب تلك تنتهي عند الفجر بنزع أحشائه، ثم القيام بطقوس لأكل لحمه.

وقد أراد شامبلين أن ينهي عملية التعذيب تلك قبل أن تكتمل. فالمحارب الموهوكي الأسير لم يرتكب أية جرائم، كما أنه لم يكن يمتلك أية معلومات مفيدة، وقد بدا هذا في ضوء الشروط الأوروبية كافياً لإيقاف استمرار عملية التعذيب.

«نحن لا نمارس مثل تلك الأنواع من القسوة»، هكذا صرح شامبلين لهم، «فنحن نقتل الناس دفعة واحدة، فإذا أردتم مني أن

أرديه لكم قتيلاً بالبندقية، سأكون مسروراً للقيام بذلك»، ثم مشى متباطئاً بعيداً عنهم، مظهراً علامات على انزعاجه مما يحدث. وقد تضايق حلفاؤه من السكان المحليين منه، وطالبوه بالعودة لقتل الضحية، إذا كان ذلك سيسره، فاتخذ شامبلين طريق العودة إليهم، ليس لأن السكان المحليين قد تقبلوا صواب ما اقترحه كنهاية لمسار عملية التعذيب، أو أنهم شعروا بأن ما يفعلونه كان خطأ؛ بل لأن التهذيب تطلب منهم الإذعان لرغبة ضيفهم. كما أنهم ربما افترضوا أيضاً أن طلقة قاتلة بـ «القربينة» هي ما يقوم به الفرنسيون حين يقدمون قرابين النصر، أو أضحياته.

وقد انعقدت الأواصر بين «أوتشاجوين» و« شامبلين» مرة أخرى، خلال الصيف التالي، وألحقا هزيمة مدمرة ثانية بقبائل الموهوك. وخلال اللقاء الثالث بينهما، في صيف 1611، أحضر «أوتشاجوين» معه زعماء كثيرين من تحالف الهيورون، وقد أراد الجانبان التفاوض حول توسيع التجارة المباشرة بينهما، وقدم زعماء الهيورون أربعة من خيوط المسبحة تشكل عُقداً من الصدف إلى شامبلين كعُرْبُون محبة للعهد الطيب الذي عقدوه معه، وقد عرفت تلك الخيوط باسم «الومبم» wumpum، وهو نوع من أنواع العملة، وشكل من أشكال التعاقد في الثقافة الخالصة بأهل البلاد الأصليين هناك.

وقد كانت تلك الخيوط الأربعة المعقودة معاً تدل على أن زعماء تلك القبائل الأربعة من اتحاد الهيورون الكونفيدرالي يلزمون أنفسهم بتحالف مع الفرنسيين، ومازال حزام حلف الهيورون كما عرف بهذا

الاسم موجوداً حتى الآن.

وإضافة إلى «الومبم» قدم زعماء الهيورون إلى شامبلين هدية من النوع الذي كان يرغب فيه أكثر من غيره: خمسين قطعة من الجلد غير المدبوغ (اللبدة) المنتزعة من حيوان القُنْدُس[4].

ربما لم يفهم زعماء الهيورون، لماذا كان الفرنسيون يريدون أن يزودوهم بمخزون غير محدد من فرو القُنْدُس غير ما عرفوه عن قيمته العالية في ثقافتهم. ولم يكن الفرنسيون يريدون جلد الحيوان غير المدبوغ من أجل فروه الخارجي اللامع كما كان يفعل أصحاب تلك البلاد الأصليين، من أجل أن يبطنوا به ملابسهم أو يزركشوها ويزينوها له. لقد كان الفرنسيون يريدون، عوضاً عن هذا، ذلك الفراء الداخلي الذي يزودهم بالمادة الضرورية لصناعة اللباد. وقد كان فرو القُنْدُس يتسم بوبر فريد من نوعه، ومن ثَمَّ فإنه كان قابلاً لأن يصبح صلباً أو أن يتماسك حينما يتم غليه ببطء في مزيج سمي من آسيتات النحاس والصمغ العربي المضمخ بالزئبق (هكذا اشتهر صناع القبعات بأنهم مجانين بسبب استنشاقهم لذلك الخليط السُمِّي خلال عملهم)، ونتيجة ذلك كله هي أنه عندما تُدَق المادة التي تخرج من تلك العملية بقوة وتُجفَّف، يظهر لنا أفضل نوع من اللباد؛ اللباد المناسب لأفضل نوع من القبعات.

قبل القرن الخامس عشر كان صناع القبعات الأوروبيون يصنعون اللباد الخاص بالقبعات من القُنْدُس أو السمور المحلي هنا، لكن النصب الزائد للأشراك من أجل صيد تلك الحيوانات، قد أدى إلى هلاك العدد

الكلي لها، كما أن تطهير المناطق البرية في شمال أوروبا أو حتى تجريفها أدى إلى إبادة سكانها الطبيعيين من تلك الحيوانات وأمثالها.

هكذا تحركت تجارة الفرو بعد ذلك نحو الشمال، أي نحو الدول الإسكندنافية، حتى قادت الأشراك الزائدة المنصوبة هناك حيوانات القُنْدُس الإسكندنافية أيضاً إلى الانقراض، ومعها اختفت قبعات القُنْدُس أيضاً.

خلال القرن السادس عشر، كان صناع القبعات مضطرين إلى استخدام صوف الأغنام لتكوين اللباد. واللباد المتكون من هذا الصوف ليس اللباد المثالي لصناعة القبعات، فهو خشن مقارنة بلباد القُنْدُس، ويفتقر كذلك إلى القدرة الطبيعية الخاصة لوبر القُنْدُس على تغطية أو حماية الرأس أو الجسم، وقد كان ممكناً بالنسبة إلى صناع اللباد أن يمزجوه بكمية من وبر الأرنب من أجل المساعدة في عملية التغطية أو الحماية تلك، لكن الناتج يظل أيضاً ليس بالقوة المطلوبة. لقد كان لباد الصوف قابلاً لامتصاص مياه المطر بدلاً من أن يقاومها، وبالتالي فإنه يصبح مبللاً، كما كان الصوف غير جذاب بسبب لونه الباهت المحايد. وقد كان يمكن صبغ ذلك اللباد، لكن الصبغات الطبيعية التي استخدمها صناع اللباد لم تكن ثابتة كذلك، خاصة عندما يسقط المطر. كذلك يفتقر لباد الصوف إلى القوة والمرونة المميزتين لفرو القُنْدُس، لقد كان غطاء الرأس المميز للفقير الهولندي المسمى klapmuts يُصنع من لباد الصوف، ولعل هذا هو السبب الذي جعله يبدو مترهل الحواف دائماً.

قرب نهاية القرن السادس عشر، اكتُشِفَ مصدران جديدان للباد القُنْدُس، وكان المصدر الأول هو سيبيريا، التي تحرك نحوها الصيادون الروس بحثاً عن صيد أفضل. وقد كانت المسافات التي تستغرقها عملية الشحن للسلع كبيرة جداً، بأية حال من الأحوال، كما أن عملية التزويد أو الإمداد بالفرو التي كان الروس يقومون بها لم تكن ثابتة أو مؤكدة، هذا على الرغم من تلك المحاولات التي قام بها الهولنديون للتحكم في تجارته عبر بحر البلطيق من أجل ضمان شحن الفرو إلى أوروبا، أما المصدر الثاني الذي اكتُشِفَ خلال الفترة الزمنية نفسها تقريباً فقد تمثل في كندا، فقد اكتشف الأوروبيون الذين كانوا يقومون بصيد الأسماك على طول الساحل الشرقي لأمريكا الشمالية، وحيث يصب نهر سانت لورنس في المحيط الأطلنطي، اكتشفوا أن الغابات الغربية هناك كانت عامرة بالقنادس، وأن الصيادين من سكان البلاد الأصليين كانوا مستعدين لبيعها نظير ثمن معقول.

وعندما بدأ فرو القُنْدُس غير المدبوغ (اللباد) يصل إلى أسواق أوروبا بكميات قليلة في ثمانينيات القرن الخامس عشر، فإن الطلب عليه تزايد بسرعة إلى حد كبير، هكذا استعادت القبعات المصنوعة من فرو القُنْدُس مركزها السابق على نحو كبير، وقد انتشر هذا الزي أولاً بين التجار، لكن ذلك الزي وخلال عقود قليلة انتشر أيضاً بين الصفوة من رجال بلاط الحكم والعسكريين، وفي الحال، كان على أي إنسان ميالٍ إلى الخيلاء أو الغرور الاجتماعي أن يمتلك «قُنْدُساً» كما كانت تلك القبعات تسمى.

في العقد الثاني من القرن السابع عشر ارتفع ثمن قبعة القُنْدُس نحو عشرة أمثال ثمن القبعة مثيلتها المصنوعة من لباد الصوف، مما جعل سوق القبعات ينقسم إلى قسمين، أحدهما خاص بهؤلاء الذين يقدرون على شراء قبعات القُنْدُس، والآخر خاص بالذين لا يستطيعون ذلك، وتمثلت إحدى النتائج المترتبة على مثل هذا الانقسام في الأسعار في ظهور سوق نشيطة لإعادة البيع (أو البيع ثانية أو بيع السلع المستعملة)، وكانت خاصة بهؤلاء الذين لا يستطيعون تحمل مغامرة الإقدام على شراء قبعة قندس جديدة، لكنهم أيضاً لا يريدون اللجوء إلى ارتداء غطاء الرأس الخاص بالفقراء أو ال Klapmuts، وقد نظمت الحكومات الأوروبية أسواق القبعات المستعملة على نحو جيد، بسبب الخوف المبرر من الأمراض الناتجة من القمل.

وقد دفع التنافس المتعلق بالمنزلة الاجتماعية الخاص بهؤلاء الذين يقدرون على امتلاك قبعات القُنْدُس، وكذلك النضال من أجل الحصول على حصة مناسبة في السوق بين هؤلاء الذين يصنعونها، دفع صناع القبعات إلى اختراع ابتكارات غريبة وغير مألوفة من أجل أن يتفوقوا على منافسيهم. وهكذا ظهرت الاختلافات أو الفوارق اللطيفة في اللون والزئبر (وبر النسيج)، وقد رفد ذلك كلّه ذلك الزي. بحركة دائبة دائمة التغير والتقلب، مما جعله شديد التوهج والحضور، ومفعماً بالحيوية والنشاط في ضوء تلك الفروق. هكذا ارتفعت الأجزاء العلوية من القبعات أو انخفضت، ضاقت مساحتها أو اتسعت، أصبحت قطرية الشكل أو غائرة متدلية، كما أن حواف القبعات بدأت في

الاتساع خلال العقد الثاني من القرن السابع عشر فأصبحت ترتفع إلى أعلى أو تنزل إلى أسفل وفق ما يمليهِ العصر ويتطلبهُ لكنها – تلك القبعات – كانت دائماً تصبح أكبر، ثم إن الأشرطة الملونة قد أضيفت إلى القبعات أيضاً لتمييز ذلك النوع الأكثر مواكبةً منها للعصر، عن ذلك النوع الأقل مواكبةً له، كما أن الأشكال الزخرفية المبهرجة قد ألصقت بها أيضاً، ونحن لا يمكننا أن نكشف ما الذي كان ذلك الجندي يلصقه في لوحة «الضابط والفتاة الضاحكة» في شريط قبعته، لكن لباس الرأس الذي كان يرتديه كان يمثل آخر ما وصلت إليه صيحات العصر الخاصة بالذكور في هولندا في ذلك الوقت، وهو زي كان على وشك أن يصل إلى نهاية حياته كزي، وسوف يختفي أيضاً خلال عقد أو نحوه بعد ذلك.

لقد أدى بدء توافر المعروض من فراء القندس الكندي إلى زيادة الطلب على القبعات، مما أدَّى بدوره أيضاً إلى ارتفاع أسعاره بالنسبة إلى المستهلكين، وارتفاع أرباحه بالنسبة إلى التجار. وقد كان هذا التدفق أشبه بنعمة عظيمة بالنسبة إلى الفرنسيين، هؤلاء الذين حاولوا نتيجة لذلك أن يؤسسوا أولى المستعمرات الصغيرة جداً في وادي سانت لورنس؛ وذلك لأن تلك المنطقة قد زودتهم بمصدر وافر غير متوقع من الدخل مكنهم من أن يغطوا نفقات الاستكشاف والاستعمار. فالسلع التجارية التي قدرت قيمتها بجنيه واحد عندما كانت تغادر باريس كانت تعود مرة أخرى إلى تلك المدينة وقد جاء بدلاً منها وكمقايضة لها جلود قندس تقدر قيمتها بمائتي جنيه. كذلك وثَّقت التجارة

العلاقات بين المواطنين الأصليين وربطتهم بالأوروبيين. وخلال تلك السنوات المبكرة اعتقد الصيادون المحليون أنهم يحصلون على أفضل قيمة لسلعتهم من شركائهم التجاريين، «فالقندس يقوم بكل شيء على أفضل وجه»، كما قال أحد الصيادين من قبيلة المونتاني وهو يضحك ضحكة خافتة ويتحدث إلى أحد المبشرين الفرنسيين، «إنه يكفل لنا وجود غلايات الشاي، والفؤوس الصغيرة، والسيوف، والسكاكين، والخبز، وباختصار، إنه يوفر لنا كل شيء». وقد كان ذلك الرجل يَعتقِد أن الأوروبيين ساذجون كي يدفعوا مثل تلك الأسعار من أجل جلد القندس المسلوخ، وخاصة الإنجليز في «نيوإنجلند»، الذين كان يبيع لهم فرو القندس الذي كان يصطاده. «فالإنجليز بلا عقل، فهم يعطوننا عشرين سكيناً (مدية) مثل هذه، نظير فرو قندس واحد». وقد كان الفرنسيون يدفعون ثمناً أقل قليلاً مما يدفعه الإنجليز؛ لقد كان ما يدفعه الأوروبيون له قيمة أعظم من تلك القيمة الخاصة التي تقدر بها جلود القندس في الاقتصاد المحلي. هكذا كان كل طرف يعتقد أن الطرف الآخر يدفع أكثر مما يجب، وقد كان كلاهما بمعنى ما على حق، وقد كان هذا هو السبب الذي جعل التجارة بينهما ناجحة.

كان عام 1609 فترة حاسمة بالنسبة إلى «شامبلين» في تجارة الفرو، فالاحتكار الذي استمر عشر سنوات، والذي تمتع خلاله بتحالف تجاري خاص، كان قد انتهى في السنة الماضية، وقد كافحت مؤسسات القبعات الباريسية الكبيرة جاهدة أن تنهي ذلك الاحتكار من أجل أن تنخفض الأسعار. وقد حارب شامبلين ذلك بشدة قائلاً: إنه دون

ذلك الاحتكار، فإن مشروعه سوف يصبح من الناحية المالية غير قابل للاستمرار في حالة نشاط. وقبل أن يصل الاحتكار إلى نهايته المحتومة كان شامبلين قد قدم التماساً إلى الملك هنري كي يوافق على ذلك الاحتكار. وقد وافق الملك على التماسه هذا، ولكن لمدة عام واحد إضافي. وهكذا فإنه في عام 1609 فتحت أسواق القندس لكلِّ من يستطيع أن يأتيها. وهكذا تحرك المتنافسون في هذه التجارة على نحو مباشر، مما دفع أسعار فرو القندس إلى الهبوط حتى وصلت إلى ستين سنتاً. وقد كان أمل شامبلين الوحيد هو أن يستخدم تحالفاته الشخصية من أجل أن يدفع عملياته فتكون ذات وضع أفضل وأبعد في مناطق أعلى النهر مقارنة بمنافسيه. ومن أجل أن يحتفظ بالسوق التي تهيمن عليها قبائل الهيورون لنفسه، فإنه تبادل ابناً رمزياً له (لأنه تزوج متأخراً ولم ينجب أبناء) مع «أوتشاجوين» كميثاق وعهد للدعم المتبادل بينهما. هكذا كان لفقدان الاحتكار الملكي أثره الخاص الذي استحث شامبلين لأن يتجه أعمق في تلك القارة وأبعد.

لقد اندفع شامبلين نحو الغرب بحثاً عن الفرو، لكنه ذهب هناك أيضاً سعياً وراء شيء آخر، أيضاً وهو: الصين. فعندما شرح للملك هنري لماذا يريد أن يستمر احتكاره للفرو، أشار كذلك إلى أنه لم يكن يسعى فقط من أجل جعل شركائه في العمل يستفيدون ويربحون، فالفرو الذي كان يشتريه كان ضرورياً من أجل دفع ثمن شيء أكثر أهمية «الطرائق أو الوسائل الخاصة باكتشاف ممر يوصل إلى الصين دون مواجهة الظروف غير الملائمة الخاصة بجبال الجليد في الشمال، أو حرارة المنطقة المتقدة

التي استطاع بحارتنا، ومن خلال جهود مضنية ومخاطر لا تصدق، أن يمروا خلالها مرتين في ذهابهم، ومرتين في إيابهم». لقد أراد شامبلين أن يحافظ على أسعار الفرو مرتفعة في باريس حتى يستطيع أن يدفع نفقات الوصول إلى الصين.

ولم تكن تلك فكرة جديدة، لكنها كانت قد بدأت في ضوء التفويض الأصلي الذي تلقاه من الملك هنري في عام 1603 بأنه ينبغي أن «يحاول إيجاد طريق سهلةٍ كي يتمكن من الحركة، من خلالها. بيسر جيئة وذهاباً عبر ذلك القطر، وصولاً إلى الأقطار الأخرى الخاصة بالصين وبلاد الهند الشرقية، وأي مكان آخر، أياً كان بعده، على طول السواحل والبر الرئيسي منها». لقد كانت مهمته التي كُلف بها إذن هي أن يبحث عن «ممر أو طريق يمكنه أن ييسر التجارة مع شعوب الشرق»، وهذا ما استمر يلهمه خلال تغلغل نفوذه عبر القارة.

لقد كانت الطريقان المعروفتان من أوروبا إلى الصين وحول الأطراف الجنوبية المستدقة لإفريقيا وأمريكا الجنوبية، طريقين طويلتين وشاقتين بدرجة مزعجة، وقد كانتا كذلك في كل الحالات مكدستين بالجنود والحرس، ويتولى البرتغاليون والإسبان حمايتهما، ثم كان هناك أيضاً الطريقان الشمالي الغربي والشمالي الشرقي، وقد كانت إحداهما موجودة تدور حول الأمريكتين، والأُخرى أعلى روسيا. وقد كان الهولنديون والإنجليز قد أكدوا أن الطرق القطبية الشمالية حول روسيا وكندا ليست مفيدة عملياً، هذا أن بعضهم كان لا يزال يأمل في أن يكون طريق هنري هدسون، التي اكتشفت عبر خليج هدسون وسيلة

لاكتشاف نوع من الربط أو الصلة مع طريق ما توصل إلى المحيط الهادي. أما أمل الفرنسيين الوحيد فقد كان الوصول إلى ذلك الشرق الأسطوري دون أن يرتطموا بجبال الجليد، أو بقوى أوروبية أخرى كانت تسعى أن تكتشف طريقاً تمرُّ عبر قارة أمريكا الجنوبية. لقد كان شامبلين في أمسِّ الحاجة إلى معرفة أهالي تلك البلاد الأصليين كي يكشفوا أمامه أو يدلوه على تلك الطريق الخفية، وقد كان يحتاج أيضاً إلى سكان البلاد الأصليين للتجارة معهم كي يزودوه بالسلع المربحة الكافية لدفع كلِّ تلك النفقات. ولم يكن شامبلين مهتماً بفتح البلاد ولا إنشاء المستعمرات - فيها - في ذاتهما. لقد كان لديه حلم واحد فقط، وهو: أن يجد طريقاً تُوصلهُ إلى الصين.

كان جاك كارتييه قبل شامبلين قد استكشف مصب نهر سانت لورنس، وكذلك أبحر جان ألفونسو دي سانتونج عبر ساحل لابرادور في أربعينيات القرن السادس عشر، لكنّ أحداً منهما لم ينجح في اكتشاف طريق للصين. ومع ذلك فقد كان ذلك هو المبرر نفسه الذي جعلهما وجعل آخرين بعدهما يحاولان استكشاف تلك المياه. وعندما أبحر أحد أبناء إنجلترا وهو جورج وايموث G. Weymouth نحو القطب الشمالي، خلال زيارة شامبلين الأولى للعالم الجديد، فإنه كان يحمل خطاباً من الملكة إليزابيث الأولى تخاطب فيه إمبراطور الصين، مع ترجمات للخطاب باللاتينية والإسبانية والإيطالية، على أمل أنه في حالة ما إذا كان أحد المبشرين الجيزويت لا يعرف الإنجليزية فإنه قد يكون من اليسير بالنسبة إليه أن يترجم ذلك الخطاب من إحدى تلك

اللغات التي كتب بها إلى الصينية. لم يصل وايموث إلى مقصده، ولم يسلم خطاب إليزابيث إلى نظيرها ملك الصين، لكن ذلك كان الأمل الذي توجه وايموث نحوه. وقد توجه شامبلين متحمساً أيضاً من خلال ذلك الأمل نفسه، لكنه على كلِّ حال قرر أن الطريق إلى الصين لا يقع حول القارة (أمريكا الشمالية)؛ بل يمر عبرها، أو من خلالها. وقد كان الأمل المسيطر عليه كليةً يتمثل في أن يكون نهر سانت لورنس هو الطريق المؤدي إلى الصين، وقد كانت ذكرى ذلك الحلم ما زالت باقية عالقة هناك في «سولت سانت لويس»، وهي مجموعة من المنحدرات المائية الموجودة عند قمة نهر سانت لويس ذي المياه المالحة، وهي أيضاً المكان الذي كان على شامبلين أن يعود إليه عام 1603 بعد خمسة عشر عاماً، وقد اقترح شامبلين ذلك المكان بوصفه الموضع المناسب لمقر تحصيل الرسوم الجمركية على السلع التي تمر عبر تلك النقطة بمجرد ما أن يتم تحديد هذه المنطقة والواصلة بعلامات مميزة، ويطلق على ذلك المكان الآن اسم لاتشين la chine، أي الصين[6].

لقد كان حلم الوصول إلى الصين أشبه بخيط خيالي يمتد عبر التاريخ الخاص بنضال أوروبا في أوائل العصور الحديثة للهروب من عزلتها والدخول في عالم أوسع. ويبدأ ذلك الخيط مع نهاية القرن الرابع عشر، عندما عاد تاجر من مدينة البندقية من رحلاته إلى الصين، وجعل كلَّ من يستمع إليه وهو يحكي حكاياته حول تلك الأراضي الغريبة والثروات الخرافية الموجودة في الشرق، يشعر بالبهجة والمتعة. وقد أطلق مواطنو البندقية على ذلك الرجل لقب «الرجل صاحب المليون حكاية» Il

Million، وكان اسمه ماركوبولو، وقد كان كتابه الفاتن «الرحلات» Travels، والذي دونه له أحد كتاب حكايات الرومانس Romance الشعبية، وهما يقتلان الوقت معاً في السجن، كان قد أصبح أكثر الكتب مبيعاً خلال القرن الخامس عشر. وقد كانت رؤية «بولو» للصين تحت حكم الحاكم المغولي كوبلاي خان «الخان العظيم» كما عرفه الأوروبيون، شديدة التأثير في عقول العامة بحيث اعتقدوا أنه ليس في أوروبا خلال القرن الرابع عشر بلاط ملكي يعادل بلاطه في فخامته، ولا مملكة تعادل مملكته في اتساعها، ولا اقتصاد يعادل اقتصاده في ضخامته، ولا مدن تعادل مدنه في عظمتها. وهكذا كان اسم: كاثي Cathay أو الصين يمثل بصورة ملخصة الثروة والقوة الموجودتين بعيداً هناك، غاية لا يمكن الوصول إليها، تتعلق بذلك العالم الأوراسي (أو الأوروبي الآسيوي).

عندما أنزل كريستوفر كولومبس أسطوله البحري المكون من ثلاث سفن صغيرة جداً في الماء، وأطلقه تجاه الغرب عبر المحيط الأطلسي بعد نحو قرن تقريباً من حكايات ماركو بولو،في عام 1492 (وقد أخذ نسخة من «الرحلات» لماركو بولو معه)، كان قد فهم فعلاً أن العالم مستدير، وأن الإبحار ناحية الغرب قد يوصله إلى آسيا، وقد كانت لديه المعلومات الكافية التي جعلته يتوقع أنه سيصل إلى اليابان أولاً، ثم إلى الصين التي تقع خلفها مباشرة، لكن الذي لم يكن يعرفه هو مقدار تلك المسافة الكبيرة التي تفصل أوروبا عن آسيا، كما أن الذي لم يكن يتوقعه أيضاً أن ثمة قارة موجودة هناك تفصل بين أوروبا وآسيا.

وهكذا فإنه عندما عاد إلى إسبانيا جاء في تقريره الذي قدمه إلى الملك فرديناند أنه عندما وصل إلى جزيرة هيسبانيولا Hispaniola (المعروفة الآن باسم جمهورية الدومينيكان): «اعتقدت أنها قد تكون اليابسة، أي مقاطعة كاثي»، لكنها لم تكن، ومن ثَمَّ كان على كولومبوس أن يقنع الملك بأن الرحلة الأولى قد وصلت تقريباً إلى (المكان المقصود الذي توجهت إليه)، وأن الرحلة الثانية لن تخفق أبداً في أن تكمل هذه الرحلة. فإذا لم تكن تلك الجزيرة هي الصين أو اليابان، فإنها لا بد أن تكون جزيرة ما بعيدة عن ساحل اليابان الشرقي، ولذلك فإن الثروات الصينية الخرافية لا بد أنها قد أصبحت قريبة المنال، وفي الوقت نفسه، فإنه قد أكد لفرديناند أن الجزيرة التي اكتشفت يمكن استخراج الذهب منها بالتأكيد، وذلك إذا ما ذهب بحارته للبحث عنه فيها. هكذا حوَّل كريستوفر كولومبس ورقته الخاسرة – التي تسبب فيها اكتشافه أن «هيسبانيولا» لم تكن اليابان ولا الصين – إلى ورقة رابحة، لكنه اعتقد كذلك أن الجزيرة التالية لها قد تكون هي اليابان، وأن الصين بعدها.

لقد كانت ثروة الصين الخرافية أشبه بالهوس المستحوذ على الأوروبيين، وقد كان ذلك هو السبب الذي جعل الملك فرديناند يوافق على تمويل رحلة كولومبس البحرية التالية، فمع تطوير الأوروبيين لفهم أفضل خاص بجغرافية العالم، تطور الشغف الخاص بهم المتعلق بالوصول إلى الصين – فقط – فأصبح أقوى، وقد كان لاحتمالية القيام بذلك فعلاً ما يبرزها كثيراً. وقد ترددت أصداء ذلك التخيل لدى شكسبير، أيضاً وتجلى ذلك في احتقار بنيديك لصحبة بياتريس له في

مسرحية «جعجعة بلا طحن» Much Ado About Nothing، معلناً أنه قد يفضل أن «يأتي بشعرة من لحية الخان[5] العظيم» عن أن يتحدث إليها»، وقد كان جمهور شكسبير في لندن يعرفون ما الذي كان ذلك الرجل يتحدث عنه، وقد كانوا سيوافقون على أن ذلك قد يكون أكثر أنواع القسم الذي يتعهد رجل بالوفاء له صعوبة، لكنه قسم يمكن إنجازه أيضاً.

فعند منعطف القرن السابع عشر، كانت الفكرة الخاصة بتلك المملكة الأسطورية فكرة شديدة النشاط والحيوية، وكان حلم الثراء الذي يصاحبها قد أشرق أيضاً على نحو أكثر تألقاً، وقد كان هناك مثل صيني ذائع في ذلك الوقت يقول «إن الصينيين لهم عينان، والأوروبيين لهم عين واحدة، أما بقية العالم فعميان»، وهو إطراء يتهكم خفية من هؤلاء البشر الذين يبددون وقتهم وحياتهم عندما ينظرون من خلال عين واحدة.

لعل هذا هو السبب الذي جعل شامبلين يبحر صعوداً عبر نهر سانت لورنس؛ كي يكتشف طريقاً مائياً عبر القارات يوصله إلى الصين، وقد كانت تلك الفكرة راسخة أيضاً قبلهُ لدى مصور الخرائط العظيم أبراهام أورتيليوس A. Ortilius من أنتويرب Antwerp[6]، فوضع علامة باللون الأحمر لتحيد موضع تلك القناة على الخريطة التي طبعها عام 1507، بل إنه حتى بعد شامبلين فإن رسام الخرائط جان جيرارد قد خلد تلك الفكرة مع خريطة أمريكا الشمالية في خريطة العالم الهيدروجرافية Universal Hydrographical Chart التي رسمها عام 1634(7)، فكتب

ملحوظة في المساحة الفارغة غرب بحيرات الصين قال من خلالها إنه «يُعتقد، أن هناك ممراً من هنا إلى اليابان»[7].

عندما كان شامبلين يسأل سكان البلاد الأصليين: أي الطرق توصل إلى الصين، لم يكن يحظى بأية إجابة، ومن ثم فإنه سألهم عن المياه المالحة، وقد أخبره أحد هؤلاء السكان في منطقة ما أعلى نهر سانت لورنس، في صيف عام 1603، أن مياه البحيرة (التي تسمى الآن بحيرة هيورون) التي تقع خلف البحيرة (التي تسمى بحيرة إيري Erie) التي تصب في البحيرة التالية (بحيرة أونتاريو) هي بحيرة مالحة. وقد كانت تلك الأخبار هي ما تعطش شامبلين إليه، لكن أحد أفراد قبيلة الألجونكين في المنطقة قدم إليه ما يناقض ذلك التقرير، لكنه استمر يسأل، وقد زعم له أحد شباب قبيلة الألجونكين أن المياه الموجودة عند الطرف الغربي البعيد للبحيرة الأولى التي يوشك أن يصل إليها (وتسمى الآن بحيرة أونتاريو) هي مياه قليلة الملوحة، وقد كان ذلك كل ما احتاج إليه شامبلين من تشجيع. وقد أقسم أنه سيعود ويتذوق تلك المياه بنفسه، هذا مع أن ذلك الأمر كان يحتاج إلى أن تمضي سنوات عدة قبل أن يتمكن من الذهاب بعيداً هكذا نحو الداخل، ففي عام 1613 ذكر له إيتين برول Etienne Brule، وهو ابنه الرمزي الذي تبادله مع «أوتشاجوين»، أن بحيرة هيورون كانت رغم كلِّ شيء ليست بحيرة مالحة. وقد احتاج إلى أن ينقضي صيفان آخران قبل أن يزور شامبلين بنفسه البحيرة. وقد تذوق ماءها، ووجده حلواً، وقد أكد له ذلك الحقيقة المؤسفة التي فحواها أن بحيرة هيورون لم تكن مرتبطة بالمحيط الهادىء.

كان شامبلين رسام خرائط، وقد كانت مهاراته في رسم الخرائط هي ما جذبت رؤساءه أولاً إليه في رحلته الأولى، وخلال حياته رسم سلسلة خرائط تفصيلية حول ما أصبح يعرف بعد ذلك باسم «فرنسا الجديدة». وقد كانت الخريطة الثالثة التي رسمها عام 1616 أول خريطة تظهر فيها بحيرة هورون، وقد أطلق عليها اسم «البحر ذو المياه العذبة»، معترفاً بتلك الحقيقة الجديدة. وربما كان يقوم أيضاً بتذكير نفسه بأن عملية البحث المسيطرة عليه. ما زالت جارية. وقد أدخل شامبلين جانباً من الغموض على تلك الخريطة، كما أدخل جانباً من المبالغة عند النهايات الخاصة ببحر المياه الحلوة، تجلّى ذلك الغموض حين جعل شامبلين تلك النهايات تمتد على نحو غامض بعيداً ناحية الجهة اليسرى من الخريطة، وحيث لا يعرف أحد إلى ماذا سيقودنا ذلك كلّه؟ أما المبالغة فكانت تكمن في الشمال، فقد رسم شامبلين خط الشاطئ الخاص بالمحيط المتجمد الشمالي Merd du cate du Nord بحيث إنه كان يمتد كثيراً جنوباً ويقترب على نحو كبير من بحيرة هيورون، وهي واصلة (أو تعرج مائي) تصل إلى مياه مالحة كانت هناك على نحو ما يقيناً.

وماذا كانت رسالته من وراء ذلك؟ كانت رسالته هي أن الفرنسيين يحتاجون فقط إلى أن يداوموا على استكشافاتهم هنا، وأنهم سوف يكتشفون الممر الخفي عبر القارات الذي يربط فرنسا بالصين.

بعد ستة عشر عاماً من ذلك، نشر شامبلين خريطته الختامية حول فرنسا الجديدة. وقد زودت تلك النسخة بصورة أكثر اكتمالاً، خاصة بالبحيرات العظمى، هذا مع أن بحيرة إيري Erie وميتشجان لم تكونا

قد ظهرتا بعد (في تلك الخرائط)، وقد علم شامبلين أن «بحر المياه العذبة» لا يمتد إلى ما لا نهاية في اتجاه الغرب ونحو المحيط الهادئ، وأنه لا بد أن تكون له نقطة نهاية (بعد ذلك بوقت قصير سيختفي هذا الاسم الخاص ببحر المياه العذبة ويحلُّ محلَّه لقبه «بحيرة هيورون» فيما وراء تلك البحيرة من المياه العذبة)، ومن خلال روابط خاصة بسلسلة من المنحدرات المائية، على كل حال، لا يزال يظهر هناك قوام آخر من المياه، بحيرة عظيمة ذات حجم ومدى مجهول (أصبحت تسمى الآن البحيرة الأعظم superior lake)، وهي بحيرة أخرى ضمن سلسلة من البحيرات التي قد يثبت يوماً أنها الطريق المؤدي إلى الصين.

لم يصل شامبلين قط إلى البحيرة العظمى، لكن الذي وصل إليها كان «جان نيكوليه» jean Niccollet. وقد كان نيكوليه أحد عدائي أو رُسُل الغابات الذين عملوا لحساب شامبلين، والذين كانوا يتسللون إلى المناطق الداخلية، ويبعثون النشاط في شبكات تجارية ممتدة هناك، فقبل أن ينشر شامبلين خريطته الخاصة بعام 1632 بعام أو عامين، وصل نيكوليه إلى قبيلة لم يقابلها أي أوروبي من قبل، وقد أطلق نيكوليه أو أحد غيره، عليها اسم الـ Puants، أي «النتنين»، أو «ذوي الرائحة الكريهة». وقد قام شامبلين بوضعهم ضمن خريطته الأخيرة التي أشار خلالها إلى «أمة النتنين» الذين يعيشون بجوار بحيرة يتم تصريف مياهها في بحر المياه العذبة). وكلمة «النتنين» لسوء الحظ هي ترجمة لكلمة في لغة قبيلة الألجونكين تعني المياه القذرة، وهي المصطلح الذي كان يستخدمه أفراد تلك القبيلة لوصف المياه التي لها مذاق الملح. ولم يكن

أفراد قبيلة النتنين يطلقون على أنفسهم ذلك الاسم الذي يشير إلى ذلك المعنى في لغة قبيلة الألجونكين (Puants)، لقد كانوا Quinpigous وهو اسم ينطق اليوم على أنه الـ«وينيباجو»[8]، لكن تلك الكلمة التصقت بهم من خلال منطق ملتف كان يلح دائماً على أن القوام التالي من المياه الموجود عبر الأفق لا بد أن يكون مالحاً، ولا بد وأن يكون «نتناً» ولا بد وأن يكون المحيط الهادئ[9].

قام زعيم قبيلة الوينباجو Winnebagoes بدعوة جان نيكوليه ضيفاً له إلى وليمة عظيمة أقامها ترحيباً به. وقد فهم نيكوليه أهمية البروتوكول هنا. فعندما ظهر بنفسه أمام الآلاف الذين جاؤوا من مسافات بعيدة ليحضروا تلك الوليمة التي أقيمت على شرفه، ارتدى أفخم ثياب موجودة في حقائبه، وقد كان ثوباً صينياً مطرزاً بالزهور والطيور.

ولم تكن هناك من طريقة يمكن أن يكتسب من خلالها وكيل تجارة مثله، ذو علاقة بالجزء الداخلي من البلاد، مثل هذا الثوب على حسابه الخاص. لم تكن لديه وسيلة للوصول إلى مثل ذلك الشيء، فضلاً عن امتلاكه المال الكافي لشرائه. إن ذلك الثوب لا بد أنه كان ثوب شامبلين الخاص. ولكن كيف حصل شامبلين عليه؟ إنه فقط وفي السنوات الأولى من القرن السابع عشر، كانت مثل تلك الأشياء الغريبة اللافتة للأنظار كذلك الثوب، قد بدأت تأخذ طريقها وتجيء من الصين إلى أوروبا الشمالية. وحيث إن مثل ذلك الثوب لم يعد موجوداً، فليس لدينا وسيلة إذن لتعقب أثره. وربما كان المصدر المحتمل له هو أحد الرهبان الجيزويث الذين كانوا موجودين في الصين، وربما أحضره معه

أو أرسله إلى أوروبا كدليل شاهد على تلك الحضارة الرفيعة التي كرَّس لها حياته. وقد رأى الرحالة الإنجليزي جون إيفلين J. Evelyn كذلك مجموعة من الثياب الصينية معروضة في باريس، وأعجب بها بشدة. لقد كانت هناك أثواب فخمة، مطرزة ومزخرفة بنسيج من الذهب وملونة أيضاً بألوان جميلة، وعلى درجة عالية من الفخامة والحيوية التي لم تعهد مثلها في أوروبا».

خلال السنوات الأولى من وجود شامبلين في كندا، لم يكن ممكناً الحصول على ثوب يماثل الثوب الذي ارتداه نيكوليه، ومن ثَمَّ فلا بد أنه اشتراه خلال ذلك الإذن له بالغياب أو الإجازة التي استمرت سنتين ما بين عامي 1624و1626، ولا بد أنه دفع فيه ثمناً باهظاً؛ وذلك لأنه اعتقد أن ذلك الشيء له قيمة عالية بالنسبة إلى مشروعه في كندا. وقد كان يعرف أن الرهبان الجيزويت يرتدون ملابسهم على الطريقة الصينية عندما يظهرون في البلاط الملكي هناك، وأنه هو نفسه وإن لم تتوافر له الفرصة كي يرتدي ذلك الثوب الصيني، فلا بد أن يفعل موفده أو مندوبه ذلك، فعندما تحضر إلى بلاط الملوك والزعماء، فلا بد أن ترتدي الملابس المناسبة. هكذا تتحول الأمور في النهاية، وبالتالي فإن قبيلة الوينباجو، وليس الصينيين، هم من كان عليهم أن يستمتعوا بالمشهد الخاص بذلك الثوب.

لقد كان ثوب نيكوليه ببساطة مجرد علامة أخرى على حلم شامبلين والذي كان جوهره هو الوصول إلى الصين. وقد استمر هذا الحلم حياً معه منذ بداية مغامراته في أمريكا الشمالية. وكما كتب شاعر صديق له

وألف بعض الأبيات المهداة إليه حول ذكرياته الأولى عام 1603، فكذلك كرَّس شامبلين نفسه من أجل «الارتحال نحو كلٍّ ما لا يزال أبعد، نحو هداية الناس، واكتشاف الشرق، سواء من خلال الشمال أو الجنوب، ومن ثَمَّ الوصول إلى الصين». وقد كانت اكتشافاته كلها، والتحالفات التي عقدها، ومعاركه كلُّها، موجهة نحو الوصول إلى ذلك الهدف وحده. لقد كانت الصين هي المبرر الوحيد الذي جعل شامبلين يخاطر بحياته، ويطلق النار، ويقتل ثلاثة من زعماء الموهوك على شاطئ بحيرة شامبلين ذات مرة. لقد أراد أن يتحكم في التجارة التي تزود أسواق أوروبا بجلود الفرو غير المدبوغة، لكن الرغبة الأبعد من تلك الرغبة تمثلت في سعيه لأن يكتشف طريقاً يوصله إلى الصين. لقد كان ثوب نيكوليه مجرد دعامة أو علامة في تلك الرؤية، وكانت قبعة فيرمير نتيجة غير متوقعة أو ثانوية لذلك السعي المتواصل.

لم تنجح مغامرة شامبلين العظيمة بالطبع، فلم ينجح الفرنسيون قط في الوصول إلى الصين مستخدمين زوارقهم الخاصة عبر كندا، وسواء أنجحوا أم فشلوا، فإن جهدهم ذاك قد ألحق خسائر رهيبة بالسكان في الغابات الشرقية. وقد حدثت أكثر تلك الخسائر فداحة في قبيلة الهيورون، حيث انتشرت موجات من الأمراض المعدية انتقلت من الأوروبيين إلى تحالف الهيورون خلال ثلاثينيات القرن السابع عشر، وبلغت هذه الأمراض ذروتها في عام 1640 مع ذلك الانتشار الوبائي لفيروس الجدري الذي خفَّض عدد السكان هناك، حتى وصل إلى ثلث العدد الأصلي الذي كانوا عليه، وهو خمسة وعشرون ألف نسمة.

ولشعورهم باليأس من إمكانية إنقاذ مجتمعاتهم من الإبادة، تحوَّل بعض الهيورون إلى تعاليم المبشرين الجيزويت الفرنسيين؛ هؤلاء الذين كانوا قد بدؤوا يتسللون إلى «هورونيا» في عشرينيات القرن السابع عشر، وربما حصل بعض هؤلاء السكان على الراحة من خلال تلقيهم لتعاليم الجيزويت، حول التواضع المسيحي، لكن تلك الفائدة لم يترتب عليها تحقيق شيء إلا أثراً غير ملحوظ في منع ذلك الأثر الملموس الخاص بانهيارهم خلال محاولتهم مقاومة قبائل «الأيروكوا»، وقد جاء قرار الفرنسيين لرفع التحريم الذي فرضوه على مبيعات الأسلحة النارية للهيورون عام 1641 – وبالنسبة إلى المتحولين منهم إلى المسيحية فقط – جاء ذلك القرار متأخراً تماماً عن تمكين تلك الأمة من تسليح نفسها بشكل متَّسم بالكفاءة ضد أعدائها.

خلال صيف 1649 وشتائه، انسحب آلاف من الهيورون إلى جاهوندو gahoendo، وهي جزيرة موجودة عند حافة الجنوب الغربي لبحر المياه العذبة، وقد لحق بهم نحو أربع «دزِّينات» (نحو 48) من الرهبان والصناع والجنود الفرنسيين، وقد فضل الهيورون أن ينصبوا معسكراً لهم عند حافة بحيرة الجزيرة، في حين قرر الفرنسيون أن يبنوا حسيكة[4] أو سياجاً خشبياً بجوار الشاطئ متأهبين من خلاله للصمود الحاسم أو الأخير ضد الأيروكوين. وهذه المواجهة الأخيرة، هي ما يتم إحياء ذكراها من خلال ذلك الاسم الخاص بـ Gahoendo «جاهويندو» اليوم، أي جزيرة المسيحيين.

(4) الحسيكة: السياج أو السور الخشبي.

وقد تحول ذلك الصمود الحاسم إلى معركة ليست ضد قبائل الإيروكوا، بل ضد الجوع. فقد كانت تلك الجزيرة أصغر تماماً من أن تقدم الدعم الكافي من لحوم الطرائد لإطعام كثير من اللاجئين إليها، كما أن الذُرَةَ التي كانوا يزرعونها كانت تستمر موجودة فترة طويلة في الأرض حتى تنضج. ولأن الخريف يمتد حتى الشتاء، فقد ثبت أن الأسماك التي كانوا يستطيعون صيدها، وكذلك المئات الست من البوشل(8) من جذور البلوط التي كانوا يحضرونها من القبائل الموجودة في الشمال البعيد، ثبت أنها غير كافية لإطعام كلِّ فرد. هكذا ضربت المجاعة بقوة هناك، وقد وجهت أقصى الضربات إلى الأطفال. وقد وصف أحد المبشرين الجيزويت الذين زاروا تلك القرية إحدى الأمهات بأنها رخوة أو ضعيفة الصدر، وكانت تراقب أطفالها وهم «يموتون بين ذراعيها، الواحد بعد الآخر، ولم تكن لديها حتى القوة لأن تلقي بهم في قبورهم».

وتجسد لنا «الميلودراما»[5] (موسيقا تصاحب المشاهد التمثيلية لزيادة التأثير بالمشاهد) المتمثلة في وصفه ذلك حالة القسوة التي كانت ملازمة للمعاناة في ذلك الشتاء، هذا مع أنه كان مخطئاً في التفاصيل الأخيرة التي ذكرها؛ وذلك لأنه عندما ذهب فريق من علماء الآثار والمساعدين

(5) الميلودراما: وهي كلمة مشتقة من كلمتين يونانيتين قديمتين هما: ميلو melo بمعنى أغنية (ومنها جاءت كلمة ميلودي melody أي لحن) ودراما: أي فعل. وبهذا المعنى فهذه الكلمة تشير إلى استخدام الموسيقى في المسرح لزيادة التأثير الإنفعالي للمشاهد المسرحية. ويستخدم هذا المصطلح اليوم للإشارة إلى أي عمل فني: مسرحية، فيلم، مسلسل.. إلخ. يقوم باستدرار الانفعالات الى حد مبالغ فيه، يصل أحياناً إلى مرتبة الفجاجة والافتعال والسطحية.

لهم من سكان البلاد الأصليين للتنقيب في ذلك الموقع قبل نحو ثلاثة عقود – من الآن – فإنهم كشفوا في النفايات الرملية المجاورة للقرية عن بقايا هياكل عظمية لأطفال ماتوا من سوء التغذية، وقد دفنت تلك البقايا بعناية واضحة، وآن اكتمل الحفر أعيد وضع العظام بعناية في وضع الرقود على نحو دقيق، كما أن تلك الغابة الشابة التي تتساقط أوراق أشجارها بعد فترة معينة من النمو أتاحت الفرصة لإعادة الموقع، بحيث أن أحداً لن يستطيع أن يعرف أين يقع ذلك القبر، كما أن أحداً لن يأتي أيضاً كي يقضَّ مضاجع من يرقدون فيه مرة أخرى.

عند نهاية الشتاء، قرر كثير من قبيلة الهيورون أن يتخذوا قراراتهم ويعبروا الجليد ويستسلموا للدوريات العسكرية لقبائل الإيروكوا التي كانت تقوم بدوريات للحراسة في البر الرئيس، لكن الجليد الذي كان تحت أقدامهم انهار، وغرق كثير منهم، في حين انتظر الباقون حتى يذوب الجليد ويصبح الجو دافئاً، ثم انطلقوا في مسارات مختلفة. وقد اختفت إحدى تلك الجماعات جنوباً في الداخل، فرافقت – للحراسة – الفرنسيين الذين في الجزء الخلفي من كيبك، وما زالت سلالاتهم من الويندات أحياء هناك حتى يومنا هذا.

لقد نمت أيكةٌ رشيقة من أشجار البتولا والزان على اتساع ذلك الموضع الخاص بقرية الهيورون الأخيرة التي على «جزيرة المسيحيين» تلك، وما لم يتصادف أنك كنت تعرف أين كانت تلك القرية، فإنك لن تجدها هناك.

إنني أقضي مواسم الصيف عادة في جزيرة المسيحيين، والتي هي

الآن منتجع الأوجيبوا An Ojibwe Reserve، ولا أستطيع أن أمشي متريضاً عبر ذلك الطريق الرمادي الأرقش الذي تمر أرجاؤه فوق ذلك المكان الذي دفن فيه هؤلاء الأطفال، دون أن أتذكر أو أفكر مرة أخرى في شتاء ذلك التضور والموت جوعاً، الذي حدث لهؤلاء البشر بين عامي 1649 و 1650، متعجباً من أمر تلك الأحداث.

إن الأطفال هنا هم حلقات مفقودة في ذلك التاريخ، وضحايا منسيون للرغبة الأوروبية اليائسة لاكتشاف طريق يوصلهم إلى الصين، ولرغبتهم المتواصلة كذلك في إيجاد وسيلة تمكنهم من دفع نفقات هذا الاكتشاف؛ فالأطفال هنا مجرد ممثلين قاموا بأدوار ثانوية، في تلك الدراما الكبيرة التي وضعت قبعة فيرمير على رأس ذلك الضابط.

الفصل الثالث

طبق من الفاكهة



رسم فيرمير لوحة «**امرأة شابة تقرأ خطاباً بجوار نافذة مفتوحة**» (انظر اللوحة رقم 3) خلال ذلك الوقت نفسه الذي رسم فيه لوحته «**الضابط والفتاة الضاحكة**»، فنحن نرى فيهما الغرفة العلوية والمنضدة والكرسي أنفسها، والمرأة نفسها التي ترتدي الثياب ذاتها، وهي مرة أخرى زوجته كاترينا بلونز، أو هذا ما اعتقده. وعلى الرغم من أن الحدث في اللوحتين مختلف، فإنهما تسردان القصة نفسها إلى حد كبير، أي: قصة الملاطفة والغزل بين رجل وامرأة. وهذه القصة واضحة وصريحة في لوحة «**الضابط والفتاة الضاحكة**»؛ حيث نرى فيها فعل الغزل أثناء حدوثه. أما في لوحة «**امرأة شابة تقرأ خطاباً بجوار نافذة مفتوحة**» من ناحية أخرى فإننا نرى المرأة فقط. وللرجل حضوره في اللوحة، لكنه حضور يتمثل من خلال الغياب، أي من خلال حالة الغياب المتجسدة الخطاب الذي تقرؤه المرأة، إنه بعيد هنا، وربما موجود في النصف الآخر البعيد من العالم، وهي تقرأ بجوار النافذة التماساً للضوء، لكن النافذة

هنا ليست مواربة أو مفتوحة جزئياً، إنها مفتوحة على مصراعيها. والرجل بعيد هناك في مكان ما، وقادر على أن يتحدث إليها فقط من خلال الخطابات، وقد استحث غيابه الجسدي فيرمير لأن يكوّن نمطاً مختلفاً من المزاج العاطفي في اللوحة. فالتألق المشرق لحوار الضوء قد حلَّ محلَّه نوع من التوتر الداخلي، حيث تركز المرأة الشابة هنا على تلك الكلمات المكتوبة في الخطاب، التي لا يُسمح لنا نحن المشاهدين للوحة بأن نقرأها.

وإذا كانت تلكما اللوحتان تشتركان في ذلك في الحيز المكاني، وكذلك الموضوع الرئيس العام المتكرر فيهما، فإنهما تختلفان في الأشياء التي تعرضانها، فالأشياء التي في لوحة «**امرأة شابة تقرأ خطاباً بجوار نافذة مفتوحة**» أشياء أكثر، لكنها ليست موضوعة في ركام يعوزه النظام، إنها أشياء تقوم بدور كبير في المهمة الخاصة بخلق النشاط البصري. ومن أجل تحقيق التوازن الخاص بنشاط وحركة هذه الأشياء وتفاعلها، فإن فيرمير قد ترك الجدار في اللوحة خالياً. إنه جدار خالٍ، لكنه أبعد كثيراً عن أن يكون أبيض أو فارغاً من المحتويات.

وهذا الجدار بالتأكيد هو أحد أكثر الجدران الخالية ثراء من حيث الملمس والنسيج في الفن التشكيلي الغربي، فقد أثبت التحليل لتلك اللوحة، الذي أجرى باستخدام أشعة إكس، أن فيرمير كان قد رسم في البداية لوحة لكيوبيد «إله» الحب على ذلك الجدار (وقد استخدمها بعد ذلك في لوحته: سيدة تقف بجوار آلة العذراوية lady standing at the virginals[1] وذلك من أجل جعل القارئ يعتقد أن تلك المرأة الشابة

إنما تقرأ أحد خطابات الحب، لكنه وبعد ذلك، اتخذ قراراً مضاداً لمثل تلك التلميحات الرمزية الصريحة، ومن ثَمَّ استبعد صورة كيوبيد من لوحته. ومن أجل أن يضفي إحساساً بالعمق والحجم على تلك الغرفة، فإن فيرمير استخدم التكنيك المألوف الخاص بالستائر المعلقة، حيث إحداها متجعدة إلى أعلى فوق النافذة المفتوحة، والأخرى مسحوبة أو مشدودة نحو أحد الجانبين في أمامية اللوحة، وكما لو كانت جُذِبَتْ – أو رُدَّت– إلى الوراء من أجل أن تكشف عن اللوحة أو تظهرها وقد كان من ضمن الممارسات الشائعة في ذلك الوقت تعليق الستائر فوق الصور واللوحات من أجل حمايتها من الضوء، وكذلك أية مصادر أخرى للتلف.

والمنضدة مغطاة هذه المرة بسجادة تركية ذات ألوان شديدة الثراء، وقد كانت تلك السجاجيد مرتفعة الثمن مما يصعب معه وضعها على أرضية الغرفة، كما نفعل نحن اليوم. والسجادة منتفخة في أحد جوانبها من أجل أن تضفي حيوية على المشهد. وهناك أيضاً وعلى نحو مائل، فوق السجادة وفي منتصف المنضدة شيء ما، يمكنه أن يشير نحو عالم أكبر، ربما ذهب حبيب هذه المرأة أو زوجها إليه: إنه طبق صيني تحت كومة من الفاكهة.

إن عيوننا تتجه أولاً نحو تلك المرأة الشابة، لكن ذلك الطبق ربما كان أيضاً من الموضوعات التي يتنافس الناس بين معاصري فيرمير في الوصول إليه، فقد كان من الممتع أن ينظر المرء إلى مثل هذا النوع من الأطباق، لكنها كانت لا تزال غير مألوفة الاستخدام، وباهظة الثمن

أيضاً، بحيث لم يكن بمقدور أي فرد أن يشتري واحداً منها. وإذا عدنا إلى نحو عقد أو عقدين من الزمان قبل ذلك، فإننا سنجد أن تلك الأطباق الصينية كانت نادرة الظهور في اللوحات الهولندية، لكننا لو ذهبنا إلى ما بعد هذه اللوحة بعقد أو اثنين من الزمن، فإننا سنراها موجودة، هنا وهناك، في كلِّ مكان.

وقد كانت فترة الخمسينيات من القرن السابع عشر هى اللحظة التي احتلَّت فيها منتجات البورسلين الصينية مكانها الخاص في الفن الهولندي، كذلك الحياة الهولندية. وفي الحقيقة، فإن تلك الأطباق قد أصبحت تمثل جانباً مميزاً لظهور نوع جديد من فن التصوير الجديد الرائج الخاص بـ« الحياة الصامتة» Still life، والتي حوَّلها الفنانون الهولنديون الذين ينتمون إلى القرن السابع عشر إلى شكل فني مميز.

هنا يختار الفنان أشياء ذات نمط متشابه (الفاكهة مثلاً)، أو تكون ذات موضوع رئيس متكرر مشترك من الناحية الظاهرية (القابلية الفساد أو البلى كدلالة مثلاً على التفاهة أو الخواء الخاص بالحياة) ثم يَصُفُّها أو يرتبها على المنضدة بطريقة ممتعة بصرياً. وقد كان الطبق الصيني الكبير من نوع تلك الأشياء التي يمكنها أن تفي بغرض التوحيد أو الجمع للأشياء الأصغر مثل الفاكهة معاً، وأن تخلطها، أيضاً، معاً، في كومة دينامية متفاعلة. وقد كان التحدي الخاص بهذا النوع من الفن – الخاص بالحياة الصامتة – متمثلاً في جعل المشهد شديد الواقعية بحيث إنه قد يخدع العين، فتعتقد أن ما تراه ليس صورة. فالفنان الماهر قد يرسم، مثلاً، ذبابة في المشهد، حتى إنها قد تخدع بمظهرها الذباب

الآخر. إن خلق واقع يخدع العين كان هو نفسه التحدي الذي تلاعب به فيرمير عبر حياته كفنان مصور.

كان طبق الفاكهة فوق المائدة الموجودة أمام كاترينا، موجوداً كي يسرَّ الناظرين، لكن فيرمير استخدم هنا الحياة الصامتة الخاصة بفاكهة تهوي وتسقط من طبقها، كي ينقل إلينا تلك الانفعالات المتقلبة المصطرعة في عقلها، بينما كانت تقرأ خطاباً جاءها من حبيبها الموجود بعيداً تماماً عنها، وربما كان بعيداً بقدر بعد جزر الهند الشرقية الهولندية، وهي تكافح كذلك، للتحكم في انفعالاتها. وتوحي حالتها المزاجية وطريقة وقوفها بحالة خاصة، بإنسان في حالة هدوء، لكن هذه المرأة هنا لا تستطيع حتى أن تحتفظ برباطة جأشها أو هدوء أفكارها، كما أن الفاكهة أيضاً قد سقطت من الطبق الموجود أمامها وهوت. إن ذلك كلَّه قد نُظِّمَ وفُعِّلَ. في اللوحة بطبيعة الحال، فالحب هنا متخيل الوجود، وصفحة ورق الخطاب التي تمسكها تلك المرأة المثال. قد لا تكون هناك أية كلمات مكتوبة عليها، وقد حُدِّدَتْ أوضاع الستائر والسجادة والطبق على نحو فني بارع. لكن هذا العالم حقيقي، وهو ما تحاول أن تقتفي آثاره هنا. وهذا الطبق الذي وضع على نحو مناسب في لوحة رسمت في المدينة التي أبدعت في صناعة خزف «دلفت»، سيكون هو الباب الذي ننطلق منه خارج مرسم فيرمير، ونهبط منه متجهين عبر ممر ما خاص بطرق التجارة التي كانت تبدأ من دلفت وتتجه نحو الصين.

أسفل خط الاستواء بست عشرة درجة، وعلى بعد مائتي كيلو متر

من ساحل إفريقيا، هناك جزيرة بركانية تقطع على نحو مختلف ذلك الفراغ الكبير لجنوب المحيط الأطلسي. وقد ضمَّت شركة الهند الشرقية البريطانية جزيرة سانت هيلنية إلى الإمبراطورية البريطانية خلال القرن الثامن عشر، وقد بنوا مدينة جيمس تاون في المكان الذي أصبح يعرف باسم خليج تشيرش الذي يعرف الآن باسم خليج جيمس تاون، وذلك على الجانب الذي تهبُّ نحوه الريح من الجزيرة. وتكمن شهرة هذه الجزيرة الذائعة الصيت في كونها المكان الذي نفى إليه البريطانيون نابليون بعد أن هزموه في معركة ووترلو عام 1815، وهو ذلك المشهد الختامي في تلك الدراما الطويلة التي أدَّت إلى ظهور النفوذ المسيطر البريطاني كقوة مهيمنة على العالم خلال القرن التاسع عشر. وقبل أن يحتل البريطانيون جزيرة سانت هيلينة، استُخدِمَت الجزيرة بوصفها محطة توقف للسفن الخاصة بأية دولة وهي تقطع رحلتها الطويلة من آسيا عائدة إلى أوروبا، فهي تقع على نحو مباشر على ذلك الطريق الخاص بمهاب رياح التجارة الجنوبية الشرقية التي تحمل السفن في اتجاه الشمال صعوداً من رأس الرجاء الصالح.

وقد كان ذلك مكاناً تلتجئ إليه السفن كي تستريح وطواقمها، فيستردون عافيتهم بعيداً عن العواصف والأمراض التي تطارد الرحلة البحرية. إنها – أي تلك الجزيرة – كانت مرفأ الراحة والترميم أو الإصلاح للسفن، والتزود بالمياه العذبة قبل أن تخطو تلك السفن الخطوة الأخيرة نحو الوطن، وقد لا تكون السفن الحديثة الآن في حاجة إلى مثل تلك الجزر، وهي تعبر الآن جزيرة سانت هيلينة، تاركة إياها،

في بعدها المحيطي ذاك، لأنه لا أحد، سوى السياح الذين يرغبون في زيارتها، قد يذهب إلى هناك.

كانت السفينة الوحيدة في خليج تشيرش عند منتصف ليلة اليوم الأول من يونيو عام 1613 هي سفينة بريطانية صغيرة تتبع شركة الهند الشرقية تسمي اللؤلؤة The Pearle. وقد كانت «اللؤلؤة» قد وصلت إلى خليج تشيرش ضمن قافلة من ست سفن كانت عائدة من آسيا إلى لندن. كما كانت هناك سفينة بريطانية أخرى ضمن تلك القافلة، وكان اسمها سولومون (أو سفينة سليمان)، لكن السفن الأربع الأخرى من هذا الأسطول كانت تبحر لصالح شركة الهند الشرقية الهولندية. فمع أن الهولنديين والإنجليز قد خاضوا غالباً حروباً، بعضهم ضد بعض، خلال القرن السابع عشر، فقد كان ربابنة السفن على الجانبين راغبين – وراضين تماماً – بأن ينحوّا الخلافات التي بينهم جانباً، وأن يبحروا معاً من أجل توفير الحماية اللازمة لهم في مواجهة منافسيهم الحقيقيين: الإسبان والبرتغاليين. وقد قضت تلك السفن الست أسبوعين في جزيرة سانت هيلينة، واستراحت وجددت طاقاتها من أجل أن تقطع المرحلة الأخيرة في طريقها نحو الوطن، لكن عندما غادرت القافلة في الأول من يونيو، تركت السفينة «اللؤلؤة» خلفها، فقد كان نصف طاقم «اللؤلؤة» المكوَّن من اثنين وخمسين فرداً على قائمة المرضى عندما وصلت تلك السفينة إلى سانت هيلينة –وقد كان معظمهم في حالة شديدة من الإعياء لم يتمكنوا معها من العمل– وقد كانت عملية ملء براميل المياه وتحميلها في تلك السفينة لا تزال جارية في ذلك الصباح،

ولم يكن لدى الربّان جون تاتون J. Tatton أي خيار آخر سوى أن يرجئ مغادرة السفينة إلى الصباح التالي، على أن يلحق بعد ذلك ببقية الركب المغادر، وقد كان تاتون وطاقمه مشغولين تماماً في تجهيز «اللؤلؤة»، بعد أن غادرت السفن الأخرى، عندما ظهرت بعد ذلك خلال ذلك الصباح سفينتان برتغاليتان كبيرتان على مرمى البصر على مقربة من الحافة الجنوبية للخليج، وقد كانت السفينتان من فصيلة «القرقورة Carrack»، وهي أضخم سفينة نقل بحري مسلحة بناها البرتغاليون كي تستخدم في التجارة، باستخدام العبّارات عبر المحيطات، وقد كانت هاتان السفينتان قد قامتا برحلتهما الأولى الجديدة إلى جُوّه Goa، وقد كانتا مستعمرة برتغالية صغيرة على الشاطئ الغربي للهند، وكانت في طريق عودتهما إلى لشبونة بشحنة كبيرة من الفُلفُل. وقد أدرك تاتون أن «اللؤلؤة» لا تضاهي مثل هاتين السفينتين الكبيرتين في ضخامتهما، فهما أكبر السفن الخشبية التي صنعها الأوربيون على الإطلاق.

وقد كانت أفضل شجاعة ممكنة في ذلك الموقف إنما تتمثل في أن ينطلق بعيداً عن مدى مدافعهما، ومن ثَمّ فإنه رفع أشرعة سفينته وانطلق مسرعاً، وقد كان ذلك الخروج المتعجل يعني أن يترك براميل المياه العذبة ونصف عدد طاقمه المرضى على الجزيرة، لكنه لم يكن بالشخص الذي يُهزم ويهرب، لقد كانت لديه خطة بديلة أخرى، لقد ذهب مسرعاً في تعقب محموم لبقية القافلة الإنجليزية الهولندية المغادرة، آملا أن يقنع الأدميرال – قائد البحر – الهولندي جان ديريكزون لام Jan Drickzson lam أن يحوّل أسطولُهُ البحري مسارَه، وأن يعود لأسر تلك السفينتين

(الكبيرتين) اللتين في خليج تشيرش، وقد لحقت اللؤلؤة فعلاً وبسرعة بسفينة الأدميرال «لام»، التي كانت ترفع العلم، وكان اسمها «سلاح أمستردام» wapen van Amsterdam وذلك بعد غروب الشمس في ذلك اليوم. وقد كان «لام» سعيداً، وأعطى إشارات لأسطوله لأن يتبعه، كما ذكر تاتون ذلك لاحقاً في تقريره، لكن السفن الهولندية لم تلتزم كلُّها بأوامره بتغيير مسارها. على كلِّ حال، فقد غيَّرت سفينتان هما «بانتام» Bantam و«الأسد الأبيض» مسارهما، وجاءتا إحداهما بمحاذاة الأخرى، لكن السفينة فلوشنج VILISSINGEN [2] أخفقت في التعرُّف إلى تلك الإشارة، وكذلك فعلت السفينة الإنجليزية الأخرى سولومون (أو سليمان).

لم يثنِ شيء «لام» عن عزمه، فوجود أربع سفن في مواجهة سفينتين لا يماثل وجود ست سفن في مواجهة هاتين السفينتين، لكن أسطوله كانت له الأفضلية الخاصة بإمكانية مفاجأة الخصم.

بعد يوم ونصف من تغيير تلك السفن وجهتها، والإبحار في مواجهة الريح، وصلت السفن الإنجليزية الأربع إلى جزيرة سانت هيلينة، وقد كان «لام» وتاتون على حق في الاعتماد على المفاجأة، فلا بد أن قائد البحر البرتغالي جيروينمو دي المايدا Jeronymo de Almida قد رأى «اللؤلؤة» وهي تهرب، لكنه كان قد استبعد من تفكيره السفن الإنجليزية، ولم يقم بأية استعدادات خاصة لعودتها. وقد كانت بارجة الأدميرال «سيدتنا من الناصرة» Our lady of Nazareth راسية بمرساة بكل امتدادها المكشوف أمام المحيط المفتوح، أما الأخرى واسمها

«سُيدتنا من جبل الكرمل» Our lady of mount Carmel فكانت راسية بجانبها محمية على نحو جيد بواسطة السفينة الأكبر.

وقد قام «لام» بالهجوم قبل أن يعدل البرتغاليون من وضع سفنهم الكبيرة بحيث تكون في وضع أفضل، يمكِّنها من الدفاع عن نفسها، وأطلق مدافع سفينتي «البانتام» (وتعني المُحِبَّة للعراك) و«الأسد الأبيض» نحو مقدمة «سيدة الناصرة» ومؤخرتها، وعلى زوايا أو أطراف لها تجعل من المستحيل تقريباً بالنسبة إلى البرتغاليين أن يطلقوا مدافعهم رداً عليه، ثم إنه جعل السفينة wapen تتحرك مباشرة نحوها. وقد كتب «تاتون» لاحقاً يقول إن «لام» كان عليه أن يحاول التفاوض مع القائد البرتغالي المستسلم، لكن فيما يبدو أن «لام» لم يكن ليرضى بشيء أقلَّ من الأسر لأعدائه. لقد كان «شديد الاشتهاء لما يمتلكه غيره»، في ضوء تقييم تاتون له.

لقد أدىَّ هجوم «البانتام» على مقدمة «سيدة الناصرة» إلى هبوط همة البرتغاليين وشجاعتهم إلى حدٍّ كبير، وفقاً لما قاله «تاتون»، ثم قام قبطان «الأسد الأبيض» رويلف سيجمونز بلوم Roeloff sigmonz Blom بإطلاق النار على مقدمة السفينة «سيدة الناصرة»، فخرقها فوق خط الماء، ثم جعل «الأسد الأبيض» تقترب بدرجة كافية تمكنها من قطع الحبل الغليظ الخاص بمرساة السفينة البرتغالية الكبيرة، أملاً في أن يجعلها تنجرف أو تنحرف ناحية الشاطئ وترتطم به، أما وقد كان طاقم «جبل الكرمل»، والذي أصبح بلا حول ولا قوة، خلف «سيدة الناصرة»، فقد كانوا مع ذلكَ قادرين على أن يمرروا حبل مرساة بديل

للسفينة الأخرى، وأن ينقذوها. وبينما كان «بلوم» يستعد للاقتراب من سفينة الأدميرال البرتغالي ليهاجمها ويستولي عليها، تحرك بسفينته «الأسد الأبيض» بموازاة «سيدة الناصرة» و«جبل الكرمل»، وعندما فعل ذلك، بدأ رجال مدفعيته في تبادل النيران مع أمثالهم الذين كانوا فوق «جبل الكرمل».

والآراء منقسمة هنا فيما يتعلق بما حدث بالضبط لاحقاً، حيث قال البعض إن البرتغاليين قد ألحقوا إصابة مباشرة بمخزن البارود الذي في السفينة «الأسد الأبيض»، في حين يصرُّ آخرون على القول أن مدفعاً فاسداً كان على السطح المنخفض للسفينة «الأسد الأبيض» قد انفجر فغرقت. وأياً ما كان السبب، فإن ذلك الانفجار قد نسف الجزء الخلفي من السفينة، وغرقت «الأسد الأبيض» في العمق خلال لحظات معدودات، وقد اعتقد «تاتون» أن «بلوم» وطاقمه المكوَّن من تسعة وأربعين فرداً، إضافة إلى راكبين إنجليزيين آخرين كانا على ظهر السفينة، قد ماتوا بتأثير الانفجار، أو أنهم غرقوا في الخليج، هذا مع أن عدداً قليلاً منهم قد أُنقِذَ وأُخِذ إلى لشبونة من أجل إعادتهم بعد الأسر إلى أوطانهم.

عندما وجد الأدميرال «لام» أن سفينته كاملة بطاقمها وشحنتها قد فُقِدَتْ، لم يكن في مقدوره أن يغامر بأي شيء أكثر من ذلك؛ ولذلك فإنه أمر السفن الأخرى بالانسحاب، وقد نجح «تاتون» في أن يتجه بالسفينة «اللؤلؤة» بحيث أصبحت قريبة على نحو كافٍ من الشاطئ الموجود شرق الخليج، وأن يلتقط هناك أحد عشراً فرداً من طاقمه الذي

تركه من قبل، والذين كانوا قد تجمعوا هناك على أمل أن يتم إنقاذهم، قبل أن ينسحبوا، ويبدو أن سوء الحظ الذي أحاق بتلك الرحلة سوف يتوقف عند نهايتها الفعلية فقط. فعندما مرت السفينة «بانتام» عبر تلك القناة الموجودة عند تيكسيل texel وهي في طريقها نحو زادارزي Zwderzee (المعروفة الآن باسم بحيرة يوسل شمال هولندا ijsselmeer) وهي قناة بحرية داخل أمستردام، فإنها جنحت وتحطمت. وقد كان ذلك نوعاً من الحظ القاسي المروِّع بالنسبة إلى «لام»، فعدد سفن شركة الهند الشرقية الهولندية التي غرقت في تلك القناة يمكن أن يعد على أصابع اليد الواحدة. لكن تلك الحادثة كانت تتعلق بواحدة من هذه الأصابع (وقد سافر الأسطول البرتغالي وارتحل على نحو أفضل إلى حدٍّ ما بعد ذلك، فالأدميرال «المايدا» كان قادراً على أن يعود بسفينتيه معاً إلى لشبونة، لكن السفينة «جبل الكرمل» كانت خربة على نحو سيىء، إلى حد أنها استُبعِدَتْ من الخدمة بعد ذلك).

عندما غرقت السفينة «الأسد الأبيض» في عمق ثلاثة وثلاثين متراً من المياه، ذهبت شحنة كبيرة من حمولتها معها إلى الأعماق، وتشتمل قوائم البيانات الخاصة بحمولة السفينة خمسة عشر ألف حقيبة من الفُلفُل[1] وثلاثمائة واثني عشر كيلوجراماً من القرنفل (من التوابل) وسبعة وسبعين كيلوجراماً من جوزة الطيب، إضافة إلى ألف وثلاثمائة وسبع عشرة ماسة تزن مجتمعة نحو أربعمائة وثمانين قيراط ونصف القيراط.

وقد كانت قوائم البيانات، تلك، مكتوبة على نحو مرتب فوق

أرصفة ميناء الشحن في «بانتام»، وهو ميناء التجارة الخاص بشركة الهند الشرقية الهولندية عند القمة الأكثر تطرفاً ناحية الغرب من جزيرة جاوة، ومع التسليم بذلك الهوس الخاص لدى شركة الهند الشرقية الهولندية وأصحابها بدقة التفاصيل وكمال الحسابات، فإنه ليس هناك مبرر للشك بوجود أي شيء قد يوضع في مخزن الشحن بالسفينة ولا يُسَجَّل في دفاتر الشركة أو سجلاتها، ولعل هذا هو السبب الذي أصاب علماء الآثار البحرية – الذين نزلوا إلى أعماق البحر للتنقيب عن حطام «الأسد الأبيض» عام 1976 – بالدهشة لما اكتشفوه. لقد عرفوا أن تلك التوابل لا بد أنها تعفنت وفسدت منذ وقت طويل، وأن الماس قد فقد في رمال الميناء المتحولة، إنهم لم يتوقعوا أن يجدوا تلك الحمولة، لقد كانوا يقصدون بدلاً من ذلك أن يكشفوا عن تلك المعادن التي صنعت منها السفينة، وخاصة ما يتعلق منها بمدفعها، ومع ذلك، فإنه كانت، هناك، وفي الطين، تحت جسم السفينة المحطم المبعثر، آلاف من القطع المنثورة من الشيء نفسه الذي كان في عام 1613 مرادفاً للصين نفسها، أي «تشاينا» China: الصين والصيني.

هل أُسقِطَ البورسلين فوق حطام السفن الغارقة بواسطة سفن أخرى، كانت تحاول أن تخفف من حمولتها وهي راسية في الميناء؟ ربما، ولكن البورسلين الذي كان هناك كان أكثر مما يجب أن يوجد في مكان واحد، وعندما أُخرِجتْ تلك القطع فوق سطح المياه، كانت أساليب صناعتها وتواريخها تشير إلى أنها قد أنتجت خلال حكم الإمبراطور «وانلي» Wanli، الذي انتهت مدة حكمه عام 1620. وهكذا فإن الشواهد

كلّها –فضلاً عمّا تكشف عنه سجلات الشحنة المدونة على رصيف الميناء – تشير إلى أن قطع البورسلين تلك كانت ضمن حمولة السفينة «الأسد الأبيض». وهكذا، فإن ما دمره الانفجار هو ويا للمفارقة ما تم إنقاذه، ولو كانت تلك الرزم من البورسلين التي حُزمَتْ جيداً قد وصلت إلى أرصفة الموانى في أمستردام، كما كان يفترض لها، فإنها ربما كانت ستباع، مرة بعد الأخرى، أو تسقط متحطمة وتكسر، ثم يُلقى بها بعيداً. لقد كان ذلك هو المصير تقريباً الذي لحق بكل البورسلين الذي وصل إلى هولندا خلال القرن السابع عشر. وبالطبع هناك قطع منه موزعة عبر العالم في المتاحف والمجموعات الخاصة، لكنها ظلت موجودة كقطع متبقية فردية، منعزلة كثيراً عن الظروف التي أوصلتها إلى أوروبا، ومنفصلة أيضاً عن تلك الشحنات التي كانت تلك القطع جزءاً منها.

لقد أنقذ انفجار السفينة «الأسد الأبيض» على نحو غير مقصود هذه الشحنة الخاصة من ذلك المصير. صحيح أن معظم القطع التي أُنقِذَتْ كانت مكسورة، لكن التناقض البالغ هنا هو أن كثيراً منها ظلت باقية أكثر مما قُدِّرَ لها أن تبقى خلال تلك القرون الأربعة التي تفصل بين عام 1613 وأيامنا هذه، ربما كانت قد تحطمت أو دمرت، لكنها ظلت موجودة معاً (وهى موجودة الآن في المتحف القومي الهولندي Rijksmuseum في أمستردام)، ويعني ذلك أنها يمكنها أن تكشف لنا عمّا كانت تبدو عليه أو تشبهه شحنة من البورسلين خلال القرن السابع عشر.

لقد أذهل أول بورسلين صيني يصل إلى أوروبا كلَّ من رآه، أو تعامل معه، هكذا كان الأوروبيون قادرين على التفكير في الكريستال (أو البلور) فقط عندما يجدون أنفسهم مضطرين إلى وصف الأمتعة الشخصية الخاصة بهم، فأسطحه الصقيلة الملساء كانت صلبة ولماعة، كما كانت التصميمات الداخلية الخاصة به جيدة التحديد، وكانت ألوانه شديدة الحيوية، وجدران القطع الجميلة منه رقيقة جداً أونحيلة بحيث يمكنك أن ترى ظلاً يدل على الجانب الآخر منها عندما ترفع طبقاً من الكريستال أو كوباً ناحية الضوء.

وقد كان الأسلوب الذي استأثر باهتمام الأوروبيين هو الأزرق[3] والأبيض، أي: البورسلين الأبيض الرقيق - الرفيع - المصبوغ بالكوبالت الأزرق والمغطى بطلاء زجاجي لامع وشفاف تماماً، وقد كان ذلك الأسلوب في الواقع نوعاً من التطوير الذي جاء متأخراً أو لاحقاً تاريخياً عن الخزف أو السيراميك الصيني.

وقد كان الخزَّافون في جينغدتشن Jengdezhen مدينة الأفران في المقاطعة الداخلية من جيانغشي Jiangxi، حيث كانت الأوامر الإمبراطورية تصدر، كانوا قد طوروا التكنولوجيا الخاصة بحرق البورسلين الحقيقي في القرن الرابع عشر فقط، إذ يتطلب إنتاج البورسلين رفع درجة حرارة الفرن إلى ألف وثلاثمائة درجة مئوية، وهي درجة مرتفعة على نحو كافٍ لتحويل ذلك المزيج الزجاجي اللامع الصقيل إلى مادة زجاجية تُصْهَر أو تُدْمَجُ في الجسم أو القوام الرئيس للسلعة أو الشيء المُصَنَّعِ، وتوجد محصورة بينهما أو متداخلة بتلك الصور

والأنماط الزرقاء التي تأسر العين بشدة. وقد كان أقرب المصنوعات الأوروبية إلى البورسلين الصيني هو الخزف المزخرف Faience، وهو آنية خزفية كانت تُحْرَق عند درجة 900 (تسعمائة) مئوية ثم تغطَّى بأوكسيد القصدير اللامع الصقيل، وقد كان للخزف المزخرف المظهر السطحي الخارجي للبورسلين، لكنه كان يفتقر إلى كثافته وشفافيته. لقد تعلم الأوروبيون هذا الأسلوب من الخزَّافين المسلمين خلال القرن الخامس عشر، وقد كان هؤلاء الخزَّافون قد طوَّروه من أجل جعله سلعة رخيصة بديلة يمكن أن تنافس السلع الصينية، واحتاج الأمر إلى الانتظار حتى عام 1708، فحينها كان كيميائي ألماني قادراً على أن يعيد إنتاج هذه (التقنية) من أجل صناعة البورسلين الحقيقي في مدينة خارج دريسدن تسمى «ميسين» Meissen، والتي أصبح اسمها على الفور مرادفاً للبورسلين الجميل(4).

وقد كان المشترون الأوروبيون يشعرون بالبهجة والمتعة من خلال ذلك التأثير الانفعالي والجمالي الخاص للون الأزرق على الأبيض.

ومع أننا نعتقد أن تلك الأشكال والخطوط المنفذة باللون الأزرق كالكوب الداكن أو الغامق، وعلى خلفية بيضـاء تماماً صافية، هي إنتاج صيني تماماً، فإنها في الحقيقة أشكال مستعارة، أو على الأقل معَّدلة أو مكيَّفة جمالياً؛ ففي الوقت الذي بدأ الخزَّافون الصينيون فيه ينتجون البورسلين بالنار، كانت الصين تحت حكم المغول، وقد سيطر المغول على آسيا الوسطى أيضاً، مما مكَّن ويَسَّرَ حركة السلع عبر البلاد من أقصى الإمبراطورية التي امتدت عبر القارة إلى أقصاها.

وقد كان الذوق الخاص بالفُرْسِ يفضل منذ وقت طويل الخزف الصيني، ذلك الذي كان متاحاً هناك منذ القرن الثامن الميلادي. وبسبب عدم قدرتهم على إنتاج ما يضاهي ذلك «البياض» الخاص بالخزف الصيني، قام الخزَّافون الفُرْس بتطوير (تقنية) لتغطية صلصالهم الرمادي بسطح زجاجي لامع صقيل أبيض معتم غير شفاف– يبدو وكأنه صيني – وفوق تلك القاعدة البيضاء رسموا أشكالاً زخرفية زرقاء، مستخدمين في ذلك الكوبالت المحلي لوناً هنا. وقد كان له تأثيره الأخاذ. وعندما أصبحت بلاد فارس والصين مرتبطتين على نحو مباشر لوقوعهما تحت حكم إمبراطور المغول خلال القرن الثالث عشر، أصبح الخزَّافون الصينيون أكثر اقتراباً على نحو أفضل من السوق الفارسية. ولكونهم دائماً أكثر حساسية لمطالب السوق، فإنهم قاموا بتعديل ومواءمة المظهر الخاص بمنتجاتهم كي تجذب الذوق الفارسي وتروقه. وقد تمثل أحد هذه التعديلات في دمج الزخرفة بالكوبالت في القسم الداخلي من تصميماتهم. ولأن الكوبالت الصيني باهت أكثر من الكوبالت الفارسي، فإن خزَّافي جينغدتشن بدؤوا يستوردون الكوبالت الفارسي من أجل الوصول إلى لون ما للخزف، اعتقدوا أنه سيكون أكثر جاذبية للمشترين في بلاد فارس.

هكذا ظهر البورسلين الأزرق والأبيض من داخل تلك العملية الطويلة من الابتكار، وقد كان يُباع جيداً في بلاد فارس؛ وذلك لأن الإسلام يحرم الأكل من صحاف (أطباق) ذهبية أو فضية. وقد كان أثرياء القوم يريدون أن يكونوا قادرين على خدمة ضيوفهم وضيافتهم على

موائد باذخة المكونات، وما داموا قد منعوا من تقديم الطعام في أدوات معدنية ثمينة، فإنهم كانوا لا يزالون يحتاجون إلى شيء جميل وثمين، لكنه لم يعد موجوداً بعد انتشار الإسلام. وقد وفّى البورسلين القادم من «جينجدزهن» بالغرض، وقد أبهج مظهر ذلك البورسلين مشتريه أيضاً من المغول والصينيين. وما نعرفه - اليوم - على أنه «صيني» china قد وُلد وظهر نتيجة لذلك العبور الثقافي بمحض المصادفة للعوامل المادية والجمالية، وهي العمليات التي كانت تقف وراء ذلك التحول الذي حدث في صناعة الخزف عبر العالم. فقد بدأ الخزَّافون السوريون في بلاط تيمورلنك Tamerlane مثلاً بجعل منتجاتهم تبدو صينية المظهر في القرن الخامس عشر، حيث كان الإنتاج العالمي للخزف قد امتد خلال القرن السادس عشر إلى المكسيك، والشرق الأوسط، وشبه جزيرة أيبريا، ثم إلى إنجلترا وهولندا، خلال القرن السابع عشر، وقد كان الخزَّافون، في كلِّ تلك البلدان، يتبعون ما هو ملائم ومناسب لمجتمعاتهم. لقد حاول كلٌّ واحد منهم - على الرغم من أنهم قد أخفقوا في ذلك لفترة طويلة - أن يحاكوا أو يقلِّدوا ذلك المظهر، وذلك الإحساس، الموجودين في البورسلين الصيني الأزرق والأبيض. هكذا أصبحت دكاكين عرض الخزف وبيعه في الأسواق الشرقية خارج الصين مكدَّسة بركام يعوزه النظام من النسخ المقلدة له، من الدرجة الثانية، وقد كانت بعيدة تماماً عن أن تكون شيئاً حقيقياً[5].

وقد علم القراء الهولنديون أولاً عن البورسلين الصيني عام 1596 من خلال «جان هوجن فإن لينتشوتن» Jan Hugen van linschoten،

وهو رجل هولندي كان قد ذهب إلى الهند موظفاً في خدمة الحكومة البرتغالية. وقد كان كتابه الأكثر مبيعاً؛ المسمى «يوميات أو الرحالة»، هو ما ألهم الجيل التالي له من التجار الهولنديين عبر العالم. وقد رأى «فان لينتشوتن» منتجات البورسلين الصينية في أسواق «جُوّه» الهندية. ومع أنه لم يذهب قط إلى الصين، فإنه نجح في أن يلتقط على نحو معقول معلومات مهمة حول تلك السلعة «فكي يحكي عن البورسلين الذي يصنع هناك كان يحكي عن الصين في ضوء ما قد عرفه في «جُوّه» و«لم يكن ذلك الأمر الذي يصدق، وكذلك كانت حال تلك السلع المصدرة سنوياً إلى الهند والبرتغال وإسبانيا الجديدة وكلِّ مكان آخر».

لقد عرف «فان لينتشوتن» أن البورسلين يُنْتَج «دخل البلاد» كما كانت جينغدتشن تفعل ذلك، وأن تلك السلع التي تكون من الرتبة الثانية هي فقط التي تُصَدَّر. وقد كانت الأنواع الأعلى سعراً مطلوبة بدرجة كبيرة لم يكن ممكناً مقارنة أفضل الأقداح أو الكؤوس الكريستالية (البلورية) بها، وقد كانت تلك القطع منها الأعلى ثمناً يُحْتَفَظ بها في الصين، كي تستخدم في البلاط الملكي والقصور.

وقد أحضر التجار الهنود البورسلين إلى المناطق الفرعية داخل القارة منذ القرن الخامس عشر على الأقل، حاصلين عليه من التجار الصينيين في جنوب شرق آسيا، الذين كانوا يحضرونه بدورهم من موانئ موجودة على طول الساحل الجنوبي الشرقي للصين، حيث كان متعهدو الخزف يشحنونه إليهم أيضاً. وقد فتح تطور الطريق البحري للتجارة الموجود حول إفريقيا فجأة سوقاً كبيرة في أوروبا. وقد كان البرتغاليون أول

الأوروبيين الذين يحصلون على البورسلين الصيني من جوّه، هذا مع أنهم قاموا بعد ذلك مباشرة بمدِّ طرق تجارتهم إلى جنوب الصين، حيث كان يمكنهم أن يتعاملوا مباشرة مع تجار البيع بالجملة الصينيين هناك، لقد كان ذلك هو الطريق الذي أراد الهولنديون الوصول إليه، وقد قاموا بذلك فعلاً عقب البرتغاليين بوقت قصير، لكن أول شحنة من البورسلين الصيني موجهة إلى أمستردام لم يُحْصَل عليها نتيجة لما قامت به شركة هولندية، وإنما كان نتيجة لذلك التنافس الهولندي البرتغالي في أعلى البحار على شاطئ جزيرة سانت هيلينه ليس أكثر، فبعد إحدى عشرة سنة من غرق السفينة «الأسد الأبيض» قام أسطول من السفن الهولندية بأسر السفينة البرتغالية «سان إياجو» San Iago عام 1602. وقد أُسِرَت تلك السفينة دون أية صعوبة، وأخذت إلى أمستردام بكلِّ حمولتها. وعلى أرض الميناء الخاص بتلك المدينة ظهرت أول مجموعة نفيسة وعظيمة من البورسلين الصيني تصل إلى هولندا، وقد تصارع التجار من كلِّ أنحاء أوروبا كي يحصلوا على قطعة منها. ولقد أطلق الهولنديون عليها اسم «بورسلين القُرقورة» Karakporselein، في اعتراف منهم بفضل القُرقورة أو السفينة الشراعية الضخمة البرتغالية التي أُخِذَت هذه الشحنة من البورسلين منها.

كما جاءت شحنة البورسلين الكبيرة التالية التي وصلت إلى هولندا بالطريقة نفسها خلال السنة التالية لتلك السنة، حيث أُسِرَت السفينة «سانتا كاترينا» هناك بجوار جوهر Johore عند مضيق مالقا Malacca، وهو ممر بحرى ضيق يربط المحيط الهندى ببحر الصين. وقد كانت

تلك أشهر عمليات الاستيلاء أو القرصنة التي حدثت في القرن الجديد. وقد كانت «سانتا كاترينا» تحمل مئات الآلاف من قطع من البورسلين، والتي يصل وزنها مجتمعة إلى نحو خمسة أطنان (كما كانت تحمل أيضاً ألفاً ومائتي رزمة من الحرير الصيني، وبيعت على نحو جيد، وبسعر مرتفع بعد ذلك، لأن عملية إنتاج الحرير الإيطالي كانت قد أخفقت في تلك السنة، وقد اندفعت أفواج من مندوبي الشراء الذين أرسلهم حكام جنوب أوربا إلى أمستردام – بأوامر صريحة – لشراء ما يستطيعون شراءه من تلك الشحنة، وأن يدفعوا أيضاً أي ثمن يطلب فيها.

لقد كان الاستيلاء على «سان إياجو» و«سانتا كاترينا»، وكذلك غرق «الأسد الأبيض»، مجرد مناوشات في الحرب الأكبر التي كان الهولنديون يشنونها ليس ضد البرتغاليين فقط، ولكن ضد الإسبان أيضاً. وقد كان البرتغاليون الشركاء الأصغر للإسبان خلال الفترة بين عامي 1580 و1640، وهى تلك الفترة التي اتحد فيها ملكاهما، وقد جعلهما هذا في نظر الهولنديين أهدافاً مشروعة لهجماتهم كذلك. لكن إسبانيا كانت هي العدو الرئيس، فقد كانت إسبانيا هى الدولة التي احتلت الأراضي الواطئة خلال القرن السادس عشر، واستخدمت أيضاً عنفاً بالغاً في قمع حركة الاستقلال الهولندية. ومع أن تلك الهدنة التي وقعتها إسبانيا مع المقاطعات المستمدة في الأراضي الواطئة عام 1609 قد أنهت الأعمال العدائية المباشرة في الأراضي الواقعة لفترة من الزمن، فإن الصراع خارج أوروبا بين المملكة الإسبانية والجمهورية الهولندية قد استمر ينشب ويحتدم بعد ذلك.

وقد كان التنافس الذي يدور بينهما على أشدِّه في أعلى البحار، وأطلق الإسبان على مثل هذا الصراع على نحو له ما يبرره اسم «القرصنة». لقد كان الأمر يتعلق على كلِّ حال بما هو أكثر من كفاح الهولنديين من أجل حصول وطنهم على الاستقلال، لقد كان يتعلق بإعادة تعريف النظام العالمي. وتعود جذور ذلك الصراع إلى عام 1493؛ أي تلك السنة التالية لرحلة كولومبس الأولى إلى الهند الغربية، ففي ضوء الأراضي الجديدة التي اكتشفت عبر الأطلنطي، أصدر «البابا» مرسوماً، في تلك السنة، فحواه أن إسبانيا ينبغي أن تتمتع بحق السيادة، دون غيرها، على كلِّ أرض جديدة تكتشف وتقع شمال جنوب خط الطول المرسوم أو الممتد مائة فرسخ غرب جزر الرأس الأخضر Cape Verde قبالة ساحل المغرب، وأن البرتغال يمكنها أن تطالب بكلِّ تلك الأراضي الموجودة شرق ذلك الخط، وقد استُبعدَتْ كلُّ الدول، والولايات الأوروبية الأخرى، من أيِّ حق من حقوق التجارة أو الملكية في تلك المناطق الجديدة المكتشفة، وغيرَّت إسبانيا والبرتغال من شروط الأمر الرسمي البابوي الخاص بعام 1493 في العام التالي من خلال المعاهدة الأخيرة بينهما التي سميت «معاهدة تورديزيلاس» Treaty of Tordesillas، ولقد حركت تلك الاتفاقية الجديدة الخط الفاصل بين ممتلكاتها نحو مائتين وسبعين فرسخاً أبعد ناحية الغرب؛ وذلك لأن البرتغاليين كانوا يعرفون، أو على الأقل يظنون، أن قطعة ما من أمريكا الجنوبية قد تظهر ناتئة هناك شرق ذلك الخط (وقد كانوا على حق، وكانت تلك القطعة هي البرازيل).

لم تذكر معاهدة «تورديزيلاس» شيئاً يتعلق بأين ينبغي أن يقع خط الحدود الفاصل بين إسبانيا والبرتغال في الجانب البعيد الآخر من العالم؛ وذلك لأن أحداً من طرفي تلك المعاهدة لم يكن قد ذهب إلى هناك. هكذا انطلقت إسبانيا والبرتغال مباشرة في اتجاهين متعارضين في سباقهما حول العالم، البرتغال عن طريق المحيط الهندي، أما إسبانيا فعن طريق المحيط الباسفيكي أو الهادي، وقد كانتا تعرفان أن الصين موجودة هناك على الجانب الآخر المقابل من العالم، وأن الذي يستطيع أن يؤسس له حضوراً في ذلك الجانب من العالم قد يستطيع أن يحصد أكثر الجوائز قيمة وثروة مقارنة بغيرها. ولم تكن الحكومة الصينية متحمسة بخصوص ترك أية دولة أخرى أن تُرسِّخَ لها موطئ قدم في التربة الصينية. كما سُمِحَ للأجانب بالبقاء في الصين فقط بوصفهم زواراً مؤقتين، وأنهم قد جاؤوا أعضاء في سفارات دبلوماسية مؤقتة. وقد كان مفهوم السفارة المؤقتة مطاطاً مراوغاً على نحو كافٍ، وقد فُهِمَ على أنه كذلك من الجانبين، فتلك السفارات التي تنتمي إلى الدول المجاورة، والتي كانت تأتي لتقديم التقدير والإجلال للعرش الصيني، كانت في واقع الأمر تعمل بوصفها وفوداً تجارية، حيث كان يسمح للسفراء بالاشتغال بالتجارة ما دام يتم الحفاظ على حجم هذه التجارة ضمن الحدود المعتدلة أو العادية. هكذا كان على التجار أن يكونوا سفراء، وهذا ما أراد البرتغاليون أن يكونوا عليه. وقد وصلوا إلى الصين قبل الإسبان، وقاموا بجهود مضنية لفتح قنوات رسمية للتواصل مع البلاط الحاكم هناك. ولأنهم رُدوا على أعقابهم ورُفضوا على نحو

مستمر، فإنهم حاولوا أن يفعلوا ذلك من خلال التجارة غير الشرعية على جانبي السفن المحجوبة عبر الريح، أو في تلك الجزر التي تقع عبر البحار، وقد منحتهم اتفاقية غير رسمية عقدت معهم في منتصف القرن السادس عشر، وفي النهاية، موطئ قدم لهم في شبه جزيرة تقع على الساحل الجنوبي تعرف باسم «ماكاو» Macao، وهناك صمدوا بعناد، وأسَّسوا قاعدة استعمارية صغيرة لهم، ومن خلالها مارسوا التجارة مع الصين واليابان.

عند منعطف القرن السابع عشر، كانت سفن شركة الهند الشرقية الهولندية موجودة أيضاً في بحر الصين الجنوبي، تتلمس طريقها عبر الساحل الشمالي لـ «ماكاو» بقدر استكشافها كذلك لمقاطعة فوجيان Fujian؛ أملاً في الوصول إلى مكان ما يمكِّنهم من التجارة مع الصين، ولأن الحكومة الصينية كانت قد عقدت اتفاقاً فعلاً مع مجموعة من «الفرنجة»، كما كانوا يسمُّون الأوربيين (وهي تسمية أو مصطلح التقطه الصينيون من العرب) في «ماكاو»، فإنه لم يكن مثيراً لاهتمامها أن تمنح امتيازات لطرف آخر. لكن التجار الصينيين من القطاع الخاص كانوا تواقين إلى التجارة مع الفرنجة أياً كان وطنهم، وقد كان بعض الموظفين الرسميين على استعداد لتفهم ذلك الأمر إذا دُفعَ فيه ثمن مناسب. وكان أكثر الموظفين الرسميين المشهورين بسوء السمعة هو قاو قاي Gao Cai، أحد مخصوصي الإمبراطور، وكانت مهمته جمع الرسوم الجمركية المفروضة على التجارة البحرية. وحيث إن حصيلة تلك الرسوم كانت تذهب مباشرة إلى حساب الأسرة الإمبراطورية

بدلاً من وزارة المالية، فإن المخصوص «جاو» قد لوى عنق القواعد الإمبراطورية لمصلحة سيده، ففي عام 1604 قام بتكوين مركز تجاري خاص لتوزيع السلع على جانبي السفن في جزيرة عبر البحار، حيث كان عملاؤه يتاجرون مع الهولنديين في مقابل بعض الهدايا الجميلة التي تقدم له وللإمبراطور أيضاً، لكن حاكم المقاطعة سرعان ما اشتمَّ رائحة المؤامرة في ذلك المشروع الوهمي، وأرسل الأسطول كي يقضي على عمليات التهريب التي كان ذلك المخصوص يقوم بها[2].

لقد جعل غياب دول قوية في جنوب شرق آسيا، مقارنة بالصين، تلك المنطقة واعدة للهولنديين كي يجدوا فيها موطئ قدم. وقد كان الإسبان يهيمنون على آلاف الجزر في تلك المنطقة، وهكذا تحرك الهولنديون هناك بخفة ورشاقة، واستولوا على ما كان يسمى بجزر التوابل من البرتغاليين في عام 1605. وبعد ذلك بسنوات أربع، أقامت شركة الهند الشرقية الهولندية أول مركز تجاري دائم لها في «بانتام» Bantam على الطرف الآخر ناحية الغرب من جزيرة جاوة، وبعد الاستيلاء على جاكرتا الموجودة شرقاً، نقلت الشركة مراكزها الرئيسية إلى ذلك الموضع، وأعادت تسمية المدينة باسم باتافيا Batavia.

هكذا صارت لهولندا الآن قاعدة على الجانب الآخر من العالم، ومن خلالها قامت بالإعلان عن تحديها لاحتكار الإيبيريين (الإسبان والبرتغاليين) للتجارة في آسيا، وقد تزايدت قيمة السلع المستوردة من تلك المنطقة تقريباً كلَّ عام.

لقد أصبحت السفينة «الدب الأبيض» واحدة من أكثر الخسائر

الهولندية الأولى فداحة وتأثيراً في حرب الهولنديين للسيطرة على التجارة مع آسيا. لقد أبحرت تلك السفينة في رحلتها الأولى من أمستردام إلى آسيا وهي مسافة تقدر بنحو أربعة عشر ألفاً من الأميال البحرية (نحو خمسة وعشرين ألف كيلو متر) وقد حدث ذلك على نحو مبكر في عام 1601، وذلك قبل نحو عام من تأسيس شركة الهند الشرقية الهولندية[3]، وقد وصلت إلى موطنها في يوليو من العام التالي، وقد كان التوتر المتزايد مع الأساطيل البحرية البرتغالية في المياه الآسيوية هو ما برر تزويد تلك السفينة بستة مدافع جديدة من البرونز في مقدمتها ومؤخرتها، وعندما انطلقت في رحلتها الثانية إلى آسيا عام 1605، أبحرت «الأسد الأبيض»، كسفينة تتبع شركة الهند الشرقية الهولندية، وقد سجلت تنظيمات العمل الجديدة على المواضع الخلفية من المدفع النحاسي الذي استخرجه علماء الآثار المتخصصون في استرداد الأشياء الثمينة بعد غرقها من الخليج عام 1976، أن رب العمل البارع في سبك المعادن هندريك مويرز Hendrick Muers قد نقش تلك التعليمات مع اسمه والتاريخ – هكذا 1604 Henricus Muers me Fecit وفوقها وضع بشكل بارز الحروف المتقاطعة الأولى من اسم الشركة «VOC»، إضافة إلى حرف A، وهو الشارة أو العلامة المميزة لغرفة أمستردام للتجارة التابعة لشركة الهند الشرقية الهولندية.

وقد أكملت «الأسد الأبيض» رحلتها الثانية بنجاح، ثم شرعت في رحلتها الثالثة المشؤومة لعام 1610، وقد أفرغت حمولتها في «بانتام»، ثم أعيد تكليفها بالعمل، فلحقت بأسطول بحري كان مكلفاً في ذلك

الوقت بقمع تمرد قام به تجار جوزة الطيب في جزر التوابل، وقد أمضت «الأسد الأبيض» ذلك الشتاء كجزء من أسطول يهاجم السفن الإسبانية ويستولى على ما تحمله في أثناء خروجها من مانيلا، وقد أُسِرَتْ خمس من هذه السفن، وقد استعملت «الأسد الأبيض» في الرحلات البحرية فيما بين الجزر خلال الربيع والصيف، ثم أُمِرَت أن تعود إلى «بانتام» كى تُحمَّل، ثم تنطلق، في رحلتها الثالثة نحو أمستردام، وفى الخامس من ديسمبر 1612 غادرت تلك السفينة بوصفها واحدة من السفن الأربع التي كانت تحت إمرة الأدميرال أو قائد البحر «لام»، وفى الأول من يونيو من الصيف التالي، غادرت جزيرة سانت هيلينة في المرحلة الأخيرة في رحلتها نحو أمستردام، أما بقية تفاصيل الرحلة فنحن نعرفها الآن جيداً.

لقد أثارت القرصنة الهولندية احتجاجات دبلوماسية كثيرة من الأمم الأوروبية الأخرى، وليس من البرتغال فقط[4]، فعندما استولى الهولنديون على السفينة سانتا كاترينا في عام 1603 طالبت البرتغال بعودة السفينة بكامل حمولتها، مصرة على أن ذلك كان عملاً من أعمال النهب غير الشرعية، وقد شعر مديرو شركة الهند الشرقية الهولندية أنه ينبغى لهم أن يصنعوا قضية لأنفسهم تتجاوز في أهميتها تعظيم قدرتهم على الهرب بعيداً بما يسرقونه من سلع. لقد أرادوا الحصول على مبادئ من القانون الدولي تثبت أنهم كانوا على حق في أفعالهم، ومن ثَمَّ فإنهم كَلفَّوا محامياً بارعاً شاباً من دلفت، هو «هويج دي جروت» Huig de Groot (المعروف جداً، بالإنجليزية بالنسخة اللاتينية من اسمه وهي:

جروتيوس) أن يكتب مذكرة بأهم وقائع تلك الدعوى ونقاطها القانونية لتبرير مزاعمهم أن عمليات الاستيلاء والنهب التي كانوا يقومون بها لم تكن قرصنة؛ بل نشاطاً للدفاع عن مكاسب شركتهم الشرعية.

في عام 1608 سلم «جروتيوس» ما أراده مديرو شركة الهند الشرقية الهولندية، وكان عنوان تلك المذكرة القانونية هو: De Jure praedae، والذي يمكن أن يترجم إلى الإنجليزية على أنه: The Spoils of war، أي غنائم الحرب، وقد حاجج خلال تلك المذكرة قائلاً: إن الحصار البحري الإسباني لهولندا، وكذلك من خلال استخدام القوة من جانبهم، كان عملاً من أعمال الحرب، وإن مثل هذا العمل الاستفزازي يعطي الهولنديين الحق في أن يتعاملوا مع السفن البرتغالية والإسبانية بوصفها سفناً معادية. وقد أسرت إحدى سفن الهولنديين خلال الحرب، وكانت غنيمة ومكسباً عظيماً، ولم تكن حصيلة استيلاء غير شرعية. وخلال العام التالي، أسهب جروتيوس وفصّل في مذكرته «غنائم الحرب»، فتحولت إلى عمله الذي يعد من الروائع، والمسمى «الحرية البحرية» Mare liberum، أو كما هو في عنوانه الكامل بالإنجليزية الآن: **«الحرية في البحار أو الحق المنسوب إلى الهولنديين في المشاركة في تجارة الهند الشرقية»**.

في «الحرية في البحار» قدم جروتيوس كثيراً من التنظيمات والترتيبات الجريئة والجديدة، وقد كانت الأكثر جرأة وجسارة، فلم يفكر أحد في هذا الموضوع بهذا البعد أو العمق من قبل: كلُّ الناس لديهم الحق في التجارة، فلأول مرة أصبحت حرية التجارة مبدأ معلناً خاصاً من مبادئ

القانون الدولي، كما أنها أصبحت جانباً من جوانب النظام الدولي، وعلى نحو لم تكن عليه كذلك من قبل. ويجيء عقب تلك المبادئ الجوهرية قوله: إنه ليس من حق أية دولة أو ولاية أن تمنع مواطني الدول الأخرى من استخدام الممرات البحرية سعياً وراء التجارة. فإذا كانت التجارة حرة، فإن البحار التي تتم فوقها، مثل تلك التجارة، ينبغي أن تكون حرة أيضاً. ولا يوجد مبدأ أساس لدى البرتغال وإسبانيا تعتمدان عليه في إلغائهما ذلك الحق من خلال احتكارهما، للتجارة البحرية الخاصة بآسيا. ولم يستطع جروتيوس أن يتقبل حجتهما القائلة إنهما قد كسبتا ذلك الاحتكار بفضل الجهد الذي قامتا به عندما حملتا المسيحية إلى أصحاب البلاد الأصليين في تلك الأرجاء من العالم التي يتجارون فيها. ذلك أن مهمة تحويل الوثنيين إلى المسيحية لم تدفع التجارة بنجاح على طريق الحرية، بالنسبة إلى جروتيوس، بل إنها كانت مهينة وعدائية لذلك المبدأ القائل إنه ينبغي التعامل مع البشر كلِّهم على أنهم متساوون. وكما قال فإن: «العقيدة الدينية لم تبطل أو تتخلص من ذلك القانون الطبيعي أو البشري الذي تستمد منه السيادة والاستقلال، وينبغي للناس عدم القبول بذلك»، فالمسيحية «ليست سبباً كافياً لتبرير الحرب عليهم، أو لسلب سلعهم ونهبها»، ولا أن يتقبلوا أن يكون الثمن الذي ينبغي أن يدفعوه لتحولهم إلى المسيحية هو أن يُستهلكوا ويستنزفوا من خلال حرمان الأمم الأخرى من التجارة معهم. وعندما أصبحت شركة الهند الشرقية الهولندية متسلحة بهذا التأويل الضخم الخاص بحجج جروتيوس، والمتفقة مع مصالحها الشخصية، فإنها سمحت لربابنة

سفنها أن يستخدموا القوة حيثما أُعيقوا خلال رحلاتهم التجارية.

وقد عرف مدراء شركة الهند الشرقية الهولندية أيضاً أن أفضل طريقة للهيمنة على تجارة البورسلين إنما تكون بواسطة الحصول عليه من خلال قنوات منتظمة، لا من خلال سرقته من الآخرين. وقد بدؤوا يخبرون ربابنة سفنهم الذين يغادرون متجهين نحو «بانتام» أنه لا ينبغي لهم التفكير في العودة إلى الوطن دون أن يحملوا معهم شحنة من البورسلين الصيني. وخلال عام 1608 أرسلوا معهم قائمة مشتريات تشتمل على: خمسة آلاف طبق للزبدة، وعشرة آلاف صحن من صحون الطعام وألفين من أطباق الفاكهة، وألف قطعة من كلٍّ من أواني حفظ الملح وقدور الخردل والزُبديات المتنوعة الواسعة، والصحون الكبيرة، إضافة إلى عدد غير محدد من الأباريق والأكواب. وقد كان أمر الشراء ذلك يمثل ارتفاعاً واضحاً في الطلب إلى درجة أن التجار الصينيين لم يستطيعوا في البداية أن يفوا به. وفضلاً عن ذلك، فإن الطلب المتزايد قد رفع الأسعار على نحو كبير، «لقد أصبح البورسلين باهظ الثمن هنا»، كما ذكر ذلك قائد تلك العمليات في «بانتام». وقد أصابه الفزع في خطاب أرسله إلى مديري شركة الهند الشرقية الهولندية عام 1610. فعندما كان يصل أسطول من السفن الهولندية إلى الميناء، «كان التجار الصينيون «على نحو مباشر، يرفعون الأسعار كثيراً، إلى درجة أنني لا أستطيع حساب نسبة الربح التي يجنونها»، والطريقة الوحيدة للتحكم في هذا الارتفاع الجنوني للأسعار هو التوقف عن كلِّ عمليات الشراء التالية للسلعة، ثم التفاوض مع الصينيين من أجل تقديم عرض أفضل،

كما كتب ذلك القائد يقول: «ونحن، لهذا، سنقوم بعد ذلك بفحص البورسلين وفرزه، ثم نحاول أن نتعاقد مع الصينيين الذين يحضرون أيضاً كمية كبيرة منه»، كما قال أيضاً ذلك لأن: «ما جلبوه حتى الآن ليس كثيراً، كما أن أغلبه به عيوب»، ولذلك فإنه قرر ألا يشتري شيئاً مما قُدم له تلك السنة، «فقط السلع الجديدة النادرة اللافتة للنظر هي التي ستفي بالغرض».

هكذا قرر في الوقت نفسه الذي كانت السفينة «الأسد الأبيض» تشحن حمولتها على أرصفة ميناء بانتام في شتاء 1612، كان عارضو السلع الصينيين يوفرون المستويات العالية منها التي كانت شركة الهند الشرقية الهولندية تتوقعها منهم. أما السفينة سلاح أمستردام Wapen Van Amsterdam، وهي بارجة الأدميرال (الرافعة للعلم) في أسطول الأدميرال «لام» الهالك (وهي القسم الأعظم من الأسطول)، فقد كانت تعود فقط محملة بخمسة براميل من البورسلين، وكان كلٌّ منها يحتوي فقط على خمسة أطباق كبيرة، وقد كانت تلك عملية شراء خاصة أو صفقة جاءت كهدية للمسؤولين الرسميين في شركة الهند الشرقية الهولندية، أما السفينة الهولندية الأخرى التي كان عليها أن تبحر أو التي أُعدت للإبحار، وكان اسمها فلوشنج Vlissingen، فكانت هي التي حملت شحنة السلع الصينية الرئيسة. وقد تخلت مكرهة عن ثمانٍ وثلاثين ألفاً وستمائة وواحد وأربعين قطعة من البورسلين، تتراوح ما بين أطباق الخدمة الكبيرة الباهظة الثمن وأواني صب الشراب ذات العلامة التجارية المميزة لخزّافيها، وحتى الجِرَار، البسيطة والجذابة كذلك، التي

يوضع فيها الزيت أو الخل، وكذلك الأكواب الصغيرة لوضع الشموع فوقها أو بداخلها، وكان ثمن تلك الشحنة يعادل ستة آلاف وسبعمائة وواحد وتسعين جيلدراً، وهو مبلغ مرتفع قد يصعب تخيله، خاصة إذا وضعنا في حسباننا أن الصانع الحرفي الماهر في ذلك الوقت كان يمكنه أن يكسب مائتي جليدر فقط في السنة لكنه مع ذلك كان يكفيه تماماً، لقد كانت تلك هي البداية لتجارة طويلة متزايدة خاصة بالبورسلين. وفي عام 1640، لو اخترنا تاريخاً ما على نحو عشوائي، كانت السفينة ناساو Nassau تحمل وحدها في طريق عودتها إلى أمستردام مائة وستة وعشرين ألفاً، وثلاثمائة وإحدى وتسعين قطعة من البورسلين. ولم يكن البورسلين هو أكثر محتويات تلك الشحنة من حيث إمكانية تحقيق الربح، فقد كان هناك الفُلفُل أيضاً، والذي كانت «ناساو» تحمل منه تسعة آلاف ومائة وواحداً وستين كيساً مملوءاً، لكن البورسلين كان هو السلعة التي خلقت لها الحضور الأعظم في المجتمع الهولندي. وعبر النصف الأول من القرن السابع عشر، قامت سفن شركة الهند الشرقية الهولندية بالتوصيل إلى أوروبا، والتسليم هناك لحصيلة كلية تتجاوز ثلاثة ملايين قطعة من البورسلين.

لقد أنتج الخزّافون الصينيون البورسلين من أجل التصدير إلى أسواق العالم كلِّه. كما كانوا ينتجونه أيضاً للأسواق المحلية، بكمية ونوعية تتفوق على نوعية السلع التي يشحنونها خارج البلاد، وقد كان الصينيون من سلالة المنغ الحاكمة مولعين بامتلاك البورسلين الجميل ذي اللونين الأزرق والأبيض، مثلما كان كذلك أرباب الأسر الهولندية،

لكنهم، أي أفراد سلالة المنغ، كانوا يحصلون عليه مسترشدين بمعايير أكثر تعقيداً للذوق.

كان «ون جن هنغ wen Zhenheng» خبيراً فنياً ووسيطاً رائداً للذوق الفني في جيله (توفي عام 1645)، وقد كان يعيش مدينة سوجو Suzho الثقافية عندما انفجرت السفنية «الأسد الأبيض» وغرقت. وكانت مدينته الأصلية تلك تنتج وتستهلك أفضل الأعمال الفنية والموضوعات الثقافية وأكثر هذه الأعمال جمالاً، والتي قد يمكن أن توجد في الصين كلِّها، وكذلك الحال بالنسبة إلى إنتاج لأفضل السلع التجارية. لقد وضع هنغ في المكان المناسب تماماً كي ينتج كتابه: «**مبحث حول الأشياء الزائدة على الحاجة**» ATreatise on Superpflous Things. وقد كان «ون» الحفيد الأعظم للفنان الأعظم في القرن السادس عشر، وكاتب مقال من الطراز الأول، وعضواً في إحدى أكثر الأسر ثراء وتميزاً في سوجو، هكذا توافرت لـ «ون» أوراق الاعتماد التي يحتاج إليها لتمرير الأحكام الخاصة بطبقته حتى ما ينبغي لهم أن يفعلوه، وما لا ينبغي لهم أن يفعلوه، في المجمع الراقي، وكذلك ما ينبغي لهم أن يمتلكوه، وما ينبغي أن يتجنبوه، وقد كان كتابه «**مبحث حول الأشياء الزائدة على الحاجة**» يدور حول تلك الأمور كلِّها، إنه مرشد يدور حول ما ينبغي وما لا ينبغي القيام به من أجل امتلاك الأشياء اللطيفة الجميلة واستخدامها، وقد كتبه استجابة لمناشدات قرائه وتوسلاتهم، الذين لم يكونوا من ذوي المنزلة الرفيعة مثل «ون»؛ بل كانوا لم يتلقوا أيضاً قدراً كافياً من التعليم، ولم تتم تربيتهم كذلك على معرفة مثل هذه الأشياء

عن طريق التنشئة الخاصة بهم، لقد كان ذلك الكتاب موجهاً على نحو خاص إلى أفراد الطبقة الثرية الجديدة (أو محدثي النعمة) الذين تاقوا لأن يتقبلهم أفراد الطبقات الاجتماعية العليا أو الأرستقراطية، وبالنسبة إلى «ون» كان ذلك يمثل له طريقة بارعة ماهرة للاستفادة المادية من جهل كلِّ هؤلاء الأفراد، وذلك من خلال البيع الكبير للكتاب.

في القسم الخاص بالأشياء الزخرفية أو التزيينية من ذلك الكتاب، وضع «جن هنج» حدوداً وعلامات مميزة عالية خاصة، تكون ضرورية في اختيار البورسلين من النوعية الجيدة. وقد سلم بأن البورسلين هو شيء ينبغي للإنسان الراقي أن يجمعه ويعرضه، لكنه تشكَّك حول ما إذا كان أي شيء قد أنتج من البورسلين بعد الربع الثاني من القرن الخامس عشر كانت له أية قيمة، على الأقل، أو أنه كان من تلك الأشياء التي قد تود أن تجعل أصدقائك يعرفونها ويمتلكونها، والقطعة التامة المكتملة من البورسلين كما صَرّحَ ينبغي أن تكون «زرقاء كالسماء»، ملساء مصقولة كالمرآة، نحيلة دقيقة كالورقة، ترجع صدى الأصوات على نحو إيقاعي يشبه موسيقا الأجراس، ومع ذلك فإنه أبدى شكه وعجبه فيما إذا كان مثل ذلك الاكتمال قد تحقق، حتى في القرن الخامس عشر. وقد تساهل مع بعض القطع المنتجة خلال القرن السادس عشر فلم يخضعها لعملية التفحص العميق تلك، لكن شريطة أن تكون تلك القطع موظفة في الاستخدام الخاص بالحياة اليومية فقط، فالمضيف قد يقدم الشاي لضيوفه في أكواب أنتجها الخزَّاف كيو Cui، مثلاً (وقد صنعت أفران كيو الخاصة في جينغدتشن ذلك البورسلين الجميل

الناعم، وأنتجته، سواء ذو اللونين الأزرق والأبيض، أو المتعدد الألوان، خلال الربع الثالث من القرن السادس عشر) ولكن ون كان يتذمر، حقيقة، مستاءً إذا كانت الأكواب أكبر قليلاً من أن تكون أنيقة رائعة. إذ إنها ينبغي أن تستخدم فقط كما قال، إذا لم يكن هناك شيء آخر متوافر أفضل منها في متناول اليد.

كان الامتلاك للأشياء ذات القيمة الثقافية العالية أشبه بأعمال الحذر والغدر بين هؤلاء الذين يصارعون من أجل صعود السلم الخاص بالمكانة الاجتماعية، فحتى لو امتلكت قطعة من البورسلين من التي عدّها «ون» جميلة بدرجة كافية، فإنه ينبغي لك أن تستمر حذراً من أن تستخدمها بطريقة خاطئة، أو في وقت غير مناسب، فمثلاً، أن تظهر أو تعرض زَهرية أو آنية زهور أو زينة على الناس كي يروها، فإن القطعة الوحيدة من الأثاث التي تكون مقبولة لوضع هذه الزهرية عليها هي «مائدة طعام على الطراز الياباني»، كما وصف «ون»، ذلك، ويعتمد حجم تلك المائدة على حجم الزهرية وأسلوبها أيضاً، ويعتمد هذا كلُّه بدوره أيضاً على حجم الغرفة التي ستوضع فيها الزهرية وتعرض. «وفي الربيع والشتاء، تكون الأواني المصنوعة من البرونز الأكثر مناسبة في الاستخدام، وفي الخريف والصيف، تكون زهريات السيراميك هي الأفضل» برأيه وقد تمسك «ون» أيضاً برأيه القائل إنه لا شيء آخر عدا ذلك يمكن قبوله، وأضاف كذلك ملقياً بتعليماته» اجعل القيمة الأدنى للذهب والفضة، والأعلى للبرونز الخزف»، هكذا ينبغي تجنب الأشياء المصنوعة من المعادن النفيسة، لا لتجنب خطيئة التباهي والأبهة كما

يحذر منها القرآن؛ لكن من أجل الإبقاء على هؤلاء الذين يملكون فقط الثروة، ويفتقرون كثيراً إلى التربية أو الذوق، بعيدين هناك، في أماكنهم. «تجنب المزهريات ذات الأجراس». كما قدم أيضاً نصيحة تقول: «ولا تصفَّ الزهريات أو تنظمها في أشكال زوجية». لقد كان الأمر في مجمله بالغ التعقيد.

من بين قواعده الكثيرة وضع «ون» بعض القواعد الخاصة بنوعية الزهور التي ينبغي أن تضعها في زهريتك، وتنتهي هذه النصائح التي قدمها بتحذير شديد يقول من خلاله إن أكثر من ساقين حاملين للزهور سيجعل غرفتك تتحول إلى أن تصبح أشبه بفندق. إن تلك الوفرة أو عروض الزهور التي يحشو بها الأوروبيون ممتلكاتهم الجديدة من البورسلين الصيني، وكذلك التي يجب على الفنانين الألمان أن يرسموها عندما لا يكونون بصدد رسم مشاهد من إحدى الخانات (أو حتى عندما يكونون بصدد ذلك)، هي ما قد كان سيصيب «ون» بالذهول والصدمة، بوصف ذلك من وجهة نظره شيئاً يفتقر إلى الذوق تماماً، وله علاقته بالطبقة الدنيا الميؤوس منها. تخيل فقط ذلك الفزع الذي كان يشعر به عندما يعرف كيف يستخدم الأوروبيون أكواب الشاي الخاصة بهم. لقد أقر «ون» إمكانية تقديم بعض الفاكهة والجوز أو البندق في أثناء تناول الشاي من أحد الأكواب التي صنعها الخزَّاف «كيو» مثلاً لكن البرتقال غير مسموح به أبداً؛ وذلك لأن له رائحة نفاذة، لا تتفق مع تقديمه مع الشاي، وكذلك الحال بالنسبة إلى الياسمين، وأيضاً الكاسيا أو القرفة الصينية. هكذا أعلن «ون» الحرب ضد الذوق السيء، وهي

حرب ربما لم يستطع الأوروبيون الصمود فيها.

لم يكن الأوروبيون قادرين على معرفة ألعاب المنزلة الاجتماعية تلك. لقد كانوا محدثين تماماً فيما يتعلق بفن اقتناء البورسلين، حتى إنهم لم يكونوا يهتمون بأي شيء ما عدا امتلاكه أو وضع أيديهم على بعض منه، وقد كانت لديهم قواعدهم أيضاً، لكن الحقل المعرفي الثقافي الخاص بامتلاك الأشياء الضخمة، – على الأقل فيما يتعلق الخزف، – لم يكن شديد التحديد على نحو صارم، هكذا كانت القطع النفيسة من البورسلين التي ظلت باقية سليمة من السفينة «فلوشنج» قد عرضت في مزاد أُقِيَم في مستودعات شركة الهند الشرقية الهولندية عام 1613، وبصرف النظر عن الأسلوب أو القيمة، فإنها كانت مرغوبة إلى حدٍّ كبير، وقد كانت القيم الثقافية الوحيدة التي تحملها أنها كانت نادرة، واستثنائية، أو وحيدة نوعها، وغالية الثمن أيضاً. وبسبب افتقارهم إلى الخبرة المناسبة الخاصة بالبورسلين كان يمكن للأوروبيين أن يجعلوا ممتلكاتهم الجديدة منه توضع في مشكاة أو كوّة في الجدار يهوى مشتروها أو يولعون بوضعها فيها. وقد بدأت الأطباق الصينية تظهر على الموائد في وقت الغداء، حيث كان البورسلين سهل التنظيف على نحو مثير للإعجاب، كما أنه لم يكن يترك نكهة أو رائحة خاصة بطعام الأمس على عشاء اليوم، وقد وضعت تلك الأطباق للعرض أيضاً بوصفها أشياء نادرة جديدة لافتة للنظر قد جاءت من ذلك الجانب البعيد من العالم. وقد استخدمت كذلك في تزيين الموائد وخزانات العرض للنفائس، ورفوف المستوقدات (أو المدافئ)، بل وحتى الأسكفة

lintels أو العتبات العليا الموجودة فوق الأبواب والتي سوف تكشف لنا ذلك الانتباه المركّز على الأطر الخاصة بالأبواب منذ منتصف القرن السابع عشر وحتى نهايته. وفيما يخص فن التصوير الهولندي للأماكن الداخلية، سوف تكشف لنا عن وجود أطباق أو زهريات موضوعة فوقها)، وقد كان سيكون من غير المجدي، بل من الحماقة، أن يُقْصَر وضع الزهريات الجميلة على الموائد المنخفضة من الطراز الياباني؛ وذلك لأن الأوروبيين لم تكن لديهم أدنى فكرة حول طبيعة تلك الموائد، لقد كانوا يضعون تلك الزهريات في أي مكان يحبون وضعها فيها.

لقد كانت تلك الأشياء تعني الكثير بالنسبة لـ «ون جن هنج»، ففي عالمه الذي كان يشتمل على تمايزات معقدة خاصة بالمنزلة الاجتماعية، كان تفوق ذوي الذوق الراقي على السوقيين تفوقاً مهدداً دائماً بأن يُفقد عندما يؤكد غير المتحضرين من البشر قوتهم ونفوذهم بشكل يفوق قوة ونفوذ هؤلاء الذين هم مجرد أشخاص حسني التربية والتعليم. ولم تكن الثروة هي «الوقاء» المناسب ضد السوقية أو الابتذال، وعلى العكس من ذلك، حيث أدَّى الصعود المتنامي دائماً لفئات محدثي النعمة في ذلك العصر التجاري الذي عاش فيه «ون»، إلى دفعهم مضطرين إلى أن يعيشوا في تفاخر، دون أن يتعلموا أن يحيوا حياة جيدة، حيث كان الأكثر احتمالاً هو أن تفرز الثروة تلك السوقية في السلوك بدلاً من أن تعين المرء على أن يتلمس طريقة للخروج من ذلك المستوى المتدني، لقد كانوا ينقعون فرشاة الخط الخاصة بهم في أكواب من البورسلين صُنعت حديثاً، في حين أنه لم يكن من الواجب عليهم أن يستخدموا البورسلين

في تلك العملية أبداً، ولكن حجر الجادة أو اليشم الكريمJade أو البرونز. وقد أقرَّ «ون» أيضاً إمكانية استخدام قدور للماء مصنوعة من البورسلين، خاصة إذا كانت قد أنتجت قبل عام 1435 فقط.

لقد كانت تلك قواعد صارمة، حيث مالت إلى صف الشخص المطلع ثقافياً، والمزود بالمعرفة وبمكانة ومزايا قد لا تكون لدى الذين هم مجرد أشخاص أثرياء فقط، أي أمل بالحصول عليها إلا من خلال –وياللمفارقة– شرائهم نسخة من كتاب «**مبحث حول الأشياء الزائدة على الحاجة**»، وفي معركة المنزلة الاجتماعية تلك، وقد كان من يصل منهم إلى تلك المنزلة أو المكانة حديثاً، هم الأكثر تعرضاً للخطر؛ وذلك لأنهم لا يكونون قد وصلوا إلى معرفة تلك القواعد الصحيحة التي قد تخفض من منزلتهم أو تنقص من قدرهم لو لم يلتزموا بها.

لو كان «ون جن هنج» قد ذهب إلى أرصفة تحميل السفن وتفريغها، تلك الممتدة على طول تلك القناة العظيمة Crand Canal التي تجري عبر مدينته، كي يفحص متمعناً تلك الحمولات أو الشحنات من الخزف الذي يُشحَن إلى الهولنديين، فإنه ربما كان قد سخر متهكماً مما قد يجده، لقد كان معظم ما هو موجود من هذا الخزف على شكل سفن بحرية كبيرة مصنوعة من أجل التصدير. وبالنظر إليه من خلال عين «ون» فإن ذلك البورسلين كان سميكاً، وتمت زخرفته بطريقة تفتقر إلى البراعة، كما أن الأشكال (الموتيفات) التي استخدمت في تزيينه تفتقر إلى الرهافة والدقة، لقد كان من ذلك النوع من السقط أو النتاج الأدنى مرتبة، الذي يمكنك أن تخدع من خلاله الأجانب الذين لم يعرفوا شيئاً

أفضل منه. إن رجلا مهذباً راقياً من سوجو لم يكن يحلم بأن يمر حول عدد من الوجبات الخفيفة الموضوعة في زبديات مرسومة (مزخرفة) على نحو رديء، ومكتوب على جانبها السفلي الخارجي «قطعة من النوع الراقي» (وهي علامة كانت تحملها معظم القطع المصدرة)، أو أن يقدم فاكهة مُسْكِرة على أطباق ذات قواعد كالأقدام أسفلها مطلية بطبقة ملساء صقيلة كاللبن، وقد ثقبت فيها ثقوب متتابعة ذات تسلسل خاص، وقواعد تحمل تاريخاً زائفاً، ينسبها إلى القرن الخامس عشر، كما أنه لم يكن، أي ذلك الرجل الراقي، يتصور أن يصب الشاي الجميل في أكواب.

إن دليلاً للتعليمات والقواعد متشامخاً بازدراء، قد ظهر في بيجين عام 1635 قد أقر بأن خزَّافي جينغدتشن كانوا لا يزالون قادرين على إنتاج تلك القطع الجميلة النادرة التي لن يشعر مالكها بالارتباك والحيرة، لكنه لاحظ أيضاً أن الخبير الفني الحقيقي قد يكون من الأفضل له أن يظل بعيداً عن أي شيء معاصر؛ وذلك لأن عند الشك، يكون البورسلين الأقدم هو الاختيار الأكثر أماناً.

إذا كان الأوروبيون في ضوء المعايير الصينية خبراء يفتقرون إلى البراعة لما كانت سفن شركة الهند الشرقية الهولندية تقوم بتفريغه أو إنزاله، فقد كانوا مع هذا خبراء ممتازين، في ضوء معاييرهم الخاصة؛ فما الذي عجزوا عن إنتاجه – مقارنة بالبورسلين الصيني – عدا تلك الأطباق والأباريق الخزفية الخشنة السريعة الكسر فقط، التي كان الخزَّافون الإيطاليون و«الفلمنكيون ينتجونها» كذلك؟

لقد كانت تلك السلع الصينية متفوقة من حيث الدقة ومدة الاستمرار، والأسلوب واللون، وكلِّ تلك الخصائص الأخرى المميزة لهذه النوعية من الخزف مقارنة بما عداها، وقد كانت تلك الخصائص تتجاور البراعة الخاصة لأي حرفي أو صانع أوروبي من أن ينتج مثلها، ولعل هذا هو السبب الذي جعل أنه بمجرد ما إن كانت تصل سفن شركة الهند الشرقية الهولندية إلى هولندا، كان البشر يتوافدون إلى هناك من جميع البلاد المجاورة لشراء مثل تلك السلع.

عند بداية القرن السابع عشر، – وعندما بدأ البورسلين يصل أولاً إلى أوروبا الشمالية، كانت الأسعار التي كان يعود بها على أصحابه عالية بدرجة لم تكن في متناول معظم الناس. وفي عام 1604 جعل شكسبير المضحك المهرج بومبى في مسرحيته «السن بالسن» Measure for Measure يتهكم، ويقوم بمحاولة إضحاك إيسكيلوس Escalus وأنجلو من خلال وصف طويل، حد الملل، يتعلق بذلك الحمل الأخير لمستخدمته السيدة «أوفردون»، والتي طلبت منه إحضار الخوخ (أو البرقوق) لها «ليس لدينا سوى اثنتين منه في البيت، وقد ظلتا موجودتين في طبق الفاكهة منذ وقت طويل جداً، وهو طبق لا يتجاوز سعره ثلاثة. لقد رأيت، يا صاحبة الفضيلة، تلك الأطباق، إنها ليست أطباقاً صينية، لكنها أطباق جيدة»، وقد بذلت السيدة «أوفردون» ما في وسعها كغانية، كي تستطيع دفع ثمن الأطباق الجيدة. ولم تسر الأمور على نحو طيب كما يجب، حيث إنه وبعد عقد من الزمن بدأ البورسلين الصيني يتدفق على الأسواق الأوروبية، وبدأت الأسعار في الإنخفاض. وكما

لاحظ مؤرخ لمدينة أمستردام فإنه وبعد عشر سنوات تماماً «فإن الوفرة الخاصة بالبورسلين الصيني كانت تزداد كلَّ يوم إلى حدٍّ أن تلك الأطباق الصينية «أصبحت موجودة معنا، متاحة، يستخدمها كلُّ إنسان عادي هناك» وفي عام 1640 كان رجل إنجليزي يزور مدينة أمستردام، وكان قادراً على أن يلاحظ أن «أي بيت عادي هناك» كان مجهزاً بالبورسلين الصيني».

هكذا كان المعروض من البورسلين الصيني في أفضل حالاته؛ وذلك بسبب ما أسماه مؤلف تاريخ أمستردام، «تلك الرحلات البحرية» التي كانت تغير الحياة المادية للأوربيين بطرائق ومعدلات، أصابتهم في أغلب الأحوال بالدهشة، ولعل هذا هو السبب أيضاً الذي جعل رينيه ديكارت ينفعل عام 1631 فيصف أمستردام بأنها «مستودع لكلِّ شيء محتمل». وعلى النحو نفسه تأثر الرحالة الإنجليزي جون إيفلين J Evelyn بمدينة أمستردام عندما زارها بعد عقد لاحق من الزمن، وتعجب من تلك التجمعات التي لا حصر لها من السفن والمراكب التي ترسو أمام المدينة؛ تلك التي هي يقيناً مكان الالتقاء الأكثر ازدحاماً لحشود البشر الموجودين الآن على سطح الأرض كلِّها، والمكرسين أنفسهم أكثر من غيرهم للتجارة، ولم تكن أمستردام، مهما كانت لافتة للأنظار على نحو واضح، استثناءً كبيراً في هذا الشأن مقارنة بالمراكز المدينية الأخرى، في أوروبا، فعندما زار إيفلين باريس بعد ثلاث سنوات من زيارته لأمستردام أصيب بالدهشة بسبب «كلِّ تلك الأشياء العجيبة، الطبيعية أو الصناعية التي يمكن تخيلها، والتي جاءت من الهند أو أوروبا، والتي

تستخدم للرفاهية أو المنفعة، ويمكن اقتناؤها عن طريق النقود».

وفي منطقة أسواق على طول نهر السين، أصيب إيفلين بالذهول عندما رأى متجراً اسمه Naoh.s Ark، أي «سفينة نوح»، وقد وجد فيه تشكيلة متنوعة عجيبة من خزانات النفائس، والأصداف، والعاج، والبورسلين، والسمك المجفف، والحشرات النادرة، والطيور، والصور، والآلاف غيرها من التحف الغريبة، وقد كان البورسلين واحداً من تلك التحف أو الأشياء الغريبة الاستثنائية، لكنها التي أصبح الإنسان العادي قادراً الآن على شرائها بسهولة.

وقد بدأ ذلك النمو الذي يشبه الانفجار، لسوق المصنوعات الشرقية في التأثير في طبيعة الإنتاج لها، فقد كان الخزّافون الصينيون، وعبر قرون عدة، واعين تماماً بالأهمية الخاصة لتشكيل بضاعتهم أو سلعهم، وبما يتفق مع الذوق الأوروبي، فكانوا يجعلون الشكل المألوف الشبيه باليقطين الخاص بإحدى الزهريات مسطحاً بحيث يبدو شبيهاً بالقارورة أو الدورق التركي، أو يصنعون حواجز فاصلة لتقسيم أجزاء صحون الطعام بما يتناسب مع عادات الأكل اليابانية، ومع تزايد الطلب الأوروبي عرف الوسطاء المتعاملون بالبورسلين، في الموانئ الموجودة في جنوب شرق آسيا، ما الذي يحبه الأوروبيون، ثم أخذوا تلك المعرفة معهم عند عودتهم إلى منتجي تلك السلعة، في أرضها الأصلية، وطالبوهم بإعادة تصميم منتجاتهم وفقاً لذلك.

عندما كان الأمر يتعلق بتزويد الأسواق الأجنبية بتلك السلعة، لم يكن الخزّافون في جينغدتشن معنيين كثيراً بمعايير «ون جن هنج»

الخاصة بالذوق الصيني، لقد أرادوا أن يعرفوا ما الذي يمكنهم بيعه، وقد كانوا مستعدين لتغييرهم إنتاجهم في الموسم التالي كي يتوافق مع الذوق الأوروبي. هكذا فإنه عندما استأثرت زهرة التوليب التركية بولع الناس في أوروبا الشمالية، خلال عشرينيات القرن السابع عشر، مثلاً، فإن خزّافي «جينغدتشن» قاموا برسم زهور التوليب على صحون الطعام التي كانوا ينتجونها، وقد رسم فنانو البورسلين، والذين لم يكونوا قد رأوا زهرة تيوليب حقيقية من قبل، زهوراً على تلك الصحون، ولم يكن ممكناً التعرف إليها غالباً على أنها زهور تيوليب، لكن هذا الأمر لم يكن مهماً، فقد كانت النقطة المهمة هنا هي أنهم كانوا يستجيبون على نحو مباشر للتغيرات في السوق. وعندما حدث الانهيار الشهير لسوق التوليب في عام 1637، هرولت شركة الهند الشرقية الهولندية كي تلغي كلَّ طلباتها من تلك الصحون المزخرفة بتلك الزهور، خشية أن يتأثر عملها ويتوقف بسبب وجود مخزون منه لن يشتريه أحد.

من بين أكثر عمليات التهجين المثيرة للاهتمام، والتي قام بها خزّافو «جينغدتشن» على نحو خاص، والتي صممت لتجذب الذوق الأوروبي إلى ما يتعلق بصحن الحساء الذي يسميه الهولنديون «شبيه القبعة» أو شبيه القلنسوة Klapmuts، وقد كان شكل ذلك الصحن يذكر في صورته العامة بشكل قبعات اللباد الصوفية الرخيصة التي كانت الطبقات الدنيا ترتديها في هولندا، ومن هنا جاء اسم ذلك الطبق. ومن خلال التقدير الكمي لذلك العدد الكبير من الأواني الخزفية الشبيهة بالقبعة التي كانت السفينة «الأسد الأبيض» تحمله، فإن هذه القطعة

الخزفية كانت قطعة واسعة الانتشار، كما أن اسمها – على الرغم من أنه كان يشير إلى شيء غير متقن وغير دقيق– تردد كثيراً، وأصبح ملتصقاً به.

لم يكن الصينيون يستخدمون مثل تلك الأطباق، وقد تمثلت المشكلة في الحساء، فعلى عكس الحساء الأوروبي، يُعَدُّ الحساء الصيني أقرب إلى المرق الخفيف منه إلى اليخنة. إنه لديهم أقرب إلى المشروب، وليس أحد الأطباق الرئيسية في الوجبة، ومن ثَمَّ فإن أصول اللياقة، تسمح لك هناك بأن ترفع زبدية الحساء الخاصة بك إلى شفتيك وتشربها. ولعل هذا هو السبب الذي كانت تلك الزبديات الصينية تحتوي من أجله على جوانب رأسية عالية جداً؛ كي تجعل عملية الشرب من «حافاتها» أيسر. وتحرِّم أصول اللياقة أو آداب المائدة الأوروبية رفع تلك الزبدية إلى الفم، ومن ثَمَّ كانت تلك الحاجة إلى وجود ملعقة كبيرة مصممة خصيصاً لهذا الغرض، ولذا فإن حاولت أن تضع ملعقة أوروبية في الحساء الصينية وتحركها بداخلها: ستجد أن الجانبين شديدا الارتفاع، حيث مركز الجاذبية ليس منخفضاً بدرجة كافية كي يقيم التوازن المطلوب الخاص مع وزن المقبض الذي تمسك به هذه الزبدية، ومن هنا كان ذلك الشكل المسطح للصحن المسمى «شبيه القبعة»، بحوافه العريضة الواسعة، والتي يستطيع الأوروبي أن يضع ملعقته عليها دون أن تقع حادثة مفاجئة.

لم يكن المستهلكون الصينيون مهتمين كثيراً بسلع التصدير الخزفية المصنوعة من أجل الأوروبيين، ولو انتشرت قطعة غريبة نادرة منها

داخل الصين، فإن ذلك يكون فقط بسبب غرابتها اللافتة للأنظار. وقد كان من أبرزها قطع بورسلين القرقورة (كالأطباق المرسوم عليها سفن القرقورة البرتقالية الكبيرة) والتي كانت تعلو سطح قبرين صينيين في السنوات الأولى من القرن السابع عشر، والتي ربما امتلكها صاحبها لهذا السبب. كذلك وُجِدَ أحد أطباق الخدمة المزخرفة على الطريقة الأوروبية في قبر أحد أمراء أسرة المنغ، والذي كان قد مات عام 1603، ووُجِدَ كذلك زوجان من الأطباق المنفذة بالشكل الشبيه بالقبعة مدفونين مع أحد كبار موظفي المقاطعة الرسمية. وقد كانت مواقع هذين القبرين موجودة في مقاطعة جيانغشي، حيث كان مركز صناعة البورسلين أي «جينغدتشن» موجوداً، مما يساعد على تفسير كيفية حصول هؤلاء الرجال على تلك القطع. وأما السبب الذي جعلهم يرغبون في امتلاكها فهو شيء نستطيع أن نخمنه فقط، فربما عدُّوا أسلوب القرقورة Carrack Slyle شيئاً يجسد الأشياء الغريبة التي يحبها الأجانب، وتتفق مع ذوقهم، والتي حدث مصادفة أن كانت متاحة محلياً. وهنا نوع من الاتفاق المحير في الرأي: فالطبقات العليا الموجودة عند هذين الطرفين المتقابلين من القارة الأوراسية (أوروبا وآسيا) كانت تملك جميعاً البورسلين المصنع وفقاً للشكل الخاص بالسفن الشراعية الضخمة (قرقورة)، وقد امتلكه الصينيون لأنهم اعتقدوا أنه يجسد أسلوباً غربياً غريباً، وامتلكه الأوربيون لأنهم اعتقدوا أنه يبدو لهم إنتاجاً صينياً مثالياً على نحو جوهري.

عندما بدأت شركة الهند الشرقية الهولندية توصل شحناتها من

الخزف وتسلمها على نحو منتظم خلال العقد الثاني من القرن السابع عشر، قامت الصحون الصينية بأدوار تفوق استخدامها من أجل تزيين موائد الطعام، أو كي تملأ الخوانات أو نضد الموائد، أو أن توضع أعلى خزانات الملابس. لقد ظهرت فوق القماشة المعدة للرسم الزيتي، وقد كانت أولى اللوحات الفنية الهولندية التي تظهر طبقاً صينياً هي التي قام بها بيترايزاكس Pieter Isaacsz، وقد رسمها عام 1599، وذلك قبل سنوات عدة من تلك المزادات الكبيرة الأولى التي أقيمت لعرض شحنة السلع التي جاءت من إحدى السفن البرتغالية المأسورة، مما جعل مثل تلك الأشياء متاحة للمشترين الهولنديين، وكانت أولى اللوحات التي تعرض أحد الصحون الشبيهة بالقبعة هي لوحة طبيعية صامتة رسمها نيكولايس جيليس Niclaes Gillis بعد ذلك بسنتين. وقد قام جيليس بصفٍّ نثار غير منظم من الفاكهة والجوز والأباريق الزبديات على مائدة خاصة. وبالنسبة إلينا قد تبدو هذه اللوحة كأنها تشبه غيرها من لوحات الطبيعة الصامتة الهولندية، أما بالنسبة إلى المشاهد عام 1601، فإنها لفتت الأنظار إلى قطع من البورسلين الصيني، من النوع الذي كان أثرياء القوم فقط قادرين على شرائه، كما أن معظم الهولنديين لم يكونوا قد رأوه من قبل في حياتهم الواقعية، ناهيك عن الاقتراب منه ولمسه. ولم يكن في مقدور «جيليس» مالياً أن يشتري تلك القطعة التي رسمها. وكان لا بد من أن تمر سنتان أخريان حتى تصل الشحنة التي كانت تحملها السفينة «سان إياجو» إلى أمستردام، وأن يمر عقد من الزمن أيضاً قبل أن تصبح أسعار السلع الصينية في متناول المشترين العاديين؛ ولذلك فإنه

من المحتمل أن جيليس قد رسم تلك اللوحة بتكليف من صاحبها، ليس بوصفها لوحة من لوحات «الطبيعة الصامتة» فقط، بل أيضاً كصورة شخصية لتلك الممتلكات النفيسة الخاصة.

عند منتصف القرن السابع عشر، كان المنزل الهولندي منزلاً تزينه الصين. والفن يتبع الحياة أو يسير على هديها، وقد وضع الفنانون الصحون والأطباق الصينية داخل المشاهد المنزلية الأليفة التي رسموها كي يضفوا عليها لمسة أو مسحة خاصة بالطبقة الاجتماعية، وكذلك نوع من المظهر الجمالي للواقع. وفي دلفت، كان البورسلين الصيني قد أصبح متاحاً قبل أن يُولَدَ فيرمير، وقد كانت سفينة الأدميرال (الرافعة للعلم) الخاصة بغرفة تجارة دلفت، ضمن سفن شركة الهند الشرقية الهولندية، وكان اسمها: سلاح دلفت Wapen Van Delft، وكانت قد أبحرت مرتين إلى آسيا، وعادت خلال عامي 1627 و1629 بحمولة مجمعة مقدارها خمسة عشر ألف من قطع البورسلين، وبعض تلك القطع كان سيبقى في مكانه، أي في دلفت، وقد كان نيكولايس فيربرج Nicalaes Verburg مدير غرفة دلفت التجارية، هو صاحب أكبر مجموعة شخصية من البورسلين في المدينة. وقد كان فيربرج قادراً على تحمل نفقات أي شيء أحضرته سفنه إلى روتردام، وتستطيع زوارقه أو مراكبه أن تبحر به نحو دلفت؛ وذلك لأنه عندما مات عام 1670، كان أكثر الناس ثراء هناك.

وعلى الرغم من أن ماريا ثاينز لم تكن تنتمي إلى الفئة الطبقية نفسها التي ينتمي إليها فيربرج، فإنها كانت تطمح إلى أن تُبقي منزلها متفقاً

مع المعايير والأعراف الجارية في عصرها، والخاصة بالذوق الرائع، ولو كانت قماشات اللوحات الخاصة بفيرمير قد استضاءت بأشياء معينة حتى يكتمل رؤاها، فإن ذلك المنزل الذي كان على رأسه ثاينز وفيرمير كان يمتلك كثيراً من تلك الأشياء، وهكذا فإن الصحن الشبيه بالقبعة Klapmut الذي ظهر في لوحة «امرأة شابة تقرأ خطاباً بجوار نافذة مفتوحة» يظهر أيضاً في لوحة «امرأة مستغرقة في النوم» Woman Asleep، ومن ثَمَّ فإنه ربما كانت تلك ممتلكات عائلية، وإن ربَّ ذلك المنزل ربما كان قد امتلك أيضاً إبريقاً صينياً ذا ألوان زرقاء وبيضاء؛ وذلك لأن أحدهما يظهر خلف ذلك العود الموضوع على المائدة في لوحة «فتاة تُقاطع وهي تعزف الموسيقى» Girl Interrupted at Her Music»، وربما لم يجئ هذا الإبريق على كلِّ حال مباشرة من شركة الهند الشرقية الهولندية، وذلك لأن الصناع الأوروبيين المهرة كانوا يزخرفون اللون الأبيض الناصع الموجود في تلك الأواني بأن يضيفوا إليه غطاء أو ظلا فضياً. وهناك أيضاً – في لوحات فيرمير – جرة زنجبيل منفذة بالأسلوب المميز للسفينة الشراعية الكبيرة (القرقورة) وهي موضوعة على المادة الموجودة ناحية اليد اليسرى للمرأة في لوحة «امرأة بعقد على شكل لؤلؤة» Woman with a pearl Necklace، ويظهر انعكاس ذلك للضوء المنحني أو المقوَّس – الذي يأتي عبر نافذة غير مرئية في الناحية اليسرى على سطح الجرة، يظهر أن فيرمير، والذي كان شديد الولع بالضوء، لا بد أنه قد استمتع برسم شيء صقيل لماع كتلك الجرة الصينية، وعلى المائدة نفسها. وعلى نحو مباشر أمام المرأة ذات العقد،

هناك زبدية صغيرة بجوانب منحنية عالية، هل هي شاهدة أيضا على القطعة الصينية الرابعة في مجموعة مقتنيات ثاينز وفيرمير؟

كانت قطع البورسلين التي تعود بها سفن شركة الهند الشرقية الهولندية إلى أوروبا قطعاً غالية الثمن، تدل على ذلك الاستهلاك الكبير الذي ملأ أيدي من قدروا على دفع ثمنه، أما بالنسبة إلى الناس الآخرين غير هؤلاء الأثرياء، فإن منتجي الخزف الأوروبيين قد توصلوا إلى بدائل للسلع المستوردة، يمكنهم شراؤها، وتتفق مع الذوق الخاص بالأشياء الصينية أيضاً. ومن بين أكثر هؤلاء المنتجين نجاحاً كان ما قام به الخزّافون وصناع البلاط في دلفت نفسها. لقد كانوا من سلالات الإيطاليين الذين ينتمون إلى القرن السادس عشر، والذين جاؤوا من «فاينزا» Faenza، والذين منحوا اسمها لتلك الأواني الخزفية المتعددة الألوان المعروفة باسم فيانسيه Faience، أي «الخزف المزخرف»، وقد كانوا قد هاجروا شمالاً نحو «أنتويرب» خلال القرن السادس عشر باحثين عن العمل، ثم استمروا في هجرتهم أبعد من ذلك نحو الشمال أيضاً؛ كي يهربوا من تلك الأعمال العسكرية الإسبانية التي كانت قد وجهت لقمع محاولات الهولنديين للاستقلال عن إسبانيا، وقد جلبوا معهم معرفتهم الخاصة حول كيفية إنتاج الخزف. وكانوا قادرين على إقامة أفران حرق الخزف ومصانع البيرة الشهيرة في دلفت، وهي تلك المصانع التي اضطر كثير منها إلى أن ينقطع أو يتوقف عن الإنتاج مع تحول ذوق الطبقة العاملة من الجعة إلى المشروب المسمى «الجِنْ»، وداخل مصانع الخزف الجديدة المتحولة تلك، بدأ صناع الخزف هناك يقومون

بتجارب يقلدون من خلالها تلك الأشكال الجمالية الجديدة من الخزف القادم من الصين، وقد أحب المشترون ما أنتجه هؤلاء الصناع.

لقد كان خزّافو دلفت غير قادرين على أن ينتجوا سلعة تضاهي البورسلين الصيني الملون بالأزرق والأبيض، لكنهم نجحوا في إنتاج نسخ محاكية أو مقلدة مقبولة له، وبأسعار منخفضة. وقد أصبح خزف «دلفت» هو البديل الذي يمكن للناس العاديين دفع ثمنه، هؤلاء الذين رغبوا في امتلاك البورسلين الصيني، ولكنهم لم يكونوا مهتمين بامتلاك سوى عدد قليل من القطع منه، ولكن في السنوات الأولى من التجارة الخاصة بشركة الهند الشرقية الهولندية لم يقم خزّافو دلفت فقط بالتقليد، بل ابتكروا أيضاً، وقد كان نجاحهم الأكبر عند الطرف الآخر المنخفض السعر (أو الرخيص) من السوق متمثلاً في إنتاجهم لـ«بلاط» tiles الأرضيات والجدران الأزرق والأبيض من أجل أن يستخدم في المباني الجديدة التي كان برجوازيو دلفت أو أبناء طبقتها المتوسطة يقومون ببنائها. وقد كان اللون الأزرق من هذا البلاط ينضح أو يوحي بنفحة صينية مغوية، كما أن الأسلوب التخطيطي العام الذي رُسِمَت من خلاله الأشكال على سطح تلك القطع من البلاط كان ينسخ ويحاكي على نحو مبهم غامض ما قد يظنه الناس إنتاجاً صينياً، وقد وصف أنطوني بايلي A.Bailey ذلك على نحو بارع في تلك الترجمة الشخصية Biography التي كتبها حول فرمير حين قال: «نادراً ما أنتج الانتحال الدقيق شيئاً أصيلاً مثل ذلك الإنتاج لنمط ما من الفن الشعبي»، وقد ازدهرت تلك الصناعة، وخلال ذلك الوقت الذي كان فيرمير يرسم

فيه لوحاته، كان نحو ربع قوة العمل في المدينة منهمكاً، بطريقة أو بأخرى، في تجارة السيراميك، وقد بِيعَ البورسلين الذي أنتجته دلفت على نحو جيد ومتسع بين هؤلاء الذين لم يكونوا قادرين على دفع ثمن المنتج الصيني، وأصبح اسم المدينة يرافق المنتج، في حلّه وترحاله، وقد أصبح يطلق على تلك الأطباق في إنجلترا اسم «الصيني» china، أما في أيرلندا فكانوا يطلقون عليها اسم «دلف» Dolph، نسبة إلى مدينة دلفت.

وقد ظهر بلاط دلفت في لوحات خمس لفيرمير. ولأن المصورين وصناع بلاط الخزف، كانوا جميعاً أعضاء في نقابة الحرفيين نفسها، وهي نقابة القديس لوقا، والتي كان فيرمير رئيسها، فإنه لا بد قد عرف بعض هؤلاء الرجال الذين يمتلكون أفران حرق الخزف، وربما كان قد عرف أيضاً بعض مصوري الخزف ورساميه، هؤلاء الذين كانوا يتمتعون بمنزلة اجتماعية تفوق منزلة صناع البلاط العاديين، ويبدو أن فيرمير قد استمتع أيضاً بتلك الرسوم التخطيطية النزقة الغريبة التي كانت تزين البلاط، حيث كانت هناك صور لمبانٍ وسفن، وجنود، ورجال يتبولون، وذلك لأنه أعاد إنتاج بعض هذه الصور في لوحاته الخاصة التي رسمها.

ويبدو أنه أحب أزرق الكوبالت، وهو اللون الذي استخدموه؛ وذلك لأنه أصبح إحدى العلامات المسجلة له هو، أيضاً، كفنان ملّون، وربما بدأنا نرى ذلك في استخدام فيرمير لأزرق الكوبالت، وكذلك إبداعه التفصيلي (أو المفصل) للون على أسطح مشعة، وربما كنا بدأنا

نرى في ذلك أيضاً تلك التلميحات الأولى للأسلوب الزخرفي المعروف باسم الزخرفة الصينية Chinoiserie، وهو الأسلوب الذي سيهيمن كثيراً على الذوق الأوروبي خلال القرن الثامن عشر.

في غياب أدلة مادية ملموسة هنا، يمكننا أن نظل نتخيل أن فيرمير كفنان نشيط كان يعيش في إحدى المدن التي بها غرف تجارة شركة الهند الشرقية الهولندية، ولا بد أنه رأى أمثلة ونماذج من تلك اللوحات الصينية، ونحن نعرف أن لوحات صينية عدة كانت تمثل جزءاً من مجموعة مقتنيات «نيكولايس فيربرج»، مدير فرع شركة الهند الشرقية الهولندية في دلفت، ولكن من غير المحتمل أن تلك اللوحات قد عُرِضَتْ خارج بيته، ومع ذلك، يبقى الأمر أنه لا بد أن بعض تلك الصور التي اعتبرها الصينيون جميلة قد اشتراها بعض البحارة شديدي الفضول والولع، وعادوا بها، ثم تداولتها الأيدي وانتشرت في الأرجاء كافة بعد ذلك. وقد ذكر «جون إيفلين» أنه قد رأى صوراً أجنبية غير عادية في متجر «سفينة نوح» في باريس، فهل كانت اللوحات الصينية من بينها؟ عندما يقوم كاتب ساخر في أمستردام بتسلية قرائه من خلال تخيله وجود لوحة بها اثنتا عشرة شخصية من الماندرين mandarins، وقد خُطِّطَتْ بضربة فرشاة رسم واحدة، فإنه لا بد أنه كان يتوقع أن يكون قراؤه على ألفة بضربات الفرشاة الجزئية المتدفقة الخاصة بالفنانين الصينيين، فإذا كانت اللوحات الصينية قد تم تداولها في هولندا، فلا بد أن فرمير قد تدبر أمره هناك كي يراها.

لم يكن تداول الأشياء الزخرفية التزيينية وتوزيعها يتم فقط من الصين

إلى أوروبا، فقد كان يتم تداول الأشياء والصور الأوروبية في الصين أيضاً، ففي الخامس من مارس عام 1610، وعندما كانت السفينة «الأسد الأبيض» في رحلتها الثالثة من أمستردام إلى آسيا، وذلك قبل أن يبدأ «ون جن هنج» كتابة مؤلفه «**مبحث حول الأشياء الزائدة على الحاجة**» بسنوات قليلة، قام وسيط فني اسمه التاجر «إكسيا» xia بزيارة قصيرة لواحد من عملائه المفضلين، وقد كان ذلك العميل أو المستهلك هو «رايهوا» li Rihua أحد المصورين الهواة المشهورين، وكذلك من هواة اقتناء الأعمال الفنية الأثرياء، وقد كان يعيش في «جاشنغ» Jiaxing، وهي مدينة صغيرة في دلتا نهر اليانجتسي Yangtze جنوب غرب شانغهاي، وقد كان «لأي» يتجول في الدوائر الاجتماعية نفسها التي تتجول فيها أسرة «ون»، وربما عرف مؤلف «الأشياء الزائدة الحاجة» أيضاً. لقد كان واحداً من زبائن التاجر «تسيا» المنتظمين، وكان قد اشترى منه لوحات وتحفاً قديمة عبر فترة طويلة ممتدة من الزمن، وقد كان «إكسيا» قد عاد للتو من نانجنغ Nanjing، وهي مركز التحف القديمة وتجارة الأشياء النادرة الغريبة، وتقع على الطرف المقابل لدلتا نهر يانجتسى. وكان قد اشترى مجموعة من الأشياء النادرة كي يعرضها على «لأي»، وهي: كأس للنبيذ من البورسلين يعود إلى العقد السابع من القرن الخامس عشر، ومقطر أو مرذاذ للماء قديم من البرونز من ذلك النوع الذي يفضله الخطاطون لتخفيف الحبر الذي يستخدمونه، وقد تم تشكيله على هيئة نمر رابض، ثم أيضا قرطان ذوا لون ضارب إلى الخضرة، وفي حجم إصبع إبهام اليد. وقد أكد «إكسيا» لـ «لأي»

أن هذين العقدين هما من نوع نادر من الكريستال، وأنهما خرجا من تلك الأفران التي كانت تصنع مثل الأشياء فقط في خمسينيات القرن العاشر، وقد كان كلامه ينطوي على تضمينات بأنه يتوقع أن يجلب له هذان القرطان سعراً عالياً مناسباً.

وقد أحب «لأي» أغلب الأشياء التي قدمت إليه، لكنه أدرك سريعاً أن التاجر «إكسيا» كان مخطئاً بخصوص القرطين، وقرر أن يتسلى به ويتلاعب من خلال التظاهر بأنه يفحصهما بعناية فائقة، ثم إنه لفت نظر صاحبه إلى أنهما مصنوعان من الزجاج، فلم يكن القرطان يعودان إلى القرن العاشر فقط، بل إنهما لم يكونا حتى صينيين. وكما كتب «لأي» بعد ذلك في يومياته، فقد «أُحْضِرَتْ هاتان القطعتان إلى هنا على سفن أجنبية كانت تأتي من الشمال. إنها أصناف من المصنوعات الأجنبية في الحقيقة، حيث إن كل تلك الأشياء الزجاجية التي تجدها في أيامنا هذه، إنما هي من عمل الأجانب الذين ينتمون إلى المحيط الغربى (الأطلنطي)، وقد صنعوها من خلال إذابة الحجر، وهي ليست كنوزاً أو نفائس أُنتجت بشكل طبيعي، لقد استمتع «لأي» بانتصاره على «إكسيا»، لكن ذلك لم يحدث دون مكر أو تعمد للأذى، لقد عرف أن التزييف والتزوير هو من صميم لعبة الشراء والبيع للأشياء والتحف القديمة، وقد استمتع تماماً بحقيقة أنه في تلك المرة لم يكن الذي تم خداعه والضحك عليه هو المستهلك أو الزبون، بل كان الوسيط، وقد غادر التاجر «تسيا»، و تم تأديبه على نحو مناسب، بل لا بد أنه ربما كان يشعر بارتباك وحيرة لأنه دفع ثمناً مرتفعاً في قرطين في نانجنغ

Nanjing، وبشكل يفوق ارتباكه؛ لأنه حاول بيعهما لشخص ما متوقد الذهن، حاضره، مثل «رايهوا».

هل توضح هذه الحكاية أن الصينيين لم يكونوا مولعين بالأشياء الأجنبية؟ ليس ذلك صحيحاً مطلقاً؛ وذلك لأن علينا أن ندرك ما كان «رايهو» يفعله عندما كان يقتني الأعمال الفنية والتحف، فبالنسبة إليه كانت النقطة المهمة في الاقتناء تتعلق باكتشاف تلك الأشياء التي تؤكد السلطة الثقافية للقدماء، وقد كان ذلك هو السبب الذي كانت من أجله مسألة الموثوقية، أي إثبات أصالة شيء ونسبته إلى صاحبه الحقيقي، بالغة الأهمية بالنسبة إليه، لقد رغب في امتلاك الأشياء التي تنتمي إلى الأزمنة الأفضل، والتي كانت بالنسبة إليه موجودة دائماً في الماضي، لكن ما تظهره هذه الحكاية أن أصناف الأشياء الأجنبية كانت تُوَزَّعُ وتُتَدَاوَلُ في الصين خلال القرن السابع عشر أيضاً. فإذا كانت قد وصلت إلى «نانجنغ»، وتم توزيعها وتداولها بعد ذلك خارجها على أيدي الوسطاء الذين كانوا يسافرون إلى المدن المجاورة، فإنه ولا بد أن ذلك يعني أنه كانت هناك سوق ما لهذه السلع الأجنبية هناك. ولم تكن تلك السلع تُوَزَّعُ وتُتَدَاوَلُ بالقدر نفسه الذي يتم تداول المصنوعات الأجنبية من خلاله في أوروبا، لكنها كانت لا تزال تصل إلى الصين بمقادير أصغر إلى حدٍّ كبير. وكذلك فإنه وعلى غير شاكلة ما حدث في أوروبا، حيث أدّى قرن تقريباً من السلب والنهب والتجارة حول العالم إلى جعل الأوربيين أكثر دِرْبة، فأصبحوا خبراء متمكنين في معرفة التحف أو الأشياء الأجنبية النادرة والغريبة، ولم يكن الطلب على مثل

تلك الأشياء في الصين قد تطور على نحو جيد، ولم تكن الأشياء الأجنبية بعيدة أو محظورة الوصول إلى هواة اقتناء الأعمال الفنية والغريبة من الصينيين وقد شجع «ون جن هنغ» القراء في «الأشياء الزائدة على الحاجة» على امتلاك أشياء أجنبية معينة، وقد نصحهم بامتلاك فرشاة الرسم وأوراق الكتابة من كوريا، وأيد كذلك الامتلاك لمدى واسع من الأشياء اليابانية التي تمتد من المراوح (المذراة) القابلة للطي، والمساطر البرونزية، والمقصات الفولاذية، وحتى الصناديق المطلية بورنيش اللك والأثاث الجميل.

إن الأصل الأجنبي لم يكن عائقاً يمنع التذوق الفني لهما؛ فإذا كانت الأشياء الأجنبية تمثل «مشكلة» ما في الصين، فإن ذلك لم يكن يرجع إلى نوع من الاحتقار العميق المتأصل لدى الصينيين تجاه الأشياء الأجنبية، لقد كان شيئاً يتعلق بالطبيعة الخاصة بقابلية تلك الأشياء للتكيف، أو مدى مرونتها، فالأشياء الجميلة تكون لها قيمتها بما يتفق مع المدى الذي يمكنها أن تحمل عنده معانيَ ثقافية معينة. وفى حالة الأعمال والتحف القديمة، تكون المعاني متعلقة بالتوازن واللياقة أو الذوق، وكذلك بنوع من التبجيل والوقار الخاص بالماضي، وقد كانت الأشياء القديمة تُثَمَّنُ وتُعْطَى قيمة عالية لأنها تجعل أصحابها في حالة تواصل مادي مع ماضٍ ذهبي قد ابتعد عنه الحاضر وارتد كثيراً للوراء، ومع التسليم بهذا العبء الثقيل من المعنى الذي كان على تلك الأشياء أن تحمله، فإنه كان من الصعوبة بمكان تبين تلك القيمة التي ينبغي عزوها للأشياء التي تأتي من الخارج. لقد كانت الندرة خاصية ينبغي تثمينها. كذلك كان الفضول

أو حب الاستطلاع المتعلق بالأشياء العجيبة أو الغريبة، دافعاً يميل إلى أن يكون غلاباً، لدى هواة اقتناء الأعمال الفنية، لكن الدافع الأكثر جوهرية بالنسبة إلى عملية الاقتناء كان متعلقاً برغبة المرء في أن يجعل نفسه على صلة ما مع القيم الأساسية في الحضارة، ولعل هذا هو السبب الذي جعل «ون» يوصي قرّاءه باقتناء بعض الأشياء الكورية واليابانية. لقد كان للصين تاريخ طويل من التفاعل الثقافي مع كوريا واليابان، ومن ثَمَّ فإنه قد يمكن النظر هنا إلى الأشياء الكورية واليابانية على أنها تشترك في الروح نفسها أو الطابع الحضاري المميز نفسه، مثلها في ذلك مثل الأشياء الصينية ذاتها، لقد كانت أشياء مختلفة، لكن هذا الاختلاف كان قليل القيمة والأهمية، فهي لم تنزل أو تتحول من الغريب إلى الشاذ.

ولا يمكن قول الأمر نفسه على الأشياء الأوروبية، فلم يكن «رايهوا» غير مكترث أن يعرف ما الذي يقع فيما وراء شواطئ الصين، ففي حقيقة الأمر أن الدفتر الذي دَوَّن يومياته فيه قد اشتمل على ملاحظات كثيرة حول ما سمعه فيما يتعلق بالسفن الأجنبية، وكذلك البحارة الذين يطوفون حول المياه الساحلية الصينية، لكن الأشياء التي كانت تأتي من الأراضي الأجنبية لم يكن لها موضع خاص في نظامه الرمزي. فهي لا تجسد في رأيه أية قيمة؛ لقد كانت مجرد أشياء غريبة لافتة للأنظار، أما في أوروبا، على العكس من ذلك، فقد كانت الأشياء الصينية ذات قيمة أعظم، فهناك كان الاختلاف أشبه بدعوة إلى الامتلاك، وقد شعر الأوروبيون بالميل إلى تضمين تلك الأشياء الغريبة داخل الحيز المكاني الخاص بحياتهم، وربما، وأكثر من هذا، أن يقوموا أيضاً بتهذيب وتنقيح

معاييرهم الجمالية. هكذا كان الطبق الذي وضعه فيرمير في خلفية لوحته «امرأة شابة تقرأ خطاباً بجوار نافذة مفتوحة»، شيئاً أجنبياً، يستكين راقداً على سجادة تركية، وهي شيء أجنبي آخر، ولم تثر تلك الأشياء لا مشاعر الاحتقار ولا القلق، لقد كانت جميلة، وقد جاءت من أماكن تُصنع فيها الأشياء الجميلة، ويمكن شراؤها أيضاً، وقد كان ذلك وحده كافياً لجعلها أشياء تستحق الشراء.

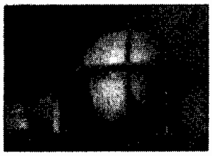
ولو كان هناك مكان لمثل هذه الأشياء الأجنبية في غرف البيوت الأوروبية، فإنه لم يكن هناك مكان مثله في غرف البيوت الصينية. ولم تكن تلك القضية متعلقة كلياً بالجماليات أو الثقافة؛ لقد كانت لها صلتها بالعلاقات مع العالم الأوسع الذي كان كل طرف منهما قادراً على تحمل تبعاته، أو القيام بدوره فيه. لقد كان التجار الهولنديون، ومن خلال الدعم الكامل من الدولة الهولندية، يسافرون عبر العالم ويجلبون معهم في عودتهم إلى «كولك»، شواهد مذهلة على ما قد يبدو عليه ذلك الجانب الآخر من العالم. لقد كان الناس في «دلفت» ينظرون إلى تلك الأطباق الصينية أو الصحون بوصفها «تمائم» totems تجلب لهم حظهم السعيد، وكانوا سعداء بعرضها في بيوتهم. بالطبع كانت تلك الأطباق جميلة، وكان الاستمتاع بتأمل جمالها، هو ما أحب أرباب الأمر الهولنديون أن يحصلوا عليه، لكن تلك الأطباق كانت أيضاً ذات طبيعة رمزية ودالة على علاقة إيجابية مع العالم.

ما الذي كان «لاي رايهوا» يراه عندما نظر إلى ما وراء أرصفة موانئ موطنه الأصلي جاشنغ Jiaxingغير ساحل يحدق به القراصنة

ويهاجمونه؟ من ذلك المكان الذي كان يقف فيه، كان العالم مصدراً للتهديد، وليس مصدراً للوعد المبشر أو الثروة، مصدراً مازال لا يبعث كثيراً على البهجة، ولا يستثير الإلهام، وبالتالي فإنه لم يكن يرغب في امتلاك رموز ذلك التهديد ووضعها هناك في مرسمه. أما بالنسبة إلى الأوروبيين من ناحية أخرى فقد كان وضع أيديهم على السلع الصينية أمراً يستحق قدراً كبيراً من المغامرة والنفقات، ولعل هذا هو السبب الذي من أجله بعد أربع سنوات من غرق السفينة «الأسد الأبيض» كان الأدميرال «لام» يعود مرة أخرى إلى بحر الصين الشمالي، حيث غنم بالسلب سفناً أيبرية (إسبانية وبرتغالية)، واستولى على مراكب صينية، على أمل أن يحظى أيضاً بالمزيد.

الفصل الرابع

دروس الجغرافيا



إنَّ لوحة واحدة لـ «فيرمير»، هي «**العالم بالجغرافيا**» **The Geographer** (صورة اللوحة رقم 4)، تتطلب منا جهداً قليلا كي نحدد بداخلها مواضع العلامات الخاصة بذلك العالم الكبير الذي كان يُطِّوق «دلفت» ويغزوها. وتنفتح هذه اللوحة وتتكشف لنا، كما هو مألوف، في مرسم الفنان، ذلك المكان المغلق على نفسه الذي نتوقع أن نجده في لوحات فيرمير، حيث رُسِمَت النوافذ المضيئة الساطعة– ثانية– وبزاوية شديدة الميل، بحيث لم تنقل لنا ألواحها الزجاجية أية صورة لما يوجد في الشارع الخارجي. وهذه المرة – على كلِّ حال – ملأ فيرمير الغرفة دون نظام بأشياء تومئ – على نحو مفعم بالحيوية – إلى العالم الخارجي. إن الدراما التي يقدمها فيرمير على خشبة مسرحه هنا لا تدور حول عهود الحب ومواثيقه، لقد كان هذا موضوعه الرئيس المتكرر في اللوحتين السابقتين اللتين استعرضناهما، كما أن هذه الدراما لا تدور أيضاً حول ذلك الدافع الخاص بالاكتمال الأخلاقي، وهو الموضوع الذي سيحرك

المشهد الخاص بلوحة أخرى سنفحصها بعد قليل، وهذه الدراما الموجودة في لوحة «العالم بالجغرافيا»، تدور حول دافع مختلف تماماً، إنه دافع الرغبة في فهم العالم، ليس العالم كأماكن داخلية بيتية أليفة، أو حتى ذلك العالم الخاصة بمدينة دلفت؛ بل إنه العالم الخاص بالأراضي الواسعة الممتدة التي كان التجار والرحالة يذهبون إليها، ومنها كانوا يجلبون معهم خلال عودتهم الأشياء العجيبة والمعلومات الجديدة المذهلة، وقد كانت تلك الأشياء العجيبة تشغل العين، لكن المعلومات كانت تشغل العقل أكثر، وقد كانت تلك العقول العظيمة التي عاش أصحابها في جيل فيرمير تمتص ذلك كله، وتتعلم من خلاله أن ترى العالم بطرائق جديدة. لقد كانوا يبتكرون أنظمة جديدة للقياس، ويقترحون نظريات جديدة أيضاً، ويبنون نماذج غير مسبوقة في ضوء تلك الأوزان والمقاييس التي تمتد على النطاق الأكبر (تيلسكوبياً) بقدر امتداد العالم كله وبعده، وعلى النطاق الأصغر (ميكروسكوبياً) داخل تلك الأعماق الغامضة التي كانت قد بدأت تتكشف في قطرة مطرٍ، أو في مقدار صغير جداً من الغبار.

هذا ما تدور حوله لوحة «العالم بالجغرافيا»، وليس هناك مدعاة إلى الدهشة إذن؛ لأن هذه اللوحة تستثير لدى المشاهد حالة مزاجية مختلفة عن تلك الحالة التي تستثيرها لوحات فيرمير الأخرى. لقد قام فيرمير هنا ببناء قماشة رسمه، وتكوينها، على نحو مميز حول ذلك الشخص المستغرق في عمله، ومن ثَمَّ فهو ليس مستوضعاً، أي متخذاً وقفة خاصة، موجهة نحو المشاهد، ومع ذلك، يظل ذلك الإحساس الخاص

بالحميمية الموجود في اللوحات الأخرى غير موجود هنا. وتماماً مثلما ننجذب إلى «العالم بالجغرافيا» هذا، حيث إنه قد توقف برهة ليتأمل، فإننا ننجذب أيضاً إلى تلك المرأة الشابة التي تقرأ خطابها، ولكننا لا ندخل هنا - حقيقة - إلى ذلك المستوى الخاص من التأمل الخاص به، وربما أراد فيرمير من خلال لوحة «العالم بالجغرافيا» هذه (وكذلك من خلاله اللوحة الرفيقة لها المسماة: عالم الفلك أو الفلكي Astronomer) أن يتحرك نحو موضوع جديد، لكنه لم يكن قد تصور - على نحو تام - كيف يمكنه أن يجعل من الدراما العقلية حالة من الخبرة الانفعالية، بالنسبة إلى المشاهد، حيث لم يكن ذلك الشغف الخاص لمعرفة العالم من خلال رسم خريطة له مؤثراً تماماً في المشاهد، كما كانت الحال بالنسبة إلى ذلك الشغف الخاص من أجل معرفة شخص آخر من خلال حالة الحب التي يحياها، وربما رسمت تلك اللوحة بتكليف من مشترٍ كان مولعاً بامتلاك صورة ما حول ذلك الظمأ والتوق الشديد إلى المعرفة العلمية، وهو التوق الذي ربما كان السبب الذي جعل الشعور الذي جسَّده فيرمير هنا، ضمنياً، أو أقل تأثيراً مما ينبغي أن يكون عليه، وربما كانت تلك اللوحة قد تمت بتكليف من الرجل الذي يأخذ الوضع الذي جسده فيرمير في اللوحتين، وعلى أفضل تخمين فإن الرجل هو تاجر الألبسة والأجواخ[1] في دلفت، ذلك الرجل المتعدد الثقافة والمعرفة (الإنسيكلوبيدي) ومساح الأرض فيها: أنطونى فان ليفنهويك Antonie Van Leeuwenkoek.

(1) جمع جوخ، والجوخ هو نوع من القماش يصنع بشكل أساسي من الصوف.

وقد كانت كنية «ليفنهويك» أو لقبه هي عنوانه «عند الزاوية بجوار بوابة الأسد». وقد كانت تلك هي البوابة التالية – ناحية اليمين – للبوابتين الاثنتين الظاهرتين في لوحة «منظر من دلفت»، وقد كان ذلك الرجل مشهوراً بسبب تجاربه التي أجراها على العدسات، ومن ثَمَّ فإنه نال الشرف – حتى في أيامنا – بوصفه الأب الحقيقي لعلم الأحياء الدقيقة Microbiology، وليست هناك شواهد موثقة تربط بين فيرمير وليفنهويك، ومع ذلك فإن الشواهد العابرة أو الظرفية المتاحة، والتي تشير إلى أنهما كانا صديقين، شواهد قوية، وقد لا تكون الحقيقة التي فحواها أنهما ولدا في الشهر نفسه، وعاشا في القسم نفسه من المدينة، وكان لهما أصدقاء مشتركون فيما بينهما، قد لا تكون حقيقة كافية لإقناع الشخص المتشكك هنا، لكن ليفنهويك لعب دوراً أساسياً بعد وفاة فيرمير، فقد كان فيرمير في عمله – كفنان وكوسيط فني – يمر بحالة من الانحسار الشديد، وقد كان على أرملته كاترينا، أن تقدم الأوراق الدالة على إفلاسهم بعد شهرين من وفاته، وعندما فعلت ذلك، فإن أعضاء المجلس التشريعي في المدينة عينوا ليفنهويك «قيِّما» لتصفية جميع ما خلفه فيرمير بعد وفاته من موجودات وديون، ويمكننا أن نحكم من خلال صورة شخصية (Portrait) متأخرة لـ «ليفنهويك»، بأن ذلك الرجل الذي يدفع السجادة التركية التي على مائدة الطعام إلى الخلف، والذي يميل وينحني بجسده فوق خريطة، وفي يده فرجار خاص بمساحي الأرض، هو ليفنهويك نفسه، وحتى لو لم يكن هو «ليفنهويك»، فإن ليفنهويك كان من ذلك النوع من الأشخاص الجدير

بأن تكرمهم مثل هذه اللوحة وتحتفي بهم.

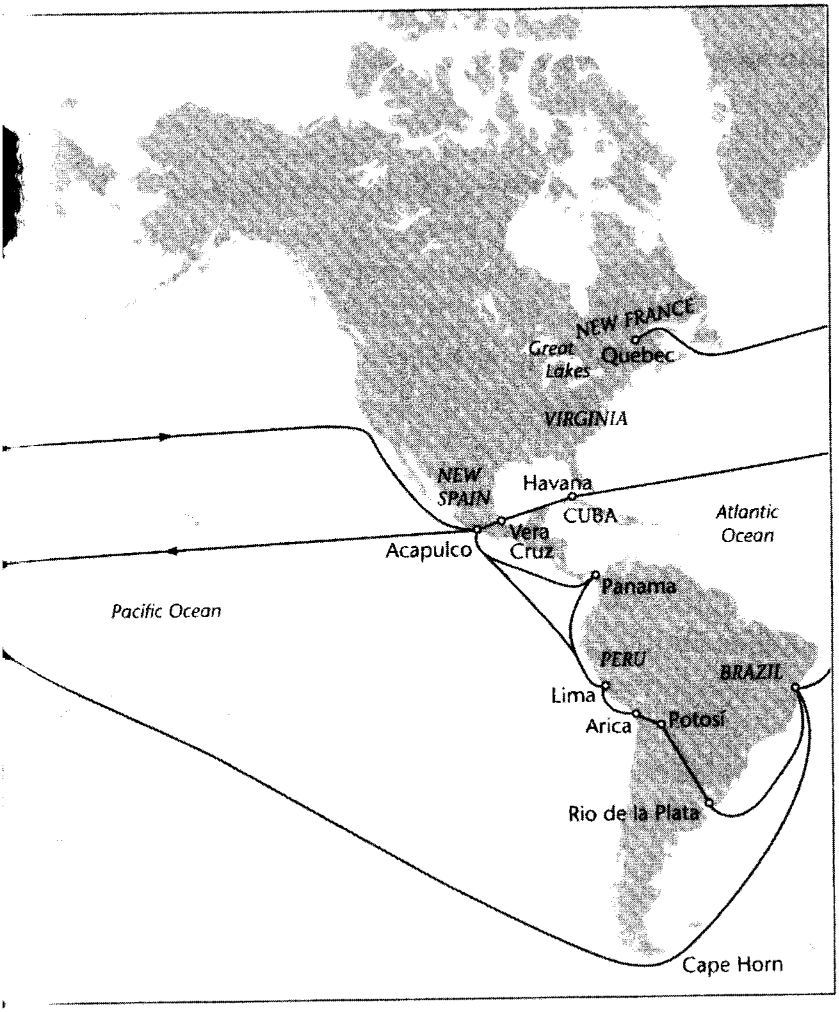
وتوجد العلامات الخاصة بالعالم الأرحب هنا في كلِّ مكان، والوثيقة التي ينشرها عالم الجغرافيا أمامه هنا، أمر مُطَلْسَم متعذر فكُّ مغاليقه، ولكنها خريطة واضحة على نحو ما، وهناك خريطتان متضخمتان (منتفختان) ترقدان على الأرض خلفه. وهناك خريطة بحرية أخرى لسواحل أوروبا. ويصبح الموضوع واضحاً عندما تدرك أن قمة الخريطة تشير ناحية الغرب وليس الشمال. وهي معلقة على الجدار الخلفي للغرفة، ولم يُكْتَشف الأصل الخاص بهذه الخريطة البحرية، لكنها شبيهة بتلك الخريطة التي أنتجها ويليم بلاو Willem Bleau – ناشر الخرائط التجارية في أمستردام– والذي طبع تلك الخريطة التي تظهر أيضاً على الجدار الخلفي في لوحة فيرمير «الضابط والفتاة الضاحكة»، كما طبع ونشر خرائط أخرى غيرها. وهناك أيضاً «كرة أرضية جغرافية» تعلو اللوحة كلَّها وتتوجها، وقد أنتج هندريك هنديوس Hendrik Hondius هذه النسخة من الكرة الأرضية الجغرافية عام 1618 في ضوء النسخة الأولى التي نشرها والده عام 1600.

وقد ضمّن فيرمير تفاصيل كافية تماماً داخل هذه النسخة من «كرة هونديوس الأرضية الجغرافية»، بحيث إنها أصبحت قادرة على عرض وإظهار ما كان هونديوس يسميه «المحيط الشرقي»، وهو الذي يعرف الآن باسم المحيط الهندي، وقد كانت الملاحة عبر ذلك المحيط تمثل تحدياً كبيراً بالنسبة إلى الملاحين الهولنديين في السنوات الأولى من القرن السابع عشر. وقد كان الطريق الذي يسلكه البرتغاليون نحو

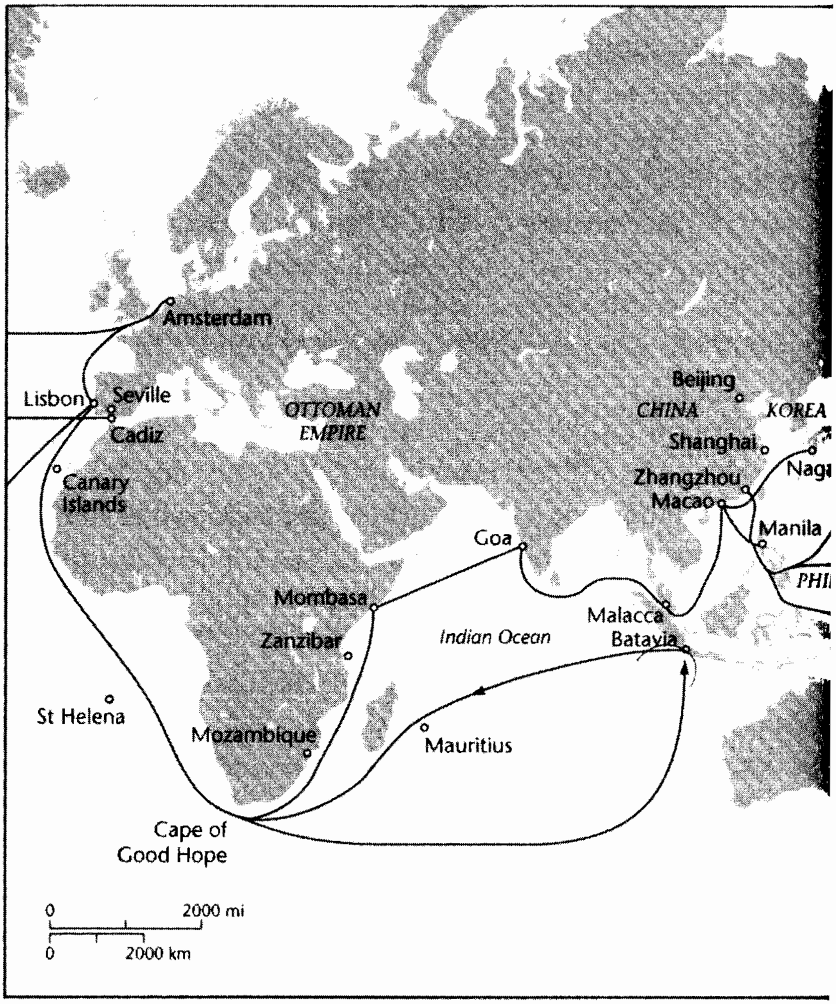
آسيا يدور حور رأس الرجاء الصالح، ثم يصعد، بعد ذلك إلى ما بعد مدغشقر، متابعاً في ذلك الخط المنحني الخاص بالساحل، وقد كانت لذلك الطريق الميزة المتعلقة بأنه يمكن رؤية اليابسة أو بلوغها في مواضع عدة، من خلاله، لكنه كان يعاق بواسطة التيارات البحرية والرياح غير المرغوب فيها؛ كما أنه كان تحت سيطرة البرتغاليين، أياً كانت قدرتهم المتفاوتة في الدفاع عنه. وفي عام 1610 اكتشف بحار هولندي طريقاً آخر، وقد تضمن ذلك الطريق النزول أسفل رأس الرجاء الصالح بمعدل أربعين درجة جنوب خط العرض، ثم الاسترشاد بالريح التي تهب من الغرب، والتي كانت، عندما تتجمع مع التيارات المائية الغربية، يمكنهما أن تُسرِّعا من سير سفينة عبر الجزء الأسفل من المحيط الهندي، ثم الانحراف شمالاً نحو جاوة، حيث مراكز التجارة، ثم نحو مراكز التجارة الجنوبية الشرقية، مع تخطي الهند أو تجاوزها تماماً؛ ولذلك فإن الطريق نحو جزر التوابل كان طريقاً أقصر من غيره بشهور عدة.

وتعد «الخرطوشة» Cartouche (وهي تلك اللفيفة الدرجية المزخرفة أو الحلية الشبيهة بدرج ملفوف، والمزودة بنقش، التي كان كثير من الخرائطيين أو رسامي الخرائط في ذلك الوقت يملؤون بها المساحات الخالية في إحدى الخرائط) وعند القسم السفلي من تلك الخريطة الأرضية الجغرافية التي تظهر في اللوحة، خرطوشة مستغلقة، أو غير قابلة للقراءة، لكن يمكن قراءتها في ضوء نسخة أخرى باقية من تلك الكرة الأرضية الجغرافية، وفيها طبع هونديوس تفسيره الموجز الذي دافع من خلاله عن السبب الذي كانت من أجله هذه النسخة

الخاصة به من الكرة الأرضية مختلفة عن النسخة التي نشرت عام 1600، فقال: «حيث إنه كانت هناك حملات كثيرة متكررة تبدأ مسيرتها كلَّ يوم متجهة نحو كلِّ موانئ العالم، وحيث كانت أوضاعها ترى على نحو واضح وتُكْتَبُ تقارير عنها، فقد توافرت لدي الثقة بأنه لا شيء سيبدو غريباً، بالنسبة إلى أي إنسان، لو ظهر هذا الوصف مختلفاً تماماً عن تلك النسخ التي سبق أن نشرها»، ومن ثَمَّ فإن هونديوس قد ناشد مشاعر الهواة المتحمسين، الذين لعبوا دوراً مهماً في تجميع هذه المعرفة وتصنيفها وخاطبهم قائلاً: «نحن نطلب من القارئ الكريم، لو كانت لديه معرفة أكثر تركيباً حول أحد الأماكن، أن يتفضل مشكوراً بإيصالها إلينا، من أجل رفع مستوى الصالح العام»، وقد كانت الزيادة في الصالح العام تعني زيادة في المبيعات بالطبع، لكن لم يهتم أحدٌ في ذلك الوقت بهذا التداخل بين الشأنين، إذا ترتب على ذلك أن أصبح ما ينتج عن تداخلهما أكثر قابلية للاعتماد عليه. لقد كان هناك عالم جديد موجود خارج ذلك المكان، وقد كانت المعرفة حوله تستحق ما يدفع من أجلها، وخاصة أن إحدى خسائر الجمل الملموسة كانت تحطم السفن.



طرق التجارة العالميه



القرن السابع عشر

لقد عايش المبشر الجزويتي الإسباني أدرينانو دي لاس كورتيس Adriana dei Las Ca Cortes تلك الخبرة المترتبة على امتلاك معلومات أدنى من «المعرفة الكاملة» الخاصة ببحر الصين الشمالي، في ذلك الصباح من السادس من فبراير عام 1625 عندما اندفعت السفينة «سيدتنا العذراء من غويا» Nossa senhoara da Guia بعنف، وارتطمت بالصخور التي على ساحل الصين، وقد كانت جوّيا Guia سفينة برتغالية في طريقها من مستعمرة «مانيلا» الإسبانية في الفلبين إلى مستعمرة «ماكاو» البرتغالية عند مصب نهر بيرل، وكانت تلك السفينة قد أبحرت من «مانيلا» منذ ثلاثة أسابيع ماضية، واتخذت سبيلاً متعرجاً على الجانب الغربي من جزيرة لوزون Luzon[1]، ثم تقدمت عبر بحر الصين الشمالي متجهة نحو الصين، وفي اليوم الثالث من عبورها كلَّ تلك المياه الرحبة، أبطأ ضباب بارد تقدم السفينة، وقد كان على ربان السفينة أن يحمل الخرائط التي يحتاج إليها للقيام بعملية عبور جيد من مانيلا إلى «ماكاو»، لكن تلك الخرائط لم تكن تفوق في جودتها جودة حصيلة المعلومات التي يمكن أن يحصل عليها من الشمس والنجم، في مثل ذلك اليوم الضبابي البارد. لقد هزمه ذلك الاتحاد الذي ضم الضباب والإبطاء وانجراف الماء، ولم يكن تقدير بُعْدِهِ التقريبي عن خط الاستواء أمراً شديد الصعوبة، لكن تقدير الموضع الدقيق الذي كانت فيه سفينته فيما بين الشرق والغرب كان أمراً مستحيلاً (ولم تتطور الآلات الضرورية التي يُحْتَاج إليها في تحديد خط الطول أثناء الوجود في البحر إلا بعد نحو قرن ونصف من ذلك التاريخ) وقد عادت الريح واشتدت مرة أخرى بعد ذلك بيومين، ثم دارت بسرعة دورتها الخاصة فتحولت إلى ريح

عاصفة هوجاء شديدة القوة والشراسة، حتى إنها قذفت تلك السفينة بعيداً تماماً عن مسارها.

قبل ساعتين من فجر يوم السادس عشر من فبراير دفعت عاصفة هوجاء السفينة بعنف، وعلى نحو غير متوقع، ناحية ساحل الصين، وقد كان المكان غير مدون على الخريطة، ومجهولاً بالنسبة إلى من كانوا على ظهر تلك السفينة. وفي مرحلة تالية فقط عرف الناجون منهم أنها قد جنحت بهم نحو ثلاثمائة وخمسين كيلو متراً شمال شرق المنطقة التي كانوا يقصدونها: «ماكاو»، وقد كانت المياه في المنطقة التي تحطمت السفينة فيها مياهاً ضحلة بدرجة كافية جعلت معها معظم من كانوا على متن السفنية «جوّيا» من الركاب، والذين بلغ عددهم مائتي شخص، قادرين على الوصول إلى الشاطئ. وقد أخفق خمسة عشر راكباً فقط في الوصول إلى الشاطئ: بضعة بحارة، وبضعة عبيد، وكان من بينهم أنثى، وعدد قليل من التاجال Tagals من مانيلا، واثنان من الإسبانيين، وولد ياباني صغير.

وقد هبط سكان قرية الصيادين المجاورة إلى الشاطئ كي يحدقوا في مجموعة من البشر؛ هؤلاء الذين كانوا يصلون إلى الشاطئ وقد ابتعدوا عنهم عندما كانوا يتدافعون بالمناكب خارجين من بين الأمواج، وربما كان معظم هؤلاء السكان لم يروا أجانب على مسافة قريبة من قبل؛ وذلك لأن تلك البقعة على الشاطئ كانت بعيدة عن الممرين البحريين الرئيسين المتعاملين في التجارة الأجنبية، وقد كان أحدهما يصل بين ماكاو واليابان، في حين يصل الآخر بين الفلبين ومرفأ القمر Moon Harbos (آموي Amoy الآن)، والذي يقع على بعد مائتي كيلو متر في الاتجاه المعاكس

المواجه لـ«ماكاو». وقد كان الصيادون الذين يعيشون على طول ذلك الساحل يعرفون أن الأجانب يبحرون في تلك المياه، ولا بد أنهم سمعوا حول البرتغاليين الذين في«ماكاو» (والذين كان يطلق عليهم في الخطاب الصيني الرسمي اسم الـ Aoyi: أي أجانب ماكاو)، ولا بد أنهم عرفوا أنه من غير المحتمل أن يهاجمهم هؤلاء الناس. لكنهم كانوا يخشون أكثر من الوكو Wokou، أو القراصنة الأقزام (وهو المصطلح العالي الذي كان يطلق على اليابانيين) وكذلك الهونجماو Hongmao الرهيبون أو المروعون، أو ذوو الشعر الأحمر (وهو مصطلح تم إطلاقهُ حديثاً للإشارة إلى الهولنديين). وقد كان القراصنة الأقزام يغيرون على ذلك الساحل منذ قرن تقريباً، وذلك ردّاً فعل على إعلان الحكومة الصينية عام 1525 حظر التجارة البحرية مع اليابان. وقد كان هؤلاء السكان يخشون اليابانيين بسبب مهاراتهم العالية كمبارزين بالسيوف، وما زال السكان المحليون يحكون تلك القصة التي تدور حول دزّينة (اثني عشر) من اليابانيين البارعين في استخدام السيف. والذين نجحوا في قتل ثلاثمائة من الجنود النظاميين الصينيين الذين أرسلوا لمواجهتهم. أما ذوو الشعر الأحمر فكانوا يبعثون في النفوس هناك، خوفاً شديداً أكبر من ذلك. وقد كان الهولنديون قد بدؤوا القيام بأعمال العنف والنهب الخاصة على طول ذلك الساحل خلال السنتين أو الثلاث الأخيرة فقط، لكنهم سرعان ما اشتهروا بأنهم عنيفون وخطيرون. ويخبرنا الاسم الذي أطلقه الصينيون على هؤلاء البشر ما الذي كان يصيب الصينيين بالذعر عندما يرون الهولنديين، فلدى الصينيين، كان الأسود هو اللون الطبيعي للشعر.

وحيث إن البرتغاليين يميلون أيضاً إلى أن يكون لون شعرهم أسود، فإن الصينيين فضلوا اعتبارهم، ببساطة، مُتَّسمين بالقبح، بدلاً من النظر إليهم على أنهم ذوو مظهر شاذ أو غريب. ولكن الأمر لم يكن كذلك بالنسبة إلى الهولنديين، هؤلاء الذين كان شعرهم الأشقر والمائل إلى الحمرة يمثل صدمة ما بالنسبة إلى أعين الصينيين، وأي شخص كان شعره باللون نفسه كان يُسَمَّى: «ذا الشعر الأحمر»، ومن ثَمَّ فهو هولندي، وشديد الخطر.

لم يكن ذوو الشعر الأحمر، «والقراصنة الأقزام»، و«أجانب «ماكاو»»، هم فقط من جاؤوا إلى ذلك الشاطئ، فقد تناثرت بينهم أيضاً فئة أخرى بكل معنى الكلمة، إنهم الهايجيو Heigui، أو الأشباح السوداء، وقد كانوا هم العبيد الإفريقيين الذين عملوا خَدَماً لدى البرتغاليين والذين كانوا موجودين في كلِّ مكان في المستعمرات الأوروبية، في شرق آسيا. وفي الحقيقة، وبشكل يفوق من لم يرهم الصينيون من قبل، كان العبيد الإفريقيون هم من يخافهم الصينيون أكثر من غيرهم.

لقد أوقف المشهد الخاص بهؤلاء الأجانب سكان تلك القرية لفترة وجيزة فقط، ثم إن أعينهم قد تحولت بسرعة نحو تلك الصناديق والبراميل التي كانت تطفو على الشاطئ مع الناجين، وبدؤوا يسحبون حطام السفينة الطافية على سطح الماء نحو الشاطئ وينظفون حمولتها. وبسرعة كافية وصل جنود المليشيا المحليون يحملون السيوف وبنادق «القَرَبَنّية»، وقد كان واجبهم أن يبقوا على هؤلاء الناجين في موقعهم على الشاطئ حتى يظهر قائد عسكري معين ويتولى أمر العناية بهم. وقد كانوا مهتمين أيضاً بالتقاط بعض ما جرفته المياه وألقت به على الشاطئ من حطام السفينة.

وحيث إن هؤلاء المنظفين كانوا قد سبقوهم إلى تلك الحمولة، فإن هؤلاء الجند قد تحولوا إلى مهاجمة هؤلاء الناجين المُخضلين بالماء، ففتشوا جيوب بعضهم البعض وجردوا بعضهم الآخر من ملابسه بحثاً عن الفضة والمجوهرات (الحُلِي) التي تشككوا أنهم لا بد قد يخبئونها في ملابسهم، وقد كان الناجون في البداية في حالة شديدة من الإعياء والإنهاك، وكانوا خائفين من القيام بأي شيء ولم يجدوا أمامهم مفراً سوى الانصياع، مع أن عدداً قليلاً منهم قد قاوم، ولكن قبل أن تتوافر الفرصة للجند النظاميين هؤلاء كي يجدوا الكثير مما يبحثون عنه، كان الناجون قد تجمعوا معاً وبدؤوا يمشون نحو الجزء الداخلي من تلك البلاد.

وبسبب خوفهم من العقاب نتيجة لفشلهم في التحكم في ذلك الحشد، بدأ هؤلاء الجنود في إلقاء الحجارة على الناجين ووخزهم برماحهم من أجل جعلهم يفهمون أنه ينبغي لهم أن يظلوا في مكانهم على الشاطئ. لكن ذلك الحشد، والذي تكون من مائتي أجنبي، استمر يحث الخُطى متقدماً في طريقه إلى الداخل، وهنا فتح الصينيون النار من البنادق عليهم.

وقد أصاب أحدهم هدفه، وكان قرصاناً قزماً (أي يابانياً)، هذا مع أن شحنة البارود كانت ضعيفة تماماً إلى درجة أن القذيفة (الرصاصة) اختفت في ملابس الرجل دون أن تحدث أي ضرر، أما سيوف هؤلاء الجنود فقد كانت أكثر فاعلية، إذ طُعن بحار برتغالي – كان يُدعى «فرانشيسكو» – بالسيف، ثم قُطِعَ رأسه بعد ذلك. وقد كان هو الأول من بين الناجين من السفينة الغارقة الذين ماتوا على أيدي هؤلاء الآسرين لهم، ثم طُعِنَ

رجل من ماكاو يُدعى إكسوريس Xuarez بالرمح، واحتضنه كاهن بين ذراعيه، لكن الجند النظاميين جذبوه بعيداً عنه ثم قطعوا رأسه أيضاً، ثم وصل ضابط من الجيش أخيراً على صهوة حصانه تصحبه حاشية صغيرة، وقد هرع «بنيتو باربوزا» Benito Barbosa – قبطان السفينة جُوّيا – نحوه طالباً الرحمة لركابه المسافرين معه، ولطاقمه أيضاً، لكن ذلك الضابط لوح بسيفه مهدداً قاصداً من ورائه التهديد والتخويف، ثم إنه أمر أتباعه أن يقطعوا جزءاً من أذن باربوسا، وهكذا تم وسمه، فلم يكن مسموحاً لهؤلاء الناجين بأي تفاوض، بل الاستسلام فقط.

ثم بدأ بعد ذلك التفتيش الدقيق والأكثر جدية، هكذا تحرك جنود الميليشيا فيما بين الناجين من حطام السفينة، وقاموا بتفتيشهم وانتزاع كلِّ ما يجدونه معهم. وقد كان بعض هؤلاء الناجين قد نجح في أن يصل إلى الشاطئ ومعه القليل من ثروته، وقد قام معظمهم بتسليم ذلك القليل والتخلي عنه للجنود عندما وصل إلى الشاطئ، ولكن ليس كلهم فعلوا ذلك، فمثلاً قام «إسماعيل» – وهو تاجر هندى مسلم من «جُوّه» – بإبعاد (نزع) ثوب خارجي، وطواه داخل صُرة معه، لكن تلك الصرة سرعان ما جذبت إليها نظرة متشككة من أحد الجنود. وقد رفض إسماعيل أن يسلمها له، وخلال ذلك الصراع الحامي الوطيس الذي نشأ بينهما – نتيجة لذلك – انزلقت الصرة من قبضة يد «إسماعيل» وسقط منها ست أو سبع قطع نقدية فضية من عملة «البيزو». ولأن ذلك الجندي كان غاضباً بشدة بسبب ما أبداه إسماعيل من مقاومة نحوه، فإنه أنهى ذلك الصراع بقطع رأس إسماعيل. كذلك وقع «بودو» – وهو هندي

آخر من «جُوّهَ»)، في شرك صراع مماثل، فقد خمن أحد هؤلاء الجنود – وعلى نحو صحيح – أن «بودو» قد خبأ شيئاً في فمه، وعندما حاول الجنود إجباره على فتح فمه فإنه بصق خاتمين على الأرض ثم رفسهما بقدمه في الرمل كي يخفيهما. وقد تظاهر الجندي الذي عجز عن إقناع بودو بفتح فمه باللامبالاة وعدم الاهتمام، ثم جاء عشرة جنود بعد ذلك، انسلوا خفية وتجمعوا خلف بودو، ثم قطعوا رأسه وحملوه – ذلك الرأس – عالياً كتذكار انتصار مهم خاص بهم.

وقد هلك آخرون لأسباب أخرى عدا حمل ثرواتهم معهم في أثناء وصولهم إلى الشاطئ، فقد كان هناك معهم – مثلاً – رجل يُدعَى «سوكونسابا Suconsaba»، وكذلك رجل من عامة الفرنسيسكان (أي ليس من رجال الدين) ولد قرب جُوّه، وخلال تحطم السفينة لحقت بهما إصابات قوية وكانا قريبين من الموت عندما وصلا إلى الشاطئ. ووفقا لما ذكره «أدريانو دي لاس كورتيس» وهو اليسوعي أو الجيزويتي الإسباني الذي كتب سيرة ذاتية حول تحطم السفينة جُويّا فإنه «قد كان كثير منا يظنون أنهم لم يموتوا بَعدُ عندما قطع الصينيون رأسيهما. «وهكذا فإن «مازمامو جانبتي» Masmamut Ganpti – والذي ربما كان عبداً لمالك السفينة، جونكالو فيريرا Goncalo Ferreira – جعل هذا الأمر يحدث بالنسبة إليه على الشاطئ دون أن يرتكب هو نفسه أي حادث، لكنه وقع في متاعب خلال دفاعه عن سيده ضد هؤلاء الجنود الذين كانوا يحاولون سلب ملابسه، وقد ردَّ الصينيون على ذلك من خلال جذبه بعنف، ثم قطع يديه وقدميه كعقاب صارم له على

مهاجمته لهم، ثم إنهم قطعوا رأسه أيضاً. لقد مات جانبتي الذي وصفه «دي لاس كوتيز» بأنه «بحار من المور(2)، وزنجي شجاع»، مات «دون مبرر، ودون أن يُعطي أية ذريعة للصينيين للقيام بذلك». وقد لقي أحد أتباع «فيريرا» الآخرين المصير نفسه، ليس بسبب تحديه هؤلاء الجنود؛ ولكن بسبب أنه كان واهن الجسد بدرجة كبيرة لم تمكنه من أن يجاري الصينيين في سيرهم ولا يتخلف عن الركب، وبخاصة عندما أجبروا الناجين – بعد ذلك – على السير نحو الأراضي الداخلية.

وقد تكونت قائمة الذين غرقوا أو قتلوا في ذلك الصباح من أناس عُرّفوا على أنهم: مور، وزنوج، من أهالي جُوّه، ومسلمون من جنوب آسيا، وأجانب ماكاو، وبرتغاليون، وإسبانيون، وعبيد من التاجالوج (3) ويابانيون(1). ونتيجة لذلك، فإن قائمة الخسائر تلك تُعد ملخصاً موجزاً لذلك التنوع في قائمة الركاب الذين كانوا على متن السفينة جُويّا وقد كان هناك على متن تلك السفينة واحد وتسعون برتغالياً، وقد وُلِدَ بعضهم في «ماكاو»، أو عاشوا وعملوا هناك، في حين أتى بعضهم من المستعمرات البرتغالية المتناثرة حول العالم، من جزر الكناري إلى جُوّه، ثم «ماكاو»، وقد كان الآخرون غير هؤلاء، من الأوروبيين فقط ستة من الإسبان، وقد كان هناك اتفاق متبادل بين إسبانيا والبرتغال يحد من أن تحمل سفينة خاصة بإحدى هاتين الدولتين بعض الركاب من مواطني الدولة الأخرى، لكن هذا الاتفاق كان يتم تجاهله إذا ظهرت الحاجة إلى ذلك، وبخاصة عندما يكون هؤلاء المسافرون الاستثنائيون من الكهنة، أو من عامة الكاثوليك (أي ليسوا من رجال الدين) والذين

يكونون في مهمة عمل رسمية، كما كانت حال هؤلاء الستة الذين كانوا على متن تلك السفينة، وقد جاء أحدهم من بعيد بمقدار بُعْدِ المكسيك الآن.

هكذا شكل الأوروبيون أقل قليلاً من نصف قائمة الركاب تلك. أما أكبر مجموعة تالية على متن تلك السفينة فقد كانت تحتوي على تسعة وستين يابانياً (القراصنة الأقزام)، وقد كان البرتغاليون يستخدمون اليابانيين أُجَرَاءَ عندهم ليدبروا أمور صفقاتهم التجارية مع الصينيين. وقد كانوا يستطيعون كتابة الحروف الصينية، ومن ثَمَّ كانوا قادرين على القيام بالمهام الخاصة بتوصيل تفاصيل الترتيبات التجارية على نحو أفضل من البرتغاليين أنفسهم، كذلك كانت ملامحهم الجسدية تعني أنهم، أي اليابانيين، أكثر قدرة على الحركة بحرية بين الصينيين بقدر يفوق ما يستطيعه الأوروبيون، وقد كانوا حتى قادرين أحياناً على التسلل داخل الصين، متحاشين الاكتشاف لهم بقدر يفوق ما يقدر عليه البرتغاليون في هذا الشأن. وقد عرف «لأي كورتيس» أحد هؤلاء اليابانيين، وكان كاهناً كاثوليكياً يدعى ميجيل ماتسودا Miguel Matsuda، وقد كان هو ذلك الكاهن الياباني الذي نجا بأعجوبة عندما أوقفت ملابسه رصاصة بندقية القَرَبِيّنة عندما اختفت داخل تلك الملابس، وقد كانت الحكومة اليابانية قد طردته وأبعدته إلى الفلبين عام 1614، عندما تحول إلى المسيحية، وقد تدرب ماتسودا على أيدي المبشرين الجيزويت في مانيلا، كي يصبح راهباً بعد ذلك، وقد كان خلال تلك الرحلة في طريقه إلى «ماكاو»، مغامراً قرر أن

يعود إلى «ناجازاكي» على متن سفينة برتغالية، ثم يتسلل عائداً إلى اليابان كي ينشر التعاليم المسيحية هناك. لقد كانت تلك مهمة شديدة الخطورة، وربما كانت ستنتهي في اليابان بالقبض على ماتسودا وإعدامه.

كانت المجموعة التالية الأكثر عدداً، بعد اليابانيين والأوروبيين، هي تلك المجموعة التي كان إسماعيل وبودو ينتميان إليها، وهي: أربعة وثلاثون من التجار المسلمين من مستعمرة «جُوّه» البرتغالية في الهند، وقد كان اثنان منهم يسافران مع زوجتيهما، وأخيراً، فقد ذكر (لاس كورتيس)، الهنود من المناطق المحيطة ومانيلا والتاجالوج، والمور، والزنوج، واليهود، دون أن يذكر رقماً محدداً لكل هؤلاء الناس.

ويكشف هذا القطاع المستعرض غير العادي من الصفات البشرية الخاصة بقائمة ركاب السفينة «جُويّا» عن هؤلاء الذين كانوا يتحركون عبر تلك الشبكة من التجارة التي كان البرتغاليون يبحرون عبرها على نحو دائم، وما لم يكن «لاس كورتيس» قد أخذ على عاتقه عبء كتابة تقرير حول تحطم تلك السفينة، وما لم يكن مخطوطه ذاك قد حُفظ في المكتبة البريطانية، فإنه ربما ما عرفنا شيئاً حول ذلك الخليط الغريب من البشر الذين كانوا يسافرون على متن تلك السفينة، لقد كان مالكها وقبطانها من البرتغاليين، أما ركابها فكانوا – وعلى نحو جدير بالملاحظة، حشداً دولياً، من أقصى الشرق حيث المكسيك، إلى أقصى الغرب حيث جزر الكناري. هكذا تكشف مذكرات «لاس كورتيس» ويومياته عن أن معظم البشر الذين قد تُعَرِّفهم على أنهم ركاب سفينة

برتغالية، لم يكونوا برتغاليين على الإطلاق بل – وبشكل حرفي– بشراً ينتمون إلى كلِّ مكان في العالم. ولم تكن جُويّا فريدة في ذلك؛ وذلك لأن سجلات أخرى تكشف عن الشيء نفسه، فقد كانت آخر سفينة تجارية برتغالية ناجحة متجهة نحو اليابان، وقد أبحرت في عام 1638، وقد تكونت من تسعين برتغالياً ومائة وخمسين من المولّدين أو المهجنين والزنوج والملونين، إذا أخذنا اقتباساً من سجل آخر مثل ذلك السجل. هكذا فإنه ربما هيمنت السفن الأوروبية على الممرات البحرية التجارية في القرن السابع عشر، لكن الأوروبيين الذين كانوا على متنها، كانوا – دائماً – هم الأقلية.

لقد ذهل الفلاحون الذين كانوا على الشاطئ من هذا «العالم الأصغر» من البشر من جميع أنحاء العالم، والذين تجمعوا خارجين من بين الأمواج، ومن خلال ردود أفعال هؤلاء الفلاحين، وافترض «لاس كورتيس» أنهم «لم يروا من قبل أي أجانب أو بشر ينتمون إلى الأمم الأخرى»، وقد ضمن ذلك قوله إنه «لا أحد منهم قد ذهب من قبل إلى الأقطار الأخرى، وربما لم يغادر معظمهم حدود منزله من قبل». لقد كان العالمان اللّذان يواجه كلٌّ منهما الآخر على الشاطئ في ذلك الصباح من فبراير يوجدان عند هذين الطرفين المتعارضين الخاصين بمدى الخبرة العالمية التي كانت متاحة في القرن السابع عشر، فعند أحد القطبين كان هناك هؤلاء البشر الذين عاشوا حياتهم كلها داخل حدودهم الثقافية المحددة، وعند الطرف الآخر كان هناك هؤلاء الذين اجتازوا تلك الحدود وعبروها كمبدأ أساسي يومي في حياتهم،

واختلطوا خلال ذلك- على نحو دائم- ببشر من أصول وألوان بشرةٍ، ولغات، وعادات مختلفة.

ولأنه ليست لدينا سجلات حول كيفية استجابة هؤلاء الفلاحين عند رؤيتهم للأوروبيين، فإن كلَّ ما نستطيعه هو أن نملأ تلك الفجوة بتوصيفات مستمدة من سياقات أخرى. فهذا مثلاً، الانطباع الخاص بكاتب صيني حول التجار الإسبان الذين كانوا يزورون «ماكاو»، لقد «كانوا يتسمون بأجسادهم الطويلة، وأنوفهم المرتفعة، وعيونهم الشبيهة بعيون القطط، وأفواههم المعقوفة أو المنقارية الشكل، هم يحبون القيام بالأعمال التجارية. وعندما كانوا يقايضون سلعة ما كانوا يرفعون أصابع عدة من أصابع أيديهم عالياً ويظهرونها أمام من يبيعون له أو يشترون (لبيان السعر المطلوب)، وحتى لو كان الاتفاق يتعلق بآلاف الأوقيات من الفضة فإنهم لم يكونوا يتضايقون عندما يصلون إلى اتفاق تعاقدي معين. وعند كل تعهد أو ضمان كانوا يشيرون إلى السماء، على أنها الكفيل الضامن لهم، ولم ينكثوا قط بعهدهم، وقد كانت ملابسهم أنيقة ونظيفة». هكذا بذل ذلك المؤلف أقصى جهده كي يتمثل هؤلاء الأوروبيين داخل تاريخ معين كان على ألفة به. وحيث أن هؤلاء الرجال كانوا هم من أطلق عليه الصينيون اسم «الغرب العظيم» Great West (أوروبا)، والذي يقع خلف الغرب القليل الشأن Litlele west (الهند)، فإنه لا بد أنهم كانوا على صلة ما بالهند بطريقة أو بأخرى، وربما التقط ذلك المؤلف نتفاً عابرة من المعتقدات المسيحية؛ وذلك لأنه وصل إلى حدِّ اقتراح أنه لا بد أن الإسبان كانوا في البداية من

أشياع بوذا، لكنهم فقدوا هويتهم وأصبحوا الآن، في أمورهم الدينية، قريبين فقط من بعض المذاهب الفاسدة.

ولو كان مظهر الرجال البيض لافتاً للانتباه، فإن مظهر الرجال السود كان أشبه بصدمة، هكذا كتب لاس كورتيس يقول: «كان الزنوج الذين معنا، هم فقط الذين أثاروا فضولهم على نحو خاص». وقال كذلك: «ولم يتوقفوا عن ذهولهم عندما رأوا أنهم عندما اغتسلوا ونظفوا أنفسهم، لم يصبح لونهم أكثر بياضاً» (وكان لاس كورتيس مسافراً مع خادم أسود، فهل يكشف ذلك عن تميزاته العرقية؟)، وقد كانت لدى الصينيين في ذلك الوقت مصطلحات كثيرة لوصف مثل هؤلاء الأفراد. وحيث إن كل الأجانب كان يمكن أن يطلق عليهم هناك لقب «الشبح» gui، فقد كان هؤلاء الزنوج يُسَمَّون ببساطة بـ «الأشباح السوداء»، كما كانوا يُسَمَّون أيضاً «عبيد كونلون» Kunlun slaves، مستخدمين في ذلك اللقب الذي تم اصطلاحه منذ آلاف السنين لوصف الأجانب ذوي البشرة السُّود والذين كانوا يأتون من الهند، التي كانت بالنسبة إليهم أرضاً تقع خلف جبال «كونلون» عند الحدود الجنوبية الغربية للصين. وقد عاش «لاي رايهوا»، جامع التحف والأعمال الفنية، الذي عاش في «جيانج شنج»، والذي تعرَّف على القرطين الزجاجيين اللذين كان وسيطه يحاول أن يوهمه بأنهما سلع خزفية صينية قديمة، عاش في دلتا نهر اليانجتسي، وناحية الشمال تماماً ولم يسبق له أن رأى زنجياً، لكنه لاحظ في يومياته أن الزنوج كان يطلق عليهم أيضاً اللوتنج luting (وهو مصطلح تعود جذوره اللغوية إلى كلمة lost، أي فقد أو ضل طريقه)



«لوحة حفر لـ «الشبح الأسود» وفقاً لمصطلحات ذلك الزمن، وهو يرتدي لباساً برتغالياً خاصاً بالخدم في ماكاو (مأخوذة من كتاب كاي روتسيان، التأويل التوضيحي للأجانب الشرقيين، في عام 1586، وقد تمتع كاي بتوليه منصباً عالياً، مفتشاً عاماً في الإدارة الخاصة بالأقليم في «قوانغدونغ»، ربما كان هذا أول تمثيل صيني لأحد الأفارقة».

كما كتب «لاي رايهوا» يقول أيضاً: إنهم كانوا بارعين في السباحة إلى درجة أن الصيادين كانوا يستخدمونهم لإغواء السمك الحقيقي كي يدخل في شباكهم وقد كانت كلُّ عائلة الصيادين في جنوب الصين تمتلك واحداً منهم، كما قيل لـ «لأي» أو أخبروه بذلك.

ويزودنا الخرائطي الصيني وانغ شاي شنغ بوصف أكثر موثوقية إلى حدٍّ ما–هنا– مقارنة بما قبله، حيث قام برسم صور للرجال السود في «ماكاو» على أنهم «ذوو أجساد أشبه بورنيش اللّك الأسود، وكانت الأعضاء الوحيدة التي تركت بيضاء في لوحاته هي العينين».

وقد أشاع عنهم أنهم جبناء، وأنه «لو أمر سيدٌ عبداً منهم بأن يقطع حنجرته، أي يذبح نفسه، فإنه سيفعل ذلك دون أن يفكر فيما إذا كان عليه أن يفعل ذلك أم لا. وإنهم بحكم طبيعتهم قتلة يحسنون استخدام المُدَي (السكاكين)، ولو خرج السيد من البيت وأمر عبده أن يحرس بابه، فإنه حتى لو كان الفيضان أو النار سيهلكانه، فإنه لن يتزحزح عن مكانه قيد أنملة. ولو دفع شخص ما الباب أقل دفعة ممكنة فإن العبد سيقتله، بصرف النظر عمّا إذا كان ذلك الشخص لصاً أو لا. «وقد ذكر «وانج» أيضاً شيئاً عن براعتهم الفائقة تحت الماء، مردداً ما سبق أن قاله «لاي رايهوا»، فكتب يقول: «إنهم بارعون في الغطس»، وأيضاً: «إنهم يستطيعون استرجاع الأشياء من الماء، خاصة عندما يُرْبَطُ حبل بإحكام حول خصورهم، وقد كان الشيء الأخير الذي سجله عنهم هو ارتفاع سعرهم، حيث يحتاج المرء إلى خمسين أو ستين أوقية من الفضة كي يشترى واحداً منهم»، وهو سعر ذِكْرُ مقداره يدهش به قُرَّاءَهُ؛ وذلك لأن ذلك المبلغ كان يُمكِّنه من شراء خمسة عشر رأساً من الثيران.

ولقد ضَمن «وانج» تلك المعلومات في استقصائه الموسوعي لجغرافية الصين من أجل أن يوثق تلك التشكيلة المتنوعة من الأماكن والبشر الذين كان يمكن أن يُوجَدُوا داخل حدود الصين، تلك الحدود التي كانت

تشمل – من بين ما تشتمله – «ماكاو» أيضاً، لقد حصر «لاي رايهوا» بياناته في أهداف مختلفة: كأن يوضح بالمثال إيمانه الراسخ بأنه «من وقت إلى آخر، تظهر أشياء غريبة بين الأرض والسماء، وأن عدد الأشياء التي كانت موجودة عند بدء الخليقة لم تكن ثابتة ومحددة منذ البداية»، وقد أدرك «لاي» أنه عاش في زمن أصبحت فيه الفئات التصنيفية التقليدية للمعرفة لا تحيط تماماً أو تستوعب كلَّ شيء كان موجوداً في العالم، وإننا قد نحتاج إلى فئات جديدة منها لإضفاء المعنى على كل تلك الأشياء الجديدة والغريبة التي كانت تأتي على مرمى البصر في صين القرن السابع عشر، ولسوء الحظ، بل المضحك أيضاً، أن كثيراً من تلك المعرفة كانت أشبه بالإشاعات أو الأغاليط. ويقدم لنا وصف «لاي» للهولنديين نوعاً من الأفكار النمطية العامة حول الأجانب، بدلاً من أن يقدم لنا معلومات يمكن أن نعدّها معرفة مفيدة، حيث قال في وصفه لهم إنهم «ذوو شعر أحمر ووجوه سود، وأن أخمص أقدامهم يفوق القدمين طولاً».

كانت الأيام الأولى من الأَسْرِ قاسية، ولم يكن ذلك الضابط الحربي في مزاج يَسْمَحُ له بأن يكون ليناً متساهلاً، ولم يكن يرغب أيضاً بأن يحتفظ بأسراه في محبسه أو سجنه الخاص فترة تزيد على ما ينبغي أن يحتفظهم بها، خاصة إذا ما وجد رؤساؤه أي خطأ يشوب إجراءاته؛ ومن ثَمَّ فإنه تقدم بهم مشياً نحو حامية جينغهاي Jinghi، وهي واحدة من سلسلة من المواقع العسكرية الحصينة الممتدة على ذلك الساحل، وقد قام قائد الحامية باستجوابهم، ولكن بسبب عدم وجود مترجم معه

لم يحصل منهم على الكثير من المعلومات، وقد قُدِّر أيضاً أن الأكثر أماناً هو أن يفترض الأسوأ فذلك أفضل مما قد يكتشفه لو كان ليناً مهملاً معهم؛ وبالتالي فإنه رفض زعمهم أنهم كانوا تجاراً أبرياء، وعاملهم كما لو كانوا هم القراصنة الذين افترض وجودهم منذ البداية، ثم إنه – نتيجة لذلك – أرسلهم إلى الرتبة الأعلى في سلم القيادة، وإلى المسؤولين الرسميين هناك في تشاوزو، حاضرة الأقليم التي يقيم فيها حاكم الولاية، وهناك خضع هؤلاء الأسرى – ومعهم قائد حامية جينغهاي – لكثير من الأسئلة المتلاحقة التي استغرقت أياماً عدة، ومرة أخرى، لم يكن هناك مترجم، ولو أنه بعد أيام عدة أيضاً كان المسئولون في «تشاوزو» قادرين على تحديد مكان أحد الصينيين، والذي كان قد عمل من قبل في «ماكاو»، ويعرف قدراً مناسباً من اللغة البرتغالية يكفي لقيامه بالترجمة الأساسية، وقد أصابت الدهشة الجميع، فقد تعرف ذلك الرجل إلى أحد تجار «ماكاو» الأسرى، وقد كان برتغالي المولد، ويُدْعَى أنطونيو فييجا Antoio Viegas، وقد باع له بهارات القرنفل منذ عدة سنوات ماضية، ثم تقدم ضابط إلى الأمام وكان يعمل «إسكافياً» في مانيلا، ويعرف قدراً من الإسبانية كي يقوم بالترجمة للإسبان (وقد دُهش لاس كورتيس من أن ذلك الضابط لم يشعر بارتباك أو خجل كبير وهو يعترف بمهنته الأصلية؛ وذلك لأن الإسبان يعتبرون إصلاح الأحذية حرفة تحط من قدر المرء، كما أنهم سوف ينكرون وجود مثل ذلك الماضي المهين لديهم لو استطاعوا إلى ذلك سبيلاً).

أما ذلك الإسكافي، والذي أصبح ضابطاً، فقد كان صاحب روح

متعاطفة، وقد تدخل على نحو متميز لصالح هؤلاء الأجانب كي يُحَسِّنَ من موقفهم. كذلك وجد المسؤولون الرسميون في «تشاوزو» رجلاً كان قد عمل بين التجار الصينيين في نجازاكي، وتزوج امرأة يابانية أيضاً، وقد كان قادراً على الترجمة لهؤلاء الركاب اليابانيين الذين كانوا على متن السفينة جُويّا.

كان قائد حامية «جينغهاي» قد خطط لاتهامهم بالقرصنة قبل أن يقوم رؤساؤه في «تشاوزو» بذلك. وقد زعم أن هؤلاء الأجانب كانوا هم من بدؤوا القتال، وهاجموا جند الميليشيا كالقراصنة، وقاوموا – على مدى يوم كامل – محاولة القبض عليهم، كما أنهم حملوا الفضة معهم من على الشاطئ ودفنوها –كذلك– من أجل الاستفادة منها في المستقبل. ولكونهم من جنسيات مختلفة فإنهم لا يمكن أن يكونوا مشتغلين بتجارة مشروعة، بل مجموعة من المجرمين المتهورين المستعدين للقيام بأي عمل يائس، ولا بد أنهم اتحدوا معاً كي يقوموا بالنهب والسلب، وقد كان اثنان منهم أو ثلاثة من الشقر، وهو دليل لا يمكن دحضه على أن ذوي الشعر الأحمر كانوا من بينهم، وأخيراً، فإنه لا أحد يمكنه أن ينكر أن تلك العصابة تحوي بين أعضائها عدداً كبيراً من اليابانيين، هؤلاء الذين كانوا يحرم عليهم مطلقاً أن يقتربوا من الشاطئ. وقد كانت كلُّ تلك الشواهد الظرفية الطارئة جديرةٌ بأن تقود إلى القول إن مجموعة الأسرى تلك هم قراصنة، وكذلك إن ذلك القائد العسكري للحامية كان من البراعة بحيث إنه اعتقلهم قبل أن يقوموا بأي عمل مدمر.

ثم أراد مسؤولو المقاطعة الرسميون أن يستمعوا من هؤلاء الناجين إلى معلومات خاصة تتعلق بمسألة الفضة المخبوءة تلك، وعندما سُئلوا عمّا إذا كان أي صيني قد أخذ أية فضة منهم، قرر راهب برتغالي يُدعى لويس دي أنجولو luis de Angulo أن جندي الميلشيا الذي أسره في البداية قد أخذ منه خمسين قطعة نقدية من عملة البيزو كان يحملها في ثيابه. وعندما تم ذكر ذلك وتُرْجِم جثا كلُّ جنود جينغهاي الحاضرين بسرعة على رُكبهم واحتجوا بشدة قائلين إن أحداً منهم لم يقم بشيء مثل هذا قط، وذلك لأن سرقة ممتلكات الأسرى في أثناء القيام بالواجب كان جريمة خطيرة، وعند تلك النقطة، طلب كلُّ المترجمين أن ينسحبوا، لقد عرفوا ما الذي قد يفعله جنود جينغهاي بهم لو ظهرت حقائق أكثر، وقد كان ذلك كافياً لأن يصبح المسؤولون الرسميون متشككين في قصة قائد حامية جينغهاي تلك، ومع ظهور قصص أخرى حول السرقة على السطح خلال الاستجوابات التالية، كانت شكوكهم تنمو وتتزايد، ثم تحول التحقيق في الاتجاه الآخر، وذلك لأن قائد حامية جينغهاي هو الذي أصبح الآن قيد التفحص والتدقيق.

عند هذا المستوى الخاص بموظفي الولاية لم يكن ممكناً الوصول إلى حكم نهائي يتعلق بأية مسألة خاصة بهؤلاء الأجانب، ومن ثَمَّ كان ينبغي إحالة القضية إلى سلطات المقاطعة في كانتون، قبل أن يُتخذ أي قرار يتعلق بإطلاق سراح «لاس كورتيس» وغيره من الركاب وإرسالهم إلى «ماكاو»، وقد استغرق الأمر نحو سنة حتى تنتهي هذه العملية.

لم يكن ذلك القلق حول هؤلاء الأجانب الموجودين على سواحل

البحار محصوراً داخل الصيادين أو الموظفين الرسميين المكلفين بحماية ذلك الشاطئ ضد المهربين والقراصنة، هكذا كان «لو جاو لونغ»، وهو أحد مواطني جيانج شان الأصليين، وهو الإقليم الذي توجد به «ماكاو»، كان قد حظي بدرجة عالية من التعليم وكان أحد أعضاء الطبقة العليا الحاكمة في كانتون، وقد تقلد مراتب الوظائف البيروقراطية خلال عشرينيات القرن السابع عشر وأصبح في منصب وزاري في الحكومة المركزية، وليس هناك أي مبرر يجعلنا نفترض أن قصة تحطم السفينة «جويّا» قد وصلت إلى علمه، مع أن هذا الأمر كان حادثة عالمية، وكان ينبغي إرسال تقرير عنها إلى بلاط الحاكم، وبصرف النظر عن ذلك، فإن «لو» قد التزم بالحفاظ على ما يحدث في وطنه ما دام ذلك سيجعله في الوقت نفسه، ساهراً على مصالح أسرته وأصدقائه.

لقد أدَّى وجود كلِّ هذا العدد الكبير من الأجانب على طول الساحل إلى إثارة الاضطراب لدى «لو» وكذلك كان شأن ذلك العدد الكبير جداً من الصينيين الذين كانوا راضين تماماً عن قيامهم بأعمال الشحن والنقل والمقايضة مع هؤلاء القراصنة، وبخاصة مع ذوي الشعر الأحمر، وقد كان الصينيون يعرفون القليل في حقيقة الأمر حول هؤلاء الناس. وكان أول وصف يظهر حول إقليم يُسَمّى هيلان Helan (أي هولندا) في «السجلات الصحيحة الرسمية، وهي المذكرات اليومية للبلاط».

وقد ظهر ذلك الوصف في تدوين خاص يتعلق بصيف عام 1623. ومع أن ذلك التقرير قد سلّم بأن «مقاصدهم لا تتجاوز الرغبة في الحصول

على السلع الصينية»)، فقد كان موظفو البلاط الحاكم الرسميون حذرين على نحو مشوب بالقلق من ذوي الشعر الأحمر باعتبارهم يمثلون حتى الآن حضوراً آخر أيضاً غير متحكم فيه على طول الساحل، وقد رغب بعضهم، ومنهم «لو جاو لونج»، في ذهاب جميع الأجانب بعيداً من هناك، ومغادرتهم، وليس ذوي الشعر الأحمر فقط.

في يونيه من عام 1630، وبعد سنوات خمس من تحطم السفينة جويّا، أرسل لو جاو لونج الرسالة الأولى من سلسلة رسائله المكونة من أربع مذكرات أو توصيات سياسية إلى الإمبراطور «تشونغ تشن» Chongzhen، وخلال ذلك الوقت كان البلاط الحاكم متورطاً في جدل حول السياسة الخارجية يتعلق بالمكان الذي يكمن فيه الخطر الحقيقي، في الجنوب أم في الشمال، ومن كان يمثل تهديداً أعظم للنظام الحاكم، التجار الأوروبيون واليابانيون على الساحل الجنوبي، أم المحاربون المغول والتانجوسيون Tungusic على الحدود الشمالية؟ وقد كانت تلك مشكلة محيرة متكررة الظهور بالنسبة إلى صناع السياسة الصينيين، وقد كانت الإجابة عنها هي التي سوف تحدد الاتجاه الذي ينبغي أن تتدفق الموارد العسكرية نحوه وقد وجهت التطورات الحديثة على جانبي الحدود الاتجاه الخاص بالإجابة عن ذلك السؤال: فالأجانب الشماليون، والذين سيتبنون في القريب الاسم الإثني المميز لهم، وهو «المانشو» Manchu، قد استولوا على معظم الأراضي التي تقع وراء «السور العظيم» من خلال القيام بغارات فيما وراءه كلما أرادوا ذلك.

أما «ذوو الشعر الأحمر»، و«أجانب ماكاو»، و«القراصنة الأقزام» فكانوا يحدثون القلاقل والاضطرابات على الساحل الجنوبي الشرقي، ولم يكن هناك من سور عظيم للصين على طول الساحل يمكن للقوات العسكرية لسلالة المنغ الحاكمة أن تتمترس خلفه، لقد كان هناك الساحل المفتوح فقط. وقد كان القسم الكبير من ذلك الساحل لا يصلح لضيافة السفن الكبيرة كي ترسو عليه. ولكن كانت هناك مدافئ معزولة كالجزر، وكافية بحيث كان يمكن لتلك السفن التي تجيء من المحيط الغربى العظيم أن تعقد فيها صفقات مع التجار الصينيين وأن تزدري وتتحدى كلَّ تلك التنظيمات الخاصة بالتجارة الخارجية.

هكذا كان «لو جاو لونج» متيقناً من أن التهديد الأعظم للصين إنما يكمن في الجنوب أكثر من الشمال، وبوصفه رقيباً معيناً للإشراف على العمليات الخاصة بوزارة المراسم، ذراع حكومة المنغ المكلف بمعالجة وتدبير كلِّ ما يتعلق بالعلاقات مع الأجانب، فقد كان في موضع يمكنه من أن يعرف كلِّ ما كان يدور هناك، وقد أبدت تلك الوزارة خلال عشرينيات القرن السادس عشر – وعلى نحو منتظم – رغبتها في الوصول إلى توفيقات أو تسويات للخلافات مع البرتغاليين في «ماكاو» وكذلك مع مبشريهم من طائفة الجيزويت، وقد قام «لو» بالتنبيه على ذلك الخطر. ففي المذكرة الأولى من مذكراته الأربع التي أرسلها إلى الإمبراطور «تشونغ شان»، حذَّره من القيام بأي شيء ضد الأجانب الموجودين في «ماكاو»: لقد ولد موظفوك الرسميون وترعرعوا في إقليم شيانغشان وهم يعرفون النيات الحقيقية لأجانب «ماكاو». كما

أخبر «لو» إمبراطوره وأيضاً: «إنهم بطبيعتهم عدوانيون وعنيفون، وعقولهم غامضة مبهمة»، ثم إنه تذكر أن أول الاحتكاكات معهم كانت مقصورة على التجارة في تلك الملاذات التي في الجزر المتناثرة عبر البحار، ثم ذكر أن البرتغاليين كانوا قادرين بعد ذلك على أن يحصلوا لأنفسهم على موطئ قدم في «ماكاو»، وأنهم قاموا في البداية بنصب الخيام وأقاموا معسكراً لهم هناك، ولكنهم - وعبر الزمن - أقاموا المباني وأحاطوا الجزر الخضراء بأسوار وجدران، ثم إنهم وضعوا أو نصبوا بعد ذلك الأبراج الخاصة بالمدافع، وكذلك المتاريس القوية بحيث يمكنهم الدفاع عن أنفسهم في الداخل»، وأنه جاءت معهم مجموعة أخرى مكونة من عناصر مختلفة من الأجانب، وبقدر ما كان «لو» مهتماً بهذا الأمر، فقد كان ذلك دليلاً أيضاً على أن البرتغاليين كانوا غير مكترثين تماماً بكلّ تلك القوانين الصينية الصارمة حول من يُسْمَحُ له بدخول الصين، وفي ظل أية شروط، أو كيف ينبغي عليهم أن يسلكوا ويديروا أمورهم عندما يُسْمَحُ لهم بالدخول. وبشكل خاص، فإن البرتغاليين، وبسماحهم بدخول اليابانيين إلى داخل التراب الصيني دون أن يحصلوا أولاً على الأذن من السلطات الصينية بذلك، كانوا يظهرون لا مبالاتهم التامة تجاه القوانين الصينية.

«لقد كانت هناك أوقات يصعدون فيها فوق سفنهم الأجنبية وينزلون ثم يتخذون طريقهم نحو الداخل»، وقد ذكّر «لو» الإمبراطورَ بأنهم من أجل أن يغذوا نياتهم اللاأخلاقية ويطيلوا أمدها فإنهم «قاوموا القوات الحكومية، ونهبوا ممتلكات أُناسَنا، وخطفوا أطفالنا، واشتروا أكبر قدر

ممكن من الملح الصخري والقصدير والحديد»، وهذه المواد كلُّها كان تصديرها محرماً بوصفها مواد عسكرية، وربما كان الأسوأ من ذلك كلّه هو تلك السلوكيات التي أثاروها ونشروها بين الصينيين العاديين «فقد تزايد عدد أنماط الجريمة القادمة من مقاطعة فوجيان Fujian إلى حدٍّ كبير، لقد وجدت لقمة سائغة لها في ماكاو ولم يكن عدد الذين شعروا بإغراء العيش هناك أقلَّ عن عشرين أو ثلاثين ألفاً، ويعتمد قُطاع الطرق من مقاطعة قوانغدونغ Guangdong عليهم في إحداث الاضطرابات، وبأعداد تفوق الحصر» لم تكن القضية المحورية إذن هي الثقافة، بل النزعة الإجرامية، وخاصة على الجانب الصيني».

قبل أن يوجِّه «لو جاو لونج»، رسالته هذه إلى إمبراطوره بسنتين، كان الإمبراطور الذي اعتلى العرش حديثاً يميل إلى جانب الزمرة الخاصة في ذلك الشقاق والجدل والتي كانت تخشى غارات المانشو أكثر من الأوروبيين، ووافق ذلك الإمبراطور على دعوة فريق من رجال المدفعية البرتغاليين كي يسافروا من «ماكاو» إلى «بيجين» من أجل تحسين مستوى الدفاعات بسلاح المدفعية على الحدود الشمالية للصين، لكن الجانب الآخر، ذلك الشقاق الجدلي، كان قوياً بدرجة كافية إلى حدِّ أنه أوقف ذلك الوفد المفوض من الإمبراطور عندما وصل إلى نان تشنج، وقد قال أصحاب ذلك الفريق إنه حتى لو كان الغزو القادم من الشمال وشيك الحدوث، فهل يُعَدُّ استئجار هؤلاء المرتزقة الأجانب هو الحل لتقوية تلك الحدود غير الحصينة؟ ألم يكن الصينيون هم أول من اخترع المدفع؟ ولماذا لم يكن العتاد الحربي الصيني أو الذخائر غير كافٍ

للوفاء بهذا الغرض؟ (وقد انتقد لاس كورتيس، في مذكراته، الجودة النوعية الخاصة بالأسلحة النارية للصينيين). «كيف يكون الأمر هو أنه فقط، وبعد أن يعلمنا الأجانب أن نكون قادرين على إظهار قوتنا الخاصة؟» هكذا تساءَل «لو» —متجهاً نحو قضيته على نحو مباشر هل الخطر الموجود على أحد الحدود يبرر تعريض البلاد للخطر عند حدود أخرى؟

لقد أيد كثير من الموظفين الرسميين في البلاط الإمبراطوري فكرة الاستفادة من تميز الأوروبيين في علم الذخائر والمدفعية من أجل مساعدة الصينيين في الدفاع عن حدودهم وقد كان أكبر دليل شاهد على تفوق المدفعية الخاصة بالأوروبيين ما حدث في «ماكاو» عام 1622. ففي يونيو من تلك السنة هبط أسطول من سفن شركة الهند الشرقية الهولندية في «ماكاو» على أمل أن ينتزع هذه المحطة التجارية المربحة من أيدي البرتغاليين وكذلك الهيمنة على تجارة الصين عموماً، وقد كان لمثل هذا الهجوم أن ينجح تماماً، ما لم يقم عالم الرياضيات الجزويتي «جياكومو رو» Giacomo Rho بإجراء حساباته الهندسية الدقيقة ويقدمها لواحد من نواب الضباط المدْفعيين الذين كانوا يدافعون عن المدينة، وقد نجح ذلك المدْفعي في تسجيل إصابة مباشرة لحقت بمخبأ براميل البارود التي جلبها المهاجمون الهولنديون معهم إلى الشاطئ. وقد كُرِّمَ «رو» بعد ذلك بسبب براعته الرياضية التي أنقذت البرتغاليين في «ماكاو» من الهولنديين.

وقد اتخذ المسؤولون الصينيون من ذلك النصر درساً مُرضياً لهم،

ولأنه دَلَّهم على أن الأجانب يحارب بعضهم بعضاً، وأن ما يجب على الصين أن تفعله فقط هو أن تتلاعب بهم وتدفع بعضهم ضد بعض، حيث يمكن هكذا السماح للبرتغاليين بالتجارة، في حين يمنع الإسبان من القيام بذلك «نحن لن ننفق بنساً واحداً– هكذا أعلن الحاكم العام داي تشو Dai Zhuo في كانتون – «ولكن من خلال توظيفنا للاستراتيجية الخاصة باستخدام الأجانب لمهاجمة الأجانب، سوف تمتد قوتنا حتى إلى ما وراء البحار».

لم يوافق «لو جاو لونغ» على أن الصين ينبغي أن تلجأ إلى الأجانب بحثاً عن الحل، فتوظيف رجال المدفعية البرتغاليين يدل على الضعف وليس القوة، وقد عَبَّرَ رجال آخرون في بلاط الإمبراطور عن وجهة نظر أكثر عدوانية، فبالنسبة إليهم أثبت نصر «رو» أنه ينبغي للصين أن تكتسب أو تمتلك أفضل أنواع التكنولوجيا للدفاع عن نفسها، وقد كان الإمبراطور تشونغ تشن يعتقد مثل هذا الرأي أيضاً، ومن ثَمَّ فإنه كان قد أرسل فعلاً وفداً مفوضاً كي يعطي الموافقة على العمل لفريق المدفعية البرتغاليين، وذلك حتى قبل أن يرسل «لو» أولى «مذكراته» إليه(2).

وقد قاد جونكالو تايكسيرا كورّيه Goncalo Teixeira Coarrea ذلك الوفد المتكون من أربعة من رجال المدفعية، واثنين من المترجمين، إضافة إلى اثني عشر من الخدم الهنود والأفارقة وقد كان أحد المترجمين صينياً، وكان الآخر هو الكاهن الجزويتي الأعلى مقاماً جواو وردريجو Joao Rodrigues وهو الذي كان قد رأس البعثة التبشرية المتوجهة إلى اليابان لعدة سنوات، وقد كان رودريجو معروفاً فعلاً من قبل

المسؤولين الصينيين في الجنوب، ولم يكونوا يثقون به. وفي كانتون اعتبر القاضي «يان بونيان» Yan Jungan – وهو أحد أصدقاء لوجاولونج – رودريجو، ونظر إليه على أنه متطفل يتدخل في شؤون الصين الداخلية. وقد تشكك في أن ذلك الجزويتي العجوز كان يقوم بأشياء تتجاوز دوره كمترجم، لكنه كان عليه أن يحترم الأوامر القادمة من بيجين، ويسمح له بالمرور عبر كانتون.

على الرغم من ذلك التفويض الإمبراطوري الذي مفاده أن الوفد ينبغي أن يقترب من بيجين، فإن المسؤولين الذين كانوا يشاركون «لو جاو لونج» رأيه قد وضعوا العراقيل أمام ذلك الوفد في كلِّ مناسبة أتيحت لهم، فقد عُطِّلَ ذلك الفريق في نانجنج، كما حدث مع الوفد السابق. ولم يكن المسؤولون ليسمحوا لهم بالتقدم أبعد من ذلك ما لم تصل إليهم تأكيدات واضحة من الإمبراطور بأنه ينبغي لهم أن يفعلوا ذلك. وقد تذمر رودريجو في تقرير أرسله إلى موطنه من أنهم كانوا ينتظرون ريحاً طيبة تحملهم عبر القناة الكبيرة لكنه كان يحاول إنقاذ ماء وجهه في مكان ما، وأخيراً، وبعد لَأْيٍ وعناء، وفي الرابع عشر من فبراير من عام 1630، وصل المرسوم الإمبراطوري: تقدموا نحو العاصمة بالسرعة الممكنة. وقد كانت مفارز قوات المانشو قد بدأت تحركاتها المشبوهة في المناطق المجاورة للعاصمة، ومن ثَمَّ تم الاحتياج إلى خدمات الأجانب.

على بعد ستة وخمسين كيلو متراً جنوب العاصمة، تقدمت فرقة من المغيرين التابعين للمانشو، وقطعت الطريق على رجال المدفعية

البرتغاليين، وقد كانت تلك مواجهة حدثت عن طريق المصادفة، لكنها كانت إحدى المناسبات التي يحدث أن يؤاتي الحظ الطيب فيها أصحابه بطريقة لا تصدق، وخاصة لذلك الطرف من أطراف الجدل الثقافي الذي كان يدور في الصين والذي كان أصحابه يؤيدون استخدام التكنولوجيا الأوروبية. لقد تراجع رجال المدفعية البرتغاليون وانسحبوا إلى مدينة «زوزاي Zhuozhai المجاورة ووضعوا ثمانية من مدافعها فوق سور المدينة. لم تلحق النيران التي أطلقها أحد المدافع أضراراً بالغة بالمهاجمين، لكن أثره كان كافياً لإجبار فرقة المانشو بالرحيل. هنا لم تنشب معركة حقيقية، ولم يُحْرَزْ نصر حقيقي مع ذلك فقد كان ذلك كلُّ ما يحتاج إليه مؤيدو تلك الحملة في البلاط الإمبراطوري كي يدفعوا بعيداً مبعدين بكلِّ قوة، كلَّ تلك الاعتراضات الخاصة بمناوئيهم من أمثال «لو جاو لونج».

بمجرد وصول تايكيسيرا وروديجو إلى العاصمة، أدركا أن تلك المفرزة العسكرية التي يقودانها، صغيرة العدد جداً بقدر لا تستطيع معه أن تحدث فرقاً في الحملة الكبيرة الموجهة ضد شعب المانشو، حيث ستكون هناك فرصة ضئيلة متاحة أمام أربعة من جنود المدفعية في تحويل اتجاه المواجهة الصعبة مع قوات المانشو، هؤلاء الذين كانوا يتسمون بوجودهم تحت إمرة قيادات ممتازة، وكذلك بالكفاءة السريعة في نشر قواتهم، فضلاً عن الكفاءة العالية لرجال المدفعية الصينيين الذين يعملون إلى جانبهم، وقد قرر البرتغاليون أن يفيدوا من تلك الزيادة المفاجئة التي رفعت من قدرتهم بأن اقترحوا ضرورة تجنيد ثلاثمائة جندي آخر

من الفرسان راكبي الخيول من «ماكاو»، وربما، وقد يكون هذا هو الأكثر احتمالاً، كان مساعد وزير الحرب هو الذي أوحى إليهم بهذا الاقتراح، أو دفعهم إليه، وكان مساعد الوزير ذاك هو تسو قوانجاي Xu guangai، والذي تصادف أن كان هو المسؤول نفسه الذي كان في مقدمة من تقدموا أولاً بطلب المساعدة العسكرية من جانب البرتغاليين، وهو ذلك الأمر الذي يعود إلى عام 1620، كما أنه كتب «للجالس على العرش» في 4 مارس من عام 1630 يقول شارحاً إن المدفع الأوروبي يطلق النار بكفاءة أعلى من المدفع الصيني، وإنهم يستخدمون لأجله باروداً أكثر قابلية للاشتعال. وإن جهاز التسديد الذي فيه يجعله مدفعاً أكثر دقة. وبعد مداولات عدة، طلب الإمبراطور من وزير المراسم لديه أن يقدم اقتراحاً محدداً يتعلق بتلك الترتيبات، وخلال ذلك المراسم، ومن خلال موقعه الجدديد هذا، قدم «تسو» اقتراحاً رسمياً للإمبراطور في الخامس من يونيو بأن يرسل رودريجو مرة أخرى إلى ماكاو كي يقدم طلباً بزيادة عدد المدافع، وتجنيد عدد أكبر من رجال المدفعية، وأن يحضر أكبر عدد ممكن منهم إلى بيجين من أجل جعل قوات «المنغ» الموجودة على الحدود أكثر صلابة، وخلال الشهر نفسه وصلت شخصية بارزة إلى العاصمة، وكان هو «جياكومو رو»، وليس غيره، عالم الرياضيات الجزويتي الذي أنقذ «ماكاو»، وقد وصل إلى هناك بدعوة من نائب وزير الحرب نفسه.

وقد كان رجال الجيزويت يعرفون تسو قوانجاي أفضل عن طريق اسمه الذي تم تعميده به، وقد كان هذا الاسم في حالة تسو قوانجاي،

هو باولوتسو، وقد كان الأعلى مرتبة بين رجال البلاط الإمبراطوري الذين تحولوا إلى المسيحية، ومثله مثل «لو جاو لونج»، كان «باولوتسو» من عائلة ساحلية، ولكنها كانت تعيش في منطقة أبعد على ذلك الساحل، هي شانغهاي، حيث كانت التهديدات البحرية هناك تأتي من اليابان لا من أوروبا، ولم يحدث أن تعكِّر صفو السلام الخاص بشانغهاي بواسطة أجانب ماكاو (البرتغاليين) أو ذوي الشعر الأحمر (الهولنديين)، لقد كانت تقع هناك في الشمال بعيدة جداً عن تلك المنطقة الساحلية التي يقومون بالتجارة فيها، ومع ذلك، فخلال سلسلة من المواجهات التي نظمت بحيث تبدو وكأنها حدثت مصادفة، لكنها التي تم الحث عليها، بواسطة الفضول القوي لـ «تسو» ذلك الرجل الذي كان من مواطني شانغهاي الأصليين، والذي حدث أن عرف كثير من الأوروبيين مسيرة حياته، وقد كان الأوروبيون الذين عرفهم – على كلِّ حال – ليسوا من تجار ماكاو، ولا من القراصنة الهولنديين، لقد كانوا مبشرين تابعين لطائفة الجيزويت؛ ينتمون إلى أماكن كثيرة في أوروبا، وقد جلبوا معهم من هناك تلك المعرفة التي أدرك «تسو» أنها قد تكون ذات قيمة ضخمة بالنسبة إلى الصين.

كان أتباع طائفة الجيزويت قد دخلوا إلى الصين عن طريق ماكاو منذ أقل من عقد من الزمن، عندما التقى «تسو» – ذلك الذي كان يكافح من أجل صعود سلم الامتحانات – واحداً منهم في مدينة جنوبية في المقاطعة في عام 1595، ثم حظي بمقابلة ثانية بعد خمس سنوات تالية مع ماتيوريتشي Matheo Ricci، ذلك الجزويتي الإيطالي المتقد الذكاء،

والذي قاد مهمة التبشير التي قام بها الجزويت في الصين حتى موته عام 1610، وخلال المسار الخاص باللقاء الثالث مع هذه الطائفة في عام 1603 تم تعميد تسو، وحصل على الاسم المسيحي: باولو، وقد أصبح تسو رفيقاً وثيق الصلة بأفراد طائفة الجيزويت وخاصة بالمثقف «ريتشي» الضليع بعلم المعادن، وعلم المدفعية وعلم الهيدروليك. (علم السوائل المتحركة) والهندسة، وقد كانت تلك هي الموضوعات التي بدا تواقاً أن يتعلمها وأن يجعلها متوافقة مع الاستخدام الصيني لها، لقد رأى أنه ليس هناك مبرر لقبول بعض فروع ما أصبح يسمى «المعرفة الغربية» وأن يرفض بعضها الآخر.

وقد اعتبر «لوجاو لونغ»، وكان على صواب بدرجة كافية، أن «باولو تسو» هو خصمه الرئيس في ذلك الجدال الذي دار حول استخدام التكنولوجيا الأوروبية في الصين، ولقد كانت الطريقة الوحيدة لجعل الإمبراطور يقف في صفه هي أن يجعل السلطة الكبيرة التي كان يحظى بها تسو تتآكل وتضعف، وقد جعل ذلك النصر الصغير للبرتغاليين في «لو جاو لونج» من مهمته تلك أمراً أصعب، وقد كان عليه أن يتقدم خلال ذلك – على نحو حذر– وقد كانت حجة «لو» الرئيسية هي الأمن القومي «فدعوة هؤلاء الأجانب الموجودين في مكان ناءٍ لا تشكل خطراً على الداخل فقط، بل ستمنحهم أيضاً الفرصة لاكتشاف ضعفنا الخاص، ومن ثَمَّ يصبحون أكثر أَنَفَةً ومعرفة بظروفنا، ويسخرون من مملكتنا المقدسة تلك التي يُعوزها المدافعون عنها». والطريق الوحيد لجعل الأجانب يرهبون الصين على نحو مناسب هو

إبقاؤهم على مسافة كافية بعيداً عنها و« إن مشهد ثلاثمائة مرتزق، بشر من أنماط مختلفة، يَعْدُون بخيولهم بسرعة، ويلوحون مهددين بسيوفهم، ويطلقون السهام، بسرعة، من أقواسهم داخل العاصمة الامبراطورية كان أمراً يثير الاضطراب تماماً بحيث لا يمكن السماح به» إن وضع سيادة الصين في أيدي هؤلاء هو مغامرة مخبولة، وإضافة إلى ذلك فإن تكلفة نقل وإعاشة مثل هذا الحشد كانت مرتفعة جداً، وإنه بهذا الثمن نفسه يمكن للحكومة أن تتحمل النفقات المطلوبة لشراء مئات المدافع.

في النهاية أقام «لو جاو لونغ» التماسه على هجمات موجهة إلى المشاعر لا إلى العقل، وجهها نحو «باولو تسو»، من خلال استهداف النقطة التي كان «تسو» أكثر هشاشة أو عرضة للانجراح فيها، أي مسيحيته «إن أجانب ماكاو يقومون جميعهم بممارسة تعاليم رب السماء». كما كتب متذمراً في القسم الأخير من تواصله الأول مع الإمبراطور حول هذا الشأن: «إن مذهبهم مبهم تماماً بحيث إنهم يستطيعون وبسهولة أن يضللوا الجيل ويبلبلوا عقول الناس» ثم إنه أعطى أمثلة من العبادات المسيحية التي كانت قد ظهرت في أماكن عدة من الصينيين من قبل. هكذا تجاوزت التهمة مجرد الاهتمام بمدى شناعة ما قد يقوم به ثلاثمائة من الجنود البرتغاليين. وهنا يكمن قلق أكثر عمقاً حول أجانب يُلَوِّثون جوهر معتقدات الثقافية الدينية. وقد قال «لو» خلال ذلك، وإن بهدوء هذه المرة، ومن خلال التعبيرات الموحية، إن ديانة أجنبية معينة قد تحمل عقول الصينيين على الميل في اتجاه مضاد للسلطة الخاصة بالسلالة الحاكمة. وإن المذاهب البوذية المؤمنة بالعصر

الألفي السعيد)) قد أصبحت –حديثاً– نشيطة في منطقة العاصمة، وإنها في إحدى المناسبات قد حرضت على الثورة الداخلية. ألا يمكن أن تصل تلك التجمعات الخاصة بالطوائف المسيحية إلى مثل ذلك الأمر؟ بل الأسوأ من هذا أن المسيحيين الصينيين قد تكون لهم صلاتهم السرية مع الأجانب، وهو الأمر الذي يعني وجود صلات سرية مع ((ماكاو))، ومن يعرف ما الذي يمكنه أن تجلبه مثل هذه الصلات لنا؟ ((إنني لا أعرف شيئاً موجوداً في هذا العالم هنا أو هناك، مثل تعاليم ذلك الرب الموجود في السماء))، هكذا صرح ((لو))، مبدياً رغبته في أن يعرف لماذا يجب أن يستمع الإمبراطور إلى شخص ما مثل ((لو))، ذلك الذي فَضَّلَ تلك التعاليم على كتاب أو رسائل كونفوشيوس ((كيف كان ذلك الشخص داهية واسع الحيلة وماكراً في أدائه لكلِّ شيء يستطيعه من أجل أن يضمن يضمن الإبقاء على أجانب ماكاو، ويخطط من أجل احتمالات نجاحاتهم وأرباحهم الطويلة المدى!))

لم تكن مسيحية ((تسو)) نقطة ضعفه الوحيدة، فقد كانت علاقته مع ((ماكاو)) نقطة أخرى، وقد تصاعد القلق المتعلق بهؤلاء الأجانب الذين وصلوا إلى ((ماكاو)) فأصبح يمتد مثل خيط أحمر يتخلل شكاوى كلِّ الصينيين المتذمرين من وجود الأوروبيين في تلك الفترة، وقد كان هذا القلق هو الذي كمن وراء ذلك الاضطهاد الذي حدث للمذهب المسيحي في نان تشنج عام 1616 عندما قام نائب وزير للمراسم مختلف تماماً وهو ((شن كو)) shen que بطرد اثنين من المبشرين وترحيلهما خارج البلاد. هكذا نُقل ((ألفونسو فاجنون)) Alfonso Vagnone و((ألفارو

سيميدو» Alvaro Semedo وأعيدا إلى «ماكاو». ولو استشهدنا بترجمة إنجليزية لرواية «سيميدو» اللاحقة حول هذه الحادثة فإنهما وضعا في «أقفاص ضيقة جداً صنعت من الخشب (كتلك المستخدمة في ذلك الأقليم لنقل الأشخاص المحكوم عليهم بالموت، من مكان إلى آخر) وقد كانت هناك سلاسل حديدية حول أعناقهما، وأصفاد حول معصميهما، وكان شعر رأسيهما يتدلى طويلاً إلى أسفل وقد ارتديا ملابسهما الدينية بطريقة شديدة الغرابة كوصمة مهينة لغريب أو بشر من الهمج المتوحشين» هكذا يقول سيميدو حول نفسه وحول «فاجنون» بأسلوب الشخص الثالث أو ضمير الغائب «وبهذه الطريقة حُمل هذان الأبوان ومن خلال ضجة لا يمكن وصفها، أحدثها هذان الكاهنان من خلال صلصلة سلاسلهما وأغلالهما، وأمامهما كانت هناك ثلاثة ألواح كتابة، وقد كتبت عليها حروف كبيرة تعلق الحكم الذي أصدره الملك، وتحرم أي إنسان هناك من التجارة أو تبادل الحديث معهما، ومصحوبين بمثل تلك الحاشية، خرجا من نانكيم Nankim، وعبر فترة ثلاثين يوماً كانا ينقلان في تلك الأقفاص جنوباً نحو كانتون، ومن هناك طُردا إلى ماكاو مصحوبين بتحذيرات مشددة بضرورة العودة إلى أوروبا وعدم الرجوع مرة أخرى إلى الصين.

وقد كان «باولو تسو» هو الصوت الوحيد الذي دافع عن عودة هذين الراهبين من الجيزويت في عام 1616، هذا مع أنه قد حذر مبشراً آخر بعد ذلك بضرورة أن يتخذ الجيزويت سبيل الحذر من أجل أن يخفوا صلاتهم مع ماكاو «إن جميع من في الصين يخشون البرتغاليين» —

كما أكد لاحقاً – وإن «ماكاو» هي المكان الذي يتمحور حوله قلقهم، وقد كان المسؤولون الرسميون الأكثر شعوراً بالعداوة تجاه البرتغاليين يعتبرون «ماكاو» ليست مجرد مركز تجاري بريء، لكنها قاعدة يدير من خلالها البرتغاليون شبكة من العملاء داخل الصين كي يثيروا بواسطتهم الاضطرابات الدينية، ويقوموا بالتهريب للسلع وعمليات التجسس أيضاً، وقد كان ينظر إلى المبشرين، هكذا، على أنهم الجواسيس العملاء لتلك القاعدة، ولعل هذا هو السبب الذي جعل «شن كوي» shen Que يتهم «سيميدو» و«فاجنون» بأنهما كانا «مخلب القط في يد الفرنجة»، وقد تزامن صدور تقرير خاص من وزارة المراسم (أو الحقوق) في نانجنج Nanjing مع تلك الأحداث.

لقد كانت «ماكاو» هي القاعدة التي يسافر أفراد طائفة «الجيزويت» منها وإليها، وقد كانت هي أيضاً الميناء الذي يوفر لهم مروراً إلى أي مكان في العالم، كما كانت هي أيضاً القناة المركزية التي تتلقى منها الوزارة التي تعاطفت مع «فاجنون» ستمائة أوقية من الفضة سنوياً لتوزيعها على الإرساليات الدينية التبشيرية في الصين (ثم عَدَّلت الوزارة ذلك المبلغ بعد ذلك وخفضته إلى مائة وعشرين أوقية فقط).

وكما لاحظت إدارة الرقابة في نان تشنج، بعد ثلاثة أشهر من تلك الأحداث، فإن «ماكاو» لم تكن مجرد قاعدة للأجانب، بل قاعدة يخرق من خلالها البرتغاليون قوانين السيادة الصينية، وقد جعلت ديانتهم من «ماكاو المأوى لها والعش الخاص بها» وقد أدرك الجيزويت أخيراً إمكانية تعرضهم للخطر بسبب علاقتهم مع «ماكاو» هذا مع أنهم لم

يكونوا ليستطيعوا القيام بما قاموا به، دون تلك المستعمرة. لقد كانت شيئاً جوهرياً بالنسبة إلى العملية الكلية التي قاموا بها في الصين، ومن ثَمَّ فإن التخلي عنها كان معناه إضاعة الفرصة المتاحة الخاصة بالدعم التنظيمي والمالي منها لهم، والذي يجعل مهمة الإرسالية – هناك – تمضي في طريقها.

وقد كان «باولو تسو» يلح على ضرورة وضع رسم خط فاصل يميز بين ذوي الشعر الأحمر (الهولنديين) وأجانب «ماكاو» (البرتغاليين)، تماماً مثلما أعلمه أصدقاؤه الجيزويت بضرورة أن يفعل ذلك، لقد كان أجانب «ماكاو» يساندون إرساليتهم ويزودونها بالقاعدة التي كان ممكناً من خلالها أن يرسلوا مبشريهم إلى داخل الصين.

لو استولى الهولنديون على «ماكاو» من يد البرتغاليين، فإن مهمة الجيزويت في الصين ستصل إلى نهايتها المحتومة. هكذا كان لا بد أن يكون أصدقاؤهم وأعداؤهم هم أصدقاء «باولو تسو» وأعداؤه، ولم يكن «لو جاو لونغ» يعتقد في وجود أي جانب يمكن الوثوق بهم، سواء أكانوا من البرتغاليين أم الهولنديين. «لقد جمع المسؤول عن «المراسم» تسو الحجج التي سمعها وحوّلها إلى مذكرة تثرثر بآلاف الكلمات وتلغو». هكذا قال لو متذمراً: «إن جوهر تلك المذكرة هو المحاجة والجدال بأنه ينبغي التمييز بين ذوي الشعر الأحمر وبين أجانب «ماكاو»، على أساس أن الفئة الأولى تتسم بالطاعة للأوامر، في حين تتسم الثانية بالمقاومة وعدم الإذعان». وقد أراد «تسو» أن يقوم بهذا التمييز الفاصل بينهما من أجل أن يدافع عن علاقاته بالجيزويت ضد

التهمة القائلة إنه ليس هناك من فرق بين الكهنة البرتغاليين والقراصنة الهولنديين، وهو الأمر الذي لم يكن «لو» يملك دليلاً عليه.

لقد فهم الجيزويت جيداً مدى الأهمية الحيوية لعلاقتهم مع «ماكاو» في نجاح مهمتهم، ففي عام 1633، وبعد عام من عودة جوا رودريجو إلى ماكاو من مهمته المحددة مع رجال المدفعية البرتغاليين، أرسل خطاباً إلى رئيس جمعيته في أوروبا(3) وفي خطابه هذا أكد رودريجو – على نحو واضح – ضرورة الحاجة إلى حماية تلك المستعمرة وسمعتها؛ «وذلك لأنه على هذا تعتمد تلك التجارة الشديدة الحيوية بالنسبة إلى الهندين الخاصتين بجلالته (الهند الشرقية والهند الغربية)، ويقصد الخطاب هنا ما كان يمتلكه البرتغاليون ويسيطرون عليه في تلك المنطقة التي توجد فيها البرازيل الآن) وكذلك بالنسبة إلى مهمة تحويل الصين واليابان وكوتشينشاينا Cochinchina (4) وتونكين Tonkin (5) والأقطار الأخرى إلى ديننا المقدس «لقد كانت «ماكاو» القلب الاستراتيجي والمالي للمشروع الجيزويتي في الشرق. وتردد لغة رودريجو على نحو يتسم بالغرابة أصداء تقرير أصدرته وزارة المراسم في «نانجنج» قالت فيه: «تمثل مدينة ماكاو هذه المدخل الضيق الذي يدخل من خلاله الرعايا وكذلك كلَّ تلك المؤن الضرورية لتلك الجماهير الغفيرة، وكذلك كلَّ من يرغبون في صيانة معداتهم يدخلون إلى تلك الأقاليم».

لو كان خطاب ردودريجو قد وقع في أيدي «لو جاو لونج»، فإنه كان سيقوي شكوكه حول كون «ماكاو» هي رأس الجسر الساحلي الذي يقوم من خلاله الأجانب بالنفاذ إلى الصين. وكذلك، لو أنه علم

أن هذين الكاهنين اللَّذين نُقلا إلى خارج الصين في قفص عام 1617 قد عادا إلى داخلها في ثلاثينيات القرن، وأنهما بذلك قد تحديا القوانين الصينية، وقاما بتحويل الناس إلى عقيدتهم المحاطة بالشكوك، لو أنه قد علم ذلك لتأكدت مخاوفه فيما يتعلق بما تمثله «ماكاو» من تهديد واضح لسلطة السلالة الحاكمة في الصين.

لقد كان الوضع الخاص بـ«ماكاو» بوصفها دار المقاصة (أو إعداد الحسابات) المالية بالنسبة إلى إرسالية الجيزيت التي بعثت داخل الصين، كان هو نفسه المبرر الذي جعل لاس كورتيس المؤرخ الجيزويتي للأحداث الخاصة بالسفينة «جويّا»– وفقاً لتسلسلها الزمني– وهو في طريقه من مانيلا إلى ماكاو عندما تحطمت سفينته. ووفقاً لما جاء في مذكراته قال إنه كان لديه عمل تجاري كان ينبغي أن يتعامل فيه في «ماكاو»، ولم يكشف عن شيء آخر إضافي. وعندما وصل أخيراً إلى ماكاو لم يقم بالتعامل التجاري إلا مع «جواروودريجو» ولم يقل «لاس كورتيس» شيئاً كان يشتمل عليه ذلك التعامل التجاري بينهما، ولكن، وبعد شهرين، كان على متن تلك السفينة التالية العائدة من مانيلا وفي رحلة عودته، لحق سوء الحظ مرة أخرى بـ «لاس كورتيس»؛ وذلك لأنه أبحر خلال عاصفة قوية، فمن بين السفن الخمس التي تكونت منها تلك القافلة، لم تصل سوى أربع سفن فقط إلى مانيلا. وفي مذكراته، عَبَّر لاس كورتيس عن همه وحزنه الكبيرين بسبب فقدان الشحنة التي كانت على تلك السفينة، والتي كانت تحتوي – كما ذكر – على حرير صيني تم شراؤه في ماكاو بما قيمته ثلاثمائة ألف بيزو، وأقمشة

مقصبة فاخرة مُطَرَّزة بالذهب أو الفضة، وقماش وشاش رقيق شفاف مزين بريش الطيور، تتوسطه صفوف من الألوان المذهلة التي تخطف الأبصار، وقد كانت تلك المنسوجات من نوع لا يمكن لأي أوروبي أن يقوم بنسجه أو حياكته أو حتى بشرائه في أي مكان هناك، لكن «لاس كورتيس» لم يكن مهتماً بجمال ذلك الحرير، بل كان مهتماً بما يستحقه من قيمة مالية.

هكذا كتب عن تلك الشحنة المفقودة «لو أدخل المرء في حساباته ما يمكن أن يحدث من ارتفاع في السعر لو بيع في مانيلا» فإنه ينبغي له – دون شك – أن يضيف مائتي ألف بيزو إلى قيمة الشراء» ولو كان ذلك هو البند الجوهري الآخر الذي كان يمكن أن يدخل في حسابه خلال مغامرته السنوية في الصين، فإن هذه العملية الحسابية لا بد أن تلفت الأنظار إليها، وقد تكشف تلك الشحنة المفقودة عن غرض لاس كورتيس الخاص من الذهاب إلى ماكاو، وهو: أن يشتري الحرير الصيني الذي يستطيع أفراد طائفة الجيزويت بعد ذلك أن يبيعوه ويستفيدوا من أرباحه في مانيلا، وهي عملية مولدة للأرباح قد تسبق عملية تمويل مهمتهم التبشيرية في الفيلبين.

وربما يخبرنا ذلك أيضاً أنه كان يجلب شحنة أو حمولة من الفضة كي يشتري بها ذلك الحرير عندما يعبر على ظهر السفينة جَويّا، إلى «ماكاو»، ولو كان الحرير المفقود من ممتلكات الجيزويت فإن مهمة «لاس كورتيس» تلك إلى ماكاو قد مثلت خسارة فادحة في الاتجاهين كليهما.

لقد كانت نتائج عدم إكمال تلك السفينة لرحلتها وجنوحها على

شاطئ الصين كبيرة لهؤلاء البشر الذين كانوا على متنها، وكذلك لأصحاب الشحنة التي كانت تحملها.. وقد مرت سنة كاملة قبل أن يتلقى ركاب تلك السفينة وطاقمها حكماً نهائياً خاصاً بهم في كانتون، وقد كانت المشاورات تجري معهم بواسطة مفوض، أو مندوب المراقبة في الإقليم، والذي كان يتبوأ منصباً يجمع بين مسؤوليات النائب العام ومحافظ المقاطعة. ولم يسجل لاس كورتيس اسم ذلك المفوض العام، ولكنه ربما كان هو: بان رونمين Pan Rumin.

وقد كان بان رونمين قد صعد تواً، منذ وقت قريب، إلى منصب مفوّض المراقبة في عام 1625. ولكن، وخلال أشهر قليلة، كان سيترك ذلك المنصب كي يحظى بترقية في مكان آخر، ولكن ربما كان الأكثر احتمالاً أن يبقى في كانتون بعد أن ظهرت قضية السفينة «جويّا». وما هو معروف عن «بان» قليل، لا شيء غير أنه كان ينتمي إلى مقاطعة قويتشو Guizhou، وهي منطقة عميقة موجودة في الداخل جنوب غرب الصين، وهي منطقة قبلية كان عدد قليل من سكانها فقط هم الذين حصلوا على التعليم الضروري كي يصبحوا من الموظفين الرسميين، كما كان الأجانب الوحيدون الموجودون هناك هم من تلك الشعوب القبلية التي تعيش في الجبال.

وربما كان «لاس كورتيس» أول أجنبي فعلاً يتعامل «بان» معه. وقد شعر الجيزويت أن وجود هؤلاء الغرباء قد أثار فضول «بان» واهتمامه، وأنه كان يلاحظ بدقة كلَّ التفاصيل، وقد كان يبدو – حقيقة – مهتماً بأن يعرف الكثير حول هؤلاء الأجانب أكثر من اهتمامه بمواصلة التحقيق

في هذه القضية.

وقد بدأ «بان» بالفحص الدقيق وإمعان النظر في حطام السفينة، وقد وصل في ذلك إلى حدِّ أنه فحص بطون الأقدام العارية لركاب السفينة كي يتأكد ما إذا كانوا قد أجبروا على المشي أو لا. وفي الحال أصبح واضحاً له – على نحو كبير – أن هؤلاء الأجانب قد قَاسَوا الويلات على يد ضباطه. وهكذا استدعى الآمر أو قائد الوحدة العسكرية من «جنج شي» وأخضعه للتحقيق. وقد ظل ذلك القائد يردد القصة نفسها دون تغيير، والتي قام بسردها في تشاو تشاي: هؤلاء كانوا «ذوي شعور حمراء»، و«قراصنة أقزام»، وليسوا هم التجار الأبرياء من مانيلا وماكاو كما يزعمون، وإن رجاله قد اعتقلوهم نتيجة لذلك، وربما عانى بعضهم بعض الإصابات، لكن تلك الإصابات قد حدثت فقط في ذلك اليوم الذي تحطمت فيه السفينة، وذلك قبل أن يوضعوا في الحجز أو مركز الاعتقال، وإنه ليس مسؤولاً عن حالتهم هذه، وقد ألح ذلك الضابط على ذلك المفوض بضرورة أن يركز على القضية الجوهرية، والتي كان مفادها أن ركاب السفينة المحطمة كانوا من الأجانب، وأن اليابانيين كانوا من بينهم، وأنهم بذلك قد دخلوا إلى الإقليم بشكل غير قانوني.

ووفقاً لرواية لاس كورتيس التي وصف فيها اليوم الذي أمضوه داخل قاعة المحكمة، فإن المفوّض العام، «بان»، قد أراد أن يعرف ما إذا كانت هناك أية شحنة من السلع قد جاءت مع هؤلاء الجانب إلى الشاطئ، وأنه إذا كان الأمر كذلك، فإن تلك الممتلكات ينبغي التعامل معها على أنها سلع مهربة محظورة قانوناً، وأن أي صيني يتعامل مع هذه

السلع سيتهم بالتهريب ويحكم عليه. وبوصفه صديقاً لـ«جاولونغ» فإن القاضي «بان» أشار إلى قضية أخرى كانت تشتمل على تجارة غير مشروعة بين جنود من كانتون وتجار هولنديين، «وأن هؤلاء الذين كانوا على متون السفن الأجنبية لم يكن يسمح لهم بإحضار السلع إلى الشاطئ، كما أن هؤلاء الموجودين على الشاطئ لم يكن يسمح لهم بالذهاب لركوب القوارب والذهاب إلى هناك لاستقبال تلك السلع». وقد أصر الضابط الآمر في «جنج شي» على أن هؤلاء الناجين قد وصلوا إلى الشاطئ لا يحملون شيئاً معهم، سوى ملابسهم التي كانوا يرتدونها، وأن «جويّا» لم تكن تحمل أية فضة -كما أصر- وأنه لا أحد تحت إمرته قد أخذ شيئاً من هؤلاء الأجانب.

وقد كان «بان» يتمتع بخبرة قضائية كافية تُمكِّنه من أن يعرف أن هذا الذي يقوله ذلك الضابط ربما كان لغواً فارغاً بلا معنى، لكنه كان يفتقد الشواهد الكافية التي تدله على العكس، ومن ثَمَّ فإنه كفَّ عن محاولاته لاستخلاص الحقيقة من مرؤوسيه التابعين له.

«هكذا تحول المفوّض العام «بان» ناحية «لاس كورتيس» وطرح عليه سلسلة من الأسئلة المصوغة جيداً، والتي صممت من أجل الفوز بالحقيقة منه، ولأنه كان يثق بـ«لاس كورتيس» أكثر من ثقته بضباطه، فإنه توصل -على نحو محدد- إلى أن هؤلاء الناس قد أسيئت معاملتهم فعلاً، وأن السفينة كانت تحمل شحنة من الفضة فعلاً، وأن أصحابها قد منعوا من استردادها، وأن بعض تلك الشحنة قد أُنقِذَ واستُخرِجَ، بعد ذلك، من حمولتها الغارقة.

لقد كان «بان» «يتوقع الكثير، لكنه، ولأنه كان يعرف أن ذلك الضابط الآمر لن يقدم إليه أي شاهد يدل على أن تلك الفضة قد تم الاستيلاء عليها فعلاً، فإنه لم يكن يستطيع القيام بأي شيء. لقد تحول ناحية عمليات قطع الرؤوس والتي كانت الشواهد عليها تلك الرؤوس المقطوعة لـ «جانبتي» والآخرين غيره، والتي كانت تجثم مستقرة في صف من السلال في قاعة المحكمة.

«هل رأيت أي شخص من «جينغهاي» يقتل هؤلاء الناس الذين توجد رؤوسهم معروضة أمام هيئة المحكمة؟»

«في الحقيقة» – صرح لاس كورتيس – لقد رأيناهم يقطعون رؤوس سبعة أفراد من ناسنا، لكني لا أستطيع القول بشكل محدد ما إذا كانوا قد قطعوها وهم لا يزالون على قيد الحياة، أو أنهم قطعوها بعد أن كانوا قد ماتوا فعلاً أو أن ذلك الموت حدث نتيجة الغرق أو بسبب عرضهم في الشمس، أو تلك إصابات عانوها خلال تحطم السفينة».

لقد كان المفوّض «بان» يحاول أن يصل إلى حقيقة ما إذا كان أي من هؤلاء الجانب قد مات على أيدي الصينيين أو لا، أما «لاس كورتيس» فقد اختار أن يراوغ. لقد كان يشك في إمكانية الوصول إلى شيء ما – من خلال توجيه تهم القتل إليهم غير تأخير عملية رحيلهم. ويبدو أن «بان» قد فهم شهادة «لاس كورتيس» في ضوء ما أضمره داخلها من نياته. هكذا حدث نوع من الاتفاق على التراخي والحل الوسط من أجل إغلاق القضية والسماح لكلِّ فرد بالعودة إلى بلده. ولأنه لم يكن لديه من أدلة سوى تلك الرؤوس المقطوعة الصامتة، فإنه رفض النظر في

تهمة القتل وأسقطها من خلال ملاحظة مبتذلة تقول «نحن لا يمكننا أن نعيد بأنفسنا الموتى إلى الحياة».

وقد كان ينبغي معالجة مشكلة الفضة المفقودة بالطريقة نفسها. فقد كان معروفاً أن السفن الأجنبية حملت معها ما مقداره عشرة آلاف أوقية من الفضة، كما ذكر القاضي «بان» في قضية أخرى، لكنه لم يذكر عملية فقدان والحصول على أية أوقية منها من أي جانب، وقد كان على «بان» نتيجة لذلك أن يصرف النظر ويسقط هذه المسألة أيضاً من دائرة اهتماماته، وكما أعلن في حكمه النهائي «أما فيما يتعلق بالفضة التي كانت السفينة تحملها، فدعنا نفترض أنها فُقِدَتْ في البحر.. وذلك لأنه لا يمكن تحديد أي شيء حول عملية استعادتها» فقد رفض «بان» كذلك أن يأمر بتعويضات للأجانب عما فقدوه، مضيفاً إلى ذلك ملاحظته أن «ليس من غير المحتمل أن يكون مثل هذا العدد القليل من الأوروبيين كان يمتلك أية كمية كبيرة من الفضة» وتفترض مثل تلك الملاحظة أن الفضة المستخدمة في التجارة كانت ملكية لأفراد وليست لمؤسسات تجارة كبيرة» لقد كان ذلك يمثل إما نوعاً من المراوغة الغريبة، أي نوعاً من المبرر لتجنب القيام بأي شيء، أو أنه كان علامة على افتقار «بان» للمعرفة المناسبة حول التجارة الخارجية.

هل كان «القوميسير» المفوّض «بان» ساذجاً مغفلاً؟ لا أعتقد ذلك. فمن خلال ما ذكره «لاس كورتيس» في روايته، فإنه كان يعرف تماماً كلَّ ما كان يحدث، كما أنه كان يفهم بوضوح حدود سلطاته الخاصة بالتقاضي والسير في إجراءات المحاكمة عندما لا يكون هناك أي

دليل تم تقديمه على مشهد خاص بجريمة حدثت على مسافة ثلاثمائة وخمسين كيلومتراً بعيداً عنه. وقد كان عليه أن يغلق ما تقدم من أمور وقضايا بنتيجة فحواها أن تلك السفينة المتحطمة قد وصلت إلى الصين من خلال بَلية لحقت بها وليس عن طريق القصد، وأنها لم تكن مشتركة في أعمال القرصنة، وأن من كانوا على متنها ينبغي السماح لهم بالعودة إلى «ماكاو». هكذا أسقِطَت التهم كلُّها.

كان «العالم بالجغرافيا» الهادئ لدى فيرمير موجوداً هناك، في عالم بعيد، مادياً وعقلياً، عن حجج «القوميسير» «بان» الجدلية، تلك التي كان يطرحها في قاعة المحكمة. لم يكن ذلك العالم بالجغرافيا قروياً ساحلياً يهدده القراصنة، ولا كان في حاجة إلى أن يخشى المحيط؛ وذلك لأن مواطنيه وأبناء بلده كانوا يتحكمون في تلك الأمور بطريقة أو بأخرى، كما أنه لم يكن لديه اهتمام بتلك الأرباح التي كان تجار شركة الهند الشرقية الهولندية يحققونها من خلال سفرهم أو ارتحالهم عبر البحار، إن ما كان يهمه أكثر هو تلك المعلومات التي كانوا يجلبونها معهم عند عودتهم: وهي معلومات كان سيقوم بجمعها وتحليلها وتركيبها وتحويلها إلى مخططات بيانية وخرائط، يمكن أن يأخذها التجار معهم خلال عودتهم إلى العالم الأوسع الذي أصبح فهمه ممكناً الآن على نحو أفضل، وإذا كانت المعرفة المفيدة المتاحة غير كافية للوفاء بغرض ما، فإن معرفة جديدة سَتُجمَع وتُدمَج في تلك المعرفة المتاحة من قبل. وقد كانت مهمة العالم بالجغرافيا في القرن السابع عشر متمثلة في أن ينهمك بشكل نشيط في هذه الدائرة التي لا نهاية لها من التغذية الراجعة

الخاصة بالمعلومات المتاحة، وتصحيحها في ضوء المعلومات الجديدة، وهذا بالضبط ما سعى «هونديوس» من أجل الوصول إليه في ذلك الإطار المزخرف الذي نجده مرسوماً بجوار قوس خريطة العالم الجغرافية الموجودة في لوحة فيرمير، أعلى رأس ذلك العالم بالجغرافيا. فهل كان هؤلاء الذين يصعدون السفن وينزلون منها كلَّ يوم «في حملاتهم المتكررة تماماً، «يذهبون» كلَّ يوم إلى بقاع العالم نفسها»، هل كانوا يذكرون عن رضا تلك المواضع عندما يعودون إلى العالم بالجغرافيا، حتى يستطيع أن ينتج نسخة جديدة ستعمل على تحسين أداء الشخص الذي يقف أمامها؟

ومن خلال هذا النوع من آليات التغذية الراجعة أو المردود Feedback (والذي اشتمل على قدر كبير من الاستعارة الكثيفة، وربما حتى الانتحال من أعمال الآخرين) كان علماء الجغرافيا الأوروبيون ينقحون خرائطهم على نحو مستمر خلال القرن السابع عشر. فلقد حلّت المعرفة الجديدة محلَّ المعرفة القديمة، ثم كان يتم استبدال المعلومات الأكثر جدية، والتي يُؤمل أن تكون أفضل، بتلك المعرفة التي كانت من قبل جديدة، ولم تكن تلك العملية تامة دائماً، إذ تظهر كثير من خرائط أمريكا الشمالية وجود قناة للنقل عبر القارات، وبعد فترة طويلة من ذلك الوقت الذي كان فيه نوع من الأمل يداخل النفوس بأن واحدة من مثل هذه القنوات قد توجد فعلاً.

ومع ذلك، فإن الأثر التراكمي لكلِّ ذلك كان هو التصحيح، وإضافة التفاصيل، وهكذا، تدريجياً، حتى اكتملت خريطة العالم.

وقد كانت هناك مساحات قليلة خالية تقاوم بعناد عملية جمع المعرفة الخاصة بها كالداخل الإفريقي، ووسط المحيط الباسفيكي أو الهادي والطرف الشمالي من أمريكا الشمالية، والقطبان الشمالي والجنوبي، وقد ارتفع المستكشفون إلى مستوى تلك التحديات الخاصة من أجل ملء تلك الفراغات أو المساحات بالتفاصيل؛ من أجل الرغبة ببساطة في القيام بذلك، وليس لأن أحداً كان يحتاج إلى مثل تلك المعرفة، وقد كان ما احتاج إليه التجار هو تلك المعلومات الدقيقة حول الطرق التي ينبغي أن تسافر سفنهم عبرها؛ وذلك من أجل التقليل من احتمالات تحطم تلك السفن، وكذلك من أجل زيادة السرعة التي تذهب من خلالها تلك السفن عبر تلك الطرق وتعود، ومن ثَمَّ فإنهم قد يمكنهم عن طريق ذلك العمل على زيادة رؤوس أموالهم. وهذه على كلِّ حال، ليست القصة التي يحكيها العالم بالجغرافيا لدى فيرمير. لقد اتخذ ليفنهويك في اللوحة وضع رجل العلم لا وضع رجل التجارة والعمال، ومع ذلك فإنه دون باحثين أمثاله يكرسون طاقاتهم من أجل مراكمة المعرفة المفيدة، لم يكن لهؤلاء التجار أن يحصلوا على خرائطهم. لقد كان هذان الدافعان – المعرفة والكسب المادي – يعملان، جنباً إلى جنب، معاً.

أما علماء الجغرافيا الصينيون فكانوا في موقف مختلف، فلم تكن هناك آلية للتغذية الراجعة أو المردود في تلك العملية الخاصة بهم، كما أن القوة الدافعة لتغيير ما استقر من أمور كانت قوة ضعيفة، وحتى لو كانت المعرفة بالمناطق التي تقع خلف حدودهم قد اكتُسِبَت من البحارة الذين يجوبون السواحل، فإن العلماء الصينيين كانوا يميلون إلى عدم

الاهتمام الكبير بها وقد كان العالم بالجغرافيا «جينغ تساي» استثناء بينهم فهو الذي جعل قضيته المحورية الحديث مع البَحَّارة الذين كانوا يبحرون إلى المياه الواقعة جنوب شرق آسيا عندما كان يكتب مُؤَلَّفَهُ: «investigations of the Eastern and western oceans استقصاءات حول المحيطات الشرقية والغربية»، وكما ذكر في هوامش مقدمة كتابه هذا فإن «كلَّ الأماكن المسجلة في هذا الكتاب هي أماكن ذهبت إليها السفن التجارية فعلاً وقد انتقد جينغ بشدة هؤلاء المؤلفين الذين يكتبون التاريخ من خلال قيامهم ببساطة بتكرار الحقائق القديمة. وإسقاطهم للتطورات الحديثة من دائرة اهتماماتهم، إن مثل هؤلاء الناس يكرسون الجهل ويديمونه بدلاً من أن ينتجوا المعرفة. وقد كان هدفه عوضاً عن ذلك، أن يسجل المعرفة الخاصة بالتطورات الحديثة، وخاصة ما يتعلق منها بالأجانب «الحمر»، وذلك بسبب التأثير الخاص الذي يمتلكونه أو يمارسونه على التجارة البحرية الآن.

لم يكن لذلك الكتاب أيُّ أثر جدير بالتقدير بين هؤلاء الذين كانوا قد سافروا فعلاً، وعلى كلِّ حال فإن أحداً– حتى نكون عادلين– من قراء جينغ لم يعتقد أنه ينبغي أن يكون له مثل هذا الأثر، فالمادة الموجودة في هذا الكتاب، كما كتب الضيف المشارك له الذي كتب مقدمة كتابه «كانت قد اختيرت لتقديم مادة للمؤرخين الخاصين بمعهد آخر، وليس للبحارة والتجار الذين كانوا يعيشون في عهد «جينغ» أو أيامه. إنهم أنفسهم القوم الذين جمع منهم «جينغ» مادته. ولم يكن كتابه من أجل مثل هذه الفئة من القرَّاء، بل من أجل علماء آخرين فضوليين راغبين

في المعرفة، كما كان هو نفسه، ولم يكن لديهم أي أمل في الذهاب إلى الخارج، وأرادوا ببساطة أن يعرفوا معلومات أكثر حول الأراضي التي تقع وراء سواحلهم، لقد عرف «جينغ تساي» أن الصينيين ينبغي لهم أن يتوقعوا ظهور سفن مثل «جويّا» على شواطئ الصين أو حدودها، ولم تكن الفكرة المهيمنة عليه هي أن القراء من ذوي العقول التقليدية قد يمكنهم أن يعرفوا، من خلاله، كيف يمكن التعامل مع تلك السفن التي قد تظهر.

كان ماتيو ريتشي «الجيزويتي» الذي تعاون مع «باولو تسو» والمبشر الأعلى مقاماً ومنزلة في الصين حتى موته عام 1610 يشارك الأوروبيين في توقهم الكبير للوصول إلى المعرفة حول العالم الطبيعي كما أنه افترض أن ذلك سوف يؤثر في الصينيين، ويساعده أيضاً على إثبات حقيقة المسيحية. وهل هناك شكل أكثر وضوحاً من الخرائط كان يمكن أن يعرض من خلاله معرفته الجغرافية الجديدة؟ لقد ظهرت الخرائط الأوروبية في ذلك الوقت بأشكال كثيرة، وقد نسخ ريتشي ونقّح بعض الأمثلة منها، وأضاف أسماء الأماكن وبعض الشروح عليها بالصينية، على أمل أن يلفت الانتباه العقلي للعلماء الذين قابلهم هناك، وقد أحب المشاهدون الصينيون الذين كانوا يعيشون تلك الحقبة الأخيرة من حكم سلالة المنغ تلك الخرائط. ولم تكن الخرائط التجارية التي تُعَلَّق، على نحو ما، على الجدران منتشرة هناك أو مألوفة كما كانت الحال في هولندا، لكنها كانت موجودة وتُعَلَّق، وعندما كان المشاهدون الصينيون يرون مثل تلك الخرائط فإنهم لم يكونوا واثقين من الذي يستطيعون أن يقوموا

به من خلال هذه المعلومات التي تقدم لهم، وذلك بسبب بسيط، هو أن معظمهم كان يفتقر إلى قاعدة الخبرة التي يستطيع من خلالها أن يتفاعل مع صور ريتشي - أو خرائطه - تلك، أما «باولو تسو» فقد ابتهج بخرائط ريتشي كما أنه اقتنع بنظرية الأرض المستديرة، وأعتقد كذلك أن الخرائط يمكنها أن تقوم بتوصيل هذه الفكرة بشكل أكثر قوة مقارنة بالتفسير المكتوب. كذلك نظر اثنان آخران من العلماء الباحثين هناك إلى خرائط ريتشي الأوروبية بجدية؛ وذلك لأنهما وضعاها داخل موسوعتين من الموسوعات الكبيرة الخاصة بتلك الفترة هما: الخلاصة الوافية للصور والكتابات The Compendium of pictures and writings، وأيضاً الصور المجمعة للعوالم الثلاثة The Assembled pictures of the three realms والعوالم الثلاثة هنا هي: السماء، والأرض، والجنس البشري، وقد كان مصنف الموسوعة الأولى يشعر بالبهجة إلى حدِّ أنه ذكر أن هذه الخرائط الجديدة تعني أنه ليس عليك أن تغادر منزلك، ومع ذلك فإنه يمكنك أن تمتلك معرفة كاملة حول العالم - وعلى الرغم من ذلك فإن الخطوة من داخل المنزل إلى خارجه لم تحدث.

وقد كان يمكن لنشر مثل هذه الخرائط في الموسوعات الشعبية أن تبدأ دائرة تغذية راجعة خاصة، تلهم القراء الصينيين للخروج، والخرائط في أيديهم، لاختبار هذه المعرفة، لكن ذلك لم يحدث، ولم تُنَقَّحْ تلك الخرائط بعد ذلك في الطبعات الأخرى، كما حدث في أوروبا، كما أنها لم تقم بالإزاحة بعيداً، والطرد لذلك العلم التقليدي حول أصل

الكون وبنيته العامة وعناصره (الكوزمولوجيا) الذي كان موجوداً هناك، وقد تمثلت المشكلة ببساطة في أنه لم تُتَحْ من قبل لأية مجموعة بحارين صينيين تقريباً الفرصة لاختبار تلك المعرفة وتطويرها. كما لم يقم أيُّ تاجر صيني بالإبحار مُطوِّفاً حول الأرض، ووجد أنها دائرية. وقد كان البشر الوحيدون الذين يجلبون هذه المعلومات حول العالم الأرضي هم الأجانب، أي هؤلاء الذين لم يكن الصينيون يثقون بهم دائماً، وكما لم يكن هناك أيضاً- وفقاً لذلك- أيُّ عالم بالجغرافيا كذلك العالم الذي في صورة فيرمير كان يريد، أو يقدر على أن يؤلف ويدمج بين بيانات لا تنتهي تأتيه من العالم الخارجي، ويقوم كذلك على نحو دائم، بمراجعة وتنقيح قوام المعرفة المفيدة فيها، والتي قد يحتاج إليها شخص آخر غيره.

كان العالم الخارجي بالنسبة إلى الأوروبيين يدخل إلى حياتهم من خلال تلك الأشكال الخاصة بالأفكار والأشياء، تلك التي رأينا بعضها في الغرفة التي كان فيرمير يرسم فيها لوحاته، أما بالنسبة إلى معظم الصينيين، فقد ظل العالم الخارجي خارجياً. وربما قام ذلك العالم بالتسلل خفية إلى عقل «باولو تسو» أو حتى إلى عقل «القوميسير» المفوض «بان»، والذي شعر بوجود شيء ما يمكن أن يتعلمه من هؤلاء الناس الذين قذف بهم العالم الخارجي إلى داخل الحجز أو السجن الخاص به. لكن ما دام قد كان لدى الضابط الآمر في «جنج شي» - وكذلك «لو جاو لونج»- رأيهما الخاص في هذا الأمر، فإن «الخارج» كان هو ما ينبغي أن يظل عنده ذلك العالم الخارجي، بعيداً.

الفصل الخامس

مدرسة التدخين



كان لامبرت فان ميرتن Lambert Van Meerten الأكثر ولعاً، بين أقرانه في دلفت، خلال القرن السابع عشر، بجمع الأشياء الغريبة التي تنتمي إلى بيئات محلية، متنوعة، وقد كان لامبرت الوريث لعائلة كَوَّنت ثروتها من تجارة المشروبات الكحولية، وقد كرَّس حياته وثروته لجمع مجموعة ضخمة من الأشياء الفنية، والتماثيل، والسيراميك، والتحف الغريبة وأي شيء من الحطام المعماري يمكنه أن يلتقطه من المباني التي تخضع للإصلاح والتجديد وقد امتلك أشياء كثيرة بدرجة تفوق ما يمكن أن يتحمله منزل واحد، لكنه كان سعيد الحظ، لأنه كان لديه صديق أكثر ثروة وإدراكاً هو جان شوتن Jan Shouten، وقد حضر لإنقاذه ووافق على أن يساعده، بأن يدفع الثمن لمنزل ضخم يتكون من ثلاثة طوابق، وهو ذلك المنزل الذي يقع الآن في مكان أبعد شمال قناة دلفت وعند ذلك الجانب الذي تقع عنده الآن غرفة دلفت التجارية، وحيث استطاع فان ميرتن أن يخزن كنوزه فيه، وعندما مات، قام شوتن

بتحويل المنزل إلى متحف، وهو لا يزال موجوداً حتى يومنا هذا.

عندما قمتُ بزيارة ذلك المتحف، عثرتُ بالمصادفة على صحن كبير باللونين الأزرق والأبيض، وقد كان موجوداً في خزانة نفائس موجودة في غرفة خلفية في الطابق الأعلى. وقد كان قطر دائرة ذلك الصحن، ثلاثة وأربعين سنتيمتراً، وبداخله رُسِمَ مشهد خاص بحديقة صينية مفعمة بالحركة والنشاط، وقد زخرت «بالبشر الخالدين»،[1] والعلماء الباحثين، والمخلوقات الأسطورية (انظر الصورة رقم 5). لقد كان البرتغاليون أول الأوروبيين الذين حاولوا أن يصنعوا بأيديهم الأطباق التي تبدو صينية، لكن خزَّافي دلفت كانوا أول من نجح في الإنتاج لنسخ مقلدة معقولة من هذه الأطباق، وبالنسبة لذلك الصحن فإنه تم إنجازه بالأسلوب الصيني غير الكامل a faux–Chinese style أو المقلَّد، والخاص بالرسوم الزخرفية التزيينية، وبحاسة تمييز مثيرة للدهشة، لكنه لا يمكن الخلط بينه وبين أي صحن صيني حقيقي؛ فهناك تفاصيل عديدة صغيرة تنمُّ عن أصوله الهولندية، فالكسور الموجودة في حافة ذلك الصحن الخزفي تكشف عن أن الصلصال المستخدم في صنعه كان أوروبياً، كما أن الطلاء المستخدم في تلميعه أو تزجيجه يفتقر إلى تلك الصلابة والاستواء الخاصين بخزف «جينغدتشن» Jingdezhen وقد تمثلت عملية الإفشاء القاتلة غير المقصودة، للخطأ هنا، في تلك الكتابة المنقوشة والمكونة من ثلاثة أحرف والموجودة في منتصف ذلك الصحن على لوحة توحي بأن أحد أتباع «كونفوشيوس» قد صنعه، إنها محاولة شريرة لكتابة الحروف الصينية، فهي لغو تام لا معنى له. وهكذا فإن

هذا الصحن هو نوع من التزييف، على الرغم من أن هذه الجملة تصدر حكماً عليه على نحو شديد القسوة، فلم يكن مقصوداً من هذه الزخرفة الموجودة عليه أن تخدع أحد المشترين. فقد كانت اللمسة الصينية هناك بداخله فقط، وببساطة، من أجل متعة العين وإبهاج الخيال، إنه تزييف بريء بهيج.

والشخصيات المرسومة على صحن «فان ميرتن». هذا، مشغولة على نحو نشط بأداء كلِّ تلك الأشياء التي يتوقع الأوروبيون من الصينيين القيام بها في الصور، مثل العوم – أو الطفو – في السحب، وعبور الجسور، واصطياد طيور الكُركي، ومن بين الأشياء الملتوية وغير المتسقة ذلك المشهد الخاص بأحد هؤلاء البشر (الخالدين)، أصلع الرأس ويمتطي كلباً نمرياً tiger – dog أسطورياً ويقوم بالامتصاص بشراهة للدخان من غليون للتبغ طويل الساق، ولا يوجد دخان ينبعث من فمه أو من غليونه لكن السحب السماوية دوامية الشكل التي يحلق بداخلها هي ما تقف بديلاً عن ذلك الدخان المتصاعد من غليونه. لم يقم أيَّ رسام للبورسلين في الصين من قبل بوضع صورة مدخن على طبق، وفقاً لما رأيته حتى الآن، وليس قبل فترة متأخرة تماماً من القرن الثامن عشر قد كانت هناك حتى رغبة لدى أيِّ فنان صيني في تضمين صورة شخص يدخن في ذخيرة أعماله، ثم إنهم استخدموا تلك الأشكال بعد ذلك فقط في رسومهم التخطيطية وأعمال الحفر على الخشب (كما سنرى مثالاً واضحاً على ذلك في موضع لاحق من هذا الفصل، على أن الممارسات الجديدة تأخذ وقتاً حتى يتم استيعابها ثقافياً، ولم يتم

استيعاب الممارسات الخاصة بالتدخين على نحو جيد بدرجة كافية في مجال الفنون التشكيلية، هناك، قبل القرن العشرين؛ وذلك لأن فن التصوير الصيني هو فن محافظ فيما يتعلق بمثل هذه الأمور الثقافية.

(لم تكن تلك هي القطعة الوحيدة من البورسلين الهولندي التي تصور مدخناً، فقد قام مصورو قطع البلاط في دلفت وعلى مدى عقود زمنية عدة بوضع مدخنين ورسمهم في أعمالهم الخزفية، ولم يكن مصورو البورسلين هم فقط الفنانين الذي صوروا عملية التدخين أو رسموها، فقد كان مصورو دلفت من الفنانين التشكيليين الأخريين يقومون بذلك على قماشات الرسم الخاصة بهم لمدة طويلة أيضاً حيث استخدموا التدخين للدلالة على حب الاختلاط بالآخرين اجتماعياً، وكذلك الميل إلى الشعور بالبهجة والمرح في وجودهم. هكذا كان جان ستين jan steen المصور «المبتهج بصحبته» الذي كان من أهالي دلفت، يستمتع بحشد مشاهدهِ الساخرة بالمدخنين من كلِّ الأعمار[2].

أما المصوران الأكثر تهذيباً بيتر دي هوش Pieter de Hooch وهندريك فان دير بيرش Hendrik van der Burch، فقد وضعا في لوحاتهما غلايين تدخين في أيدي بعض الشخصيات من الذكور، بينما كانت تلك الشخصيات منهمكة في محادثات خاصة، ولم يرسم يوهانس فيرمير أي شخص يدخن، ومن ثَمَّ فإنه لا توجد أية لوحة لدى فيرمير يمكنها أن تمنحنا باباً جاهزاً يمكننا أن نفتحه على ذلك الانتشار الكبير للتبغ حول العالم. لكن ذلك الصحن – والذي يمثل التصوير الأبكر لمدخن صيني بيد فنان أوروبي – يمكن أن يقدم لنا ذلك الباب.

من أين حصل ذلك المصور على الفكرة التي مفادها أن الصيني يدخن؟ فلم يكن ذلك الفنان ينسخ صحناً صينياً أصلاً، وذلك لأنه لم يكن محتملا أن فناناً صينياً قد يضع مشهد التدخين على البورسلين. ولو كان ذلك الفنان يبتكر صورته الخاصة به، فإنها ولابد أن تكون قد جاءت نتيجة لما سمعه عن أن الصينيين يدخنون. لقد جاءت بعض المعلومات الخاصة حول العالم صدفة. وقد كان الأوروبيون معتادين على التدخين في ذلك الوقت، بسبب كونهم قد عَوَّدوا أنفسهم على مسرات التبغ خلال الفترة الأخيرة من القرن السادس عشر، وقد لحق بهم الصينيون، أو كلُّ الآسيويين في هذا الأمر، خلال القرن السابع عشر، وقد قاموا بذلك من تلقاء أنفسهم، دون نخبة ثقافية تدعوها للقيام بذلك، في حقيقة الأمر، ودون أن يلحظ أحد ذلك كان ذلك يحدث، وقد كان ذلك تأثيراً واحداً فقط من تأثيرات الحراك العولمي في القرن السابع عشر، الذي لم يستطع أحد من قَبْلُ التنبؤ به. ولم يكن مقدراً أن يكون تدخين التبغ ذا طبيعة عولمية، لكنه قد كان، إن ذلك المدخن الخالد على صحن دلفت يفتح لنا باباً آخر، ومن خلال ذلك الباب سوف نتلمس طريق عودتنا نحو ذلك العالم كما كان يتشكل خلال القرن السابع عشر.

كانت بيجين هي المدينة التي يذهب إليها الشباب المندرجون في التعليم في الصين من أجل تكوين سمعتهم الطيبة في الحياة، وقد كانت بيجين باردة في الشتاء، مثقلة بالغبار الذي يجيء من بلاد المغول في الربيع، جافة في الصيف، كما أنها تكون ممتعة مبهجة فقط خلال

الخريف، لكنها مع ذلك، كانت موطن الإمبراطور ومركز السلطة، وقد جذبت قاعات امتحاناتها الطموح الخاص لعدد قليل من هؤلاء الطلاب الذين نجحوا في اجتياز نظام الامتحانات هناك، ثم اندرجوا بعد ذلك في خدمة الدولة. لقد كان سلم التقدم أو الارتقاء هناك من الأمور التي يمكن أن يسير المرء خلالها عدواً أو بسرعة، فقد كان على كلِّ مرشح أن يبدأ من عند أسفل سُلَّمُ الترقي الموجود في إقليمه الأصلي، وقد كان عدد قليل جداً من هؤلاء المتسابقين فقط هو من يصل إلى الدرجة الكلية المسماة «دارس موصى عليه» أو «حاز الجدارة» presented Scholar ثم يكون هناك عدد أقل منهم أيضا هم من يجدون أنفسهم قد وصلوا إلى مرحلة الخدمة في البلاط الإمبراطوري. وعندما يكون الطالب من عائلة يكون فيها أحد هؤلاء «الدارسين الموصى عليهم»، فإن هذا يساعده على أن يهيئ نفسه لمحنة صعود ذلك السلم صعب المُرتقى، لكن وجود الأسرة من عدمه لن يشكل فرقاً عندما تذهب إلى غرفتك الصغيرة الخاصة بالامتحانات، ويكون عليك أن تكتب عدة مقالات على مدى ثلاثة أيام، ما لم تكن أسرتك تلك تعرف، بالطبع، أحد المُمْتَحِنِيْنَ وترشوه من أجلك، لكن تلك كانت إهانة كبيرة لأصحابها، ويصعب ترتيبها، فإذا نجحت، فإن كونك من عائلة يحمل أفرادها درجات علمية يعني أنك تمتلك،هناك، مهارات اجتماعية، وصلات سياسية، تمكِّنك من أن تُعَيَّنَ في وظيفة راقية في العاصمة بدلاً من أن تُرسَلَ خارجها إلى المقاطعات وكأحد موظفي الحاكم أو مندوباً عنه هناك، ثم يكون عليك أن تشق طريقك بجدية كي تعود إلى مركز الحكم أو العاصمة، وقد كان صعود

سلم الامتحانات العالي الموصل إلى بكين عملية وعرة مضنية، وكذلك كانت إعادة الصعود ثانية من الوظيفة الخاصة بالمندوب الأقليمي إلى التعيين في العاصمة عملية شاقة ومرهقة على نحو مماثل، ولذلك فإن معظم هؤلاء المندوبين لم يجتازوا بتلك العملية الخاصة بإعادة الصعود مرة أخرى.

كان يانج شايكونج Yang Schionge ينتمي إلى عائلة طيبة، لكنه لم يستطع أن ينجح في امتحانات «الدارس الموصى عليه» حتى عام 1631، عندها كان قد وصل فعلاً إلى الثلاثينيات من عمره، وقد أتاحت له الصلات بعائلته بأن يعوّض ذلك الوقت الضائع. هكذا عُيِّنَ يانج في مكان مثالي في أكاديمية هانلن Hanlin، وقد كانت أشبه بخزان التفكير Think Tank السياسي ووكالة أمانة السر في بيجين للامبراطور تشونغ تشن chonghazen، ثم ارتقى يانج شايكونج وظيفياً حتى وصل إلى منصب نائب «وزير المراسم». ثم حصل بعد ذلك على ذلك المنصب الذي اشتهاه، فإصبح معلماً للوريث الشرعي للعرش عندما وصل الأمير إلى سنِّ الرشد العام 1637، ثم إن يانج شايكونج قد صُعِّدَ إلى منصب المستشار للأمير في أربعينيات القرن السابع عشر. وقد انتحر الإمبراطور عندما استولى المتمردون على بيجين في إبريل عام 1644، وذلك قبل أسابيع قليلة من غزو قبائل المانشو لها وسيطرتهم عليها، وقد أرسل الوريث الشرعي للعرش، والذي كان قد خضع لتأثير طائفة الجيزويت عليه، مناشدةً يائسةً للبابا كي يرسل إليه جيشاً لطرد المانشو من الصين، لكن ما الذي كان يستطيعه البابا بالنسبة لغزو كان يقع هناك بعيداً في

النصف الأخر من العالم؟

لم يكن يانج شخصية استثنائية أو فذة، في تاريخ السلالة الحاكمة في الصين فقد كان واحداً من موظفين عديدين يتنافسون للصعود إلى مستوى نائب الوزير، وليس أعلى من هذا. ولم يكن له ظهور بارز في المؤلفات التاريخية ذات القيمة العالية. لكنه لفت أنظار بعض المؤرخين بسبب ما تجمع لديه من حكايات مفيدة قام تأليفها حول الحياة في العاصمة خلال العقد الأخيره من حكم عائلة المنغ Ming. وقد انتهى من المخطوط المعنون بـ: كتابات مُجَمَّعَة من قاعة اليشم[2] Collected Writings of Jade Hall العام 1643، ولم تكن تلك سنة طيبة لنشر أي كتاب فيها. فقد كان هناك وباء هائل اجتاح شمال الصين في السنة السابقة لتلك السنة، ثم بعدها بسنة اجتاح المتمردون العاصمة وأسقطوا السلالة الحاكمة. ولعل هذا هو السبب في تلك الندرة الكبيرة الخاصة بهذا الكتاب الآن. فلم يكن يانج يعرف أن حكم عائلة المنغ سيسقط وينتهي، لكنه كان يعرف أن المملكة وقعت في براثن الاضطراب وقد كتب كتابه هذا، كما يخبرنا في التوطئة الخاصة به، كي يُذكِّرَ الناس بطبيعة الحياة التي كانت موجودة في العاصمة عندما كانت الأوقات مازالت طيبة.

في مقال ظهر في الجزء الأول من «الكتابات المُجَمَّعَة من قاعة اليشم»، لاحظ يانج أن مواطني بكين في العقد السابق على تاريخ تأليفه لهذا الكتاب، قد مروا بنوعين صغيرين من التغيرات، إنهما تغيران كان

(2) اليشم: نوع من الأحجار الكريمة.

يمكنك أن تراهما «في كلِّ زاوية من كلِّ شارع»، كما صاغ يانج تلك المسألة، وقد كانت تلك علامات تدل على أن الأمور، هناك لم تكن على ما يرام. وقد تمثل أول تغير في أن الباعة الجائلين هناك كانوا يبيعون طيور القطا البرية، ولم تكن تلك الطيور تنتمي، من حيث موطنها، إلى منطقة بيجين، فقد كان موطنها الطبيعي على طول الطرف الشمالي لصحراء جوبي Gobi Desert، ووفقاً لما كانت المعرفة المحلية المكتسبة عن طريق الخبرة تقوله هناك؛ فإن تلك الطيور قد حلَّقت عبر تلك المسافة البعيدة، متجهة نحو الجنوب، فقط عندما اضطرب وجودها في موطنها بفعل تلك المناورات العسكرية التي كانت تدور عند الحدود الشمالية. وقد أخبر بعض الناس يانج أن طيور القطا[3] قد بدأت في الظهور ببيجين العام 1632، وقد كان صيادو الطيور المقدامون يصطادون تلك الطيور، ويبيعونها كي تُطهَى وتُقَدَّمَ في وجبة العشاء. وقد كان من الممكن اعتبار وصول طيور القطا إلى بيجين علامة على حدوث تغير ما في الطقس، وذلك لأن السنة 1632 كانت سنة رطبة، وربما قامت الأمطار بدور ما في دفع تلك الطيور جنوباً، ولكن ظهورها هذا قد تم اعتباره، محلياً، دليلاً شاهداً على اضطراب ما يحدث هناك، عند الحدود الشمالية، حيث كانت جيوش المانشو تحتشد من أجل الغزو. لقد كانت طيور القطا أشبه بمثل يضرب ليدل على ظهور طيور الكناري في منجم فحم، ولم يكن هناك أحد يستطيع أن يقول ذلك فعلاً، وذلك لأن مجرد ذكرك لإمكانية ذلك الغزو كان كافياً كي تُتَّهَمَ بالخيانة بوصفك أحد أفراد الطابور الخامس أو الجواسيس، لكن كلَّ فرد هناك قد فهم أن تلك

كانت هي الاحتمالية المتعلقة بوجود طيور القطا في بيجين.

أما العلامة الثانية التي تجلت في زوايا أو أركان الشوارع هناك، والتي كانت تدل على أن العالم قد عَمَّتْهُ الفوضى، أو انقلب رأساً على عقب، فقد تمثلت في ظهور مدخني التبغ (أو الطباق) في السنة التي ولد فيها يانج عام 1597، ولم يكن هناك أحد في مقاطعة شاندونغ Shandong التي ينتمي إليها، جنوب بكين قد تذوق التبغ من قبل، لقد كان عدد قليل من الصينيين قد فعلوا ذلك هنا وهناك. لقد كانوا هؤلاء مدخنين يعيشون على الساحل الجنوبي الشرقي، وقد بدأت أوراق نبات التبغ تدخل إلى بيجين عندما ظهرت في قائمة مشتريات مكتب الأقليم بداية من العام 1596 (وقد كان سعره ضعف سعر القرفة والكبريت كما كان سعره سبعة أمثال سعر شاي الياسمين). في الوقت نفسه الذي وصل فيه يانج إلى بكين كي يتم امتحانه العام 1631، كان تعاطي «شراب الدخان» Smoke liquor كما كان يُسَمَّى، قد أصبح عملية راسخة تماماً في العاصمة، وقد أرَّخَ «يانج» بداية وصول التبغ إلى الصين وربطها بفترة حكم الإمبراطور تيانكي Tianqi الذي جلس على العرش في عام 1621، ومات بعد ذلك بست سنوات، وكما كتب يانج يقول فإن فلاحي بيجين قد تعهدوا التبغ بالرعاية والعناية «خلال السنوات العشرين الأخيرة».

وقد شعر «يانج» أن عليه أن يُفَسِّرَ سبب وجود هذا النبات الغريب في بيجين، وقد بدأ تفسيره بقوله: إن التدخين كان غير معروف في الصين القديمة، وإنه ليست هناك إشارات إليه في الأعمال الكلاسيكية الصينية،

وإنه، ولابد، قد جاء من الخارج، وإن المدخنين الرئيسين في العاصمة كانوا من الجنود الذين كانوا قد تحركوا شمالاً للدفاع عند الحدود ضد «المانشو»، وقد تشكَّك «يانج» في وجود مصدر جنوبي له، وقد أدَّى تزايد طلب الجنود عليه إلى دفع الفلاحين المحليين إلى تحويل حقولهم إلى مساحات متميزة لزراعة التبغ، وقد كانوا يكسبون من ذلك عشرة أمثال ما كانوا يكسبونه من زراعة الحبوب. وبسبب كلِّ ما كان يقال حول التبغ، بدأ سكان بيجين في التقاط تلك العادة وكلِّ ما يتعلق بها من سلوكيات، وقد لفت هذا التغير في النهاية انتباه الإمبراطور تشونغ تشن Chogzhen وكان غير سعيد لأن الفلاحين كانوا يهجرون زراعة الحبوب ويفضلون زراعة التبغ بدلاً منها، وقد خشي مما قد يؤدي إليه ذلك فيما يتعلق بالمخزون من الحبوب في منطقة العاصمة، ومن ثَمَّ فإنه في عام 1639 أصدر مرسوماً يقول إن أي إنسان يقبض عليه يبيع التبغ في العاصمة سيُقطع رأسه. وقد كان التفسير الرسمي لهذا القرار هو أن التبغ مضيعة للوقت والصحة والمال، ولكن الأهالي، هناك، اعتقدوا أن هذا المنع كان نوعاً من ردة الفعل المبالغ فيها ضد تورية لفظية شائعة وهنا يخبرنا يانج بشيء قد لا يسجله التاريخ.

فالتعبير المعياري الذي كان سائداً ذلك الوقت حول التدخين كان هو chi yan، أي أكل الدخان eating Smoke (التعبير السائد اليوم هو Chou– yan أي امتصاص الدخان Suching Smoke)، وقد جاءت المشكلة نتيجة أن تركيب chi yan (أكل الدخان) كان متجانساً صوتياً مع تركيب آخر، تعني «أكل العاصمة» أو «التهام العاصمة». هكذا كانت

كلمة yan تعني «دخان»، لكن yan التي تكتب بحروف مختلفة كانت هي الاسم القديم لمنطقة بيجين. وهكذا فإن أكل بيجين أو التهامها هو ما كان محاربو المانشو والفلاحون المتمردون يهددون به تماماً في اللحظة نفسها. وهكذا فإنه حتى مجرد الحديث عن التدخين قد يُعد هذا نوعاً من الترويج للشائعات من جانب أفراد الطابور الخامس، ويُقصَد به تدمير السلالة الحاكمة (لو كان يانج قد عرف أن أفراد شعب المانشو كانوا مولعين بالتدخين، قبل أن يلتقط الصينيين الذين يعيشون في الشمال تلك العادة، فإن ذلك كان سيدعم فقط القضية التي كانت مطروحة ضد التدخين).

وصلت أول قضية معروفة لاختبار ذلك التحريم الجديد إلى قاعات محاكم بيجين بعد سنة من فرض ذلك المنع، أي في عام 1640، فقد جاء طالب من مقاطعة «فوجيان» Fugian في الساحل الجنوبي الشرقي إلى بيجين كي يتلقى الامتحانات القومية، وكان معه خادمه الأمين يتبعه مكبلاً في قيوده ويتم جره، وربما أراد ذلك الخادم أن يساعد سيده كي لا يتخطى نفقاته في أثناء وجوده بعيداً عن المنزل، فإنه باع بعض التبغ الذي أحضراه معهما إلى الشمال في الشارع، وقُبِضَ عليه في الحال، وحُكم عليه بشكل فوري بأن يُقطع رأسه ويُفصل عن جسده، وقد أرسل الحكم إلى الإمبراطور تشونغ تشن chongzhen لإعادة النظر فيه. وقد صدق عليه الإمبراطور، مما جعل ذلك الرجل المسكين أول ضحية لذلك القانون الجديد القاسي، وقد كانت تلك العقوبة غير شائعة بدرجة كبيرة بين أهالي بيجين، وقد استغرق الأمر من الحاكم العسكري العام للمنطقة سنتين حتى يرفع ذلك الحظر في أوائل عام 1642، وعندما

عاد يانج إلى العاصمة تلك السنة بعد غياب قصير، كان التبغ يباع بمقدار أعظم مما كان عليه من قبل، كما أن ما كان يُعد في الماضي عادة شاذة في مظهرها، لم يعد ينظر إليه الآن على أنه غريب.

كان الحاكم العام رجلاً ذا حساسية خاصة، ولم يكن الخدم من «فوجيان» يلقون أدنى اهتمام منه، بل فقط كان اهتمامه الأكبر موجهاً إلى الجنود، وقد كان الجنود يحبون أن يدخنوا، وقد كانوا يعتقدون أن التدخين يساعدهم على التخلص من البرد والكآبة أو انقباض الصدر، فلماذا ندمر روحهم المعنوية بأن نأخذ هذا الشيء الواقعي بعيداً عنهم؟ وقد استمرت الشائعة منتشرة تقول إن القصر الحاكم قد فرض هذا التحريم خوفاً من التحريض على الفتنة والعصيان، بيد أن ذلك كلّه كان نتيجة وجود مبررات ما لدى سكان العاصمة للشعور بالتهديد نتيجة لوجود ذلك العدد الكبير من المتمردين، وكذلك احتمالات الغزو، ووجود الوباء. ولسبب كون التبغ أكثر الأشياء الجديدة هناك جدة، فقد كان متضمناً في قلب كلّ تلك التغيرات التي شعر معظم الناس هناك أنهم غير قادرين على مواجهتها. وقد كان الأمر في حقيقته هكذا، ولكن ليس بالطريقة نفسها التي كان يفكر من خلالها سكان بيجين في هذا الأمر. وكي نرى الصورة الأكبر ينبغي أن ننظر إلى العالم الأوسع.

لنفكر ثانيةً في عالم القرن السابع عشر على أنه شبكة إندرا، لكنها هنا شبكة مثل شبكة العنكبوت، شبكة تنمو فتصبح أكبر عبر الزمن، وهي ترسل خيوطاً جديدة منها إلى كلّ عقدة، وتصل نفسها بنقاط جديدة حيثما أمكن الوصول إليها، وهي تربط جانبياً كذلك بين اليسار

واليمين، كما أن كلَّ امتدادات أحد الخيوط نجدها تكرر نفسها مرات كثيرة. وعندما ازدادت كثافة الجديلة المغزولة من هذه الخيوط، أصبحت الشبكة أكثر امتداداً مقارنة بحالتها السابقة، وأصبحت أكثر تشابكاً وتعقيداً، لكنها أصبحت أيضاً أكثر ترابطاً واتصالاً. وهناك العديد من الغزّالين النساجين للخيوط على هذه الشبكة، وهناك مراكز كثيرة أيضاً، كما أن الشبكة التي صنعوها لا تمتد إلى كلِّ الأماكن على نحو متجانس أو متناغم. فهناك أماكن كانت مفضلة أكثر من غيرها، بسبب موقعها، وما كان يُصنَع فيها أو يُجْلَب إليها أيضاً. وقد حاولت مراكز أخرى أن تظل بعيدة عن الشبكة من خلال بنائها للحصون وفرضها للترتيبات المحددة، ذلك كي تعزل نفسها، ومع ذلك فإن الأمر المهم هنا هو أن تلك الشبكة العنكبوتية من العلاقات قد ظلت تنمو وتتشعب حيثما تحرك الناس، وحيثما قاموا بالغزو أو التجارة كما كانوا يفعلون خلال النصف الأول من القرن السابع عشر، وبخطو أسرع، وبأعداد كبيرة، وبشكل يفوق ما حدث من قبل.

عبر كلِّ تلك الخيوط، تُنقَلُ بسرعة من نقطة إلى نقطة، كلُّ أنماط البشر والسلع والمراكب وعربات النقل والمحاربين والأسلحة، وتنقلت كذلك وانتقلت، مجموعة كبيرة من الأشياء الأخرى: الحيوانات والنباتات ومسببات الأمراض والبذور والكلمات والأفكار، ولم تكن الحركات عبر تلك الشبكة منظمة وفق رغبات شخص بعينه، لكنها لم تكن أيضاً حركات عشوائية قط؛ وذلك لأن الطريقة الوحيدة التي يمكن أن تنتقل من خلالها أشياء مثل النباتات أو الأفكار، هي أن تسافر في

صحبة هؤلاء الذين يتحركون، وهؤلاء بدورهم يقومون بتحركاتهم في ضوء علاقات تلك الحركات بحاجات ومخاوف تسير وفق أنماط معينة، حتى إن هذه التحركات قد وصلت في النهاية إلى مواضع لم تكن هي التي تريد أن تصل إليها عندما بدأت حركتها.

وقد تحققت أشياء كثيرة عبر هذه التحركات الخاصة للبشر الذين كانوا ينتقلون عبر العالم، دون أن يقصد امرؤ أنه ينبغي أن يحدث ذلك بهذه الطريقة، هكذا أعيد تشكيل العالم بطرائق لم يعتقد أحد من قبل أنها ممكنة. هكذا سوف ينتقل عدد من عائلة النباتات الأمريكية nightshades كالطماطم، والبطاطس، والفلفل الحار، والتبغ عبر العالم بهذه الطريقة.

كان كريستوفر كولومبس وبحارته في عام 1492 من الأوائل من بين غير الأمريكيين الذين رأوا شعوباً من أهالي تلك البلاد الأصليين في الأمريكتين يدخنون، هذا مع أن أمريجو فيسبوتشي هو من حاز سبق الإشارة الأولى إلى التبغ في مطبوعة عام 1505، وقد تذوق جاك كارتييه التبغ في عام 1535 خلال رحلته الثانية إلى العالم الجديد، وشعر بالمذاق الساخن للدخان في فمه. والمثال المناظر الوحيد الذي استطاع أن يبدعه لوصف ذلك الإحساس لدى قرائه الذين لم تكن لديهم أدنى فكرة عن التدخين أو ماذا يشبه، هو أنه حاول أن يقارنه بالفُلفُل، والذي حدث صدفة أنه كان ينتمي إلى العائلة النباتية نفسها، وقد لاحظ شامبلين وجود التبغ أيضاً عندما قام برحلته الأولى إلى الأمريكتين في عام 1599، وقد وصفه بأنه نوع من الأعشاب، حيث من داخله يحصلون

على الدخان. وعندما قام مونتاني زعيم قبيلة الأندابايجو بتكريم الفرنسيين في «تادوساك» في عام 1603، فإنه فعل ما ينبغي أن يفعله الشخص الطيب، هنا عندما يريد أن يكرم وفادة ضيوفه، لقد قدم إليهم التبغ، وقد أطلق شامبلين على ذلك التجمع الاحتفالي اسم Tabagie، وهي الكلمة التي تعني الآن في لغة مقاطعة كيبيك الكندية: متجر (أو حانوت) التبغ.

لقد استخدم مواطنو تلك البلاد الأصليين التبغ كي ينتقلوا من خلاله بين العوالم الطبيعية والعوالم ما وراء الطبيعة أو الخارقة، وأن يتواصلوا مع الأشباح، وقد كان التدخين يساعدهم على جذب انتباه «الأرواح»؛ وذلك لأن تلك الأرواح كانت تحب رائحة التبغ المحترقة، لأنها تساعدهم على الوصول إلى نوع من التواصل داخل الإطار الصحيح للعقل. هكذا استخدم الأطباء الكهنة (الشامان) التبغ لحث حالة الغشية trance، التي تمكنهم من الذهاب إلى ما وراء العالم الطبيعي، ولرؤية ما الذي كانت تتوق وتسعى إليه الأرواح، وكذلك للنظر برهة نحو المستقبل، فلا تعد السجائر اليوم من المخدرات المثيرة للهلوسة على نحو خاص، لكن التبغ الذي كان موجوداً لدى السكان الأصليين القدامى لتلك البلاد، كان يحتوى على كمية من النيكوتين أعلى عدة مرات من التبغ الموجود الذي يُدَخَّن الآن، ومن ثَمَّ فقد كانت له تأثيرات سيكولوجية كثيرة. ولم يقل شامبلين ما إذا كان ذلك «الساحر» الذي صاحب دوريته الحربية التي توجهت نحو بحيرة شامبلين في عام 1609 يدخن هو نفسه – إلى حد الخدر من أجل أن يتكهن بالنتائج المترتبة على

تلك الإغارة أم لا–، لكنه ربما كان يفعل ذلك.

وقد كان يُعتقد أن خصائص تسكين الألم المميزة للتبغ تمنح المدخن بعض الصفات الطبية المميزة. إضافة إلى الصفات الدينية المميزة، وقد كان المجالان الطبي والديني متداخلين معاً في علم الصيدلة خلال القرن السابع عشر، وفي معظم الثقافات ما قبل الحديثة، وقد كان المرض يؤشر إلى حدوث تمزق أو قطع في العلاقة بين الإنسان وعوالم الروح، سواء حدث هذا التمزق في العلاقة بسبب تدخل روح ما في العالم الخاص بالإنسان، أو بسبب أن نفس إنسان مُبْتَلَىً قد ضاعت في ذلك العالم الخاص بالروح. وهكذا فإنه مثلما كان ثمة اعتقاد بأن التبغ يسكن آلام أمراض كثيرة، بداية من أوجاع الأسنان ولدغة الثعبان حتى التشنجات الجسدية والجوع وأيضا الربو، فقد كان هناك اعتقاد أن التبغ يخفف أيضاً من وَقْع المشكلات التي تنشأ بين العوالم الطبيعية والعوالم ما وراء الطبيعة، وينتج منها المرض. وقد كانت الصفة الشفائية المميزة للتبغ نوعاً من التطبيق المباشر الدال على كفاءته الروحانية. وفي الحياة اليومية العادية، كان التبغ وسيطاً مهماً في الاختلاط أو التفاعل الاجتماعي، أي إنه كان مثله مثل تأثيره العلاجي شيئاً يفيد نوعاً ما من ذلك الدعم الطيب الذي تقدمه الروح لمتعاطيه، وقد كان حُسْن إدارة العلاقات الاجتماعية على المستوى الشخصي أو الاجتماعي يتطلب نوعاً من المراعاة لمشاعر الآخرين، والرعاية لهم، أو الاهتمام بهم، وذلك أمر يمكن إنجازه على أفضل وجه عندما تكون الروح واقفة هناك إلى جانب المرء تسانده، وقد كان إشعال التبغ أو التدخين وسيلة لاسترضاء الأرواح، عندما

تكون في حالة مزاجية نكدة كما كانت غالباً، ومن ثَمَّ القيام بحثها على مباركة تجارتك أو عملك، وقد كانت «المشاركة في التدخين» تتم في حضور الأرواح، فهي تساعد المدخنين على الوصول إلى نوع من الاتفاق أو الإجماع، حيثما ظهرت الاختلافات. وقد كان التفاعل الاجتماعي الخاص الذي يحدثه التبغ ينتشر، وبسهولة، وينتقل من تلك الأوضاع الرسمية إلى جوانب الحياة الاجتماعية الطبيعية غير المتكلفة كلها، فأنت تستخدم التبغ مع أصدقائك، وتشارك فيه مع جيرانك، وتقدمه هديةً كي تطلب خدمة مقابلها، أو تقدمَهُ شكراً على خدمة قُدمت لك. ولايزال كثير من المواطنين الأصليين في تلك البلاد محبين للاختلاط والتفاعل الاجتماعي إلى حدٍّ كبير، ولعل هذا هو السبب الذي يجعلهم محبين للتدخين أيضاً إلى حدٍّ كبير.

لقد تحرك التبغ على طول تلك الشبكات التجارية التي قامت أوروبا، خلال رغبتها في الوصول إلى الصين، بتكوينها بين الأمريكتين وبقية أرجاء المعمورة، حيث رحل التبغ إلى مواقع جديدة، وقام بالوصول إلى شعوب لم تكن قد قامت بالتدخين من قبل، وكان الأوروبيون هم أول الجميع في هذا الأمر. وقد رافق التبغ، في حله وترحاله، عدد من الممارسات الدينية والطبية والاجتماعية والاقتصادية التي كان عليها أن تجد البيئة المماثلة المتفقة معها في الثقافة الجديدة. لقد أطلق المؤرخ الكوبي «فرنادو أورتيز» Fernaando Ortiz منذ نصف قرن مضى على هذه العملية اسم «الانتقال عبر الثقافي» أو «التثاقف» Transulturation، أي تلك العملية التي يتم عن طريقها حركة العادات

والأشياء من ثقافة إلى أخرى، على نحو عميق، إلى درجة أنها تصبح جزءاً منها، ومن ثَمَّ تقوم نتيجة لذلك بتغيير الثقافة التي انتقلت إليها. وقد كان «أورتيز» يعرف أن تلك العملية الكثيفة والمعقدة والصلبة الخاصة «بالتثاقف» يمكنها أن تكون مدمرة على نحو عنيف لما كان موجوداً هناك قبل انتقالها، لكن التأثيرات الخاصة بهذه العملية الخاصة بالعولمة تأثيرات لا يمكن التحكم بها، فمرحلة ما من تطور الأحداث الثقافية يمكن أن تصبح وبسرعة كبيرة، مرحلة أخرى، إلى حدٍّ أنه قد يصعب علينا أن نتذكر كيف كانت الأشياء في تلك المرحلة السابقة على المرحلة الحالية.

هكذا كان الأمر مع التبغ، فحيثما وصل التبغ وظهر، كانت أية ثقافة لم تقم بالتدخين، من قبل، تصبح ثقافة تدخن، وقد كان ذلك التثاقف يحدث غالباً بين عشية وضحاها، كان يصبح عملية متطورة تماماً وذلك قبل أن تشعر النخبة بنوع من الضيق أن كلَّ فرد أصبح يقوم بالتدخين، وقبل أن تراجع لذلك تفكيرها حول تلك المبررات التي لا تجعل من هذه الممارسة أمراً جيداً، ولم تقم كلُّ تلك المعاني الأصلية المرتبطة بالتدخين، والتي كانت موجودة في ثقافته الأصلية التي ظهر فيها أولاً، بالقفز والوصول إلى الثقافات الأخرى، بطبيعة الحال، لكن كثيراً من تلك المعاني قد فعلت ذلك، وخاصة تلك الفكرة العامة التي فحواها أن التدخين يفتح أبواب مملكة الروح. وبالطبع، كان لا بد من أن تتغير الدلالة الدينية الخاصة بالتدخين مع كلِّ ثقافة يدخلها التبغ، ففي التبت مثلاً، أصبح هو المادة التي ينبغي أن تستهلكها وتتلفها بالإحراق، تلك

الآلهة القاسية الحامية للمكان حتى تصبح أكثر قوة وشراسة. وهكذا فإن تمثال «الإله» الحامي لمعبد تراندروك Trandruk Temple في وادي يارلونج، مثلاً، يلوّح في يده بعظمة فخذ إنسان، وقد أُعيد تشكيلها على هيئة غليون لإظهار مدى القسوة أو الوحشية التي يمكن أن يكون عليها إذا ما حول اهتمامه نحو هؤلاء العصاة غير المخلصين.

قد حدث الأمر نفسه في أوروبا، حيث انتقل التدخين إلى عالم ممارسة السحر واختلط به. وقد كانت هناك شكوك فحواها أن التبغ وسيط يساعد على الوصول إلى حالة الاتصال بالشيطان. وفي عام 1609، والذي سار فيه شامبلين إلى سبيل الحرب، قام الملك هنرى الرابع بتكليف أحد أعضاء محكمة التفتيش باجتثات الشعوذة من جذورها في الريف الفرنسي، ومن بين تلك الأشياء التي اكتشفها هذا العضو المحقق حول السحرة، أنهم كانوا يستخدمون التبغ في ممارساتهم، وقد أدَّت به تحقيقاته كذلك إلى أن يخلص في استنتاجاته إلى أن كل السحرة كان لديهم «نبات ما في حديقتهم، وبصرف النظر عن صغر حجمه فإن الدخان الذي كانوا يستخرجونه منه كانوا يستخدمونه لجعل رؤوسهم تصفو وتروق، وللإبقاء على أنفسهم صامدين نوعاً ما في مواجهة الجوع». ألم يكن ذلك التفسير هو التفسير الأكثر بساطةً، وخاصة عندما يقول إن تلك النساء الفقيرات كن يحتفظن بنبات التبغ كنوع من البلسم الشافي ضد الجوع والشقاء اللائي كن يعشن فيه؟ لكن ذلك المحقق كان يبحث عن السحرة وليس الفقر، ولم يكن متيقناً تماماً بشأن تلك العلاقة بين التدخين وتلك الأشياء المرعبة التي تتهم

السحرة بالقيام بها، ولكن، وكما أصرَّ على القول «فإنني أعرف جيداً، وإنه من المؤكد أن التدخين يجعل أنفاسهم وأجسادهم نتنة جداً، حتى إن أحداً، ليس معتاداً التدخين لن يستطيع تحمل ذلك، وإنهم يقومون بذلك ثلاث مرات أو أربعاً يومياً».

لقد تراجع الذعر من السحرة وانقشع في أوروبا خلال القرن السابع عشر. ومع اختفائه اختفت أيضاً الفكرة القائلة إن التدخين يفتح قنوات الاتصال بالشيطان، وإنه حتى وإن قامت نسوة محاطات بالشكوك بالتدخين مثلاً، فإن ذلك كان يبرر بعد ذلك بأنهن أحببنَهُ، أو «رغبن فيه»، وليس أنهن كن راغبات في الاندماج في عمل من أعمال السحر الأسود. وما إن انتهت تلك العلاقة الترابطية بين التدخين والسحر، فإنه حتى رجال الدين كانوا أحراراً في تعاطيه، وقد فعلوا، وقد كان رجال الدين الجيزويت يتسمون بالعداوة، وعدم الود تجاه من يدخنون، لكنهم كانوا مجرد قلة من بين طائفة الكهنة أتباع المذاهب الأخرى، وقد أصبح باقي رجال الدين الكنسيين المسيحيين أكثر ولعاً بالتبغ والبخور، وفي الحقيقة لقد أصبحوا مدخنين شرهين، داخل الكنائس وخارجها كذلك، بحيث كان على الفاتيكان أن يتدخل. هكذا ذكر البابا عام 1643 أن «الناس الأفاضل المهذبين» في أثناء ذهابهم في طريقهم إلى الكنيسة، وجدوا أن رائحة التدخين كريهة ومزعجة، كما أنهم لم يحبوا أن يسيروا خلال ذلك الرماد الخاص بالتبغ، والذي كان متراكماً حول مداخل الكنسية، وخشية أن تدمر عاداتهم الشخصية السيئة هذه لاحقاً تلك السمعة العامة التي كانت متدهورة فعلاً لرجال الدين المسيحي،

فإن الفاتيكان أخبر الكهنة بأنه لا يمكنهم التدخين في الكنيسة، ولا حتى في أروقتها الموجودة عند أبوابها، وأن الكهنة الذين يرغبون في التدخين، يمكنهم القيام بذلك، لكن ليس داخل الكنيسة، وبعيداً تماماً عن مداخلها.

وقد كان مشهد «الآخرين» وهم ينفثون الدخان من أفواههم يستثير حب الفضول والشكوك لدى هؤلاء الذين كانوا يرون هذا الأمر يحدث للمرة الأولى في حياتهم. فما هذا الشيء الغريب والخطر الذي يقومون به؟ لقد كان قدْ حُكم، من قبل، على الفقراء فعلاً بأن يقضوا شتاءاتهم في أكواخ يستنشقون الأدخنة الضارة من النار الموقدة لطهو الطعام، فلماذا إذن كان عليهم أيضاً أن يستنشقوا دخان التبغ عندما كانوا لا يريدون ذلك؟ لقد تقبل الأوروبيون فكرة استنشاق البخور عندما يذهبون إلى الكنيسة، ولكن بوصفه مستنشقاً يجعل البيئة زكية الرائحة، وليس بوصفه دفقاً من الدخان المكثف الذي يذهب إلى رئتي كُلٍّ منهم، على نحو مباشر. إن التدخين ليس نشاطاً طبيعياً، إنه سلوك ينبغي أن يتعلمه صاحبه. وإعادة البناء أو التركيب لعملية التعلم هذه هي ما تجعل التاريخ المبكر للتدخين مثيراً للاهتمام أو الفضول الكبير.

تتعلم كلُّ ثقافة أن تدمن بطريقة تختلف عن الثقافات الأخرى، على نحو طفيف، وتعتمد الكيفية التي يدخن الأفراد من خلالها على المكان الذي تأتي منه تلك الممارسات، وكذلك من أدخلها إلى هناك، وما الممارسات والأفكار المحلية التي كُيِّفَتْ كي تصبح متوافقة مع المعنى الخاص بهذه العادة الغربية الجديدة. وقد تمثلت إحدى التحديات

الخاصة التي واجهتها النخبة الأوروبية في هذا الشأن في أن يتغلبوا، أو يتجاوزوا تلك العلاقة التي تربط بين التدخين وهؤلاء الذين كانوا أول المدخنين، أمثال سكان الأمريكتين الأصليين، وقد كان أشهر الانتقادات الساخرة العنيفة المبكرة التي وجِهَت ضد تلك العادة الحقيرة الخاصة بالبرابرة المتوحشين والخاصة بالتدخين قد جاء من خلال الملك البريطانى جيمس الأول، والذي أنزل ضرباته ضد تلك العادات بشكل يفوق ما أنزله بغيرها، فقد كان التدخين هو كما أشار جيمس ما يقوم به «الرجال الفقراء المتوحشون البدائيون». إنه يتعلق «بالسلوكيات البربرية الحيوانية لهؤلاء الهنود البدائيين، الملحدين العبيد»، وهو ما لا ينبغى أن يقوم الرجال الإنجليز المهذبون الراقون بمحاكاته أو تقليده «لقد كان السكان الأصليون في الأمريكتين» عبيداً للإسبان، غرباء، حتى الآن، عن المواثيق المقدسة للرب»، وقد كانت تلك ثلاث ضربات موجعة يمكن توجيهها ضد أية حجة تطرح لتفضيل التدخين، على الأقل من وجهة نظر الملك.

لكن تلك المرافعة كان لها تأثيرها الضعيف في عقول معاصريه، على كلِّ حال، فقد طرح المؤرخ العظيم من العصر الإليزابيثي وليم كامدن W.Camden كلَّ دعاواه الممكنة ضد التدخين فقال إن الإنجليز «قد انحطوا وتفسخوا حتى وصلوا إلى ما يشبه طبيعة الهمج البدائيين؛ وذلك لأنهم يستمتعون، ويعتقدون أنه يمكن شفاؤهم من أوجاعهم، من خلال استخدامهم لتلك الأشياء التي يستخدمها البدائيون». وفي عام 1615 كان عليه أن يعترف بأنه «خلال وقت قصير، قام رجال

كثيرون في كلِّ مكان، بعضهم من أجل البهجة والمرح، وبعضهم من أجل الصحة، ومن خلال رغبة نهمة لا تشبع، وشراهة ملحوظة، قاموا بامتصاص ذلك الدخان الكريه الرائحة الذي يتدفق خارجاً من غليون خزفي». وعلى غير شاكلة «كامدن» أو الملك، فإن الناس العاديين لم يكن يعنيهم من الذي بدأ تلك الممارسة أولاً.

لقد سُرِدَ تاريخ وصول التبغ إلى أوروبا غالباً من جانب النخبة، وعادة ما تبدأ الرواية المحكية هنا بالإشارة إلى الطبيب رمبرت دودوينز Rembrt Dodoens، الذي نشر في عام 1553 كتاباً في «أنتويرب» ذاع صيته حول الأعشاب اللاتينية، وقد ظهرت الطبعة الهولندية منه بعد ذلك التاريخ بعام، ثم في السنة التالية لصدور الطبعة الهولندية ظهرت الطبعة الألمانية منه، وقد اشتمل كتاب «دودوينز» حول الأعشاب على أول مادة تكتب حول التبغ، وتظهر في كتاب طبي مرجعي. وهي الشاهد المكتوب الأول على أن المعرفة بالتبغ، بل بالنبات نفسه، قد وصلت إلى الأراضي الواطئة، ولم يكن دودوينز يعرف ماذا يسمى هذا النبات، لكنه استعار اسمه من نبات آخر له خصائص مخدرة أيضاً، وقد كان على ألفة به من قبل، إنه التنجْ henbae، حيث تنتج هذه العشبة زهوراً صفراء ذات خطوط مقلمة أو مخططة، أرجوانية تتخللها، مماثلة للزهور التي ينتجها نبات التبغ، هكذا أدّى ذلك الاسم وظيفته على نحو مؤقت. وإذا تحولنا بهذه القصة إلى البرتغال، وبعد ثلاث سنوات من ذلك التاريخ الخاص بكتاب «دودوينز»، فإننا سنجد «دامياو دي جويز Damio de Goes» ينشر الزعم القائل بأن أحد أقاربه، أو نسيبه لويس

Luis، كان أول شخص يجلب ذلك النبات من البرازيل إلى أوروبا، ولم يحدد دامياو الموعد الخاص بذلك الحدث التاريخي، ولكن حيث إن لوي نفسه قد انضم بعد ذلك إلى طائفة الجيزويت، وذهب بعيداً إلى الهند عام 1553، وهو العام الذي نشر «دودوينز» فيه كتابه حول علم الأعشاب، فإنه، أي لوي، لا بد أنه أحضر التبغ معه عبر الأطلسي قبل ذلك التاريخ، وهكذا تضيق المسافة بين بداية المعرفة بالنبات وعملية تجريبه أو تعاطيه. ويقول دي جويز: إنه زرع ذلك النبات وتعهده بالرعاية في حديقته بلشبونة. وهكذا فإنه ما دام أنه قد كان يزرعه، فمن المحتمل أن يكون قد دخَّنَه أيضاً.

من البرتغال، سافر التبغ وارتحل إلى فرنسا بفضل الشخص نفسه، فقد أعطى دامايو دي جويز بذور النبات التي أخذها من حديقته إلى جان نيكوت Jean Nicot، ثم أخذها نيكوت معه عند عودته إلى فرنسا كي يزرعها في حديقته، وربما حدث ذلك قبل عام 1559، وذلك عندما عُيِّنَ نيكوت سفيراً لفرنسا في البرتغال. بعد ذلك تفاخر نيكوت بأنه كان أول من أحضر التبغ إلى فرنسا، هذا مع أن فرنسياً آخر، هو أندريه تيفيه Andre Thevet، كان أول من قَدَّم التبغ البرازيلي إلى الملكة الفرنسية كاترين دي مديتشي في عام 1556، وقد أطلق تيفيه على التبغ اسم «عشب الملكة» herbe de la rayone تبجيلاً لها، وهو اسم انتقل إلى اللغة الإنجليزية أيضاً لبعض الوقت، حيث ظهر التعبير «عشب الملكة»، لكن هذا الاسم سرعان ما اختفى وظهرت بدلاً منه مصطلحات أخرى، وقد نجح نيكوت في أن يضع اسمه على عملية

التدخين بمعنى ما، وذلك لأن المصطلح المميز للتبغ هو «النيكوتين» Nicotiane (وهو الأصل أو المصدر للكلمة التي نستخدمها اليوم لوصف المركب الإدماني النتروجيني الذي في التبغ).

سيبدو تاريخ عمليات الانتقال عبر الثقافي للتبغ إلى أوروبا مختلفاً، إلى حدٍّ ما، لو رُوِيَ من وجهة نظر الناس العاديين، فإذا كان «دودرينز» قد وضعه ضمن محتويات كتابه في الأعشاب، فإن ذلك لا بد أنه كان نتيجة فقط؛ لأن شخصاً آخر قد عرضه عليه أو أظهره له، وهذا الشخص لا بد أنه قد جلب ذلك التبغ معه من الأمريكتين، أو أنه حصل عليه من شخص آخر جلبه معه من هناك. وحيث إن «أنتويرب» في خمسينيات القرن السادس عشر كانت أكثر موانئ أوروبا ازدحاماً وامتلاءً بالنشاط (وستتفوق أمستردام عليها في القرن السابع عشر فقط)، وحيث إنها كانت تستقبل يومياً كثيراً من السفن التي قد يصل عددها إلى خمسمائة سفينة كلَّ يوم، فلا بد أن ذلك «الشخص» قد نزل من سفينته وقام، وإن بزيارة قصيرة، ومعه التبغ إلى أرصفة ميناء «أنتويرب».

تصل سلسلة المعرفة الخاصة بهذا الموضوع إلى نهاية حلقاتها في كتاب «دودوينز» في علم الأعشاب، لكن أولى تلك الحلقات لا بد أنها بدأت مع هؤلاء الذين بدؤوا تدخين هذا النبات أولاً، وهم البحارة، وربما لم يطلق بحار ما على هذا النبات اسم «عشبة الملكة» «أو البنْج»، وقد يكون قد استخدم اسمه الشائع بين سكان الأمريكتين الأصليين، ألا وهو الـ petunia، وهو اسم ما زال موجوداً معنا، حتى الآن، لكنه يطلق على أحد أقارب نبات التبغ، وهو البيتونيا Petunia (أو البطونية[1])،

ولكن لماذا نعطي الأولوية أو الأسبقية في هذا الأمر لـ «أنتويرب» بينما كان ما حدث هو أن السفن الأولى التي عبرت المحيط الأطلنطي كانت تمخر عباب ذلك المحيط عائدة إلى الموانئ البرتغالية والإسبانية؟ يقترح أحد المصادر أن التبغ قد وصل إلى البرتغال بهذه الطريقة على نحو مبكر يصل إلى عام 1548، أي قبل أن يكتب دامايو دي جويز حوله بعقدين من الزمن، وربما ثانية في جيوب البحارة، وهكذا فإن البحارة والجنود والكهنة كانوا هم أول من بدأ التدخين من الأوروبيين، ثم لاحقاً فقط بدأ الأرستقراطيون وغيرهم من الرجال الذين ينتمون إلى الطبقات الراقية في تبني هذا الذوق، وجعله خاصية مميزة لهم.

وقد كان عالم الأعشاب الآسباني جوان دي كارديناز Guan de Cardenas، مولعاً بمعرفة الخصائص المميزة للتبغ، وضَمَّن هذا النبات في دراسته التي نشرها في المكسيك عام 1591 حول الممارسات الطبية للسكان المحليين، وقد اعترف كارديناز أنه صَنَّفَ التبغ فارماكولوجياً (أي في ضوء علم الصيدلة) ووفقاً للأساس الذي كان الجنود الإسبان في المكسيك يستخدمون التبغ من أجله، وهو: لمقاومة البرد والجوع والعطش، أي من أجل الأسباب نفسها التي كان جنود الحاكم العام على الحدود الصينية الشمالية يستخدمون التبغ من أجلها في عام 1642. لقد اكتسب الأوروبيون في الأمريكتين الفكرة العامة عن فوائد التبغ من السكان المحليين هناك، فقد أخبرهم – هؤلاء السكان مثلما أخبروا جاك كارتييه خلال ثلاثينيات القرن السادس عشر – أن التدخين يحافظ عليهم «أصحاء ودافئين»، وهكذا فإن التبغ كان

يتجاوز مجرد كونه ممارسة همجية بدائية؛ إنه أمر طيب بالنسبة إليك. وقد فسر معلق إنجليزي على هذا الحدث في عام 1593 ذلك بقوله إن الخصائص العلاجية للتبغ كانت هي التي تُوصَفُ طبياً بأنها الأكثر قوة، وبخاصة في علاج المرضى الإنجليز الذين أصابتهم الكآبة أو انقباض الصدر، وكذلك الروماتيزم. وقد كان التبغ «يُسْتَخْدَمُ بكثرة ويُتَنَاول في إنجلترا لمقاومة البرد وبعض الأمراض الأخرى المتأصلة في الرئتين وبعض الأعضاء الداخلية، وقد كان له بعض التأثير فيها». ولم يكن التبغ يُسْتَنشق فقط، بل كان يُحوّل على هيئة «مرهم موضعي يُفرك به الجلد. ولاحظ عالم الأعشاب الانجليزي جون جيرارد John Gerard في كتابه في علم الأعشاب عام 1597، أن ذلك العشب «ينتصر على كل أنواع الخِرَاج، والأورام، والقرح الدائمة والبثور، وما شابه ذلك، ومن خلال تحويله إلى مَرْهَم أو إلى دواء مهدئ وبحلول عام 1597 كان كلُّ صيدلي إنجليزي يصف هذه المادة علاجاً للأمراض.

لقد أثبت الطلب الزائد على التبغ قدرته على تحويل الصيادلة إلى جامعي أموال. وكما اعترف بذلك جون جيرارد وهو سعيد، فإنه استخدم التبغ لعلاج كلِّ «الجروح والإصابات التي تلحق بالرأس، ومن خلال ذلك كله حصلت على المال والتقدير». وفي مكان آخر كانت أرباح تجارة التبغ أيضاً أعظم، فعندما كان تبغ فرجينيا مازال شيئاً جديداً في إنجلترا عند منتصف القرن، فإنه قيل إن المدخنين كانوا مستعدين لدفع ما يعادل وزنه فضة. وعندما يدفع المدخنون ثمناً غالياً لشراء شيء ما، تحب الدول أن تجمع رسوماً جمركية مرتفعة عندما يعبر ذلك الشيء

الحدود؛ فعندما دعت شركة فرجينيا، والتي كانت تستورد التبغ من المستعمرة الإنجليزية، والتي كانت بالاسم نفسه (فرجينيا) دعت الملك جميس الذي شجب التدخين بألفاظ قاسية ووصفه بأنه عادة همجية بدائية إلى رفع الرسوم الجمركية على التبغ المستورد، وإلى مستوى من السعر يجده مقبولاً، فإنه فعل ذلك، ويبدو أن اعتراضه الأساسي على التبغ كان مرجعه أنه كان مصدر دخل وطني إضافي، لكنه «مصدر» مفقود يحصل عليه المهربون، إضافة طبعاً إلى أضرار التبغ السيئة على شعبه.

تُشَجِّعْ الأسعار العالية والرسوم الجمركية المرتفعة المهربين، والمزارعين، طبعاً، على الانهماك في العمل وكما لاحظنا ذلك سابقاً بالنسبة إلى «بيجين» كذلك بدأ الفلاحون الهولنديون في زراعة التبغ كمادة مستوردة نحو عام 1610، ثم سرعان ما جعلوا هولندا أكبر منتج للتبغ في أوروبا. وقد فعل المزارعون، في إنجلترا، الأمر نفسه، هذا مع أنهم، والهولنديون كذلك، لم يستطيعوا أن ينتجوا تبغاً يعادل، في جودته، التبغ القادم من فرجينيا. وحيث إن التبغ المزروع في داخل هذين البلدين كان أرخص كثيراً من التبغ المستورد، كما أنه كان معفى من الرسوم الجمركية، فإن الحل التجاري كان هو الغش، حيث يُخلط التبغ المحلي والتبغ المستورد معاً، وأخبرْ «زبونك» أنه يحصل على أنقى أنواع التبغ. وقد استخدم التجار الهولنديون هذه الطريقة في ثلاثنيات القرن السابع عشر من أجل أن يقضوا على تجارة التبغ الإنجليزي في بحر البلطيق، أو يخفضوا أسعار سلعتها، وقد كانت هناك طريقة أخرى

في هذا السياق، تمثلت في طهو تبغ فرجينيا المستورد بالغلي البطيء، ثم نقع التبغ المحلي في ذلك المحلول الناتج من ذلك الطهو من أجل تحسين نوعيته وجودته، ومع هذا فإن النتيجة لم تكن عظيمة، ولكن المتعة والفائدة كانتا قادرتين على تشكيل مجموعة متنوعة من الترتيبات، بداية من التهريب حتى الإعلانات الزائفة أو المضللة، والتي حافظت على ولع الأوربيين بالتبغ خلال تلك الأيام الأولى المبكرة.

وقد كان الحل المفيد على المدى الطويل هو التحكم في العرض، وفي الجودة، وعند المصدر. وقد أنجز الأوروبيون ذلك من خلال دفعهم جانباً أو تجاهلهم للمنتجين من أصحاب البلاد الأصلية في الأمريكتين، ومن خلال قيامهم بأنفسهم أيضاً، بإنشاء مستعمرات أو مزارع كبيرة لإنتاج التبغ. هكذا أصبح التبغ يزرعه مزارعون إنجليز وتظل أرباح تجارته في أيدي الإنجليز أيضاً، وقد كان الطلب على التبغ في العقد الأول من القرن السابع عشر قوياً وبدرجة كافية، بحيث أصبح إنشاء المستعمرات ليس مغامرة بقصد المضاربة التجارية، بل مغامرة تؤتي ثمارها فعلاً، ومثلما قام فرو القندس بتمويل عمليات الاستكشاف الفرنسية نحو أقصى الشمال، فكذلك منح التبغ الإنجليز الوسائل المناسبة لغرس جذورهم في أراضي فرجينيا، وكذلك أن يطردوا سكان البلاد الأصليين من أراضيهم.

عندما أصبح التبغ سلعة تجارية، حدث شيء كان ينبغي أن يحدث، فقد وجد مزارعو التبغ أنهم يحتاجون إلى قوى عاملة بشكل يفوق ما تستطيع عائلاتهم أن تزودهم به. وعلى الرغم من النجاح الذي حققه

الجيزويت في جعل هنود أمريكا الجنوبية يعملون في مزارع التبغ، فإن معظم هؤلاء الهنود لم يكن راغباً في العمل في تلك المزارع. وحتى عندما كانوا يُخْبرون يتم إجبارهم على ذلك، كانوا ببساطة يتسللون خلال الليل هاربين بعيداً عنها، وقد تمثل الحل في إيجاد بشر لا يكون أمامهم خيار إلا القيام بهذا العمل، هم العبيد. وقد قام الهولنديون أصحاب العين اليقظة دائماً للمشروعات التجارية المربحة بدور الريادة في هذا الأمر، فبدؤوا في ثلاثينيات القرن السابع عشر تأسيس شركة اندماجية كبيرة أخرى بأمر رسمي من الدولة، وقد كانت هي شركة الهند الغربية الهولندية west Indian company أو (WIC) تمييزاً لها عن شركة الهند الشرقية الهولندية VOC، وقد أَمَّنَت لها مواقع قوية على جانبي شمال الأطلسي، وقامت بشراء العبيد في إفريقيا، وبيعهم إلى مالكي مزارع التبغ في جزر الكاريبي والبرازيل، وقد فقدت شركة الهند الغربية الهولندية معظم هذه المزارع في أربعينيات القرن السابع عشر، حيث دخل تجار آخرون إلى مجال ذلك العمل، ومع ذلك فإنه خلال الربع الأخير من القرن السابع عشر، كانت تلك الشركة توجه ثلاث أو أربع سفن تحمل العبيد سنوياً إلى جزر الكاريبي، وكانت سفنها تقدم خدماتها وبشكل استثنائي لأمريكا الشمالية.

ومن خلال هذا التنظيم الجديد لقوة العمل، ظهر نظام تجاري، جديد فقد كان التبغ (ومعه السكر) هو المحصول الذي يمكن استخدامه لجعل الأمريكتين أكثر فائدة وربحية، في حين كانت إفريقيا هي المورد الذي يقوم بالتزويد بالأيدي العاملة المطلوبة لجعل الإنتاج في المزارع

في الأمريكتين ملائماً، ثم كانت الفضة التي يتم الحصول عليها من أمريكا الجنوبية هي التي تدفع نحو الحصول على السلع التي تشحن من أوروبا والأمريكتين إلى آسيا، وقد وضعت هذه السلع الثلاث: الفضة والتبغ، وكذلك العبيد، وعن طريق العمل في مناجم الفضة، وزراعة التبغ وحصده، وضعت معاً، الأساس الذي قام عليه الاستعمار الطويل الأمد للأمريكتين، وقد أصبح هذا النوع من التنظيم عبر الثقافي، والذي استدمج بداخله تدريجياً سلعاً أخرى كذلك، هو النمط الذي مكّن أوروبا من الهيمنة على معظم العالم خلال القرون الثلاثة التالية.

لم يكن ذلك الاتساع الخاص لانتشار التبغ عبر العالم مجهولاً لدى المعاصرين، ففي هجائه الساخر لشبان العصر المُدّعين المغرورين وجّه كاتب المسرح الإنجليزي توماس ديكر عام 1609 Thomas Dekker خطابه إلى التبغ، من خلال هذا الالتماس: «اجعلني لك وريثاً تختاره، وريثاً يرث ثروات كل تلك النفثات التي تهب منك، وربما سأوزعها على الأمم كلها».

هكذا كان ذلك الإنجليزي عاشق التبغ راغباً في أن يرى كل إنسان يدخن، ما دام التبغ قد ارتضى أن «يجعل الرجل الإنجليزي صاحب الخيال الحر، وفوق بقية البشر الآخرين، وأكثر براعة من خلال ما منحته سموك له من أوراق شجر ترينداد وحلواها Trindodo Leafe and pudding بشكل يفوق براعة بلاكمور ذي الأسنان البيضاء في آسيا[2]، ولتدع سكان العالم يصبحون من حائزي الزمالة الخاصة بالمدخنين، لكن دع الإنجليز أيضاً وحدهم يرتقون إلى منزلة الخبراء المتمكنين الأكثر

مهارة، والمحسنين المتفردين بمعرفة خصائص التبغ الباعثة على الإلهام.

لم يكن ديكر مخطئاً في افتراضه أن التبغ سوف ينتشر فوراً «بين كل الأمم»، وخاصة في آسيا، وقد تنبأ بذلك على نحو مبكر تماماً، وقبل فترة قصيرة من علمنا أن الصين ستصبح في المرتبة الأولى بين الأمم في التدخين، وأن الشعب الصيني قد كان أيضاً أكثر نهماً وحماسة لأن يصبح «الوريث المختار» للتبغ بدلاً من الإنجليز، وقد احتاج الأمر إلى وقت قصير، لما كان يبدو للإنجليز فضيلة معتدلة موجودة بينهم، كي تبدو تلك الفضيلة وتتحول عندما وصلت وانتشرت بين الصينيين إلى رذيلة تدل على التطرف والإفراط. وقد شعرت امرأة إنجليزية زارت الصين خلال القرن التاسع عشر بأن لديها تماماً ما يبرر نقدها لشغف الصينيين الواضح بالتدخين من خلال تصريحها: «الصينيون مولعون بالتدخين مثل الأتراك»، ولم تكن تلك مجاملة فقد كانت تعتقد أنه لا بأس أن يدخن المرء، ولكن ليس بمثل تطرف الأتراك أو الصينيين في القيام بذلك.

لقد انتقل التبغ إلى الصين عبر ثلاثة طرق أو مسارات: في اتجاه الشرق عبر ذلك الطريق البرتغالي الذي يمتد من البرازيل إلى ماكاو، ثم في اتجاه الغرب من خلال ذلك الطريق الإسباني الذي يمتد من المكسيك إلى مانيلا، ثم بواسطة ذلك الطريق الثالث الذي يتكون من سلسلة من الوثبات حول شرق آسيا، ثم إلى بيجين. وقد تطور الانتقال عبر الطريقين الأول والثاني خلال الوقت نفسه، حيث كان التبغ يُجمَّع في «ماكاو» و«مانيلا»، ثم من خلال تلك الموانئ التجارية يتقدم

نحو الصين من «ماكاو» إلى مقاطعة «فوجيان» على الساحل الشمالي البعيد. بالتأكيد كانت تلك العادة قد رسخت تماماً بنهاية الربع الأول من القرن السابع عشر؛ وذلك لأنه عندما وصل «أندريانو دي لاس كورتيس»، كاتب الأحداث اليومية لتحطم السفنية جُويّا عام 1625، إلى الشاطئ، وقريباً من نقطة التقاء هذه المقاطعات، فإنه اكتشف أن الصينيين يدخنون. وقد قام «لاس كورتيس» باكتشافه هذا في نهاية اليوم الأول من أخذه كرهينة. لقد شعر بالظمأ، وأبدى علامات تدل على حاجته إلى شيء يشربه. وقد خمن حراسه تلك الحاجة على نحو صحيح وأعطوه زبدية من الماء الساخن، الذي يعتبره الصينيون أكثر نفعاً للصحة من الماء البارد، ولم يكن «لاس كورتيس» معتاداً شرب الماء الساخن، ومن ثَمَّ استمر في القيام بحركاته الإيمائية، آملاً في الحصول على ماء بارد «لقد اعتقدوا أنني كنت أطلب فعلاً شيئاً آخر» كما يذكر، فأحضروا لي بعض التبغ كي أدخنه». لقد كان «لاس كورتيس» يريد الماء البارد وليس التبغ، ولكونه من أتباع طائفة الجيزويت، فإنه لم يكن يُسْمَح له بأي حال من الأحوال بأن يدخن، ثم حاول مرة أخرى أن يجعلهم يفهمون ما يريده، ثم أخيراً، وبعد كثير من المرح الصاخب من الجانب الصيني، تَمَّ حل لغز هذه التمثيلية التحزيرية. لقد أحضروا إليه كوباً، لا من الماء البارد أو الساخن، وإنما من شيء وصفه على أنه «بعض الماء الساخن المطهو مع عشب يسمى «تشا» cha، وقد كان ذلك أول لقاء غير متوقع يحدث لـ «لاس كورتيس» بانتقاله عبر الثقافي (ثقافته) متخذاً طريقه نحو المجتمع الأوروبي. لكن بحلول عام 1625 كان التبغ

قد أصبح راسخ الوجود بعمق على طول ساحل الصين.

وفيما بين مقاطعتي قوانغدونغ Guangdong وفوجيان، كانت «فوجيان» هي التي حازت الصيت الذائع بوصفها موطن التبغ في الصين. لقد كان التبغ يصل في سفن صينية تأتي من مانيلا إلى موانئ كثيرة، وكان أكثر تلك الموانئ أهمية هو مرفأ القمر Moon Harbor، والذي كان يقوم بخدمة جانجوه Zhangzhau التي بها مقر حاكم الولاية عند الطرف الجنوبي من ساحل فوجيان. وقد كان فانج ييجي Fang Yizhi، وهو باحث ألمعي عاش في القرن السابع عشر، شديد الفضول لأن يعرف العالم الخارجي، وقد وصل إلى فوجيان خلال العقد الثاني من القرن السابع عشر 1610 قبل ثلاثة عقود من تسلله سراً إلى فوجيان أيضاً مرتدياً زي بائع جائل للأدوية كي يهرب من جيوش المانشو ويتحاشاها، والتي كانت تجتاح جنوب الصين في عام 1645، وقد وصف فانغ عائلة «الما» Ma في جانغجوه بأنها أكبر الصناع المعالجين للتبغ في الصين، وقد كان واضحاً أنهم حققوا نجاحاً خاصاً متعلقاً بهذا المنتج الجديد، الذي انتشر كالنار في الهشيم «لقد انتشر على نحو تدريجي، داخل كل حدودنا، إلى درجة أن كل إنسان الآن يحمل معه غليوناً طويلاً، ويقوم بابتلاع الدخان بعد إشعاله بالنار. وقد أصبح بعض الشاربين له مدمنين».

كانت الكلمة التي يستخدمها «فانج» بالنسبة إلى التبغ هي danrouguo، والتي تعني «الفاكهة الطازجة لنبات الدانباجو» Danbagu، وقد كانت «دانباجو» الاسم الذي استخدمه الصينيون

الذين كانوا يعيشون في الفيلبين، وأطلقوه على التبغ، وقد اصطلحوا هذا الاسم، أو صاغوه، كنوع من النقل الحرفي التقريبي للكلمة الإسبانية تباكو أو Tabaco، والتي قام الإسبان بدروهم، بنقلها حرفياً من الكلمة الكاريبية التي كانت مستخدمة لوصف تلك القصبة المجوفة التي كان سكان جزر الكاريبي الأصليون يحشرون أوراق التبغ المقطعة طولياً فيها من أجل تدخينها، وقد كانت كلمة «وانباجو» ذات جرس أجنبي وغير ملائمة بالنسبة إليهم، ومن ثَمَّ قام الصينيون بتكييف الكلمة الخاصة بهم والمناسبة للتدخين (Yan) وتعديلها، ثُمَّ لحق بها التعبير Chi Yan (أي أكل الدخان أو التهامه). وعندما نظر مؤلف صيني إلى الوراء، منذ نهاية القرن السابع عشر، فإنه طرح شكوكه التي فحواها أن اليابانيين هم من صاغوا المصطلح Yan (والذي ينطق en في اليابانية، للإشارة إلى التدخين). هذا معقول ظاهرياً؛ وذلك لأن اليابان قد أصبحت أحد أحجار الخطوة الأساسية في الطريق الثالث المتجه إلى الصين والخاص بالتبغ. وحيث إن en في اليابانية هي كلمة مستعارة أُخِذَت أصلاً من الصينينة، فإنه نتيجة لذلك من المستحيل تقريباً أن نفرز ونصف كيف دارت هذه الكلمة وانتقلت وتحولت بين هاتين الثقافتين، حيث إنهما معاً ما زالتا تستخدمان هذه الكلمة[3].

لقد أصابت القضية الخاصة بالمصدر الذي يأتي منه التبغ مفكري الصين بالحيرة، وقد افترض بعضهم أن هذا النبات كان ينمو على نحو طبيعي أو فطري في الفلبين، حيث إن ذلك كان المكان الذي يصل التبغ منه إلى فوجيان، في حين تشكَّك آخرون في أن الناس في الفيلبين

«يحصلون على بذورهم من المحيط الغربي العظيم»، وهو مصطلح فضفاض يشير إلى تلك المنطقة البعيدة التي يأتي منها الأوربيون. وقد عرف الآلاف من مواطني فوجيان، والذين يتاجرون مع الإسبان في مانيلا، أن الإسبان يعبرون المحيط الهادئ (الباسفيكي) قادمين من مكان يسمى ياميليجيا Yameilijia (أي أمريكا)، وربما قد علموا أن ذلك هو المكان الذي تأتي منه هذه البذور، ولكنهم لم يكونوا بالناس الذين يحتفظون بالمذكرات اليومية، أو ينشرون المقالات.

وعندما يتعلق الأمر بالمعرفة المتوافرة حول التبغ، فإن الفجوة بين الصفوة المفكرة والناس العاديين كانت فجوة واسعة خلال القرن السابع عشر في أوروبا، وفي الصين أيضاً.

من فوجيان، شقت عادة التدخين طريقها نحو الداخل، ثم اتجهت بعد ذلك نحو الساحل البحري الشمالي، وقد وصل النبات إلى شانغهاي في ثلاثينيات القرن السابع عشر وفقاً لما ذكره «يه»، وهو كاتب مذكرات حاد الملاحظة، كتب مذكراته عند نهاية القرن: «إن التبغ يأتي من فوجيان» هكذا يبدأ «يه» مذكراته دون أن يزعج نفسه بالتساؤل عن المصدر الذي كان التبغ يأتي منه قبل وصوله إلى «فوجيان»، وقد كتب يقول أيضاً «عندما كنت صغيراً، سمعت أجدادي يقولون إنه كان هناك تبغ في فوجيان، وإنه لو قمت بتدخينه، فإنه سيجعلك سكراناً، ومن ثَمَّ فقد كان يطلق عليه اسم الخمر الجافة dry wine، ولم يكن هناك أي قدر منه في هذه المنطقة»، ثم إنه قام بشرح فحواه أن رجلاً في وقت ما من ثلاثنيات القرن السابع عشر، كانت كنيته هي بنج

peng، قد زرع بعضاً منه في شانغاهاي «ولا أعرف من أين حصل على بذوره، لكنه زرعه هناك، وقطف أوراقه، وجففها في الظل، ثم طلب من بعض العمال تقطيعها إلى خيوط طويلة، ثم أعطاها لبعض التجار المسافرين لبيعها في مكان آخر».

ولم يجرؤ السكان المحليون على تذوقه، فقد فرض الحظر المفروض على زراعة التبغ في بيجين على شانغاهاي كذلك. وقد ذكر «يه» أن ذلك الحظر كان «يقرر أن قطاع الطرق واللصوص هم فقط من يمتصون التبغ لتفادي البرد والكآبة، وعليه فإنه لن يسمح للناس بزراعته، ولا للتجار ببيعه، وأي إنسان يخرق هذا القانون سيعاقب بالقانون نفسه الذي يحظر التجارة مع الأجانب». وقد كان لذلك الحظر أو التحريم تأثيره الواضح في شانغاهاي، وقد كان «بنج» أول شخص يتهم بذلك، وبالتالي خشي الجميع زراعة التبغ، لكن ذلك لم يستمر طويلاً، فقد كان الجنود جميعهم يدخنون التبغ خلال سنوات قليلة، كما يذكر «يه»، وخلال وقت قصير كذلك كان الباعة الجائلون يبيعونه كذلك عبر المملكة كلها. لقد أصبح مربحاً للمزارعين، لكنه مع ذلك لم يحل محل القطن، ذلك الذي كان المحصول الرئيس في شانغاهاي «فقد كان هناك القليل منه الذي يزرع هنا»، كما ذكر «يه» في نهاية مذكرته.

ومن «ماكاو» إلى قوانغ دونغ Guangdong، ومن مانيلا إلى فوجيان، هذان كانا الخطين الأولين لرحلة التبغ، لكنه اتخذ أيضاً طريقاً ثالثاً أيضاً نحو الصين، وهو طريق كان، وعلى نحو فعال، أشبه بامتداد للخطين الأولين، لكنه كان أيضاً أكثر تعقيداً منهما. فقد كان

يبدأ من «ماكاو» ويشتمل على أربع خطوات، كانت الخطوة الأولى تبدأ من ماكاو إلى ميناء «ناجازاكي» الياباني عند أقصى الجنوب، فقد كان التجار البرتغاليون يبحرون من «ماكاو» وهم يجلبون التبغ معهم، وكان اليابانيون يشعرون بالإثارة (ويهتزون طرباً) لوصوله، وقد كان ريتشارد كوك R.cook، الذي أقام مركزاً تجارياً هناك لفترة قصيرة، متعجباً من تلك الحماسة والولع الجديد بالتبغ «لقد كان ذلك شيئاً غريباً» كما لاحظ ذلك ودَوَّنَهُ في يومياته «أن ترى كيف كان هؤلاء اليابانيون، من الرجال والنساء والأطفال، مسلوبي العقل وهم يشربون ذلك العشب... ولم تكن قد مرت عليه سنوات عشر منذ أن استُخدِم أول مرة». وقد سجل في تدوينه الخاص بتاريخ السابع من أغسطس 1615 أن الحاكم المحلي قد حرم تدخين التبغ، وأمر باجتثاث كل نباتات التبغ من جذورها، لكن ذلك لم يكن له أدنى أثر، فقد انتقل التبغ بشكل عفوي إلى الثقافة اليابانية، ولم يستطع أي حظر يُسَمَّى أن يوقفه.

إن تعليق كوك القائل «ولم تكن قد مرت عليه سنوات عشر منذ أن استُخدِم أول مرة» قد يجعلنا نؤرخ وصول التبغ إلى اليابان بنحو عام 1605. وبمجرد وصوله إلى اليابان، قام التبغ بخطوته التالية متجهاً إلى كوريا، وقد كان ذلك الانتقال مباشراً، ويمكننا أن نحكم بذلك من خلال تعليق آخر ذكره رجل هولندي تحطمت سفينته هناك عام 1653، فعندما أبدى دهشته لرؤيته اليابانيين يدخنون، أخبره مضيفوه أنهم كانوا يدخنون «النامبانكوي» Nampankeoy أو نبات «النامبان» nampan. وكلمة nampan في اليابانية تعني الهمج الجنوبيين أو برابرة

الجنوب، وهو الاسم الذي كان اليابانيون يطلقونه على البرتغاليين منذ نصف قرن.

وقد كانت الخطوة الثالثة من كوريا إلى منشوريا، لقد أصبح سكان منشوريا بسرعة مولعين بالتدخين، وبدرجة بالغة جعلت مبشراً فرنسياً في القرن التاسع عشر يفترض أن التدخين كان أحد الأعراف والاستخدامات التي فرضها شعب المانشو وسكان منشوريا على الصينيين، ولم يكن «هونجتايجي Hangtaige، وهو الخان الذي حكم شعب المانشو في العقود السابقة على غزوهم للصين، لم يكن سعيداً، نتيجة لأن ذلك العرف أو الاستخدام قد امتد بجذوره بين رجاله. وعندما اكتشف في عام 1635 أن جنوده كانوا يبيعون أسلحتهم ويشترون التبغ مقابلها، فإنه فرض حظراً على التدخين، ولم يكن هونجتايجي وحده بين الحكام حول العالم الذي كان منشغلاً ومهموماً بالتأثيرات الاقتصادية للتدخين، ولم يكن هو وحده أيضاً العاجز عن مواجهة هذا الأمر. فمنذ سنتين سابقتين على ما قام به، قام السلطان مراد الرابع بتجريم إنتاج أو بيع أو تعاطي التبغ (وكذلك القهوة) عبر أرجاء الإمبراطورية العثمانية كلها، ومشدداً التحريمات السابقة له أيضاً بأن جعل هذه الأعمال الشريرة جرائم كبرى، ومع ذلك فلم يكن لذلك كله أدنى تأثير في جنوده. وقبل ذلك بسنة أيضاً فإن كريستيــان الرابع ملك الدانمارك حرم استيراد التبغ من النرويج، وهو التجريم الذي كان ضاراً بأتباعه الذين يعيشون هناك، وبعد إحدى عشرة سنة تالية، أبطل كريستيان مفعول هذا الحظر بأن جعله غير ملزم. كذلك فعل «هونجتايجي» الأمر نفسه قبل سنتين من

قيام كريستيان بذلك. أما السلطان مراد فلم يبطل مفعول أمره أو يلغيه، هذا مع أن موته عام 1640 كان يعني أن ذلك الحظر قد أصبح أيضاً في ذمة الله، وذلك قبل أن يُرْفَع ذلك الحظر في النرويج ومنشوريا.

وقد كانت الخطوة الأخيرة في ذلك الطريق الثالث تمتد من منشوريا إلى شرق الصين، وخاصة بيجين، وهناك كان التبغ يعرف باسم «العشب الجنوبي Southern Herb، هذا مع أن وصوله عبر الحدود الشمالية الشرقية قد جعل الصينيين يعتقدون أن التبغ كان نباتاً محلياً يزرع في كوريا. ومع بداية عام 1637 كان النوعان الأعلى سعراً بين أنواع التبغ في بيجين هما النوع الفوجي (الذي يأتي عن طريق فوجيان) والمنشوري (الذي يأتي عن طريق منشوريا)، وهذا هو السبب الذي جعل «يانج شايكونج» يلتقط الخيط الذي له علاقته بطيور القطا، والذي قاده بدوره إلى التشكك بأن للتدخين علاقة أيضاً بالتهديد الذي يمثله شعب المانشو على الحدود. هكذا فإن ذلك الطريق الثالث كان سلسلة من الوصلات التي لم يكن لأحد أن يتنبأ بها من قبل، حيث كان هناك: الإمبراطورية البرتغالية الممتدة من البرازيل وعبر جُوّه في الهند، ثم شمالاً نحو اليابان، وكذلك الشبكة التجارية الإقليمية لليابانيين حتى كوريا، ثم دائرة التبادل التجاري داخل شبه الجزيرة الكورية، والتي كانت توزع السلع في اتجاه الشمال، وصولاً إلى منشوريا، ثم التجارة العابرة للحدود بين منشوريا والصين، والتي مكّنت شعب المانشو بفضل تجارتهم العالية الأرباح مع الصين في التبغ وغيره من السلع، مثل الذهب، وأعشاب الجنسنج، مكنتهم من تمويل غزوهم النهائي للصين في عام 1644.

لقد لاحظنا أن الأوربيين خلال القرن السادس عشر قد شعروا بأنهم مجبرون على أن يجدوا طريقة تمكنهم من إضفاء المعنى على التبغ، كذلك انشغل كتاب القرن السابع عشر الصينيون بالمشكلة المتعلقة بفهم شيء ما كان أجنبياً وجديداً أيضاً هناك.

لنأخذ مثلاً ياو ليو Yao lu، وهو كاتب مجهول، يُعد كتابه «كتاب الندى» Dew Book كتاباً نادراً الآن إلى حد كبير، فقد دوّن «ياو» باختصار على عجلة منه، في النصف الأول من الكتاب، آراءه حول تلك الأمور القديمة، أما في ظهر الصفحات التالية فقد استغرق في تفكيره المتعلق بالأشياء الجديدة». وفي تلك الصفحات نجد أفكاره الخاصة حول التبغ danbagu. وقد افترض «ياو» أن قارئه جاهل بكل ما يتعلق بالتبغ من أمور ونتائج، ومن ثَمَّ فإنه شرح ذلك كله قائلاً: «إنك تستخدم النار لإحداث اشتعال في التجويف الأجوف المملوء بالتبغ من الغليون، ثم تقرب ذلك الغليون من فمك، ويذهب الدخان عبر ساق الغليون ويصل إلى حلقك». وقد شَبَّه تأثيرات استنشاق التبغ بالسُكْر أو الثمل الذي يصيب شاربي الخمر، مشيراً خلال ذلك إلى الاسم الآخر البديل للتبغ، وهو Golden Shred inebriant «المسكّر ذو مزَق الأوراق الصغيرة الطويلة الذهبية». وقد قال إن لوزون Luzon هي مصدر ذلك التبغ، وإن مرفأ القمر في جانجوه Zhangzhua هو المكان الذي يدخل منه إلى البلاد، وقد ذكر كذلك أن مزارعي جانجوه قد قاموا بتكييف هذا النبات أو موالفته على نحو جيد «بحيث أصبح ما هو موجود منه هناك الآن أكثر مما هو موجود في لوزون، وبالتالي فإنهم يشحنونه الآن

إلى ذلك الأقليم كي يباع هناك». وقد شعر المدخنون الجادون على كل حال أن التبغ المحلي لا يعادل في جودته التبغ الذي يأتي من لوزون، بالطريقة نفسها التي اعتبر الفيلبنيون من خلالها التبغ الخاص بهم أقل جودة من التبغ الأمريكي، وكذلك التي اعتبر من خلالها الإنجليز أيضا عشب التبغ (السيجارة) المزروع في بلادهم أقل جودة من التبغ الذي يأتي من فرجينيا داخل الصين. كان تبغ فوجيان هو الأفضل، وكان «الناس في وادي يانجتسي وبلاد الهون الداخلية يزرعونه»، كما ذكر كاتب صيني آخر، «لكن ما يزرعونه يفتقر إلى الصبغة اللونية الصفراء المميزة، وكذلك نعومة أوراق التبغ التي تنمو في فوجيان» ومع ذلك، فإنه حتى التبغ من الرتبة الثانية كانت له سوق رائجة خاصة به.

لم يكن كل المفكرين الصينيين يشعرون بالراحة فيما يتعلق بفكرة أن شيئاً رائعاً وعجيباً مثل التبغ، كان من حيث الأصل الذي جاء منه غريباً أو أجنبياً تماماً عنهم، وقد فضل بعضهم أن يعتقد أن التبغ كان موجوداً في الصين منذ وقت طويل، وعليه فقد قاموا بمحاولة الإحاطة بتلك السجلات الشديدة الضخامة الخاصة به في الماضي، أي مستودع الثقافة ومخزونها الخاص بالذوق الطيب؛ على أمل اكتشاف أنه كان وعلى نحو موثوق به صينياً، ومع ذلك كله، لم يكن الشاعر المصور «وو وايبه» wu weyie مستريحاً فيما يتعلق بذلك الرأي الشائع القائل: إن «أحداً لم يسمع شيئاً عن وجود نبات التدخين في الأزمنة القديمة». وقد وجد أخيراً عبارة في التاريخ الرسمي لسلالة «التانغ» Tang الحاكمة حول «نار مقدسة»، وقدم هذه الإشارة دليلاً يثبت أن

الصينيين كانوا يدخنون فعلاً في القرن التاسع الميلادي. وهكذا فإن الشروع في التدخين خلال القرن السابع عشر كان ببساطة بعثاً وتجديداً لأمر مماثل سبقه، ولم يكن هذا صحيحاً، بطبيعة الحال، لكن تلك كانت طريقة «وو» للوصول إلى نوع من التفاهم فيما يتعلق بالأصل الأجنبي للتبغ محاولاً نتيجة لذلك أن ينفي واقع الانتقال عبر الثقافي من خلال الاعتقاد بأن ممارسة التدخين كانت موجودة على نحو شامل ومؤكد جدير بالتصديق لدى الصينيين.

أما الطريقة الأخرى الأكثر كفاءة لاكتشاف موضع ثقافي ملائم ومشروع في الصين حول التبغ فكانت من خلال المجادلة، كما فعل كثيرون من قبل، بأن التبغ كان له مكانه الخاص في الطب الصيني، وأنه كان عشباً قادراً على إحداث تأثيرات قوية داخل الجسم، ورغم كل شيء، لماذا لا نُطَعِّمُ به أو ندخله ضمن النظام الموجود الخاص بالنباتات الطبية؟ وقد اعتقد «ياو لو» Yao lu مثلاً أن التبغ «يمكنه» أن يوقف الأوهام والكآبة التي يحدثها مرض الملاريا، «كما أنه ذكر أيضاً أن سحق أوراق التبغ بقوة وتحويلها إلى عجينة لدنة، وفرك فروة الرأس بها، يعمل على التخلص من قمل الرأس. كذلك قبل فانج يزهي Fang Yizhi الفكرة القائلة إن التبغ له خصائص علاجية شبيهة بالأدوية التي يصنعها الصيادلة، لكنه حذر من أن قابليته للجفاف قد تجعل الاستخدام الآمن له محفوفاً بأضرار كثيرة «إنه يمكن استخدامه للتخلص من الكآبة»، كما صرح بذلك، «لكن... الاستخدام الطويل له يرفع من درجة حرارة الرئتين، في حين أن الأدوية الطبية الأخرى ليس لها في الغالب أي أثر

مماثل، وهؤلاء الذين تصيبهم آلام التسمم بالتبغ سيتقيؤون فجأة سائلاً مائلاً إلى الاصفرار ثم يموتون».

أما أفضل تقدير طبي مبكر للتبغ فقد جاء عن طريق الطبيب والكاتب الطبي المؤثر «جانغ جيبين» Zhang Jiebin، الذي عاش في هانغ تسو Hangzhau خلال القرن السابع عشر، وقد شعر «جانغ» بالحيرة فيما يتعلق بكيفية تصنيف هذا النبات الجديد. وقد قرر على نحو خاطئ أن يضع التبغ ضمن علم الصيدلة الخاص به، وضمن مجموعة الأدوية التي تنمو في شروط سَبْخية، أي داخل المستنقعات، لكنها كانت إضافة متأخرة، وقد كان يرقم المداخل أو الأبواب في كتابه، وقد كان المدخل الخاص بالتبغ يظهر فيما بين المدخلين (77) و(78)، وتحت عنوان يمكن أن نترجمه إلى (+77). ويبدأ جانغ هذا المدخل بوصف مذاق التبغ وخصائصه، ثم يلخص بشكل عام العلل والأوجاع التي يمكنه أن يعالجها، وكذلك الشروط التي ينبغي استخدامه في ظلها. وقد أشار خلال حديثه عن التبغ إشارات متقاطعة إلى مدخله حول بذرة الفَوْفَل[3]، وهنا أشار إلى أن هذين النباتين يوحيان بالاستخدام المعتاد، لهما خاصة بين من يعيشون في الجنوب، لكن بذرة الفوفل هذه هي الألطف والأكثر لعلاج أمراض الجهاز الهضمي.

وقد اعترف «جانغ» بأنه جرب تدخين التبغ، كما ينبغي لعالم تجريبي بارع أن يفعل، لكنه على كل حال، لم يصبح متحمساً له، وقد أصدر

(3) جوز الفوفل أو نخيل الفوفل نوع من النبات المرتفع تستخرج منه ثمرة بيضاوية الشكل برتقالية اللون، غلافها فليني سهل الإنفصال عن بذرته أو «جوزته» وهي زكية الطعم تستخدم في تعطير الفم وعلاج بعض الأمراض.

تقيمياته للذوق الحريف اللاذع الخاص به، وكذلك تلك الأحاسيس التي تنتجها بضع نفثات قليلة منه. وقد وصف ذلك كله بأنه نوع من التسمم غير السار، وقد وجد أن تأثير التبغ يأخذ وقتاً طويلاً حتى يزول تدريجياً. وبالنسبة إلى هؤلاء الذين يريدون التخلص من الأحاسيس المصاحبة له ينصحهم «جانغ» بشرب الماء البارد، أو تناول السكر المكرر أو النقي، وهذه هي مواد «ين» yin السلبية القوية التي يمكنها أن تقاوم ذلك المكون شبه النقي من «يانج» التبغ الإيجابي[4]. وعندما يُتَنَاول بجرعات معتدلة، فإن قوى «يانج» الموجودة في التبغ، كما أقر جانغ، يمكنها أن تساعد الجسم على طرد البلغم، وتزيل الاحتقان، وتدفىء الأعضاء الداخلية، وتزيد من سرعة الدورة الدموية، أما عند تناول الكثير جداً من هذا المخدر، على كل حال، فسيضر أكثر مما ينفع. وهكذا، وبسبب ذلك كله، لم يكن التبغ مختلفاً عن أي نبات طبي آخر.

في النهاية أسقط التبغ التفسيرات الأقرباذينية (المستمدة من علم الأدوية) والنباتية الوهمية التي ألصقت به، كما أن تلك التنبوءات الرهيبة حول تقيؤ سائل مائل إلى الاصفرار، قد سقطت أيضاً من دائرة الاتهام. وعلى نحو خاص، فإنه بعد أن أصبح الحظر ورقة خطاب ميتة لا جدوى منها، شرع كل إنسان في الصين بالتدخين. وقد تعجب كاتب المقالات دونج هان Dong Han، الذي كان يعيش في شانغهاي أواخر القرن السابع عشر، كيف حدث ذلك كله. وقد بدأ عجبه هذا بملاحظته أنه خارج مقاطعة فوجيان، كان زهاء 1٪ أو 2٪ فقط من السكان هم الذين يدخنون قبل أربعينيات القرن السابع عشر أما بعد ذلك فإن التدخين انتشر

عبر دلتا يانجتسي، واستحوذ على المدن كلها، ثم انتشر إلى القرى، أولاً بين الرجال، ثم بين النساء. وفي زمنه ذاك أصبح من اللياقة الاجتماعية المعيارية أن يقدم التبغ للضيوف عندما يصلون إلى المكان الذي يُدعون إليه، ولم تكن لدى «دونج» أية إجابة مقنعة عن أسباب حدوث ذلك، كما أنه لم يصبح مدخناً أيضاً. لقد كان يهز كتفيه استهانة ولا مبالاة فحسب، ويقول: «ليس هناك علم حقيقي بالسبب الذي جعل هؤلاء الناس يغيرون عاداتهم الاجتماعية»، ويقدم كُتَّابٌ أخرون ملاحظات مماثلة إلى حد كبير للملحوظات السابقة حول الانتشار السريع للتدخين بين كل الطبقات، والأعمار، ولدى النوعين (الذكور والإناث). كما صاغ أحد علماء الأدوية ذلك الأمر بقوله «فيما بين هؤلاء جميعهم الذين يستمتعون بالتدخين عبر المملكة كلها، ليس هناك فرق مميز بين المرتفع والمنخفض، وبين الذكر والأنثى»، وحتى هؤلاء الصغار تماماً، وخاصة لو كانوا من فوجيان، قد تعوّدوا هذه العادة. وقد كان زوار الصين من الأوروبيين خلال القرن التاسع عشر يذهلون عندما يرون بنات في عمر الثامنة أو التاسعة يحملن الغليون والتبغ معهن في جيوبهن وأكياس نقودهن، وحتى لو كن لم يشرعن بعد في التدخين، فإنهن كن يخترن حمل الأشياء المكملة لزينتهن، والتي يحتجن إليها كي يبدون كبيرات.

كانت نساء الطبقة العليا شديدات الحماسة للتدخين، ويمكننا أن نلتقط لمحة سريعة مثيرة دالة على تلك الممارسات غير العادية التي كانت موجودة بين النساء الأنيقات من خلال تلك الملاحظة اللافتة للنظر، لغرابتها، والتي سجلها كاتب ينتمي إلى القرن الثامن عشر عندما كان

يكتب حول عادات النخبة أو صفوة المجتمع في سوجو Suzhau، ذلك المكان الذي كان المحور التجاري والثقافى المفعم بالحركة والنشاط في دلتا نهر يانجتسي، حيث يبدو أن السيدات الجليلات في سوجو Suzhau كُنَّ يدخن منذ اللحظة التي يستيقظن فيها، حتى اللحظة التي يذهبن خلالها إلى النوم. ومع التسليم بجداولهن الاجتماعية المزدحمة، فإن عادة التدخين كانت تمثل ضغطاً على كيفية تنظيمهن ليومهن، وبصفة خاصة صباحهن. ويقول الكاتب إن سيدات «سوزو» الأنيقات كُنَّ يرفض مغادرة أسرّتهن قبل أن يُدّخِن الغليون المملوء بالتبغ مرات عدة. وحيث إن ذلك كان يعمل على تأخير مهمتهن الشاقة لكنها الجوهرية والخاصة بتصفيف شعرهن وإكمال زينتهن قبل أن يظهرن للعيان، فإنهن كُنَّ يأمرن خادماتهن أن يصففن شعرهن وهن مازلن نائمات. وبهذه الطريقة يستطعن توفير الوقت المناسب للتدخين قبل أن يغادرن الفراش، وهذا المشهد يصعب تخيله قليلاً.

كانت النساء الصينيات يدخن بشراهة مثلهن مثل الرجال، لكن اعتقد أن أجسادهن كانت مختلفة، والتدخين لا بد أن تكون له تأثيرات مختلفة في تلك الفروق الفيزيولوجية التي بين الرجال والنساء. ولأن الرجال من النوع الذي يتبع اليانج yang (القوى الإيجابية) فإنهم يكونون قادرين على نحو أفضل على مقاومة تلك الحرارة الخاصة بالتدخين. إن اليانج أو العنصر القوي الخاص بأجسادهم يقاوم اليانج (العنصر القوي) الخاص بالتبغ. أما النساء فهن نوع كان يتبع الين yin، وكما أن تكوينهن الجسدي الواهن قد تلحقه أضرار بالغة نتيجة لتأثير مثل

هذا القدر الكبير من (اليانج) فيه. إنهن يحتجن إلى حماية أنفسهن من هذا التطرف أو الإفراط الطبيعى في (اليانج) الذي يجلبه التدخين معه. لم تكن القضية لو تحدثنا على نحو محدد متعلقة بالنوع الجنسي (ذكر في مقابل أنثى)؛ وذلك لأن الأطباء كانوا يقدمون للرجال المسنين، والذين يكون (اليانج) الطبيعى الخاص بهم ضعيفاً، النصيحة نفسها. وبالنسبة إلى هاتين المجموعتين كان يمكن إنقاص أو تقليل العنصر الضار (اليانج) الخاص بالتبغ من خلال سحبه بالفم بواسطة غلايين طويلة الساق (أو العنق). لقد كان الغليون الصيني نوعاً من التقليد أو المحاكاة للغليون الذي استخدمه سكان الأمريكتين الأصليون، وكذلك كانت الغلايين التي استخدمت في أوروبا على نحو مبكر، لكن ساق الغلايين الصينية أصبحت أطول فأطول، وفيما بين النساء أصبحت تلك الغلايين تقريباً غير ملائمة غالباً. وهناك امرأة شاعرة عاشت في القرن الثامن عشر، يتم تذكرها فقط على أنها زوجة المعلّم «لو»، وقد كانت تتفكه من عدم الملاءمة والإزعاج اللذين يسببهما تدخين مثل ذلك الغليون في غرفة الملابس الخاصة به.

«هذه العصا الطويلة الخارجة من غليون التبغ
أكبر كثيراً من أن توضع على طاولة مرآتي
وعندما أرفعها تمزق ورق النافذة
فأثبت بخطاف ضوء القمر وأضع قطعة من ضوئه منه في غليوني»

وهناك طريقة أخرى لتلطيف أو تخفيف تأثير حرارة التبغ كانت تتم عن طريق تبريد الدخان من خلال تمريره عبر تلك المواد الأساسية المميزة

yin أي الماء، ومن هنا كانت جاذبية ذلك الغليون المائي، أو النرجيلة (أو الشيشة) hookah، وعلى غير تلك الحال التي كانت موجودة في العالم الخاص بالإمبراطورية العثمانية، حيث تم تطوير النرجيلة أولا، فإن الغليون المائي، في الصين، كان يحتفظ به على نحو استثنائي للنساء فقط. وفي الحقيقة، فإن الغليون المائي الجميل الصنع أصبح علامة على المرأة الأنيقة، وخلال القرن التاسع عشر لم تكن أية امرأة راقية تتنازل أو تتلطف وتقبل نفث الدخان من غليون منبسط الساق. لقد كانت الغلايين للرجال والطبقات الدنيا، وقد استمرت هذه الآلية السائدة في قيامها بتأثيرها أيضاً عندما بدأت السجائر التي تنتجها المصانع في الوصول إلينا بداية القرن العشرين، وتابعت معركتها طويلة الشد والنفث ضد الغلايين. إن رجلاً ما قد يعتاد تدخين السجائر، أما المرأة التي كانت تدخن سيجارة فقد كان ينظر إليها على أنها غير محتشمة. وعلى كل حال، فإنه عندما نصل إلى عشرينيات القرن العشرين فإن أنثى المدنية المتكلفة لم تكن لتقع في شرك تدخين الغليون، لقد كان ذلك يحدث بالنسبة إلى الساحرات الشمطاوات الموجودات في أعماق القرى.

ومثلما قامت النساء بمواءمة التبغ مع حياتهن بطرائق تتناسب مع عاداتهن الخاصة، فكذلك فعل الرجال، فقد كان ذوق الرجال الذين ينتمون إلى الطبقات الراقية متفقاً مع متطلبات الحياة الاجتماعية الأنيقة والممتازة، وقد أرادوا أن يُنْظَر إلى إدمان التبغ على أنه جزء من الأسلوب يجعل الرجل راقياً، وليس من العامة. ومع التسليم بأن كل إنسان أصبح

يدخن، فإنه لم يكن واضحاً على نحو مباشر كيف يمكن القيام بتلك العملية. ولكن وعلى نحو تدريجي طُوِّرَتْ مجموعة من العادات أو الأعراف من أجل إكساب التدخين مظهراً متزايداً متعلقاً بالتهذيب المميز. وكي يبدأ هذا الأمر، كان على المرء أن يشتري أغلى أصناف التبغ سعراً؛ وذلك لأن السعر كان يفترض أنه هو الذي يميز بين المتمكن الخبير في التبغ والمستهلك العادي له. ومع ذلك، فإن هذا لم يكن حاجزاً كافياً لتمييز النخبة والعامة؛ وذلك لأن أي إنسان يمتلك قدراً كافياً من المال، وحتى دون أي ذوق، يمكنه أن يدخل تلك الدائرة الساحرة بناء على هذا الأساس.

ومن ثَمَّ كان ينبغي أن تكون هناك طقوس تدور حول هذه الأنشطة تميز بين الرجل المهذب الأنيق، وذلك الغني الجلف أو الفظ، أي أن على الرجال المهذبين أن يمارسوا الانغماس في التدخين على نحو مختلف عن ممارسة الناس العاديين له.

وإحدى الطرائق التي كوّن من خلالها الرجال المهذبون ذوقهم الخاص للتبغ على نحو مختلف هو أن يتعاملوا مع ذلك الدافع القهري للتدخين على أنه علامة مميزة للرجل الراقي السلوك المهذب الحقيقي. فالرجال المهذبون كما أعلن أحد معلقي تلك النخبة «لا يستطيعون القيام بشيء دونه، مهما كان قصر الوقت الذي يحتاج إليه هذا الشيء، وإلى نهاية حياتهم لا يضجرون أبداً منه»، هكذا لم يكن الإدمان هنا نوعاً من القصور الجسمي، كما نميل إلى تفسيره الآن؛ بل علامة على العقل الشغوف، فالرجل المهذب لا يدخن لمجرد أنه يحب ذلك، فكل

إنسان يجب أن يدخن، لكنه يفعل ذلك لأن طبيعته الحساسة هي التي تحوله إلى «يانكي» yanke أي «ضيفاً للتبغ»، أو إلى «عبد عند التبغ يعمل دون أجر».

لقد كان الرجل الراقي يشعر بتلك الرغبة التي تدفعه إلى التدخين وكأنها إلحاح قهري جدير بالاحترام والتبجيل، شيء لا تسمح له طبيعته النقية الصافية أن يؤدي شيئاً دونه، ويبدو ذلك كله لنا وكأنه طريقة رفيعة لتفسير ذلك الإدمان للنيكوتين قبل أن يصبح ذلك المفهوم متاحاً، ولكن بالنسبة إلى النخبة الصينية كان ذلك الأمر يمثل ما هو أكثر من ذلك بالنسبة إليهم. لقد كان مَعْلَما مميزاً للطبقة الاجتماعية، وقد تجسد بعمق في تلك المعايير الثقافية الخاصة التي كانت سائدة في الصين، تلك الإمبراطورية الماضية المنصرمة، وحول هذا المعنى الخاص بالإلحاح القهري نمت ثقافة نخبة حول التدخين، وقد تطوع الشعراء لتدبيج المدائح حولها. هكذا بقيت مئات القصائد حول موضوع التبغ حية حتى الآن، وهي تعود إلى القرنين السابع عشر. والثامن عشر وقد كتب الشاعر الشهير شن ديكيان Shen Dqian مجموعة كاملة من قصائد التبغ، وخلالها قدم التبغ وعرضه على أنه المتعة الأكثر تهذيباً بين المتع، ووسيلة التسرية عن النفس الأكثر امتيازاً، وبشكل يتجاوز تماماً تذوق الناس العاديين، والذين لو ظهروا في القصائد لظهروا خَدَماً لا مدخنين. وفي القصيدة التالية يصف «ديكيان» غليونه العاجي:

«من خلال غليوني أسحب البخار المشتعل
ومن خارج صدرى أنفث السحب البيضاء

ويحمل الخادم الرماد بعيداً
ثم يحضر الخمر معه لتعظيم أثر الخَدّر
وأشعل النار فيه كي أميز المذاق
وأدعه يتوهج داخل ناب الفيل»[5]

ويقدم الدخان بدوره للشاعر صوراً تسمح له بأن يوحد بين التدخين، والسُّحُبِ، والمملكة السماوية للخالدين من أتباع التاو، ويقع ذلك كله فيما وراء ما يمكن أن تصل إليه الخبرة الخاصة بالبشر العاديين، وهناك شاعر آخر أيضاً ربط بين دخان التبغ وتحضير الأرواح أو استدعائها، كالبخور الذي يحرق أمام ألواح الأسلاف:

«يتصاعد العبير الجامع للروح
على امتداد البلاد، وفي كل وقت كان يقطف فيه النبات...
وأضحك حين أتصور أنه في تلك الأيام الخوالي لم تكن هناك
سوى أوراق الشجر العادية
ويزداد ضحكي كلما أشاهد الدخان والسحب يتدفقان منك»

لقد ظهرت تلك القصائد في مقتطفات أدبية مختارة (أنثولوجيا) من الشعر والنثر المُكَرَّسِ كله تماماً للموضوع الرئيس الخاص بالتدخين، وقد جُمِعَتْ هذه المختارات خلال القرن الثامن عشر، وقام بذلك تشن كونج chen cong، وهو رجل مهذب، كان يحيا حياة الترف غرب

شانغهاي مباشرة، وقد كانت له شهرة محلية بأنه شاعر، لكن كتابه حول التدخين المسمى «كتيب تعليمات التبغ» Tobaco Manual Booklet هو الأكثر شهرة، فقد كان التدخين هو الشغف الأكبر في حياته، وقد كانت الطريقة الوحيدة لديه لتفسير ذلك الشغف هو أن يفترض قرابة وصلة وثيقة بينه وبين حياته الماضية، فقد فكر ملياً في أنه لا بد أنه كان راهباً بوذياً ذات مرة، «وربما كنت أقوم بحرق البخور في حياة سابقة لي»، هو ما يفسر لماذا كان مدفوعاً إلى استنشاق الأدخنة المتصاعدة المتوهجة في هذه الحياة. وفي كتابه هذا اختار مقتطفات من أعمال الشعراء البارزين الآخرين، أمثال «شن ديكيان» shen Deqian، لكنه ضمَّنه أيضاً بعض القصائد التي كلّفَ بعض أصدقائه بكتابتها خصيصاً لهذا المجلد. وقد استجاب أحد أصدقائه لدعوته تلك بأن وصف تشن بأنه «صديقي الموشك على الوصول، وهو يأتي إلى بيته، ومن الطبيعي أن الأدب أو اللياقة كانا يقتضيان منه أن يستقبل زائره بأن يقدم إليه دخاناً».

«لقد أنتج صندوق التبغ هذا صدفةً لصديقي الموشك على المجيء
رجلٌ مهذبٌ عرف كل أحوال قلبي لعقد مضى من الزمان
حيث كانت تتفتق البراعم الشعرية من ريشته
منذ طفولته الأولى والآن يولد كتاب التبغ صاعداً من بين سحب دخاننا»

وإذا كان «تشن كونج» chen cong هو المؤرخ الإخباري الأدبي للتسلسل الزمني للتدخين، فإن «لوياو» Lu Yao هو الوسيط أو الحكم في موضوع تذوقه. ويعد كتاب «كتيب تعليمات حول التدخين»، الذي ظهر عام 1774، كتاباً توثيقياً كتبه «لو» حول الممارسات الخاصة بالتدخين، كما يُعد دليلاً مرشداً يشرح كيف يمكنك أن تدخن على نحو مهذب أو ممتاز في الأزمنة الحديثة. «لم يعد هناك رجل مهذب واحد لا يدخن»، هكذا صرح لو وأضاف كذلك: «إن البشر يمكنهم أن يستغنوا عن الشراب (الكحولي) والطعام، لكنهم لا يستطيعون العيش أبداً دون التدخين». وحيث إن كل إنسان كان يدخن، فإنه كان من الضروري بالنسبة إلى المدخن حَسَنُ التربية أن يتعلم كيف يقوم بذلك على نحو مختلف عن ذلك الذي يقوم به، شخص ريفي ساذج من العوام. لقد كان التدخين يمثل جانباً مهماً من شخصية المرء، وينبغي القيام به بطريقة تعبر عن التميز للمدخن، ومن أجل هذه الغاية قام «لو» بتجميع وتصنيف قوائم كثيرة حول أصول اللياقة أو الذوق الجميل والذوق الرديء في التدخين، أي متى يكون ملائماً أن تدخن، ومتى يكون ذلك محرماً، ومتى ينبغي أن يكبح المدخن رغبته في التدخين، ومتى يمكنه أن يفعل ذلك دون إزعاج للآخرين. وقد قد ذكر أيضاً أنه «حتى النساء كلهن والأطفال كلهم «توجد غلايين في أيديهم أيضاً»، ولكن تعليماته تلك لم تكن لهم، بل كانت لأقرانهم الاجتماعيين.

وقد حدد «لو» مناسبات معينة تكون مناسبة لإشعال التبغ، مثل أن تكون قد استيقظت تواً من النوم، وبعد تناول وجبة طعام، وعندما تكرم

وفادة ضيف. وقد أيد كذلك الرأي القائل إن التدخين أحد مثيرات الكتابة، كما يعتقد كثير من المعاصرين الآن، «فعندما تقوم بترطيب الحبر، ولعق فرشاة الكتابة لتأليف الشعر، ولكنك لا تستطيع أن تطلق العنان لأفكارك، استغرق في تأمل هادئ، ودخن بعض التبغ الصافي، إن ذلك قد لا يصلح، ولكنه قد يكون فيه بعض العون»، وهناك على كل حال، مناسبات لا تتفق أبداً مع التدخين، مثل وقت استماعك إلى موسيقا الآلات الوترية مثلاً، أو تنظر إلى شجرة برقوق أو خوخ وهي تزهر أو تتفتح زهورها، أو في أثناء قيامك بطقس خاص من المراسم أو الشعائر. ويُذكِّر «لو» قُرّاءه بأن التدخين يكون على نحو محدد غير مناسب عندما تظهر أمام الإمبراطور، كما لا ينبغي الانغماس فيه عندما تكون تمارس الحب مع امرأة جميلة، وقد كان يقصد بها أية امرأة أخرى غير زوجتك.

ويزخر كتاب «لو» هذا بالنصائح العملية، فلا تدخن وأنت تمتطي صهوة حصان، حيث يمكنك أن تلصق جراب التبغ والغليون خاصتك، أو تعلقهما في حزامك بحيث يمكنك أن تدخن عندما تصل إلى المكان الذي كنت تقصده، وأن تنسى وقتها، أن تحضر معك تبغك الخاص يمكن أن يضعك في موقف مُربك أو محرج بعد ذلك، لكن لا تشعل التبغ حتى تترجل عن فرسك. وعلى نحو مماثل، فإنه إذا كنت تمشي فوق أوراق أشجار سقطت على الأرض فإن ذلك ليس وقتاً طيباً لإشعال التبغ، وكذلك الحال لو كنت تقف قريباً من كومة من الورق القديم. ويقدم «لو» كذلك بعض الإلماعات المفيدة في حفظ ماء الوجه



المتحمس لتدخين التبغ تشن كونج (مأخوذة من كتابه كتيب تعليمات التبغ 1805).

فيما يتعلق باللياقة أو الذوق الاجتماعي: لا تدخن وأنت تسعل ويخرج البلغم من فمك، أو عندما يكون تنفسك يحدث صوتاً خشناً مزعجاً. وإذا حاولت أن تشعل غليونك ولم توفق في ذلك، ضعه فوراً جانباً باختصار، لا تدع تدخينك يخلق مظهراً بائساً لك. وهناك أخيراً، نصيحة استراتيجية مقدمة من أجل هؤلاء المثقلين بالأعباء الاجتماعية، فإذا كان هناك ضيف معك، وأن تفضل أن تراه يرحل، لا تخرج التبغ أمامه، ومن ثَمَّ فإنه سيشعر بالضجر وثقل الوقت، ويمضي إلى حال سبيله.

وقد تغير الشكل الخاص بتلك العادة الأنيقة الخاصة بالتعاطي النقي على نحو غير متوقع خلال القرن التاسع عشر، فتحول إلى شيء ما مختلف تماماً عنه، وغير متوقع أيضاً، ألا وهو تعاطي الأفيون، فنبات الخَشْخاش الذي يستخلص الأفيون منه كان مثله مثل التبغ ذا أصل أجنبي، هذا مع أنه ومنذ وقت طويل كان يتم الاحتياج إليه في الصين بوصفه دواءً غالي الثمن يستخدم للخلاص من عدد كبير من العلل والأوجاع التي تمتد من الإمساك، وتشنجات البطن أو المغص، وحتى آلام الأسنان، والضعف الجسمي العام. وهو لم يكن شيئاً، على كل حال، يمكنك تدخينه. لقد كان يؤخذ على هيئة حبوب (أقراص)، أو في شكل مستحضر سائل. ووفقاً لبعض التقارير فقد أرسلت كمية معتبرة من الأفيون إلى القصر الملكي خلال الفترة الأخيرة من حكم سلالة المنغ الحاكمة، وقد وضع عليها اسم لطيف: «الطب الخبازي» Hibiscus Medicine. (القائم على استخدام الخبز والنباتات والعطور) وهناك، في ذلك القصر، استخدمت تلك المادة في أغراض علاجية طبية، وليس مخدراً ترويحياً. ومع التسليم بالفهم العام الذي فحواه أن كل الأشياء التي تُتَنَاول كطعام تؤثر في الحالة العامة الجيدة للجسم، فإن الخط الفاصل بين هذين الغرضين العلاج والترويح، لم يكن مرسوماً هناك، على نحو حاد أو فاصل تماماً.

عند منعطف القرن السابع عشر، بدأ الهولنديون يجلبون الأفيون معهم من الهند إلى جنوب شرق آسيا، حيث كانوا يبيعونه هناك كمادة مغيِّرة للحالة المزاجية للفرد نحو الأفضل، وبخاصة فيما يتعلق

بالأغراض العسكرية. فقد كان يعتقد أن الأفيون عندما يعطى للجنود يجعلهم شجعاناً لا يخشون شيئاً. وفي عام 1605، كانت شركة الهند الشرقية الهولندية قادرة على أن تستخدم هدية من البارود وستة أرطال[6] من الأفيون كي تغري ملك تيرنيت Ternate، وهي واحدة من أصغر جزر التوابل، تعتز بإنتاجها الضخم من بهار القرنفل. هكذا كان على الهولنديين أن يستخدموا الاثنين البارود والأفيون في صراعهم ضد منافسيهم المزاحمين لهم في تجارتهم. وعندما قام المسلمون في الأجزاء الجنوبية من الفلبين بمحاربة الإسبان خلال العقد التالي، قيل إن أحد فريق الاغتيالات منهم، والذي أرسل في مهمة خاصة لقتل القائد الإسباني، غَيّرَ حالته الانفعالية فأصبح لا يخشى شيئاً من خلال تعاطيه الأفيون قبل أن ينفذ المهمة الموكولة إليه.

وقد اتسع تعاطي الأفيون فقط عندما اسْتُخدم أو مُزِجَ مع عنصر فعال آخر، وعن طريقه كان يمكن تقديم أو توصيل ذلك المخدر في شكل لذيذ المذاق، ولم يكن ذلك العنصر الفعال الآخر سوى التبغ نفسه. هكذا كانت يتم نقع أوراق التبغ في محلول مشتق من النُّسغ أو المادة السائلة في عروق وساق النبات الخاص بنبات الخشْخاش من أجل الحصول على مادة مصنعة أكثر تأثيراً من التبغ بدرجة كبيرة، وقد كان يُطلَقُ على هذه المادة المعالجة الجديدة اسم «المداق» Madak[7]، ويبدو أنه قد تم التعامل معها كحالة معدلة أكثر فاعلية من التبغ، وليس كعقار مخدر مختلف تماماً. وقد بدأت تلك الممارسة بين الصينيين الذين كانوا يتاجرون مع الهولنديين في تايوان، حيث احتفظ الهولنديون لهم هناك

بقاعدة لفترة وجيزة وحتى عام 1662، ومن تايوان تسلل ذلك المخدر إلى الصين. ويفترض «تشنج كونج» أنه قد وصل عن طريق المسار نفسه الذي كان يصل التبغ من خلاله، فيدخل مرفأ القمر من مانيلا، لكن الهولنديين وليس الإسبان هم الذين ينسب إليهم السبق في إدخال ذلك المخدر إلى هناك، وتلك أيضاً جديلة أخرى في شبكة «إندرا» التي كانت موجودة خلال القرن السابع عشر.

كان هناك شيئان مشتركان بين التبغ والأفيون، فالاثنان كانا يُدخَّنان، وكذلك فإنهما جاءا إلى الصين من مكان بعيد ومن خلال أيدٍ أجنبية. وقد قرر «لو ياو» lu yao و«تشن كونج» كلاهما أن ذلك كان كافياً لتبرير تضمين موضوع الأفيون داخل كتيبات تعليماتهما حول التبغ، هذا مع أن الأفيون كان يتحول بعيداً عن الـ«المذاق» في ذلك الوقت تماماً، ففي أواخر القرن الثامن عشر، لم يعد يتم تدخين الأفيون لـ «مذاق»، لقد كان يتم تعاطيه مباشرة من خلال إشعال قطع صغيرة منه داخل تجويف الغليون، في حين يكون الغليون موضوعاً على نحو مائل فوق مصباح زيتي، ثم استنشاق الدخان عن طريق ساق الغليون أو عنقه، هكذا وصلت الطريقة الحديثة المميزة لتعاطي الأفيون إلى شكلها المميز.

من الأشياء التي كان «تشن كونج» قادراً على معرفتها حول الأفيون، أن مادته الفعالة ليست مجرد مادة فعالة أقوى من تلك المادة الفعالة الموجودة في التبغ، وهو يقدم هذه النقطة بعد أن يقتطف مستشهداً على نحو مطول بذلك الوصف المجهول المصاحب للخدر الذي يحدثه



صورة للوحة رقم (1) يوهانس فيرمير: مشهد من دلفت (موريشيوس، لاهاي) هذه واحدة من لوحتين رسم فيهما فيرمير مشاهد خارج المنزل، وهي تصور صورة ظلية أو خط السماء Skyline لمدينة دلفت كما تُرى من الاتجاه الجنوبي الشرقي عبر كولك ميناء دلفت النهري وقد رُسِمَتْ عام 1660 أو 1661.

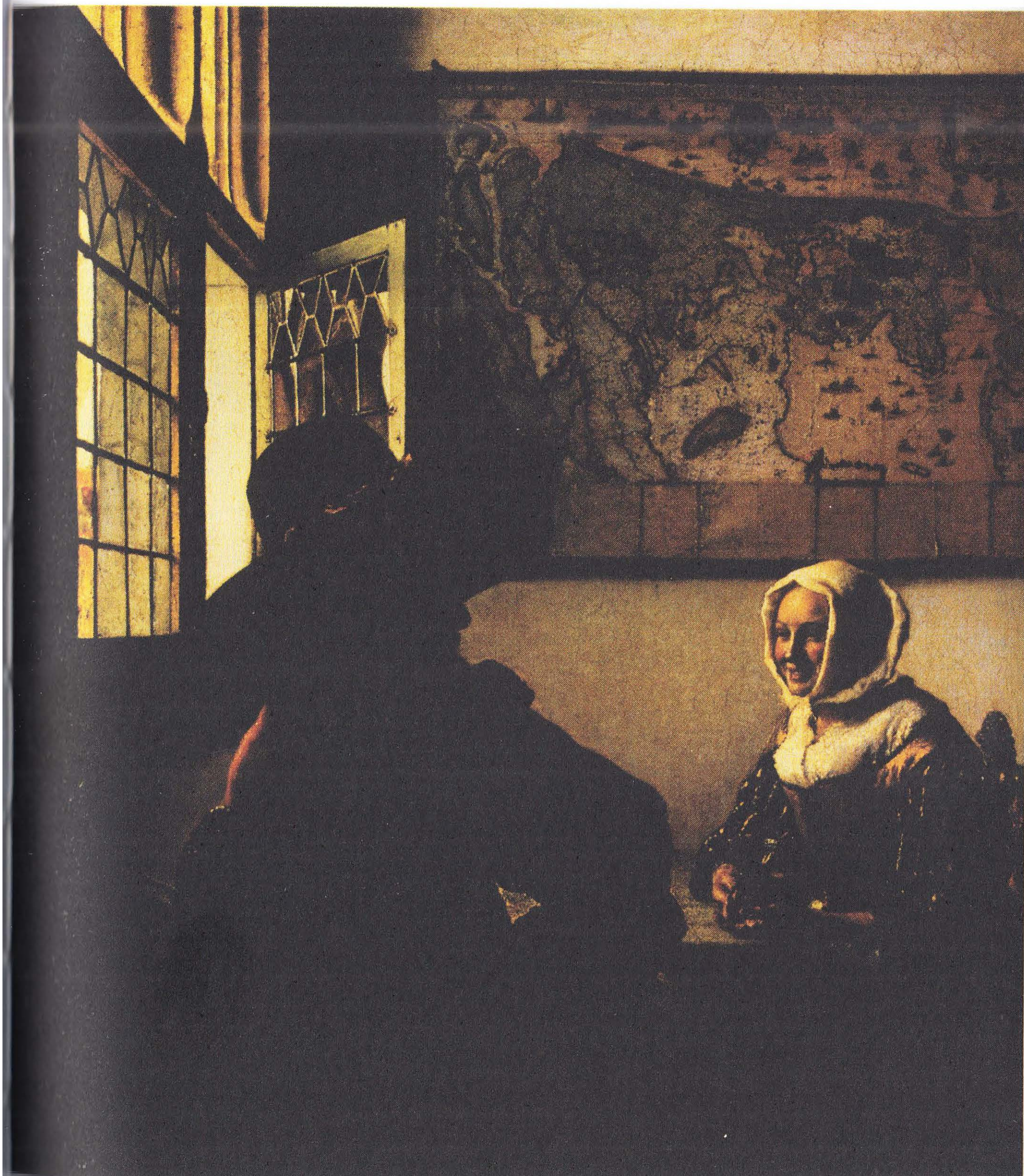
بقاعدة لفترة وجيزة وحتى عام 1662، ومن تايوان تسلل ذلك المخدر إلى الصين. ويفترض «تشنج كونج» أنه قد وصل عن طريق المسار نفسه الذي كان يصل التبغ من خلاله، فيدخل مرفأ القمر من مانيلا، لكن الهولنديين وليس الإسبان هم الذين ينسب إليهم السبق في إدخال ذلك المخدر إلى هناك، وتلك أيضاً جديلة أخرى في شبكة «إندرا» التي كانت موجودة خلال القرن السابع عشر.

كان هناك شيئان مشتركان بين التبغ والأفيون، فالاثنان كانا يُدخَّنان، وكذلك فإنهما جاءا إلى الصين من مكان بعيد ومن خلال أيدٍ أجنبية. وقد قرر «لو ياو» lu yao و«تشن كونج» كلاهما أن ذلك كان كافياً لتبرير تضمين موضوع الأفيون داخل كتيبات تعليماتهما حول التبغ، هذا مع أن الأفيون كان يتحول بعيداً عن الـ«المذاق» في ذلك الوقت تماماً، ففي أواخر القرن الثامن عشر، لم يعد يتم تدخين الأفيون للـ «مذاق»، لقد كان يتم تعاطيه مباشرة من خلال إشعال قطع صغيرة منه داخل تجويف الغليون، في حين يكون الغليون موضوعاً على نحو مائل فوق مصباح زيتي، ثم استنشاق الدخان عن طريق ساق الغليون أو عنقه، هكذا وصلت الطريقة الحديثة المميزة لتعاطي الأفيون إلى شكلها المميز.

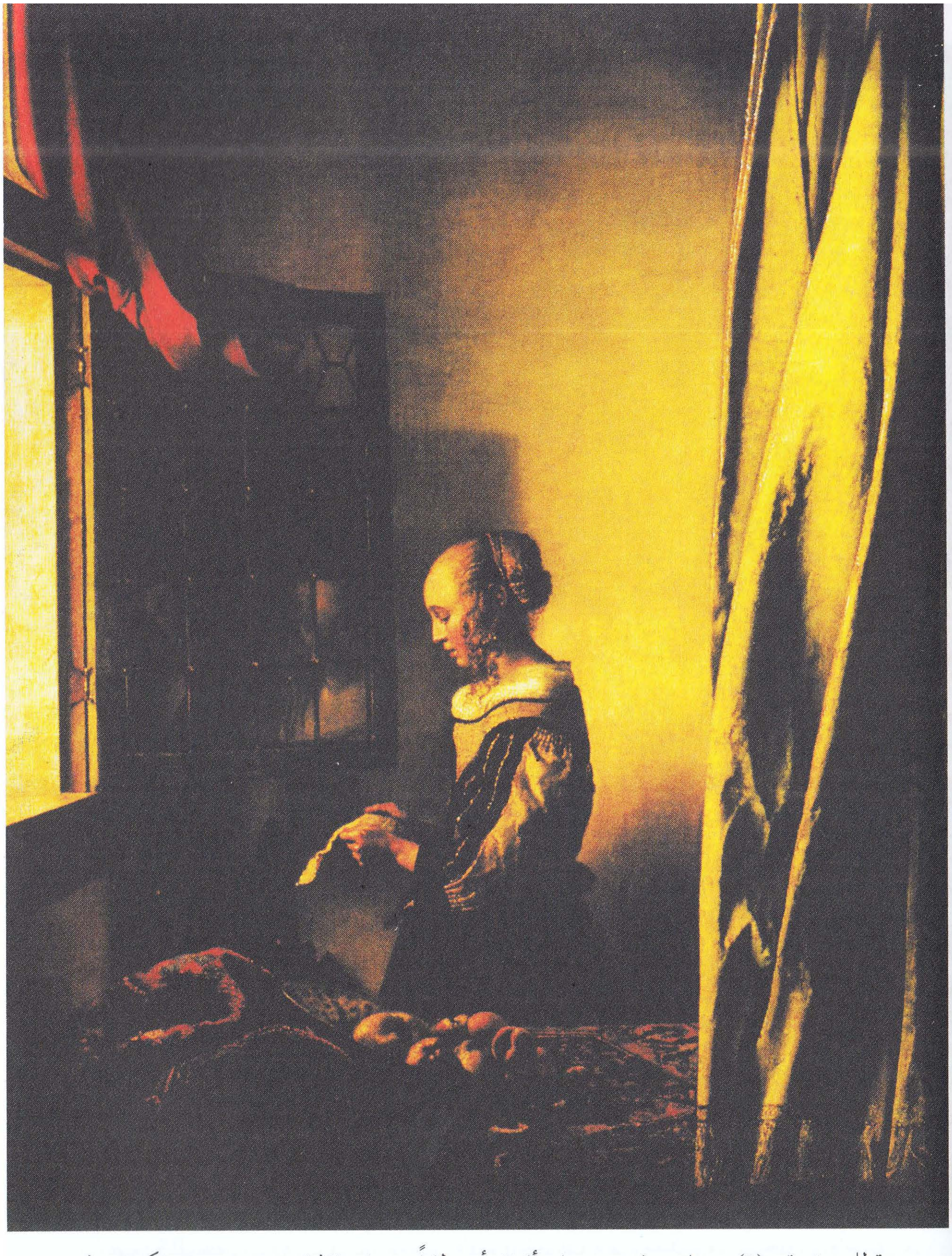
من الأشياء التي كان «تشن كونج» قادراً على معرفتها حول الأفيون، أن مادته الفعالة ليست مجرد مادة فعالة أقوى من تلك المادة الفعالة الموجودة في التبغ، وهو يقدم هذه النقطة بعد أن يقتطف مستشهداً على نحو مطول بذلك الوصف المجهول المصاحب للخدر الذي يحدثه



صورة للوحة رقم (1) يوهانس فيرمير: مشهد من دلفت (موريشيوس، لاهاي) هذه واحدة من لوحتين رسم فيهما فيرمير مشاهد خارج المنزل، وهي تصور صورة ظلية أو خط السماء Skyline لمدينة دلفت كما تُرى من الاتجاه الجنوبي الشرقي عبر كولك ميناء دلفت النهري وقد رُسِمَتْ عام 1660 أو 1661.



صورة للوحة رقم (2) يوهانس فيرمير: الضابط والفتاة الضاحكة (مجموعة فريك Frick، نيويورك) هنا أضفى نوعٌ من التحريف البسيط في المنظور حالةً ديناميةً على المحادثة التي تدور في اللوحة، والتي ربما تحولت لو نُفِّذَتِ اللوحة بطريقة أخرى مجرد محادثة ساكنة عادية، وتعود اللوحة إلى عام 1658.



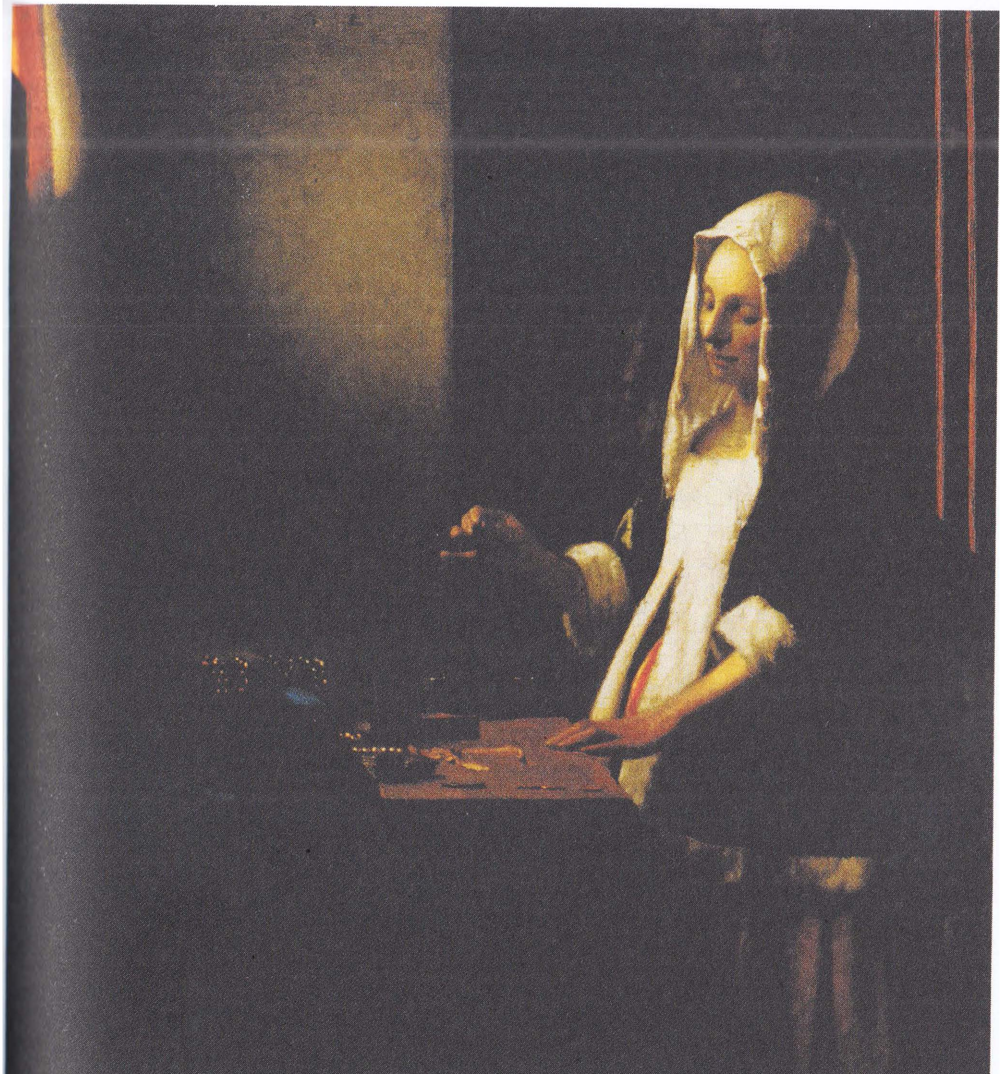
صورة للوحة رقم (3) يوهانس فيرمير: «امرأة تقرأ خطاباً بجوار نافذة مفتوحة» وقد تكون هذه اللوحة هي الأولى من بين أعمال كثيرة أنتجها فيرمير بجوار نافذة رسمه العلوي، وتُظهر السجادة والفاكهة في أمامية اللوحة الاستخدام الأول للأسلوب التنقيطي Pointlist في التصوير، وقد رُسِمَتْ عام 1657.



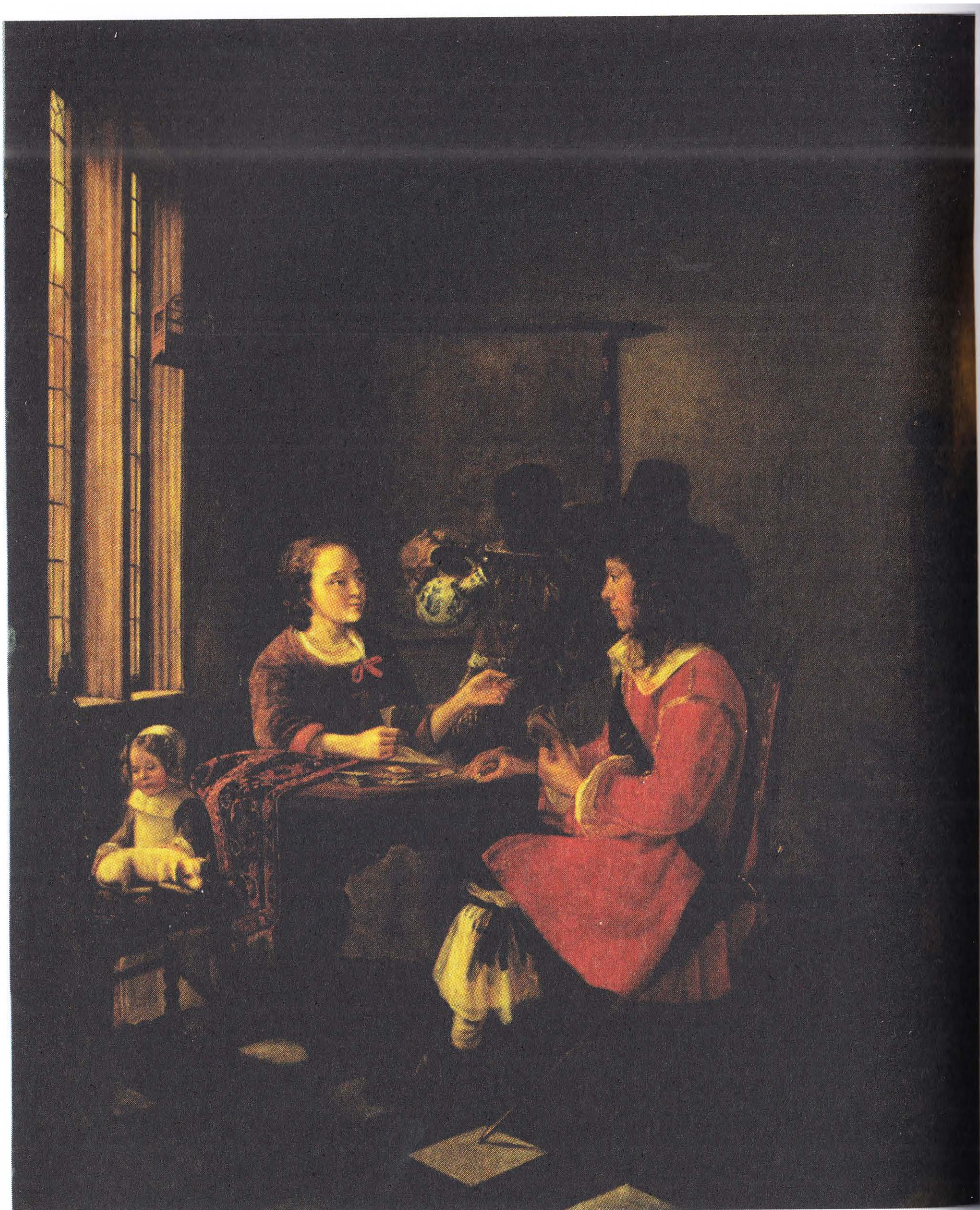
صورة للوحة رقم (4) يوهانس فيرمير: العالم بالجغرافيا وهي واحدة من لوحتين، الأخرى هي «العالم بالفلك» وربما تَمَّ تكليف فيرمير برسمهما، وهي عن رجل مثقف ربما كان هو أنطوني فان ليفيهويك، وعلى الرغم من أن التاريخ الخاص بالعام 1669 يظهر على الحائط أسفل توقيع فيرمير ليس صحيحاً، فقد يكون تصويباً للتاريخ الذي رسم فيه فيرمير هذه اللوحة.



صورة رقم (5) صحن من متحف «لامبرت فان ميرتن» في دلفت وربما صُنِعَ ذلك الصحن في نهاية القرن السابع عشر تقريباً، وزخرفتة شبه الصينية تصور خمساً من الشخصيات الدينية في السحب في أمامية الصورة، وتشكيلة أخرى من الشخصيات: الذكور والإناث في حديقة صينية خلفهم.



صورة للوحة رقم (6) يوهانس فيرمير: امرأة تمسك بميزان (مجموعة وايدنر، متحف الوطني للفنون، واشنطن العاصمة) وقد أنتج فيرمير عمله هذا عام 1664 وهذا النموذج ربما كانت زوجته كاترينا بلونز، تُمَثِّله اللوحة القوى الإبداعية في مرحلة من التوهج المرتفع في طاقة فيرمير الإبداعية.



صورة للوحة رقم (7) لاعبو الورق (معهد ديترويت للفنون – هدية من السيد والسيدة: جون نيوبيري) وهنا يعالج فان دير بيرش موضوع المحادثة من جلوس بين ضابط وامرأة شابة بشكل مختلف عن معالجة فيرمير لها في لوحته «الضابط والفتاة الضاحكة» ويعود تاريخ هذه اللوحة إلى عام 1660 عندما كان بيرش في ليدن أو أمستردام؛ وذلك لأنه قد غادر دلفت عام 1655.

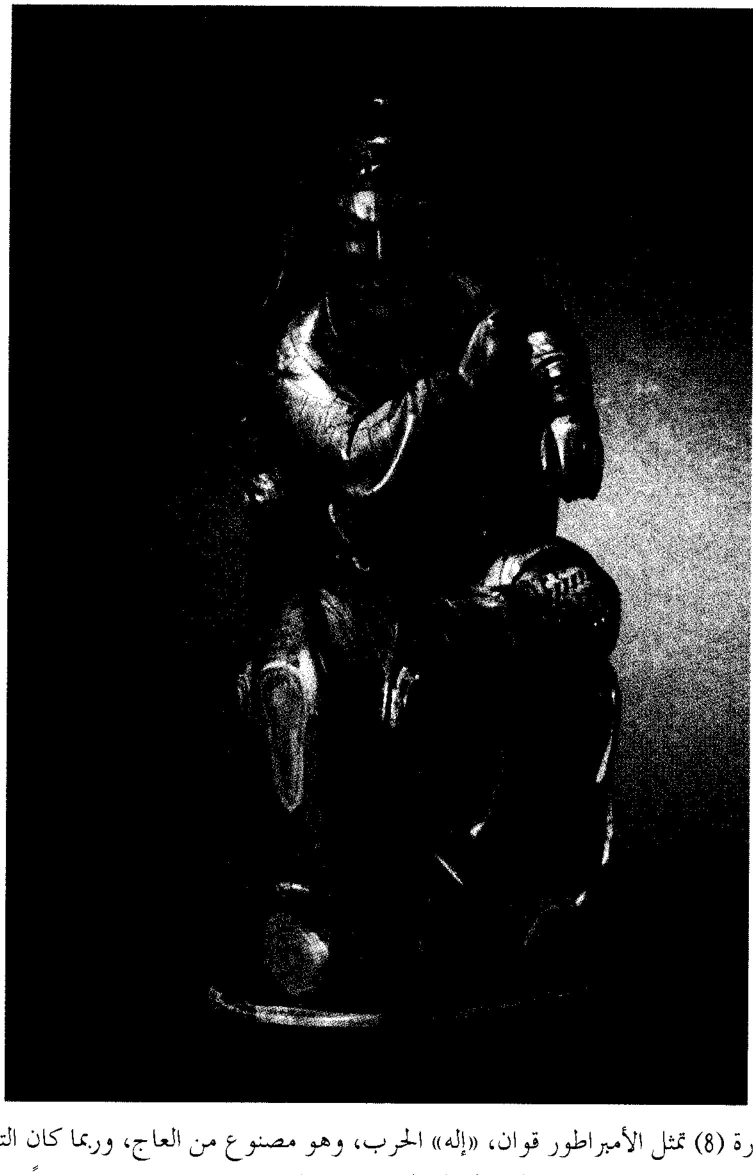


صورة (8) تمثل الأمبراطور قوان، «إله» الحرب، وهو مصنوع من العاج، وربما كان التمثال الذي انتشله ذلك الشخص المتحول إلى المسيحية داخل مانيلا في يناير 1640م نسخةً معاصرة شبيهة للشخصية الموجودة في هذا التمثال.

الأفيون بوصفه «مملكة السعادة المطلقة»: «كيف يمكنني أن أصف جمال الأفيون؟ إن رائحته عبقة، ومذاقه شديد الحلاوة، وهو يعالج جيداً الروح المنقبضة والأفكار السوداوية، فمجرد أن أرقد وأتكئ مستريحاً على ذراعي كي أستنشقه، فإنه ينعش روحي، فيصفو عقلي، وتصبح رؤيتي البصرية للأشياء أكثر حدة، ويتسع صدري، وتصبح قوتي مضاعفة، ثم وبعد وقت ما تصاب عظامي وأعصابي بالتعب، وترغب عيناي في النوم، وعند هذه اللحظة أضع وسادتي بقوة في الوضع المناسب، ثم أرقد في سلام تام دون أن ألقي بالاً لأي شيء في هذا العالم». وقد رد عليه «تشن» متشككاً بقوله: «أوه، هل هذا حقيقي؟». على الشاكلة نفسها كان «لو ياو» lu yao متشككا فيما يخص ذلك الشكل القوي الفعال من «التدخين»، بل إنه أعاد إلى الحياة من جديد شبح الموت الناتج عن التدخين، وهو ذلك الشبح الذي نحتته الحكمة الصينية التي كانت ملازمة للتبغ جانباً، وأبطلت تأثيره منذ قرن مضى.

كانت مملكة السعادة المطلقة» الخاصة بالأفيون مكاناً اختار كثير من الصينيين أن يدخلوه خلال تلك الموجة العظيمة التالية من العولمة خلال القرن التاسع عشر، وذلك عندما جلب التجار الإنجليز الأفيون معهم من الهند إلى الصين كي يحركوا في الاتجاه المعاكس ذلك العجز التجاري الناتج من شرائهم كميات كبيرة من الشاي (كما أنهم بدؤوا في بناء مزارع كبيرة للشاي في الهند لتقليل المسافة، ومن ثَمَّ نفقات النقل من الصين).

وقد برهن التجار الصينيون على رغبتهم في بيع تلك السلعة المربحة



صورة (8) تمثل الأمبراطور قوان، «إله» الحرب، وهو مصنوع من العاج، وربما كان التمثال الذي انتشله ذلك الشخص المتحول إلى المسيحية داخل مانيلا في يناير 1640م نسخةً معاصرة شبيهة للشخصية الموجودة في هذا التمثال.

الأفيون بوصفه «مملكة السعادة المطلقة»: «كيف يمكنني أن أصف جمال الأفيون؟ إن رائحته عبقة، ومذاقه شديد الحلاوة، وهو يعالج جيداً الروح المنقبضة والأفكار السوداوية، فمجرد أن أرقد وأتكئ مستريحاً على ذراعي كي أستنشقه، فإنه ينعش روحي، فيصفو عقلي، وتصبح رؤيتي البصرية للأشياء أكثر حدة، ويتسع صدري، وتصبح قوتي مضاعفة، ثم وبعد وقت ما تصاب عظامي وأعصابي بالتعب، وترغب عيناي في النوم، وعند هذه اللحظة أضع وسادتي بقوة في الوضع المناسب، ثم أرقد في سلام تام دون أن ألقي بالاً لأي شيء في هذا العالم». وقد رد عليه «تشن» متشككاً بقوله: «أوه، هل هذا حقيقي؟». على الشاكلة نفسها كان «لو ياو» lu yao متشككا فيما يخص ذلك الشكل القوي الفعال من «التدخين»، بل إنه أعاد إلى الحياة من جديد شبح الموت الناتج عن التدخين، وهو ذلك الشبح الذي نحتته الحكمة الصينية التي كانت ملازمة للتبغ جانباً، وأبطلت تأثيره منذ قرن مضى.

كانت مملكة السعادة المطلقة» الخاصة بالأفيون مكاناً اختار كثير من الصينيين أن يدخلوه خلال تلك الموجة العظيمة التالية من العولمة خلال القرن التاسع عشر، وذلك عندما جلب التجار الإنجليز الأفيون معهم من الهند إلى الصين كي يحركوا في الاتجاه المعاكس ذلك العجز التجاري الناتج من شرائهم كميات كبيرة من الشاي (كما أنهم بدؤوا في بناء مزارع كبيرة للشاي في الهند لتقليل المسافة، ومن ثَمَّ نفقات النقل من الصين).

وقد برهن التجار الصينيون على رغبتهم في بيع تلك السلعة المربحة

ووَحَّدَهُ برباط مشترك، ومن بين كل أسباب الترف كان الأكثر ديمقراطية وعالمية. وقد أسهم بقسط وافر في جعل العالم أكثر ديمقراطية، فقد تخللت الكلمة نفسها التبغ كل لغات الأرض، وأصبحت مفهومة في كل مكان». ومع أن عدد المدخنين الآن يقدر بمئات الملايين، فإن مثل تلك العاطفة التي عبر عنها لوفير، لم تعد من الأمور التي يتقبلها أي امرئ الآن؛ وذلك لأن المتعة والصحة قد ذهبا الآن في اتجاهين مختلفين.

مع تزايد المجتمع العولمي للمدخنين ونموه خلال القرن السابع عشر، فإنهم مع ذلك لم يكونوا يمتنعون عن التعبير عن استمتاعهم باكتشافهم لمتع التبغ، كما أنهم تركوا خلفهم علامات كثيرة دالة على ما يدينون به لتلك المتع التي قدمها التبغ إليهم، ومن تلك العلامات التي تمتلئ حيوية ومرحاً، وغير المتوقعة أيضاً هو «باليه» للتبغ، قام سكان المدن في تورين بإيطاليا بتمثيله عام 1650. ويبدأ الفصل الأول من هذا الباليه بمجموعة من سكان المدن وهم يرتدون أزياءهم الوطنية (المحلية) ويرقصون معاً ويغنون أغنيات يشكرون فيها الله؛ لأنه منح الجنس البشري، مثل ذلك العشب المدهش. وربما حصل كاتب تلك الدراما على الفكرة الخاصة بهذا المشهد من صور توضيحية حول عادات السكان المحليين في بعض الكتب المؤلفة حول الأمريكتين، والتي كانت منتشرة بين القراء الأوروبيين (ومثل هذه العروض الغريبة للعادات الاجتماعية الخاصة بالسكان الأصليين كانت عرضاً مكتفياً بذاته لأزياء الممثلين، وخاصة لو توافرت الفرصة لأن يقوم بعض المواطنين من أصحاب البلاد الأصليين بأداء الأدوار المطابقة لهذه الأزياء والعادات. وقد استخدم

«يوهان موّريتس» Johann Maurits ثروته التي كونّها من مزارعه في البرازيل في بناء ذلك المقر الفخم على هيئة قصر في منطقة «لاهاي»، وهو القصر الذي أصبح الآن متحف موريتشيوس، والذي اشتملت احتفالات افتتاحه على رقصة قام بها أحد عشر من هنود البرازيل (الحمر) على أرضية ذلك الميدان المرصوف بالحصى أمام القصر). في الفصل الثاني من «باليه التبغ» هذا، تظهر فرقة أخرى، من أهل المدن، وترتدي أزياء مستمدة من كل أنحاء العالم. وبالتأكيد تم الاحتياج إلى التمثيل الأدائي الصامت بالنسبة إلى الشخص الذي كان عليه أن يرتدي الزي الصيني. لقد كان هناك صيني يدخن في ذلك الصحن الذي كان يمتلكه فان ميرتن، ومن ثَمَّ فلا بد أنه كان هناك صيني أيضاً في باليه تورين الخاص بالتبغ. وينتهي العرض بهؤلاء الممثلين لثقافات العالم وهم يتخذون طريقهم معاً متجهين نحو «مدرسة للتدخين»، حيث يجلسون هناك ويتوسلون إلى المجموعة الأولى أن تُعلمهم، وتقدم لهم دروساً حول فضائل التدخين.

الفصل السادس

وزنُ الفضة



كانت ثماني سنوات قد مرت منذ أن رسم يوهانس فيرمير لوحة «الضابط والفتاة الضاحكة»، وكذلك لوحة «امرأة شابة تقرأ خطاباً بجوار نافذة مفتوحة». وقد قضت زوجته كاترينا، معظم تلك الثماني سنوات، وهي في حالة حمل، وإذا كنتُ على صواب في أن أنظر إليها على أنها كانت «النّموذج» في تلك اللوحات، فإنها كانت تظهر في حالة حمل أيضاً عندما أحضرها زوجها إلى مرسمه كي تتخذ الوضع المناسب الذي رسم في ضوئه لوحته: «امرأة تمسك بميزان» (صورة اللوحة رقم 6) وهنا تبدو كاترينا «أكبر سناً»، إنها الآن في أوائل الثلاثينيات من عمرها، ولم يعد لها سمت الفتيات الأصغر سناً، سواء في الوضع الذي كانت تتخذه في أثناء الرسم، أو من حيث طابعها المِزاجي. كما أنها أصبحت أكثر خضوعاً لانفعالاتها. فمن قبل كانت منهمكة في إثارات الشباب ومباهجه، أما الآن، فهي تقوم بالتركيز الهادئ، ودون بذل أي جهد ملحوظ، على المهمة التي أمامها. وقد

جعل فيرمير هنا مرسمه معتماً أكثر؛ كي يخفف من أثر تلك الحيوية والحركة التي في النسخ السابقة من هذه الغرفة في لوحاته، وقد قام بذلك من خلال إغلاقه لمصراعي النافذة، وكذلك من خلال جعله الستارة المجعدة الموجودة فوق النافذة العلوية تمنع تخلل كثير من الضوء القادم من خارج الغرفة. «وكاترينا» تمسك بميزان وقد وضعت يدها بدقة عند نقطة التلاشي Vanishing Point الخاصة باللوحة[1]. لكن بؤرة اهتمامنا هنا إنما تتركز على وجهها، فهذا التركيز المتزن، الذي تم تكوينه فنياً بهدوء، والأشبه بالقناع تقريباً، هو ما يجتذب نظراتنا المحدقة. إن عيوننا قد تتجه وتتجول وتتحرك في حركات سريعة تشبه الوثبات، نحو مجموعة اللآلئ المضيئة، وكذلك سلسلة الذهب الوامضة الملقاة بلا اكتراث فوق حافة صندوق مجوهراتها، لكنها – أي نظراتنا – سرعان ما تعود إليها، إلى كاترينا.

يوجد الإيحاء الوحيد بالحركة – هنا – في لوحة «يوم الحساب الأخير» والمرسومة بالأسلوب الفلمنكي Flemink style [2]، والمعلقة على الجدار خلف «كاترينا»، إنها تظهر – هنا هادئة ومستقرة متزنة مثلها مثل ذلك الجدار الذي تم تبييضه بمادة معينة، والذي يمتد بجوار اللوحة ذات الإطار الثقيل الموجودة خلفها. إن تلك اللوحة داخل اللوحة موجودة، هناك، كي توجه المشاهد نحو الموضوع الرئيس الخاص بالمفاضلة الأخلاقية بين البشر، وحيث ينبغي أن يزن أصحاب الضمير الحي مسلكهم، مثلما سيزن الله الخير والشر في يوم الحساب الأخير. وربما كان فيرمير قد قصد هنا أيضاً أن نلاحظ – معه– ذلك

الوضع الخاص الرقيق المرهف المتعلق بوقفة كاترينا، وأن نفكر في السيدة مريم العذراء، تلك التي قد تلتمس الرحمة من أجل الخاطئين التعساء بحيث إنهم قد يدخلون الفردوس أيضاً.

إن أمثولة allegory [3] يوم الحساب واضحة هنا. لكن دعنا ننحي جانباً الطبيعة الأيكونوجرافية conography [4] للوحة، ونتوجه باهتمامنا، بدلاً من ذلك، نحو الذي كانت تقوم به فعلاً تلك المرأة الحقيقية التي في اللوحة. لقد كانت تمسك بميزان تمهيداً لأن تزن شيئاً ما، لكن ما ذلك الشيء؟ لقد عُرفت هذه اللوحة أو سُمِّيت ذات مرة، باسم: «امرأة تزن اللآلئ»، لكن ذلك الاسم لم يكن متناسباً معها فهناك فقط خيط أو خيطان منظومان من اللآلئ فوق المنضدة، لكنهما وضعا جانباً، هناك، عَرَضاً، أو اتفاقاً، وليست هناك ولو لؤلؤة واحدة يُمَهَّد لوزنها هنا. والأشياء الوحيدة التي على المنضدة والتي قد تضعها كاترينا في ميزانها هي تلك العملات المعدنية الممتدة عبر طرف المنضدة التي على يسارها، وهي أربع عملات صغيرة من الذهب وقطعة عملة معدنية واحدة كبيرة من الفضة. إنها لوحة حول امرأة توشك أن تزن النقود. وربما رأى بعض المعاصرين لفيرمير هذا الشيء على نحو أكثر وضوحاً مما نراه من خلاله الآن، وذلك لأن هذا كان موضوعاً مألوفا لدى المصورين الهولنديين في تلك الفترة، وفي الحقيقة، فإن «فيرمير» ربما أخذ هذا الموضوع، بل حتى التصميم الخاص بتلك اللوحة من لوحة أقل نجاحاً رسمها زميله الفنان الذي ينتمي أيضاً إلى «دلفت»: «بيتر دى هوش» Pieter de Hooch[5].

عندما عرضت لوحة فيرمير هذه للبيع في المزاد الذي أُجرِيَ على مجموعة مقتنيات زوج ابنته في عام 1696 كانت تلك اللوحة تُسَمَّى: «امرأة شابة تزن الذهب» ويجعلنا هذا العنوان الذي في كتيب اللوحات قريبين من موضوعها.

إن كلمة Gelt كانت هي الكلمة الموجودة في اللغات الجرمانية[6] التي كانت تقابل كلمة النقود Money الآن. وعملية وزن القطع المعدنية ليست من الأمور التي نقوم بها نحن الآن، لكنها كانت تمثل جانباً جوهرياً من التبادلات الاقتصادية في القرن السابع عشر. وقد كانت القطع الذهبية والفضية الخاصة بتلك الأيام أكثر نعومة، ولينة، وأقل صلابة من مثيلاتها الموجودة في أيامنا هذه، وعلى نحو تدريجي أدَّى الاستخدام اليومي لها إلى أن تَبْلَى هذه القطع، فيقل ما تحتويه من معدن وينخفض مقدار ما بها الآن من فضة أو ذهب. وقد كان على ربات المنازل الحريصات، أن يقمن لهذا السبب بوزن قطعهن المعدنية لمعرفة مقدار ما تستحقه من قيمة، وقد كان لمثل هذه المشكلة أن تكون تافهة لو كانت هناك عملة معيارية مقننة مستخدمة، لكن ذلك الأمر لم يكن قد رسخ بعد. لقد كان لدى المقاطعات الهولندية وحدة معيارية لحساب القيمة، وهي الجيلدر، ولكن لم تكن هناك عملات «جيلدر» فعلية يتم تبادلها في ستينيات القرن السابع عشر، وعندما رسم فيرمير هذه اللوحة، كانت هناك فقط عملة «الدوكاتية» ducats الفضية (والتي كانت الواحدة منها تزن 24,37 جراماً) وقد تم إصدار «الجيلدر»، (والذي يزن 19,44 جرام من الفضة الخالصة) في منتصف القرن السادس عشر،

لكن هذه العملة أُبطِلَت بعد ذلك وحلت محلها عملات أخرى، بعضها إسباني، والآخر، هولندي، ومن يُمْن طالع الاقتصاد التجاري المزدهر بسرعة في ذلك الوقت أن إبطال إحدى العملات وإحلال عملة أخرى محلها لم يتعارض مع الغرض الرئيس من النقود، وهو أن تعاير أو تحدد القيمة النسبية للأشياء. وقد كان العامل الثابت الأساس في كل تلك الحسابات، ذلك الثمن الخاص بالمعدن النفيس الذي في العملة المعدنية، وليس قيمتها الاسمية أو الظاهرية المعلنة. ومع ذلك، فإن أية دولة أوروبية لم تكن تسمح لتجارها بأن يحددوا الأسعار من خلال الوزن للفضة غير المختومة أو غير المضروبة في دار سكِّ النقود، حيث كانت تلك هي الممارسة التي لدى الصينيين في ذلك الوقت، وقد كان هناك ثمن محدد لكل سلعة بالجيلدر، في الجمهورية الهولندية، حتى عندما لم تكن هناك «جيلدرات» متاحة في عمليات التداول، ومن ثَمَّ كان ينبغي الدفع من خلال القطع المعدنية، وفي عام 1681 قررت ولايات هولندا – الحكومة الإقليمية لمنطقة ديلفت – أن تعيد إحياء الجيلدر (محددة قيمته على أنها تعادل 9,61 جرامات من الفضة الخالصة)، وقد استمر استخدام عملة «الدوكاتيه» الفضية الأعلى قيمة في أماكن أخرى من «الأراضي الواطئة» عبر عقد أخر لاحق من الزمن، حتى استقرت تلك الجمهورية بكاملها على استخدام الجيلدر وحدهُ بشكل ناجح.

ونحن لا نستطيع أن نرى قطعة الفضة الموجودة على منضدة كاترينا بشكل جيد حتى نحدد طبيعتها، فالتاريخ التقديري لتلك اللوحة هو (1664)، وهو تاريخ يُرَجَّحُ أن تكون تلك القطعة المعدنية هي

«الدوكاتية» وليس الجيلدر، ونحن نستطيع أن ندعم رأينا هذا بأن نضع في حسباننا تلك الخاصية الوحيدة القابلة للرؤية جيداً منها، أي حجمها إن هذا الحجم أكبر كثيراً من حجم القطع المعدنية الذهبية التي بجوارها وعلى غير شاكلة العملات المعدنية الفضية، والتي كانت تُسكُّ بأوزان وفئات عدة، فإن معظم العملات المعدنية الذهبية المتداولة في تلك الأقاليم المتحدة كانت من نمط واحد، هو «الدوكاتية» الذهبية (والتي كانت تزن 3,466 جرامات)، وقد كانت قطعة «الدوكاتية» الذهبية تساوي تقريباً قطعتين من دوكاتية الفضة، ومع تحديد نسبة الذهب إلى الفضة على أنها تساوي واحداً إلى اثني عشر (1 إلى 12)، فكاترينا لا بد أنها كانت تزن الدوكاتية الفضية، ويبدو هذا الحجم تقريباً هو الفارق بين القطع المعدنية الفضية والذهبية التي فوق أحد أركان المنضدة، وهو دليل مفصل على أن قطعة الفضة التي كانت تزنها كاترينا هي من نوع عملة «الدوكاتية».

إن معرفتنا شيئاً ما حول العملة الهولندية لن تقودنا بعيداً عن الموضوع الرئيس الخاص بالتمييز الأخلاقي الذي يصبغ اللوحة بطابعه، فمثلما تزن المرأة عملاتها المعدنية، فإنها تُقيِّمُ سلوكها الخاص وتزنه أيضاً في ضوء يوم الحساب المقدس الذي ينتظرها عند البعث. ومن الجدير بالمعرفة هنا أن بعض الفنانين الآخرين قد استخدموا الصورة الخاصة بامرأة ما تزن الفضة، من أجل إدانة ذلك الولع القهري بالفضة لدى معاصريهم، وليس فقط مجرد إدانة خطيئة الانهماك في الأمور الدنيوية على حساب الشؤون الروحية، ولكن هذا ليس هو المعنى الذي في هذه

اللوحة؛ وذلك لأن فيرمير لا يدعونا، هنا، إلى أن ندين سلوك كاترينا أو نشجبه، لقد جعل الضوء يغمرها، فجعلها شخصية جديرة بالثقة، ذات ضمير حي. إنها تتعامل بالنقود، لكن حساباتها لثروة العائلة مُشَرِّفةٌ لها ونافعة، مثل تلك الخصوبة المتعلقة بالتكاثر الطبيعي الذي يدل عليه حملُها. إن تصوير فيرمير ووصفه هنا ذو طابع إيجابي، ومن خلال شكل يتفق مع الأخلاقيات الجديدة حول التراكم والوفرة التي كانت سائدة في هولندا خلال القرن السابع عشر. لقد كان الاقتصاد الرأسمالي في مرحلة التشكيل، وكان كسب المال فضيلة، ما دام هذا المال أو الثروة يكسب بطرائق مشروعة. وهذا – على الأقل – ما كانت تعتقده الطبقة الوسطى الهولندية في ذلك الوقت. وحتى السيد المسيح (عليه السلام) في هذه اللوحة يبدو أنه يبارك أيضاً عملية المحاسبة التي تقوم بها كاترينا.

ستكون قطعة الفضة الكبيرة التي على منضدة كاترينا هي بابنا التالي الذي سندلف من خلاله إلى عالم منتصف القرن السابع عشر، وعند نهاية الممر أو الدهليز – الذي يوجد عند ذلك الجانب الآخر من هذا الباب – سوف نلقي نظرة خاطفة على واحدة من أكثر السلع أهمية في ذلك العصر، وهي الفضة. لقد لعبت الفضة دوراً ضخماً في الاقتصاد الخاص بتلك الفترة، فشكلت حياة كلٍّ من لمستهم، بمن فيهم كاترينا أيضاً.

لقد عاش فيرمير قرب نهاية ما سُمِّيَ بقرن الفضة، والذي بدأ نحو عام 1570 فلم يحدث في وقت سابق أن كان ذلك المعدن النفيس متداولاً في حقائب المسافرين، وفي صُرر تحملها الحيوانات على ظهورها، ومن

خلال القوارب النهرية، والأكثر أهمية من ذلك كله عبر عنابر أو مخازن الشحن الموجودة في سفن اليَنَكْ Junks الشراعية الصينية وكذلك القرقورات (السفن الشراعية الضخمة) الأوروبية والتي كانت تذرع مياه العالم، جيئة وذهاباً، لقد أصبحت الفضة متوافرة فجأة بكميات ضخمة لم يسمع عنها من قبل، وفجأة أصبح كلُّ شيء يباع وفقاً للوحدة القياسية له، وهذا الشيء يمكن بيعه بما يعادل وزنه فضة، أي يعادل الوزن الذي زعمه كاتب بريطاني كان يعيش في منتصف القرن السابع عشر بالنسبة إلى ثمن تبغ فرجينيا عند منعطف القرن، وقد كان ذلك تعبيراً قصد منه إصابة الناس العاديين بالذهول، كما أن الثمن الذي يعادله أي شيء بالفضة كان يمكن أن يعد دلالة أيضاً على بلوغ الحماقة ذروتها، كما لاحظت إحدى الشخصيات في مسرحية لتوماس ديكر عام 1600 عنده، حيثُ سخرت تهجو شخصاً مولعاً بالتدخين على أنه «أحمق يذيب كثيراً من المال في الدخان».

لقد كانت تلك السطوة التي مارست الفضة من خلالها تأثيرها في العالم أمراً غامضاً بالنسبة إلى كثيرين ممن فكروا فعلاً فيها. إن الفضة قد تستخدم لأغراض التزيين لكن فوائدها الفعلية ستكون هنا محدودة. إن معظم الناس يريدون امتلاكها، لكنهم يفعلون ذلك فقط من أجل امتلاك أشياء إضافية، إن قيمة الفضة كانت قيمة اعتباطية أو تحكمية خالصة، وبالنسبة إلى البشر الذين عاصروا تلك الفترة، ومن أوروبا إلى الصين، خلقت الفضة «وَهْمَ الثروة» ولكنها لم تكن تمثل في ذاتها ثروة. لقد كانت، كما قال باولوتسو، الذي اعتنق المسيحية، والذي

كان يعمل في البلاط الإمبراطوري لسلالة المنغ الحاكمة – تمثل «مجرد مقياس للثروة» – لقد كانت فائضاً للإنتاج ذي القيمة الحقيقية. وقد كان الحاكم الذي يهتم برفاهية شعبه هو ذلك الحاكم الذي يشغل نفسه بكيفية توفير كمية كبيرة من الطعام لهم وكذلك الملبس والأرض، لا أن يمتلكوا كمية أكبر من الفضة، وقد كانت المشكلة المتعلقة بهذا المبدأ العام هي أنه لم يعد يطبق في ذلك الاقتصاد الذي يقوم كلياً على أساس التجارة. فإذا كان كل شيء قابلاً للبيع والشراء مقابل الفضة، فإن الفضة هنا ستكون هي كل ما نحتاج إليه وفي الحالة الخاصة باقتصاد كان مولعاً ولعاً شديدا بالتجارة، من ناحية أخرى، كذلك الحال الذي عاش معظم البشر في ظله خلال القرن السابع عشر، كانت الفضة ستكون بلا نفع أو جدوى إذا جف معينها أو رفعت الندرة أسعارها نحو مستوى يتجاوز ما يقدر عليه الناس العاديون، وهو أمر كان لا يزال يحدث على نحو منتظم، ولكن عندما كان للفضة حضورها الخاص في الاقتصاد فإنه لم يكن هناك خيار آخر متاح أمام معظم الناس سوى أن يستخدموها، سواء لشراء الطعام أو دفع الضرائب، وليس لديهم خيار آخر، سوى الامتلاك للفضة من خلال بيع الأشياء أو من خلال عملهم الخاص، وهكذا أصبحت الفضة أمراً لا سبيل إلى اجتنابه.

وقد حدث التخلل الخاص للفضة داخل التعاملات التجارية اليومية في أوروبا والصين عندما قام الاقتصاد الخاص بكليهما بالتوسع والامتداد، مما خلق طلباً ضخماً على الفضة. لقد احتاج الصينيون إلى استيراد الفضة كي يعوضوا ما قد توفره السلع التي يعرضونها من مال

غير كافٍ، في حين احتاج الأوروبيون إلى تصدير الفضة كي يشتروا من خلالها طريقاً يوصلهم إلى الأسواق الآسيوية. وقد خلقت تلك الحاجات طلباً للفضة عَمِلَ على تحفيز عملية توفير المعروض له من مصدرين رئيسيين، هما: اليابان وأمريكا الجنوبية. وقد تشكل اقتصاد العولمة في القرن السابع عشر وتمحور حول تلك البنية الخاصة من العرض والطلب، وقد كانت الفضة هي السلعة الكاملة التي ظهرت في الوقت المناسب تماماً، فربطت بين الاقتصاديات الإقليمية من خلال شبكة من التبادل وصلت ما بين المناطق والأقاليم وحددت معالم الأنماط العامة لمآزق العولمة التي نعيش في ظلها الآن.

من أين جاءت فضة عملات كاترينا المعدنية؟ لقد كانت اليابان هي المنتج الرئيسي للفضة في القرن السابع عشر، وقد استخدم التجار الهولنديون في تجارتهم كثيراً من السبائك المستوردة من هناك، وذلك لأنهم كانوا هم وحدهم المسموح لهم بالتجارة في اليابان، لكن شيئاً من هذه الفضة، تقريباً، لم يصل مع هؤلاء التجار في طريق عودتهم إلى أوروبا فقد كان الهولنديون يستفيدون من الفضة على نحو محدد ومباشر خلال تجارتهم الأخرى داخل آسيا. وهكذا فإنه من غير المحتمل أن تكون فضة عملة كاترينا قد جاءت من اليابان. لقد كانت هناك مناجم فضة أخرى أقرب إلى هولندا وموجودة في ألمانيا، والنمسا، مع أن إنتاج تلك المناجم كان لا يكاد يصل إلى 5٪ من الإنتاج العالمي من الفضة، ومعظم ما كان ينتج منها كان يجتذب المشترين في أوروبا الشرقية الفقيرة. وبالتالي فإنه من غير المحتمل أيضاً أن تلك الفضة التي

كانت لدى كاترينا ألمانية. ولا يبقى بعد ذلك سوى ذلك المصدر العالمي الكبير للفضة، ألا وهو أمريكا الإسبانية، سواء إسبانيا الجديدة (التي هي المكسيك اليوم) أو البيرو (والتي كانت تشمل في القرن السابع عشر ما يعرف باسم بوليفيا اليوم)، ومن أجل تحديد معالم خط واضح -حتى لو كان متعرجاً- فدعنا نفترض أن تلك الفضة قد جاءت من ذلك الجانب الخاص لـ «بوليفيا» في «بيرو»، وعلى نحو أكثر تحديداً من مدينة المناجم التي كانت الأكثر إنتاجاً للفضة من غيرها في النصف الأول من القرن السابع عشر، دعنا نفترض أن تلك الفضة قد جاءت من «بوتوزي» Potosi.

تقع «بوتوزي» أعلى النطاق الشجري The tree line (7) وعلى ارتفاع أربعة آلاف متر، وهي منطقة أعلن شعب الإنديز من قَبْلُ أنها منطقة «غير قابلة للسكن فيها»، puna، أي مكان قفر بلقع، من جبل يسمى «سيرو ريكو» Cerro Rico، أو «التل الغني»، يطل على سهل قاحل تذروه الرياح، وقد كان من الممكن أن يظل هذا المكان «غير قابل للسكن فيه إلى الأبد»، ما لم يُكْتَشَفْ أن عروق الفضة السميكة، ومن أعلى مستويات الجودة، تجري في أعماق ذلك الجبل كله، وقبل الغزو الإسباني لتلك المنطقة، كان الهنود الحمر يستخرجون تلك الفضة، ولكنها كانت ذات قيمة محدودة مقارنة بحاجتهم إلى المعادن النفيسة، ولا يمكن قول الأمر نفسه عن الإسبان وقد اعتقد الأوائل الذين أحضرهم الهنود الحمر أنفسهم إلى هناك عام 1545 أن أكثر أحلامهم جموحاً قد أصبح حقيقة. وعلى الرغم من مشقة الحياة فوق ذلك السطح المرتفع،

فلا شيء يمكنه – الآن – أن يعوقهم عن استغلال ذلك الكنز الجبلي، وفي البداية قاموا باستخدام التطوع والتجنيد الاختياري لجعل الهنود الحمر يستخرجون الفضة من المناجم، ولكن الهنود اكتشفوا مدى ما كان يحيط بذلك العمل من مخاطر وكذلك انخفاض ما يجنونه من فوائد مادية من خلاله، وبالتالي فإن الإسبان قد أسَّسُوا ما يُسَمَّى: «الميتا» وهو نظام من العمل الإجباري يُخْضِعُ الهنود الحمر بالاضطهاد، ويجلبهم لأداء الخدمة من مسافة بعيدة قد تصل إلى ثمانمائة كيلو متر للعمل في المناجم[8].

وتقريباً، بين عشية وضحاها، أصبحت «بوتوزي» أكبر مدينة في الأمريكتين وقد شهدت العقود الأولى، عندما كان ركاز الفضة، أو معدنها الخام وافراً، والحفر بحثاً عنه سهلاً، شهدت نمواً في عدد السكان بحيث وصل إلى مائة وعشرين ألف نسمة (120,000) في عام 1570. لقد ظهر البشر من أوروبا كلها وكذلك من أمريكا الجنوبية هناك وعاشوا فوق ذلك الموقع القاحل، وأنتجوا الفضة، أو عرضوا السلع والخدمات التي كانت المدينة تحتاج إليها، ولم يكن لانتاجية المناجم أن تستمر عند ذلك المستوى الأول نفسه، لكن مع من ذلك الانخفاض البطيء في الإنتاجية فإن عدد السكان استمر ينمو حتى وصل إلى مائة وخمسين ألف نسمة (150,000) عام 1639 لكنه بعد ذلك، تضاءل حتى ما دون المائة ألف نسمة، في ثمانينيات القرن السابع عشر.

عندما كان الازدهار مستمراً، كوّن مُلاَّك المنجم وكدسوا ثروات غير قابلة للتصديق، وقد دخلت العبارة «ثريٌّ مثل أهل بوتوزي» اللغة

الإنجليزية، فلم يعش أي إنسان في ظل ذلك التل من الثراء إلا ومَسّهُ شيء منه، هذا مع أن كون المرء قد أصبح في حال طيبة أو سيئة إنما كان يعتمد على مصفوفة مركبة من العوامل التي كانت تشمل مكانة السلالة العرقِّية التي ينتمي إليها، وكذلك علاقاته وصلاته الاجتماعية، ورأس ماله، وكذلك حظه المحض. هكذا كانت الثروات تكسب وتُفقد، وقد لعب العنف دوراً كبيراً في عملية الفرز تلك التي كانت تحدث بين هؤلاء الذين أصابهم الثراء الفاحش أو الفقر المدقع، هكذا حدث العنف ما بين الإسبان والهنود الحمر، وبين الإسبان المولودين في إسبانيا، والإسبان الذين ولدوا في أمريكا (والذين عرفوا باسم «الكريبوليين» Creoles) ثم بين عُصبة عرقية وعصبة أخرى، وبخاصة بين الباسك الذين اعتادوا التحكم في مناطق تنقية الفضة الخام والفرق الأخرى. وقد كانت أية حادثة عرضية صغيرة أو إهانة للشرف قادرة على أن تحول المدينة بكاملها إلى حالة من الاضطراب الكبير. فعندما رفضت «ماريانا دي أوزوريو» Mariana de osorio الأمريكية المولودة هناك، وفي يوم خطبتها عام 1647، الشاب الذي ينتمي إلى طائفة الباسك، والذي كان والداها «الأندلسيان» قد وافقا على خطبته لها، مفضلة عليه شاباً كريبولياً آخر كان يتودد إليها طالباً رضاها عن طريق المديرين الكريبوليين الذين يعملون في مصفاة التكرير الخاصة بوالدها، عندما حدث ذلك، اندلعت حرب أهلية فعلية بين الباسك والكريبلويين استمر أوارها مستعراً طوال عام بكامله.

لقد قامت «بوتوزي» بما هو أكثر من جعل بعض الرجال الذين

يسيطرون أثرياء، ودفع الباقين نحو حفرة يتقاتلون فيها على فتات على نحو مهلك بعضهم ضد بعض. لقد قامت الفضة بإثراء إسبانيا أولاً وقبل كل شيء، لكنها قامت أيضاً بتمويل عملية الدمج للإمبراطورية الإسبانية في أمريكا الجنوبية، ووفرت المال الضروري لامتدادها عبر المحيط الهادئ حتى الفيليبين، ومن ثَمَّ وضعت تلك الاقتصادات المنفصلة الموجودة في الأمريكتين وأوروبا وأسيا تحت سيادة مشتركة حقيقية، وقد حدث هذا دون أن يقصد أحد أنه قد يحدث هكذا. لقد حققت الفضة حياة عولمة خاصة بها، حيث كان الأفراد يبذلون جهودهم مرتجلين أمام الفرص ومندفعين؛ كي تظل سبائك الفضة تتدفق وتفيض دائماً.

قبل أن تُنْقَلَ الفضة، كان ينبغي سكُّها في دار ضرب العملة على شكل «ريالات»[1] وقد كانت الحصة الأكبر منها تذهب إلى أوروبا من خلال طريقين مختلفين: أحدهما الطريق الرسمي والآخر هو «الباب الخلفي» وقد كان الطريق الرسمي، والذي كان تحت سيطرة التاج الإسباني يتجه غرباً نحو الجبال، نحو ميناء أريكا Arica على الساحل، وهي رحلة كانت تتم على ظهور الجمال التي تحمل صرر الفضة، وكانت تستغرق نحو شهرين ونصف الشهر. ومن عند ساحل بيرو كانت الفضة تشحن إلى بنما، ومن هناك كانت السفن الإسبانية تحملها عبر المحيط الأطلسي إلى «كاديز» Cadiz، الميناء الذي يخدم «سيفيل» Seville، وهي المركز العالمي لتجارة الفضة. أما الطريق الخاص بـ «الباب الخلفي» فقد كان، تقنياً، غير مشروع، لكنه كان الأكثر نفعاً وفائدة، بحيث إنه كانت

ترسل من خلاله كمية تعادل ثلث ما تنتجه «بوتوزي» من الفضة، وقد كان ذلك الطريق يمضي جنوباً نحو «ريو دي لا بلاثا»، أو نهر الفضة، متجهاً إلى الأرجنتين، أرض الفضة، وعندما تصل الفضة إلى بوينس إيريس، فإن التجار البرتغاليين كانوا ينتقلون بها عبر المحيط الأطلسي إلى لشبونة، وهناك كانت تُقَايَض بالسلع التي تكون مطلوبة في بيرو، وبخاصة العبيد الإفريقيون. وكثير من الذهب الذي كان يصل إلى لشبونة و«سيفيل» كان ينقل مباشرة إلى لندن وأمستردام، لكنه لم يكن ليمكث هناك وقتاً طويلاً، لقد كان يمر عبرهما ويتجه بعد ذلك نحو محطة الوصول الأخيرة، المكان الذي سيسميه الأوروبيون لاحقاً، مقبرة النقود الأوربية، وهي الصين.

لقد كانت الصين المقصد العولمي الكبير والمحطة التي كانت فضة الأوروبيين تصل إليها في النهاية لسببين أساسيين: أولهما أن قوة الفضة وقدرتها على شراء الذهب، في أسواق الاقتصاد الآسيوية، كانت أعلى من قدرتها الشرائية المماثلة في أوروبا، فلو كانت ثمة حاجة إلى اثنتي عشرة وحدة من الفضة من أجل شراء وحدة واحدة من الذهب في أوروبا، فإنه كان يمكن شراء الكمية نفسها من الذهب بـ«ست» قطع فقط من الفضة، أو أقل، في الصين. وبمعنى آخر، كان بمقدور أية كمية من الفضة تأتي من أوروبا إلى الصين أن تشتري – هناك في الصين – ضعف ما كان بمقدروها أن تشتريه لو ظلت في أوروبا. وقد أوضح «أدريانو دي لاسي كورتيس» هذه النقطة عندما كان يصف ثماني وستين من الأقواس الاحتفالية الحجرية حتى تمتد عبر الشارع الرئيس

في «تشاوزو» chaozhou خلال تسجيله لتلك السنة التي أمضاها في الأسر في الصين. وقد توقع من قارئه أن يُدْهَشَ بسبب البذخ الخاص بهذا المشهد، ثم إنه يشرح تكلفة بناء تلك الأقواس الحجرية بالفضة قائلاً إنها أقل كثيراً في الصين من تكلفة بنائها في إسبانيا (فأكبر هذه الأقواس لم يُكَلِّفْ أكثر من ألفين أو ثلاثة آلاف «بيزو»)، والسبب في ذلك، بدقة، هو أن القوة الشرائية للفضة في الصين كانت أعلى بكثير من قوتها الشرائية في إسبانيا. ويضاعف من هذه القيمة الشرائية أيضاً ذلك الانخفاض العام لنفقات الإنتاج في الصين. ويضاف إلى ذلك كله، تلك الفوائد الكبيرة التي كان الأوروبيون يجنونها من ذهابهم بالفضة إلى الصين ثم عودتهم بالسلع من هناك لبيعها في أوروبا.

أما السبب الثاني الذي جعل الصين مقصداً ومحطة وصول للفضة، فهو أن التجار الأوروبيين لم يكن معهم سلع كثيرة غير الفضة كي يبيعوها في أسواق الصين. وباستثناء الأسلحة النارية، لم تكن هناك أية سلعة أوروبية قادرة على منافسة المنتجات الصينية في الجودة أو التكلفة. ولم تقدم السلع الأوروبية المُصَنَّعَةُ الكثير في هذا الشأن غير بعض التجديدات التي طرأت عليها، وقد كانت الفضة هي إحدى السلع التي تنافس – على نحو جيد – المنتج المحلي منها، ويرجع ذلك إلى أن الفضة كانت شحيحة العرض هناك. لقد كانت لدى الصين مناجم فضة، لكن الحكومة هناك قيدت الإنتاج منها على نحو صارم، خوفاً من عدم قدرتها على التحكم في تدفق الفضة من المناجم إلى الأيدي الخاصة[2]، كما أنها تجنبت سكَّ العملات المعدنية الفضية، وقصرت

ضرب العملة على العملات النقدية الصغيرة البرونزية، على أمل أن ذلك سيحافظ على الأسعار منخفضة. لكن تلك التدابير لم تستطع مع ذلك، أن تفعل شيئاً في مواجهة تلك الحاجة الغالبة على الاقتصاد للحصول على الفضة. فمع نمو الاقتصاد كان الطلب على الفضة يتزايد، وخلال القرن السادس عشر، كانت أسعار كل شيء في الصين، وحتى أصغر التعاملات التجارية، تُقَدَّرُ أو تُقَوَّمُ بوزنها من الفضة، وليس بوحدة عملة معينة، ولعل ذلك هو السبب الذي قد يجعل الصينيين يفهمون مباشرة ما كانت كاترينا بلونز تقوم به في لوحة «امرأة تمسك بميزان». لقد شكلت عملية وزن الفضة جانباً مهماً من جوانب التعاملات التجارية اليومية في الصين.

لقد كان توق الصينيين إلى الفضة قوياً جداً، إلى درجة أن معظم الريالات الإسبانية التي كان التجار الهولنديون يجلبونها معهم إلى الأراضي الواطئة كانت تخرج ببساطة من هناك وتذهب باتجاه آسيا. وقد كان التجار الصينيون يشعرون بالسعادة عندما يحصلون عليها. لقد كانت تلك العملات المعدنية موضع ثقة وذلك لأن مضارب سكِّ العملة الإسبانية قد حافظت على ما تحتويه عملاتها من نسبة الفضة على نحو ثابت وهو 1931 من الفضة الخالصة، هذا مع أن المصير النهائي لتلك الريالات التي تصل إلى الصين كان هو الصهر. فقط عندما قامت الحرب، وفرض الحظر على التجارة وإقلاع السفن، وأدَّى ذلك كله إلى خنق عملية تدفق الريالات إلى هولندا، قامت الحكومة الهولندية بسكِّ عملاتها المعدنية الخاصة. هكذا أُدخِلَت عملة «الدوكاتية» الفضية

للمرة الأولى في عام 1669 إلى الأسواق؛ كي تواجه فقط مثل ذلك النوع من النقص.

وقد شحن الهولنديون كميات كبيرة جداً من الفضة إلى آسيا خلال القرن السابع عشر. وفي المتوسط، فإن شركة الهند الشرقية الهولندية قد أرسلت ما يعادل ثمنه مليون جيلدر من الفضة إلى آسيا كل سنة، وما وزنه عشرة أطنان مترية تقريباً. وقد وصل حجم هذه الشحنات المرسلة إلى ثلاثة أمثاله مع نهاية تسعينيات القرن السابع عشر. وقد كانت القيمة التراكمية لذلك كله مذهلة، فخلال نصف القرن الممتد من عام 1610 حتى عام 1660 فُوِّضت المراكز الرئيسية لشركة الهند الشرقية الهولندية بتصدير ما مقداره خمسون مليون جيلدر إلا قليلاً، وهو تقريباً ما يعادل نحو خمسمائة طن من الفضة، ونكاد لا نتخيل مثل ذلك المقدار المماثل من الفضة التي كانت شركة الهند الشرقية الهولندية تشحنها من اليابان إلى الصين خلال تلك العقود الثلاثة التالية لعام 1640، حيث سيتزايد ارتفاع جبل الفضة مرة أخرى بما مقداره النصف أيضاً.

ما الذي قامت كل تلك الفضة بشرائه للهولنديين؟ لقد دُفِعَت من أجل شراء السلع غير المتوافرة في أوروبا، والتي يمكن بيعها أيضاً على نحو جيد في الأسواق الموجودة في الوطن، وبشكل خاص: التوابل، وخاصة في السنوات الأولى المبكرة، وهي تلك التي أزاحتها المنسوجات تدريجياً عن مكانتها لاحقاً خلال القرن السابع عشر، ثم أضيف إلى المنسوجات الشاي، ثم القهوة في منتصف القرن الثامن عشر. وعندما ننظر إلى اللوحات الهولندية التي تنتمي إلى القرن السابع

عشر، فإننا نرى أنها قد حازت أيضاً، أو احتوت أشياء جميلة، مثل زُبديات البورسلين، وقد كان أحد الأمور المحيرة فيما يتعلق بتلك التجارة هو أن قيمة الفاتورة الخاصة بالسلع التي تعود رسمياً إلى الوطن داخل عنابر سفن شركة الهند الشرقية الهولندية أو مخازنها (والتي كانت بالطبع تعجز عن تقدير قيمة تلك الشحنات «الخاصة»، مثل تلك الشحنة من الخزف التي كانت السفينة «الأسد الأبيض» تحملها) كانت تلك القيمة نحو ربع قيمة الفضة التي تذهب إلى الشرق، ولم يكن ذلك العجز يفزع الشركة، وذلك لأن شركة الهند الشرقية الهولندية كانت تبيع ما كانت تعود به سفنها إلى أوروبا بأسعار تكون من الوفرة بحيث إنها تغطي النفقات التي دفعت في الاستثمار الأصلي. أما باقي الفضة فقد كان يُستخدم جانب منه لدفع النفقات الضخمة الخاصة بإدارة أمور الإمبراطورية الاستعمارية الهولندية في جنوب شرق آسيا، في حين يستخدم الجانب الأكبر منه في شراء سلع تبيعها الشركة هنا، وهناك، داخل آسيا من أجل الحصول على الأرباح. بمعنى آخر، كان المقدار الأكبر من الفضة هو رأس مال الذي استخدمته شركة الهند الشرقية الهولندية كي تشتري من خلاله طريقها نحو الأسواق الآسيوية، ومن خلاله أيضاً استحثت التجارة عبر تلك المناطق الداخلية بعضها ببعض، وكذلك عبر العالم كله، من ذلك الذي كان يستطيع أن يخمن أن تلك الفضة التي كانت تأتي من «بوتوزي» ستحظى بمثل هذه القوة والنفوذ، وأنه سينتهي بها الأمر هكذا، على منضدة كاترينا؟

لقد تدفقت الفضة متجهة شرقاً من «بوتوزي» نحو أوروبا، ثم نحو

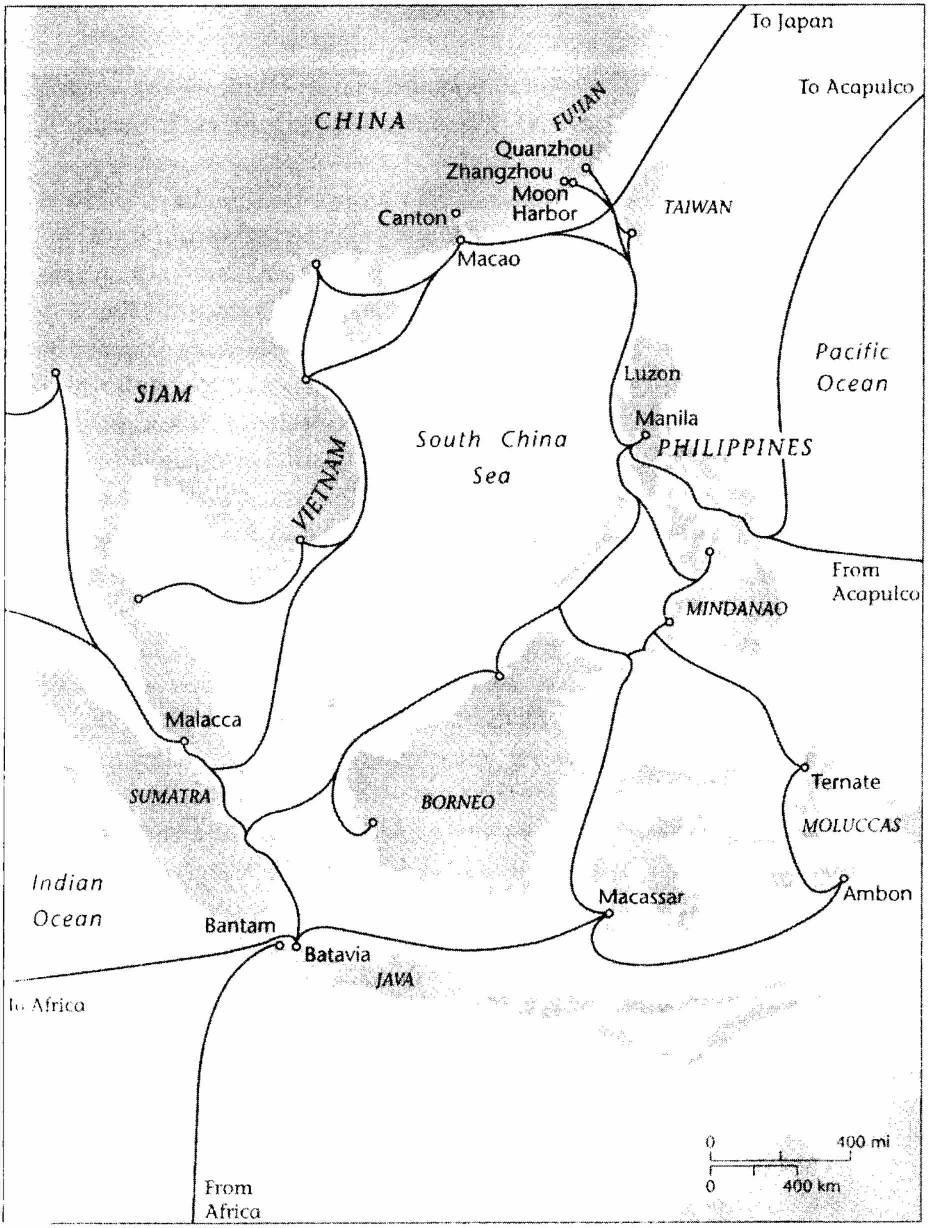
آسيا، لكن ذلك لم يكن هو فقط الطريق الوحيد الذي أخذها إلى آسيا، بل لم يكن حتى الطريق الأكثر أهمية. فما مقداره ضِعْف مقدار الفضة التي كانت تذهب شرقاً، كان يذهب غرباً، أي كان يذهب أولاً إلى الساحل ثم ينتقل بعد ذلك إلى «أكابولكو» Acapulco، ومن هناك يعبر المحيط الهادئ حتى يصل إلى مانيلا في الفيلبين وفي مانيلا، كانت تتم مقايضة الفضة ببعض السلع الصينية، ثم تبحر إلى الصين.

هكذا كان هناك نهر من الفضة يتدفق بين الاقتصاد الاستعماري الخاص بالأمريكتين واقتصاد شرق آسيا، ويصل بينهما. وقد كان المعدن المستخرج من إحدى القارات يدفع ثمن السلع المصنعة في قارة أخرى، ثم تقوم قارة ثالثة باستهلاكها.

وقد منح ذلك النهر المتدفق بكفاءة أفضلية لكثير من الإسبان وكثير من الصينيين، ولكن ليس جميعهم، هكذا تبرم المسؤولون الملكيون الإسبان وتذمروا، وعلى نحو منتظم، قائلين إن «كل هذه الثروة تُمرَّر حتى تصبح في حوزة الصينيين، ولا تجلب إلى إسبانيا، مما يترتب عليه فقدان الرسوم الجمركية الملكية». وفرض الملك فيليب قيوداً على كمية الفضة التي يمكن إرسالها عبر المحيط الهادئ، لكن ما ألحق الإخفاق بمحاولة فيليب تلك هو أن مقدار أرباح المشتريات المتحققة في مانيلا كان يفوق كثيراً مقدار الأرباح التي تُجنى من بيع السلع التي أحضرت من إسبانيا. وقد كانت هناك ضرورة سياسية ملحة لأن تقوي إسبانيا صلاتها وروابطها عبر المحيط الأطلسي، ولكن قد كانت هناك أيضاً ضرورة اقتصادية ملحة تدفع بالفضة عبر المحيط الهادئ كي يضع حداً

لهذا التدفق، وهكذا أصبحت مانيلا الرابطة التي يرمي عندها الاقتصاد الأوروبي خُطافه، ويثبته بالاقتصاد الصيني، ذلك المكان الذي اتصل عنده نصفا كرة الأرض في القرن السابع عشر معاً.

عندما وصل الإسبان أولاً إلى مانيلا في عام 1570، وجدوا أن ميناء التجارة الذي كان هناك، يقع تحت سيطرة «راجا»، أو أمير من طائفة «المورو» يدعى سليمان. وقد كانت طائفة المورو هناك هم مجموعة من المسلمين الذين يعيشون على شاطئ البحر ويتاجرون في السلع التي تأتي من الجنوب منذ نصف قرن مضى، قبل ذلك التاريخ، وقد وسعوا من سيطرتهم على الموانئ التجارية الموجودة عبر الجزر المنعزلة الموجودة في جنوب شرق آسيا، وقد جعلهم وضعهم هذا الأنداد والمنافسين للإسبان في تلك المنطقة. وقد قام أول قائد إسباني يذهب إلى مانيلا، بخداع سليمان كي يتخلى له عن المنطقة التي كان يسيطر عليها في مانيلا وقد استخدم في ذلك خدعة قديمة، مستعارة من الإنيادة Aeneid[9]، بأن طلب منه أن يعطيه قطعة من الأرض لا تتجاوز مساحتها «جلد ثور مدبوغاً». وكما يذكر كاتب صيني ذلك على نحو ساخط، فإن تلك القصة بعد عدة عقود لاحقة: «فإن الفرنجة مزقوا جلد الثور إلى شرائط طولية نحيلة جداً، ثم ربطوا نهاية كل واحد منها بنهاية الآخر بحيث وصل طولها الإجمالي إلى اثني عشر كيلو متراً استخدموها لوضع علامات مميزة لقطعة من الأرض، وألحوا على «الراجا» أن يفي بوعده ويعطيها لهم، وقد بُوغِتَ هذا بدوره مدهوشاً مما حدث، لكنه لم يستطع أن يرجع في كلمته كرجل مهذب، ومن ثَمَّ كان عليه أن يمنحهم



طرق التجارة حول بحر الصين الجنوبي

الإذن بامتلاك تلك الأراضي». وما حدث بعد ذلك بوقت قصير هو أن الإسبان قاموا باغتيال سليمان، وأجبروا بقية طائفة المورو – من خلال إحراق ممتلكاتهم – على مغادرة مانيلا.

وقد دخلت عبارة «يخسر بلده نظير جلد ثور واحد» إلى المعجم الصيني كنوع من التعبير المختزل الدال على ما يمكن أن ينتزعه الأوروبيون من الآخرين بالغش والخداع، وقد كان ذلك التعبير مايزال يستخدم هناك، خلال القرن التاسع عشر.

عندما وصلت أول مجموعة من الإسبان إلى مانيلا، وجدوا نحو ثلاثمائة تاجر صيني هناك قبلهم، وقد كان هؤلاء التجار يتعاملون تجارياً في الحرير والحديد والبورسلين، وبدأت العلاقات بينهما على نحو جيد، حيث شعر كل طرف منهما أن الطرف الآخر قد يكون شريكاً تجارياً مربحاً له. وفي الحقيقة، كان توقيت تلك العلاقة مناسباً ودقيقاً تماماً؛ وذلك لأنه عبر نصف القرن الماضي، كانت الصين قد أغلقت حدودها في طريق التجارة الملاحية أو البحرية؛ من أجل أن تعوق أو تمنع عمليات القرصنة التي كانت متفشية على طول الساحل، والذي يقع معظمه تحت سيطرة اليابانيين. وقد تجرأ عدد من تجار مقاطعة فوجيان الجنوبية الشرقية أن يبحروا إلى الخارج، متابعين في سيرهم قوس الجزر التي يمتد من تايوان مروراً بالفلبين حتى يصل إلى جزر البهارات أو التوابل، لكنهم قاموا بذلك مخاطرين بإمكانية تعرضهم للإعدام لو قبض عليهم. ولأنه لم تكن لدولة الصين أي طموح استعماري حتى تحذو حذو تجارها في طريقهم الذي اتخذوه فإنها لم تساند كثيراً ما

قاموا به من مغامرات. لقد تجسد طموحها فيما هو عكس ذلك تماما أو نقيضه وهو: أن تمنع وصول الثروات الخاصة والفساد اللّذين يمكن أن يجيئا فقط من التجارة الخارجية.

وقد كان ذلك هو الموقف حتى عام 1567 عندما اعتلى إمبراطور جديد العرش في بيجين، ورفع الحظر المفروض على التجارة البحرية. وقد كانت تلك علامة على أن الضغط الذي مارسته المطالب الخارجية كان له تأثيره، وبين عشية وضحاها، تحول القراصنة إلى تجار، وأصبحت البضائع المهربة سلعاً تصدر، وتحولت العمليات السرية، فأصبحت شبكة تجارية تربط بين الموانئ في جنوب شرق أسيا، والتي تشتمل على مانيلا وحتى المدينتين التجاريتين الكبيرتين في «فوجيان»، وهما: «كوانجوه» Quanghow و«جانغوه» Zhangzhow. وقد أصبح ميناء «جانجوه»، مرفأ القمر، الباب الرئيس الذي من خلاله كان يذهب القسم الرئيس من السلع إلى الخارج، ومن خلاله تأتي الفضة أيضاً، فربط بين الصين والعالم الخارجي.

ولو كانت تلك إمبراطورية، فإنها لا بد وأنها كانت إمبراطورية تجارية محضة، أما الإسبان، فقد تخيلوا مستقبلهم في آسيا على نحو مختلف عن ذلك، فبعد سنتين من قتلهم «سليمان»، توسل إسباني في مانيلا إلى ملك إسبانيا ملتمساً منه الإذن بأن يقود ثمانين رجلاً إلى الصين لغزو الإقليم، وقد كان فيليب الثاني (والذي سميت الفيلبين باسمه وهو لا يزال يعتلى العرش) ذا فهم جيد للأمور، فلم يستجب لطلب ذلك الرجل، ثم وصل اقتراح آخر لغزو الصين إلى إسبانيا بعد ذلك الالتماس الأول

بسنة، وهذه المرة بقوة مقترحة تتكون من ستين رجلاً فقط. وبعد ذلك بثلاث سنوات، قام «فرنشسكو ساندي» F.Sande، والذي أصبح حاكماً للفيلبين بعد ذلك، بتصحيح هذه التقديرات، وأعلن أن إسبانيا قد تحتاج إلى ما يتراوح ما بين أربعة آلاف وستة آلاف من الجنود، إضافة إلى مساندة الأسطول الياباني، من أجل أن تتمكن من غزو الصين. ومع ذلك، فإنه اعتقد أن غزو الصين ممكن، فضلاً عن وجهة نظره الراسخة بالاحتقار للصينيين، فهم في رأيه «أناس حقيرون وقحون، وكذلك مزعجون على نحو كبير». وتمسك الحاكم «ساندي» كذلك بأن «معظم هؤلاء الناس قراصنة عندما تتاح لهم أية فرصة، ومن ثَمَّ فإن لا أحد منهم مخلص لمليكه. وإضافة إلى ذلك، فإنه يمكن شن الحرب ضدهم لأنهم يحرمون على الناس الدخول إلى بلادهم. وإضافة إلى ما سبق، فإنني لا أعرف ولم أسمع عن أية شرور لم يمارسوها، وذلك لأنهم زناة، وشواذ، وقطاع طرق وقراصنة، سواء براً أو بحراً».

بعد ذلك بتسع سنوات ظهر اقتراح آخر بغزو الصين، وقد تراوحت قوة الغزو المقترحة ما بين عشرة آلاف، واثني عشر ألفاً من الإسبان، إضافة إلى من خمسة إلى ستة آلاف من أهل الفيلبين، وكذلك أكبر عدد يمكن حشده من اليابانيين، وقد أوصى صاحب ذلك الاقتراح أيضاً بإرسال قوة متقدمة من المبشرين الجيزويت كي تتسلل خفية إلى ذلك الإقليم، وتجمع المعلومات السرية المهمة، وتنشئ شبكة من العملاء المتعاونين هناك، فالصين تمثل «كل ما يطمح إليه العقل الإنساني أو يدركه من الثراء والشهرة الخالدة»، هكذا صاح الرجال الذين طرحوا

هذا الاقتراح بأعلى أصواتهم. وفوق ذلك كله، فإنها «تمثل كل ما يتمناه قلب المسيحي الراغب في الحصول على بركة المسيح من خلال إخلاصه له، وذلك من خلال العتق والتحرير لكل هذا العدد الضخم من الأرواح».

لم يكن غزو الصين إذن متعلقاً بالحصول على «أرباح قذرة»، هذا ما كان يؤكده المستغيثون بالملك فيليب، الطالبون موافقته على اقتراحاتهم؛ بل كان– كما قالوا – «عملاً مجيداً مكللاً بالشرف». وقد كانت الأمور كلها تحتاج إلى المخاطرة والمغامرة، وكان الوقت بالغ الأهمية، وكما قالوا محذرين «فالفرصة تتسلل هاربة منا، وهي لن تعود أبداً». كما أنهم أضافوا أن «الصينيين يصبحون كل يوم أكثر حذراً وأكثر قدرة على الدفاع عن أنفسهم. إنهم يدَّخرون العتاد والذخائر الحربية، ويُحصِّنون أنفسهم، ويدربون الرجال. وكل ما تعلموه ولا يزالون يتعلمونه إنما تم عن طريق البرتغاليين، وعن طريق مواطنينا أيضاً». أما الحجة أو الذريعة الأخيرة التي طُرِحَت من أجل القيام بالغزو، والتي هي بالنسبة إلينا الأغرب من بين كل تلك المقترحات، فهي أن الصين كانت في مرمى خطر الوقوع في أيدى المسلمين وإنه لحظة أن يسيطر المسلمون على الصين، كما حذر هؤلاء المتوسلون المستغيثون، فإنه سيطردون الإسبان خارج الأسواق الصينية وإلى الأبد. وقد كانت ذكرى طرد المسلمين من إسبانيا عام 1492 لا تزال قوية في الأذهان، وكانت المنافسة بين الإمبراطورتين العثمانية والإسبانية شديدة الشراسة، وعلى نحو كافٍ، بحيث كان من الممكن لمثل ذلك الالتماس أن يتغلب على الاعتبارات

الهادئة الأخرى. لكن ذلك لم يحدث، فلم يسقط الملك فيليب ذلك الاقتراح من دائرة اهتماماته فقط، بل إنه أيضاً حرّم على ذلك الحاكم أن يرسل إليه أية مخططات حمقاء مماثلة بعد ذلك فلم يكن ممكناً أن تقوم إسبانيا بغزو الصين مثلما قامت بغزو أمريكا الجنوبية أو الفيلبين، وإن ثروة الصين يمكن الحصول عليها من خلال التجارة، وليس من خلال الغزو.

وقد كانت القاعدة التي تمت تلك التجارة من خلالها هي مانيلا، وهكذا أعاد الإسبان بناء مدينة المرفأ الساحلية تلك على شكل مدينة محصنة على نحو كثيف، وقد كانت المنطقة التي داخل الأسوار التي بنيت بأحجار ضخمة بمثابة مقاطعة مسوّرة بالطائفة الأسبانية Spaniards (وهو مصطلح كان يطلق على كل الأوروبيين هناك). وقد كان يسمح لهم بأن يحضروا إلى مانيلا ومعهم خدمهم وحراسهم وعبيدهم (مع أن المرسوم البابوي الذي صدر عام 1591 قد حرر كل العبيد الذين في الفيلبين). أما الصينيون، والذين كان لهم أن يقوموا بالتجارة مع الإسبان، فقد كان ينبغي عليهم أن يظلوا خارج تلك المدينة. وقد كان الصينيون، في البداية، يأتون إلى مانيلا على نحو موسمي فقط، حيث يصلون إليها عندما تهب رياح الربيع ويغادرونها إلى مرفأ القمر في الخريف. ومع نمو حجم التجارة وتزايد وتعقيداتها أبدى الصينيون قلقلهم ورغبتهم في البقاء طوال العام، وهي ممارسة أطلقوا عليها اسم «الشتاء المتخم»، حيث كانت الحكومة الصينية قد حرمت على تجارها البقاء سنة كاملة خارج الصين، لكن تلك القاعدة لم تكن ملائمة بالنسبة

إلى الحوافز التجارية التي كان ذلك «الشتاء المتخم» يوفرها. هكذا وافق الإسبان على الطلب الذي تقدم به التجار الصينيون، لكنهم قرروا ألا يزيد الحد الأعلى لعدد هؤلاء الذين يمضون «الشتاء المتخم» هناك من الصينيين على ستة آلاف فرد. وفي عام 1581 قرر الإسبان أيضاً تحديد مكان إقامة الصينيين في «جيتو» ghetto، أو «معزَل» في محاكاة لتلك الممارسة التي كانت تقيد أماكن وجود اليهود في المدن الأوروبية[3]. وقد كان «الجيتو» الصيني يتكون من مدينة محاطة بسياج من الأوتاد الخشبية القوية المستدقة، والتي كان ينبغي احتجاز جميع الصينيين فيها خلال الليل، وقد أطلق الإسبان على تلك المدينة اسم سوق الحرير (القيصرية)، وهي كلمة مستمدة من كلٍّ من الكلمة العربية Alcaiceria الخاصة بالحرير Cer، وكذلك المقطع الصيني (si). أما المواطنون المحليون الفيلبنيون فقد أطلقوا على تلك المدينة اسم «باريان» parian، وهي كلمة في اللغة التاغالوغية تعني «المكان» (an) الذي تتم فيه المساومات» (pali).

وقد حرّم الإسبان قيام الصينيين ببناء بيوتهم بالحجر؛ فقد كانوا يعدون تلك المادة ناعمة تماما ولا تناسب هؤلاء البشر، ولعل هذا هو السبب الذي جعل «ذلك المكان الذي تحدث فيه المساوات» يحترق على نحو منتظم أيضاً، وفي كل مرة كانت تكبر خريطته، إلى درجة أنه عندما قام زائر إسباني في نحو عام 1637 بزيارة ذلك المكان، استطاع أن يعلن إعجابه بذلك «النظام الجميل الذي يعيشون في ظله». وقد انتقل ذلك الموقع مرات عدة مع كل عملية إعادة بناء، لكنه كان يظل دائماً

قريباً من أسوار مانيلا، و«ضمن المدى الخاص بمدفعيتها»، كما ذكر ذلك كاهن دومنيكاني، وهو يشعر بالسرور، في تقريره الذي أرسله إلى الملك عام 1666، وقد كان الرهبان الدومينكان قد كُلِّفُوا في عام 1594 بمهمة تحويل الصينيين إلى الديانة المسيحية، وداخل ذلك المعزل أو المدينة الصينية المسوّرة، بنوا كنيسة «الملوك الثلاثة» الخاصة بكهنوتهم أو رجال ديانتهم، وقد سُمِحَ لهم – هذه المرة– بالبناء باستخدام الحجر، مما كان يعنى أنه عندما تحرق «باريان» أو «المدينة التي تحدث فيها المساومات» فإن تلك الكنيسة – وعلى نحو منتظم– «سوف تنجو من وسط النيران التي تشتعل في سُدوم Sadom»، كما عبر عن ذلك أحد هؤلاء الكهنة عندما أتت النيران على تلك المدينة «التي تتم فيها المساومات» في عام 1628 (وقد أعلن أن النار كانت «عقاب السماء بسبب تلك الخطايا المرعبة التي يقوم من خلالها هؤلاء الصينيون الوثنيون»). وقد تحول عدد قليل فقط من الصينيين إلى المسيحية، ومن أجل تلك الغاية كان عليهم أن يقصُّوا شعرهم وفقاً للأسلوب الأوروبي، وأن يعتمروا قبعة مصنوعة من فرو القندس، لكن معظم الصينيين لم يكونوا مستعدين أن يعبروا مثل تلك المسافة الكبيرة نحو الثقافة الإسبانية. أما من بين الذين تحولوا منهم إلى المسيحية، فقد اختير واحد منهم كي يصبح زعيماً للجماعة التي كانت تعيش في «المكان الذي تتم فيه المساومات». وعلى كل حال، فإنه بعد ذلك الحريق الذي حدث عام 1628، قام حاكم مانيلا باستبعاد ذلك الزعيم الصيني من هناك، ووضع مكانه موظفاً إسبانياً عُرف على أنه الحامي للصينيين.

وقد تزايد عدد ذلك المكان «الذي تحدث فيه المساومات»، فوصل إلى نحو عشرين ألف نسمة، وفقاً للأرقام الرسمية، هذا مع أن العدد الفعلي للصينيين في مانيلا وحولها ربما كان قد وصل إلى مستوى يزيد على هذا الرقم بمقدار نصفه على الأقل مرة أخرى، ولم يكن الإسبان يستطيعون بناء مستعمرتهم دون هؤلاء الصينيين، فالتجار الذين كانوا يصدرون السلع الخزفية من الصين إلى هناك كانوا هم الأقلية بين هؤلاء الصينيين، أولاً وقبل كل شيء، أما البقية الأكبر منهم فقد كانوا هم من جاؤوا إلى مانيلا، وكانوا هم البشر الذين جعلوا ممكناً بالنسبة إلى الإسبان أن يعيشوا تلك الحياة التي عاشوها، لقد كان منهم الوسطاء المتعاملون في الحبوب، والفلاحون الذين زرعوا الخضروات، والحائكون (الخياطون) وصناع القبعات، والخبازون والشماعون (صانعو الشموع)، وصناع الحلوى والمعجنات، والصيدلانيون، والنجارون وصائغو الفضة. لقد وفروا الورق الذي كتب عليه الإسبان، والسمك الذي أكلوه في وجبة عشائهم، كما أنهم نقلوا كذلك السلع التي حصلوا عليها. ولم يكن بمقدور الإسبان أن يعيشوا ضباطاً وكهنة ورجالاً ذوي تهذيب ورقي في سلوكهم دون هؤلاء الصينيين وقد كان يطلق عليهم اسم Sangley، وهو نوع من الإفساد الإسباني المقصود لمصطلح صيني على الرغم من النزاع الدائم حول المعنى الحقيقي لهذا المصطلح والجذر الاصطلاحي أو «فقه اللغة» المعياري المنعلق به يقول إنه مشتق من كلمة Shengli أي «الذي يجني الأرباح» لكن آخرين اقترحوا المعنى shanglu أي «التجار المسافرين» أو Changlai، والتي تعني: «الذي يأتي على نحو

منتظم»، وهو ما كان الصينيون يقومون به فعلاً، من أجل تحقيق فوائد ضخمة للمجتمع الإسباني. والحقيقة، هنا، هي – كما سلم بذلك الحاكم «أنطونيو دى مورجا» Antonio de Morga عام 1609 – «أنه دون هؤلاء القوم من الـ Sangleys لم يكن للمدينة أن تفلح في تدبير أمورها، أو أن تحافظ على نفسها وذلك لأنهم سادة كل الحِرَف، وهم أيضاً عمال جيدون يجتهدون في عملهم مقابل أجور منخفضة».

كانت مانيلا، بالنسبة إلى فقراء الصينيين الذين يجيئون من فوجيان، هي جبل الذهب (وقد منح ذلك الاسم ولأسباب مماثلة، لمدن على الساحل الغربي في أمريكا الشمالية إبّان القرن التاسع عشر، وهي تسمية يمكن ترجمتها إلى أنها تعني جبل المال أو النقود)، لقد كانوا شجعاناً في ذهابهم إلى داخل البحر من أجل الحصول على قطعة من الذهب، وقد أذهلت جسارتهم مسؤولاً رسمياً صينياً يدعى «جو كوي يان» Zhou Qiyuan، فكتب عام 1917 يقول «إن هؤلاء التجار الصغار يشاهدون الأمواج الضخمة تحت السماء المفتوحة كما لو كانوا يقفون على راحتهم فوق رابية عالية، وهم يحدقون في طوبوغرافيا المناطق الغريبة كما لو كانوا يتمشون متنزهين خارج بيوتهم، ويرفعون عيونهم متفحصين رُؤَساء العصابات والأمراء المحاربين كما لو كانوا يتعاملون مع صغار الموظفين». وقد لاحظ ذلك وهو يشعر بالرهبة، وأضاف: «إنهم يكونون على راحتهم حينما يعلون فوق أمواج المحيط ويتعاملون مع قواربهم كما لو كانت حقولاً واسعة». وقد كانت تلك الحقول حيث الثروة التي ينبغي الحصول منها على الثروة بطرائق مناسبة

ولم يذكر «جو» أن هؤلاء الرجال كانوا ميالين إلى الاستجابة على نحو عنيف في مواجهة أية محاولة لإعاقة تجارتهم، كما أنهم كانوا غير مبالين تماماً بتلك القوانين أو المحاكم التي كانت تسعى من أجل احتجازهم وعقابهم، لكنه كان بشكل عام، متأثراً – على نحو قوي – بشجاعتهم المتمثلة في ذهابهم بعيداً داخل البحر سعياً وراء ثرواتهم بحيث إنه لم يستطع أن يخفي إعجابه بهم، «فهؤلاء الضاربون بمجاذيفهم قاع البحر، قادة القوارب الطويلة الضيقة المسطحة، هم نمور البحر في هذا المحيط الهائج».

في ربيع عام 1603 اتهم موظف مسؤول ينتمي إلى البيت الإمبراطوري الحاكمَ بجمع الرسوم الجمركية البحرية في فوجيان، وقد كان مخصوصاً محباً لاكتساب المال واكتنازه جشعاً، ويُدعى «قاو كاي» Goa Cai، قرر أن يعلم حقيقة الشائعات المنتشرة حول جبل للذهب في مانيلا، فأرسل وفداً لبحث الأمر. وقد كانت تلك حركة غير عادية، حيث إن القانون الصيني كان يحرم موظفيه الرسميين من عبور أحد الحدود، أو إرسال أحد الوفود خارج الإقليم دون تصريح رسمي واضح إلى هناك، وقد تحمَّل «قاو» مسؤولية تجاهل مثل تلك القواعد، فقد كان هو المندوب الرسمي المعين من الإمبراطور هناك، وقد كلف بأن يجمع قدر ما يستطيع من الفضة ويرسله كي يوضع ضمن الثروة الخاصة بالإمبراطور (وقد قام «جو كوى يان» Zhou Qiyuan وغيره من الموظفين الرسميين في المقاطعات الأخرى بطلب إقالة «جاو» بتهمة الفساد بعد عقد لاحق، مع أن ذلك الأمر اقتضى حدوث شغب في

الشوارع وإخلالاً بالأمن حتى يحدث ذلك).

لقد أدهشت زيارة ذلك الوفد المستعمرين الإسبان وأزعجتهم، وقد خشي بعضهم من أن قصة تقصي الحقائق تلك، ليست إلا ستاراً، وأن ذلك الوفد الصيني لم يذهب إلى هناك إلا من أجل أن يستطلع الأمور هناك مقدماً تمهيداً للغزو العسكري، وقد سخر آخرون من تلك الفكرة لأنهم كانوا يعرفون أن الصين لا تطمح أن تمتلك إمبراطورية استعمارية على الطراز الإسباني، وقد اعتقد أحد المدراء الإسبان – وهناك الذين أيَّدوا هذا الرأي – أن تلك الفكرة قد نُشِرت كشائعة من جانب بعض مدبري المكائد الذين كانوا يأملون في «رؤية السلام يتزعزع هناك، وأن تتاح لهم الفرصة للحصول على شيء»، وبخاصة من جانب هؤلاء الصينيين الذين يعيشون في ذلك «المكان الذي تتم فيه المساومات»، وفي النهاية رحب الحاكم بذلك الوفد بشكل رسمي، لكنه ظل على حذره، فقد كان قلقاً مشغولاً بالتفكير في شيء غريب كان يحدث.

عندما اندلعت النار في المستشفى الخاص بغير الأوروبيين لاحقاً خلال ذلك الربيع، وتطوع الصينيون لدخول المدنية لمحاربة النيران، رفض ذلك الحاكم العصبي مساعدتهم وترك النار مشتعلة، وقد شعر الصينيون بالانزعاج، وأن مشاعرهم جُرِحَت بواسطة عدم الثقة التي يشعر بها الإسبان تجاههم، كما كانوا متشككين في دوافع الحاكم التي جعلته يترك النيران تأتي على المستشفى وتدمره، وقد جعل كبير الأساقفة الذي كان قد وصل حديثاً إلى مانيلا، والذي لم يكن يتمتع بشعور من الكياسة ومراعاة مشاعر الآخرين في مثل هذا الموقف، جعل

الأمور تسوء أكثر مما كانت عليه خلال ذلك الصيف؛ بأن ألقى موعظة في الكنيسة واختار وقتاً سيئاً للمناسبة، وفيها اتهم الصينيين بالشذوذ والسحر، وتحول التوتر بين الجانبين إلى عنف انفجر خلال الخريف، وقد ذهب عشرون ألفاً من الصينيين الفقراء وغير المسلحين جيداً ضحية مذبحة قام بها الجنود الإسبان شديدي الهياج وأتباعهم من المحاربين المحليين من أهل تلك البلاد، وسلم أحد الموظفين الرسميين في مقاطعة فوجيان الصينية رسالة احتجاج إلى الإسبان، كي يقول من خلالها إن الإسبان يحتفظون بالحق في قمع التمرد، وإنه سيضع في حسبانه ما يمكن أن يقوم به «لو حدثت حالة مماثلة في الصين». لقد أسقطت حكومة أسرة «المنغ» Ming القضية من دائرة اهتمامها، وخلصت إلى أن تلك الحادثة قد وقعت خارج نطاق سيادتها، وإن الصينيين الذين ماتوا قد تخلوا على نحو فعلي عن مكانتهم كرعايا للإمبراطور؛ وذلك لأنهم لم يعودوا يعيشون فعلاً داخل المملكة التي يحكمها. وفي الموسم التالي استؤنفت التجارة، لكن ذكرى ذلك الغضب المتفجر ظلت تنتاب العلاقات بين الجانبين حتى نهاية ذلك القرن.

لقد جعلت ذكرى المذبحة التي حدثت عام 1603 الحكومة الصينية تشعر بالحذر إزاء فتح الباب للتجارة مع العالم الخارجي على نحو واسع، لكن تلك الذكرى لم تقم بالكثير من أجل إعاقة أكبر للصينيين أو منعهم من المجيء. ووفقاً لتقرير قدمه وزير الحرب الصيني لإمبراطوره في عام 1630، فإن مائة ألف صيني من أهالي «فوجيان» كانوا يذهبون إلى البحر كل ربيع، وقد كان الفقر الذي يدفعهم إلى القيام بذلك، وهي

نقطة طرحها كي يحاجج ضد موضوع غلق الحدود، وخشية أن يلجأ هؤلاء المائة ألف شخص إلى طرائق أخرى أقل نفعاً للصحة يكسبون من خلالها عيشهم. وفي عام 1636، ووفقاً لأحد عملاء التاج الإسباني، وصل عدد الصينيين واليابانيين الذين كانوا يعيشون في مانيلا إلى نحو ثلاثين ألفاً.

لقد كانت مانيلا تعني الكثير بالنسبة إلى كل إنسان كان يقوم بالتجارة هناك. لقد كانت نقطة الاتصال التجاري بين اقتصادات القرن السابع عشر، أي: أوروبا والصين، وقد كان الأمر ببساطة هو إنه بمجرد ما أن تتدفق الفضة، لم يكن لشيء أن يقطع هذا الاتصال ولا حتى مذبحة دامية، لقد كان كل جانب يحضر معه إلى مائدة الاتصال ما يريد الجانب الآخر أن يشتريه ويمكن أن يدفع ثمنه أيضاً، ثم أنه يأخذ منه أيضاً ما يمكن أن يفيده. وكل ربيع، كانت سفينة أسبانية ضخمة أطلق عليها في الفيلبين اسم «غليون مانيلا»، في حين سُمِّيَت «السفينة الصينية» في المكسيك والتي كانت تعبر المحيط الهادئ من المكسيك محملة بالفضة، وكل ربيع أيضاً كانت نحو ثلاثين أو أربعين سفينة شراعية (تسمى: الـ «يَنْك») تنطلق من الصين متخمة بـ «الحرير، والقطن، المصنوعات الخزفية الصينية، والبارود، وخام الكبريت والحديد، الفولاذ، والزئبق، والنحاس والكَسْتناء والدقيق والجوز والبسكويت والبلح، وكل أنواع المنسوجات وطاولات الكتابة وغير ذلك من الأشياء الغريبة التي تشد الانتباه»(4). وقد جمعت التجارة بين كثير من الصينيين المشاركين في ذلك العمل على نحو طيب. وكما لاحظ «جو كوي يان» Zhou

Qiyuan فإن هؤلاء التجار «كانوا يصعدون فوق متون السفن ويذهبون عبر الطريق البحرية الغربية والشرقية من أجل التجارة»، وقد كان الطريق الغربي يسير بمحاذاة خط الساحل الذي يمتد من فوجيان هبوطاً نحو فيتنام، أما الطريق الشرقي فكان يصل إلى «تايوان»، ثم يتجه جنوباً نحو الفلبين. «لقد كانت الشحنة التي يحملونها معهم نفيسة ورائعة، وكانت الأشياء المدهشة التي تحتويها تتجاوز الوصف، ولم يكن هناك أدنى شك في أن ما يحصلون عليه مقابلها من ذهب وفضة يصل إلى مئات الآلاف».

وقد كانت المخاطر التي تعرض لها الإسبان شديدة، فالسفينة الإسبانية أو «غليون مانيلا»، كان عليها أن تمضي شهرين أو ثلاثة تعبر خلالها المحيط الهادئ حتى تصل إلى الفيلبين، ثم كان عليها أن تواجه رحلة عودة قد تكون أطول من رحلة الذهاب تلك، لقد كان عليها أن تبحر خلالها من «أكابولكو» قبل شهر يوليو، خشية أن تضربها الأعاصير الاستوائية في أثناء وجودها في تلك القنوات أو الأخاديد المائية الغادرة المنتشرة عبر جزر الفلبين. هكذا كانت التجارة نوعاً من الترتيبات أو الاستعدادات الهشة أو سريعة الانقضاء والزوال. لقد كان فقدان واحدة من سفن الـ «ينك» الصينية له تأثير متواضع في عمليات التبادل التجارية تلك؛ وذلك لأن السلع في تلك الحالة كانت موزعة بين سفن شراعية كثيرة، في حين لو غرقت سفينة (غليون) إسبانية خلال رحلتها، فإن الموسم التجاري كله قد يُلْغَى، ومما ينتج عنه من أضرار بالغة على الجانبين. وقد حدث ذلك على نحو متكرر بدرجة كافية بحيث إنه

تحول إلى هم حقيقي فمنذ بداية تلك التجارة وحتى عام 1815، غرقت خمس عشرة سفينة كبيرة إسبانية (غليون) في أثناء إبحارها غرباً منطلقة من «أكابولكو»، وغرقت خمس وعشرون منها في أثناء رحلة العودة الأكثر مشقة وصعوبة.

وقد سجل رحالة إيطالي من القرن السابع عشر هو «فرنشيسكو كاريري» Francesco Careri الأهوال التي كانت تحيق بعبور «نصف عالم اليابسة والماء تقريباً»، فقد كان على تلك السفن الكبيرة (الغليون) أن تخوض معركتها ضد «تلك العواصف المخيفة التي تحدث هناك، والتي تأتي إحداها عقب الأخرى»، وإنه لو لم تقم العواصف بتدمير السفينة، فإنه تكون هناك «تلك الأمراض الباعثة على اليأس التي تصيب الناس، خلال شهور سبعة أو ثمانية، يكونون خلالها في بحر أحياناً ما يكون قريباً من خط الاستواء، وأحيانا بارداً، وأحياناً معتدلاً، وأحيانا حاراً، وهي ظروف كافية لأن تدمر رجلاً مصنوعاً من الفولاذ، وليس من لحم ودم، والذي لا يكون بمعيته في البحر سوى طعام غير طبيعي»، ومثل هذا النوع من الطعام غير الطبيعي قد يحدث مرض الإسقربوط والذي يطلق عليه الإسبان اسم «المرض الهولندي»[4]، هذا إذا لم ينفد أو تنتهي صلاحيته، ويهدد طواقم السفن بدلاً من ذلك المرض، بالموت جوعاً. وقد قام طاقما سفينتين شراعيتين إسبانيتين في ثلاثينيات القرن السابع عشر بدفع ذلك الأذى المتعلق بمشكلة الموت جوعاً هذه بأن رموا مائة وخمسة (105) من

(4) «الإسقربط»: مرض من أعراضه نزيف اللثة وتورم المفاصل وضعف الجسم عامة وقد يؤدي إلى الموت ومن أسبابه تناول نوع واحد من الطعام لفترة طويلة من الزمن، ويعالج بإمداد الجسم بالفيتامينات وخاصة فيتامين ج وكذلك الفاكهة والخضروات الطازجة. .

بين من كانوا على ظهر هاتين السفينتين في البحر، حتى يستطيع الباقون أن يستمروا أحياء، وقد كانت الحالة الأكثر إثارة للخوف والرعب هي الخاصة بالسفينة «سان جوزيه» san jose التي اكتشفت في عام 1657 بعد أن ظلت أكثر من عام في البحر، وقد جرفتها المياه جنوباً قبالة الساحل الذي يقع أسفل «أكابولكو»، وقد وجدت محملة بجثث ماتت جوعاً وجفت أجسادها، ومعها عنبر شحن مملوء بالحرير.

في مقابل جبل السلع النفيسة التي كانت السفن الشراعية الإسبانية الضخمة تحملها وتعود بها إلى المكسيك، كان الإسبان يقدمون جبلهم الخاص من الفضة، وقد كانت كمية الفضة التي سُجِّلَت رسمياً للتصدير من «أكابولكو» قد بدأت بنحو ثلاثة أطنان سنوياً في ثمانينيات القرن السادس عشر وتسعينياته، ثم كَبُر حجم هذه الكمية ليصل إلى نحو عشرين طناً سنوياً في عشرينيات القرن السابع عشر، ثم استقر على زهاء تسعة أطنان أو عشرة كل سنة بعد ذلك. وفي النصف الأول من القرن السابع عشر، كما توحي السجلات الرسمية فإن السفن الشراعية الإسبانية الضخمة قد حملت أقل قليلاً من ثلاثة أرباع مليون كيلو جرام من الفضة إلى مانيلا، فإذا أضفنا إلى ذلك كمية الفضة التي هربت، فإن الحصيلة الكلية من الفضة لا بد أن تبلغ الضعف على الأقل. وبالطبع لم ترسل هذه الفضة كلها إلى «فوجيان» حيث حُوِّل مسار بعضها نحو «ماكاو» ومُرِّر عبر أيدي البرتغاليين لنتذكر أن السفينة «جوّيا» التي تحطمت على ساحل جنوب الصين عام 1625 كانت تحمل معها فضة من مانيلا إلى «ماكاو». لكن القدر الأعظم من الفضة كان يرسل إلى «فوجيان» ثم يختفي داخل

الاقتصاد الصيني. ووفقاً لأفضل التقديرات الحالية فإن الصين، وخلال النصف الأول من القرن السابع عشر، قد استوردت خمسة آلاف طن من الفضة، نصف هذه الكمية تقريباً من اليابان، والبقية من مناجم أمريكا الإسبانية من أوروبا إلى الشرق عن طريق المحيط الهندي، أما القسم الأعظم منه فكان يشحن على نحو مباشر غرباً عبر المحيط الهادئ.

لقد ألقت عملية الاستيراد للفضة بهذا الوزن الضوء على تلك المسافة غير الملائمة والخطرة في الصين بين السياسة العامة والتجارة الخاصة، فمن ناحية، بذل البلاط الحاكم الخاص بأسرة «المنغ» كل ما استطاع من جهد للحد من عملية استخراج الفضة من مناجمها هناك، خشية الفساد والاضطراب الاجتماعي الذي قد يحدث داخل مجتمعات عمال المناجم، ومن ناحية أخرى، كان التجار يستوردون الفضة بكميات ضخمة إلى داخل جنوب الصين. وعندما كان الكاتب «فينج مينغ لونغ» Feng Menglong يقوم بمهامه حاكماً لإقليم في فوجيان الشمالية في ثلاثينيات القرن السابع عشر، فإنه وسّع نطاق الحصار العسكري المحيط بمناجم الفضة في ذلك الإقليم. والأمر الذي يدعو إلى السخرية هنا هو أن فينج هذا كان يمارس حراسته ورقابته من أجل منع المتشردين من الحفر في حُفر الفضة القديمة، في حين أنه عند الطرف الآخر من المقاطعة كان التجار يجلبون الفضة الأمريكية بالطن وقد كان ذلك هو الموقف الداخلي الذي وجدت الصين نفسها فيه خلال النصف الأول من القرن السابع عشر. هكذا عملت الحكومة جاهدة من أجل إعاقة عملية تراكم الثروات الخاصة بين هؤلاء المهمشين اجتماعياً؛

خشية أن تقوم تلك الثروة بإذكاء قوى التمرد وتقويتها، وقد حدث هذا بينما قامت العائلات التجارية الخاصة بتكديس ثروات ضخمة من خلال التجارة مع الخارج.

تدفقت الفضة بسهولة ويسر داخل المجتمع الصيني لأنه كان ثمة احتياج إليها كي تضاف إلى تلك العملات البرونزية الصغيرة التي كانت تُستَخدَم في التعاملات التجارية الصغيرة أيضاً. لقد كانت هي الشكل المقنن المعتمد للنقود، وقد كانت هي أيضاً الشكل الذي جمع من خلاله نظام الحكم الخاص بأسرة المنغ الضرائب، وقد كانت كمية الفضة التي تأتي إلى الصين كبيرة تماماً، بحيث اعتقد الصينيون أن هذا العرض لها لن ينتهي، وقد افترضوا كذلك أن الأجانب، من خلال تحكمهم في هذا العرض للفضة أو التزويد بها، كانوا في وضع يُحسدون عليه يُمَكِّنَهم من الحصول على كل ما يريدون دون أن يتحملوا أية نفقات حقيقية. وقد أوحى صيني تحول إلى المسيحية، في الحقيقة، بهذه الاستراتيجية للمبشرين الفرنسيسكان، حيث إن البشر بطبيعتهم يحبون الربح، «فإنك لو أعطيت الفضة لكل فرد منهم فإنك لن تجد إنساناً لا يتبع تعاليمك». أما «بيدرو دي لا بينويلا» pedro de la pinuela – المبشر الفرنسيسكاني الذي أدرج تلك المحادثة على شكل حوار، فقدم الاستجابة المتوقعة أولاً. «إن ذلك لن يكون إتباعاً للتعاليم، بل إتباعاً للفضة» لكنه تحول بعد ذلك نحو تلك المشكلة العملية التي فحواها أن نظام الرهبنة الخاص به لا يمتلك مخزوناً لا نهائياً من الفضة كي يعطيها إلى الآخرين». «لو كان الناس يأتون إلينا من أجل الفضة، فإن الموقف سيكون هكذا: إنه

عندما تنفد الفضة أو تنتهي، فإنهم سيذهبون بعيداً عنا. وحيث إن جشع الناس لا ينتهي، فإنه بمجرد أن تنتهي الفضة التي تعطيها لهم، ألا يمكن أن تخمد رغبتهم في سلوك الطريق القويم، تماماً كحال الفضة التي تنفد وتنتهي؟» إنها تخمد، أو على الأقل تنخفض، كما سنرى ذلك لاحقاً.

في حين كانت عملية التزويد بالفضة مستمرة، فإنها أضفت مظهراً جذاباً خادعاً على عالم الصين. لقد خلقت إمكانية لتراكم النقود والسيولة المالية التي شجعت على الإنفاق المولع بالتفاخر والتباهي، وكذلك التنافس الاجتماعي. وقد فتح هؤلاء الذين كانوا يقدرون على تحمل نفقات تلك الثقافة الجديدة للثروة أذرعهم لها مرحبين بوصولها، وحازوا لذات إنفاق كميات ضخمة من الفضة على السلع والتحف والمنازل الباهظة الثمن. وقد أثارت هذه الموجه الجديدة من الإنفاق الترفي حركة ارتجاعية عنيفة تماماً على كل حال، عقب بداية القرن السابع عشر، وفيما بين النخبة المحافظة أصبحت الفضة عصا مضيئة دالة على تراكم الإحباطات لديهم، وكذلك فرصة لإطلاق التحذيرات المنذرة بالكوارث حول ذلك الانحطاط أو التفسخ الذي أصاب العصر، وقد كان الحاكم «جانغ تاو» zhang tao واحداً من الذين روّعهم اقتصاد الفضة. ففي عام 1607 عُيِّنَ «جانغ» حاكماً لجزيرة جنوب نهر «يانجتسي»، وتصادف أن كان ذلك المكان موطناً لعدد من أكبر العائلات التجارية في ذلك العصر. لقد كانت تلك مشاركة سيئة في الحياة؛ ففي عام 1609 كان «جانغ» يشجب بعنف في مطبوعة محلية هذا الإنفاق والبذخ من أجل عيش حياة رخوة، وهذا التباهي المبتذل

السطحي، وأيضاً ذلك الفقر الأخلاقي، فقد كانت الأسس الأخلاقية التي حافظت على المجتمع من قَبْلُ متماسكاً قد دخلت مرحلة التفتت والانهيار، كما أن الواجبات المتبادلة التي حافظت من قَبْلُ على حياة القرية لم تعد ملحوظة، وقد وجَّه «جانغ» اللوم في ذلك كله إلى شهوة الفضة، ذلك الشغف الغلاب الذي يأكل الآن قلوب البشر. لا يمكن أن تكون الفضة وسيطاً بريئاً في تكديس الثروات؛ وذلك لأنها بوصفها شيئاً ليس له استخدام ثابت محدد، أو قيمة حقيقية، وقابلة كذلك للتبادل على نحو لا محدود في مقابل كل السلع الأخرى، فإنها قد أطلقت العنان للأغنياء في عملية تكديس ثرواتهم الشخصية، في حين حرمت الفقراء من وسائل البقاء ومواصلة العيش، وقد كانت النتيجة التعسة المشؤومة لذلك كله أن أصبح واحدٌ في المائة من الناس هم الأغنياء في حين أصبح تسعون في المائة منهم يعانون شظف العيش، ويعيشون في فقر مدقع.

لقد كان الإلقاء باللوم على الفضة كافياً ومرضياً، لكن عند منعطف القرن السابع عشر كان أي اقتراح قُدِّمَ لكبح جماح الفضة اقتراحاً دالاً على الحماقة. فقد كانت الفضة موجودة بعمق، هناك، كحقيقة من حقائق الحياة اليومية، بحيث لم يكن لامرىءٍ أن يفكر فيها، إلا عندما لا يكون لديه قدر كافٍ منها كي يمتلك، من خلاله، ما يحتاج إليه ليستمر حياً. وعندما حدث ذلك، وقد حدث ذلك كثيراً في السنوات الأخيرة من حكم سلالة «المنغ»، عندما هدد الطقس البارد والأوبئة بقاء السلالة الحاكمة نفسها، فإنهم كانوا راغبين في ضرب الفضة بقسوة،

وإلقاء اللوم عليها بوصفها الشرير الموجود الاقتصاد، وقد يكون لذلك الإحباط الذي أصاب «جانغ تاو» بسبب القوة التي كانت عليها الفضة، قد يكون له صلته بخبرته الأولى المبكرة حاكماً إقليمياً، فعندما وصل كي يتسلم مقاليد منصبه في عام 1607، وجد أن سعر الأرز ارتفع؛ لأن أمطار الخريف كانت قد سقطت بعيداً عن ذلك المحصول المحلي. في الأوقات العادية، فإن ثمن الأرز بالنسبة إلى كل peck «بك» صيني (حجم هذه الوحدة يعادل 10,75 لترات) ظل أقل من نصف «ماك» Mace (الكيان qian الواحد كان وحدة من الفضة تزن 3,75 جرامات) ولكن مع انقضاء الربيع لاحظ «جانغ» أن الأسعار قد وصلت تقريباً إلى ثلاثة أمثالها، فأصبحت 1,3 «كيّان» (4,6 جرامات)، وعند هذه النقطة تدخل في الأمر وأمر ببيع مخزون الأرز الذي في مخازن أرز الإقليم، وبأسعار تقل عن التقديرات الموجودة في الأسواق، وقد أدى تدخله هذا إلى خفض إجباري لأسعار الأرز في الأسواق، وإلى التخفيف من الأزمة التي كانت هناك لوقت كان طويلاً بدرجة كانت كافية بالنسبة إلى عملية تداول الحبوب لأن تستأنف نشاطها من جديد، وبأسعار منتظمة مقاربة، وقد نظر «جانغ» إلى ذلك الاعتماد المحلي على الفضة على أنه السبب الرئيس في هذه المشكلة، ففي رأيه أنه لو لم تكن هناك الفضة في ذلك الاقتصاد المحلي، فإن ثمن الأرز لم يكن ليرتفع إلى ذلك المستوى الذي وصل إليه.

هل كانت الزيادة في مخزون الفضة التي يتم تبادلها في الصين هي ما دفعت الأسعار إلى أعلى؟ إن المنطق الاقتصادي يقول هنا إن الزيادة في

عرض النقود أو توافرها سيكون له أثر يتعلق بالتضخم، لكن ذلك أمر يصعب اكتشافه من تلك الشواهد المتاحة هنا. لكن ما لم يكن صعب الاكتشاف هو ذلك التضخم الجامح في الأسعار الذي حدث في أثناء أزمات ارتفاع أسعار المواد الغذائية خلال الأربعينيات الأولى من القرن السابع عشر. فقبل القرن السابع عشر، كانت الأزمات المحلية تعمل على مضاعفة أسعار الأرز أو وصولها إلى ثلاثة أمثالها، وقد جاءت الاستثناءات قصيرة الأمد هنا خلال أربعينيات القرن السادس عشر وثمانينياته، عندما تجاوز السعر السقف غير الرسمي المحدد له عند ستة جرامات من الفضة مقابل كل ديكالتر (ديكالتر يعادل عشرة لترات). وفي عشرينيات القرن السابع عشر كان سقف الأسعار قد بدأ يتحرك. ووفقاً لما قاله مواطن من سكان شانغهاي، فقد وصل سعر الـ «بك» الواحد من الأرز إلى 1,9 من «الماك» Mace (6,6 جرامات بالنسبة إلى كل ديكاليتر) «على كل حال»، وكما يستمر كاتب المذكرات هذه نفسه في ملاحظته، لم يكن هناك شيء يماثل ما حدث في ربيع عام 1642»، فقد انهارت قيمة العملة، فدفعت بسعر «البك» الواحد من الأرز الأبيض إلى مستوى 5 ماك mac (17,5 جراماً لكل ديكاليتر)، وقد استقرت الأسعار في شانغهاي عبر سنوات قليلة وعند المستوى المرتفع المتراوح ما بين سبعة إلى عشرة جرامات من الفضة لكل «ديكاليتر»، ثم قفزت في عام 1647 فوصلت إلى أربعة عشر جراماً، وقد كانت تلك الأسعار ترتفع فقط بالنسبة إلى هؤلاء الذين كانوا يمتلكون الفضة كي يدفعوا تلك الأثمان بالطبع. أما من كانوا لا يمتلكون أية فضة، فقد كانت

العملة الوحيدة التي يستطيعون دفعها من أجل الحصول على الأرز، هي الأطفال؛ ففي سوق كانت في جنوب غرب شانغهاي في عام 1642، كان الثمن البشرى لـ «بَك» من الأرز والذي كان بالكاد كافياً لإطعام شخص واحد لمدة أسبوع هو طفلين. ولم تمر الصين بأية أزمة أخرى تتعلق بقيمة النقود كانت بمثل هذه القسوة حتى القرن العشرين.

لم يكن الذي أصاب الصين بالخراب في أربعينيات القرن السابع عشر هو نظامها المالي، بقدر ذلك الأثر الذي أحدثه ذلك الجو البارد ومعه كذلك تلك الأوبئة الخاصة بالأمراض الخبيثة، وانخفاض مستوى إنتاج الحبوب، وكذلك الإنفاق العسكري الضخم من أجل صد ما يقوم به شعب المانشو في الشمال. ومع ذلك، فإن الناس هناك، في ذلك الوقت، قد شعروا بأن النقود قد لعبت دوراً ما في ذلك الخراب. وقد وجَّه بعض المفكرين ذوي العقول الراجحة في تلك السنوات التي تلت انهيار سلالة «المنغ» الحاكمة في عام 1644 – لومهم إلى الفضة (ذلك المعدن الخَوْن كما أسماه أحدهم) بسبب بعض السلوك الاقتصادي الضار والسلبي الذي ارتبط به، مثل تخزين السلع بكميات كبيرة، والذي قوَّض حالة الاستقرار بالنسبة إلى الفقراء، وشجع على التبذير السفيه بين الأغنياء. ووفقاً لما قاله أحد المحللين حول تلك الفترة، وخاصة فيما يتعلق بأثر الفضة في الإدارة المالية للدولة، «فإن الاعتماد على الفضة من أجل إثراء الدولة يشبه اللجوء إلى النبيذ لتسكين شعور المرء بالجوع». لقد وصلت الفضة، هكذا، إلى مرتبة القيام بدور لم يكن لها أن تقوم به.

وقد اقترح بعض المؤرخين الاقتصاديين حديثاً وجود عامل آخر كان موجوداً أو نشطاً خلال تلك الفترة، فالأسعار لم تكن ترتفع فجأة في ثلاثينيات القرن السابع عشر وأوائل أربعينياته من خلال التزويد – أو العرض – والتوفر الطويل الأمد للفضة، بل بواسطة تلك التعاقدات القصيرة الأمد، وقد كانت نقطة الوميض في كل تلك التعاقدات هي مانيلا.

فقد كانت التجارة التي تحدث بين الإسبان والصينيين في مانيلا دائماً تجارة متوازنة تحدث على محور ارتكاز دقيق خاص بها، وقد كانت الأزمات الصغيرة الخاصة بالعرض أو السيولة قادرة على استثارة أزمات أكبر متعلقة بالثقة، مما قد يترتب عليه إيقاف العملية برمتها، وهذا ما بدأ يحدث في عام 1638، فقد كانت السفينة «السيدة العذراء من كونسبسيون» Nuestra Senora de la Concepcion هي أكبر سفينة شراعية ضخمة بناها الإسبان من قبل على الإطلاق، وقد كانت متجهة شرقاً مغادرةً مانيلا في ذلك الصيف. وقد أرجأت الرياح الموسمية هناك مغادرتها مكانها، ثم إنها عندما أبحرت في النهاية قرر قائدها – وعلى نحو غريب – أن يتجه بها عبر ذلك الطريق الموجود فوق خط الاستواء بدلاً من أن يتبع ذلك المسار المتعارف عليه الخاص بالاتجاه شمالاً نحو اليابان، ثم التحول شرقاً من هنا إلى ساحل كاليفورنيا. وقد كانت تلك السفينة محملة بشحنة مصرح بها تعادل أربعة ملايين بيزو، كما كانت تحمل أيضاً شحنة كبيرة غير مصرح بها. فمع أن الحاكم الأسباني للفيلبين كان قد أولى أخيراً عناية خاصة فعَّالة من أجل الحد من عمليات

التهريب التي تقوم بها تلك السفن الكبيرة خشية أن يتم التهرب من دفع الضرائب على السلع المصدرة هناك، فإنه – في هذه العملية الأخيرة – كانت له مصلحة خاصة مباشرة، ومن ثَمَّ فإنه قرر أن يتركها تغادر هكذا، دون أن يصرح قائدها بكل ما تحمله.

كان «سيباستيان هورتاردو كوركويرا» Sebastian Hurtado de Corcuera قد عُيّن في مانيلا حاكماً هناك عام 1635 بعد أن قضى ثماني سنوات في الخدمة في «البيرو» أولاً قائداً لحامية حامية عسكرية (وقد كان قد أثبت جدارته من قبل عضواً في مجلس الحرب في «الفلاندرز» أثناء الحرب ضد الهولنديين)، ثم بعد ذلك كخازن أو مسؤول عن الشؤون المالية، وقد حمله انتقاله إلى مانيلا أولاً إلى «أكابولكو»، وهناك أصابه الذهول من مستوى الفساد والمستشري هنا وهناك في مجال التجارة بالسفن الكبيرة، وقد كتب رسالة إلى الملك فيليب الرابع في السنة التالية يقول له فيها: «لقد لاحظت أنه من الأفضل أن «نستخدم ملائكة بدلاً من البشر» من أجل إدارة مكان مثل «أكابولكو»، وإنه «إن لم يعين في خدمة جلالتكم الأكثر نزاهة وحماسة»... «فإن الخزانة الملكية ستتكبد خسائر فادحة، وذلك لأنهم ومن أجل تحصيل ألف بيزو بشكل رسمي – لا بد أن يسرقوا عشرة آلاف بيزو من سفن الملك ويتركوا الخزانة تعاني تلك الخسائر». وبعد سنوات ثلاث، وعلى أمل أن يُقضَى على عمليات التلاعب تلك التي تتم في «أكابولكو»، حال «كوركوريرا» دون التقديم المعتاد للبيان الرسمي الخاص بحمولة تلك السفينة «كونسيبسيون»، فدون مثل هذا البيان الرسمي، كما حَسَّبَ،

لن يكون المفتش أو المراقب في «أكابولكو» قادراً على الحصول على نصيبه المعتاد.

لكن انشغال «كوركويرا» بحماية شحنة تلك السفينة يبدو أنه تجاوز الحدود، وأصابه بالاخفاق؛ وذلك لأنه تجاهل وجود الضباط الكبار المنافسين له، ووضع ثقته في ابن أخيه المحبب إلى قلبه «بيدرو»، وقد كان شاباً يفتقر إلى الخبرة في الملاحة أو القيادة، وقد انهارت السلطة الاسمية الممنوحة لـ«بيدرو».بمجرد أن ابتعدت السفينة «كونسبسيون» عن مرفأ مانيلا. وفي العشرين من سبتمبر 1638، كانت السفينة «كونسبسيون» تشق طريقها عبر جزر «ماريانا»، والتي تقع عند نحو ربع المسافة بين الفيلبين وهاواي (ولم يستطع أي أوروبي اكتشاف تلك الجزر حتى قام «جيمس كوك» بالتجوال فيها منذ قرن بعد ذلك التاريخ) وقد كان ضباط تلك السفينة منهمكين تماماً في الجدال فيما بينهم إلى درجة أن تلك السفينة انحرفت عن مسارها ثم اصطدمت بسلسلة من الصخور الغاطسة تحت الماء مباشرة، مما جعل شحنتها تتناثر حول الشُّعَبِ المرجانية الموجودة في القاع. ومن بين كل الأشخاص الذين كانوا على متن تلك السفينة والذين كان عددهم أربعمائة فرد، وصلت أعداد قليلة منهم إلى الشاطئ كي تحكي الحكاية. وقد فاقت شحنة تلك السفينة – والتي كان «كوركويرا» شديد الحرص على جعلها سراً مخفياً – كل محاولات الإنقاذ أو الاسترداد التام لها. فلا يزال المتسكعون على الشواطئ يلتقطون بعض كِسَر أواني البورسلين التي تعود إلى أيام سلالة «المنغ» الحاكمة، والمتناثرة على طول ذلك الشاطئ،

حيث غرقت تلك السفينة.

ربما كان ذلك الدمار الذي لحق بالسفينة «كونسبسيون» أمراً من الممكن تحمله، لولا أن هذه الكارثة نفسها قد تكررت. فقد حدث الأمر نفسه خلال الربيع التالي، عندما غرقت السفينة «سان أمبروزيو» San Ambrosio، التي كانت محملة بالفضة، شرق ساحل «لوزون» Luzon. وكذلك غرقت سفينة شراعية كبيرة أخرى محملة بشحنة تفوق طاقتها كانت عائدة إلى المكسيك في ذلك الصيف أيضاً، وحدث الغرق هذه المرة قبالة ساحل اليابان. وقد أدَّت حوادث غرق هذه السفن الثلاث إلى إصابة التجارة في مانيلا بالشلل وترنح النظام برمته هناك حتى وصل إلى حافة الانهيار. وفي ضوء عملية إنتاج الفضة في أمريكا الإسبانية، لم يكن التوقيت ليصبح أسوأ من ذلك، إذ إن عملية التزويد بالفضة والتي مَوَّلت عمليات التبادل التجاري عبر المحيط الهادئ، كانت قد بدأت بالتقلص. وقد بدأت فعلاً بالانخفاض في منتصف العقد الأول من القرن السابع عشر، وفي ثلاثينيات ذلك القرن لم يكن ممكناً إنتاج كمية كافية من الفضة تغطي كل صفقات الشراء التي كان التجار الإسبان يعقدونها في مانيلا. هكذا شعر أعضاء مجلس الشؤون الداخلية في «بوتوزي» «باليأس نتيجة للتراجع الكبير المتوقع في الدخل الإجمالي هنا، فأرسلوا شخصاً إلى مدريد كي يلتمس مساعدة البلاط الملكي لهم. وقد كان من بين ما جاء في ذلك الالتماس «لقد دعمت بوتوزي وحتى الآن نفوذ المملكة كلها بثرواتها العظيمة» هكذا صرح ممثل «بوتوزي» في كتابه المفتوح الموجَّه إلى البلاط الملكي في إسبانيا،

ومن أجل منح منتجي الفضة في «بوتوزي» نوعاً ما من الامتياز الخاص من خزانة الدولة كي يحافظوا على إنتاجهم، فإن الالتماس الذي أرسله أعضاء المجلس المحلي هناك قد تمت الموافقة عليه.

وقد تصادف حدوث الانكماش الاقتصادي في أمريكا الجنوبية، مع قيود جديدة فرضت على تجارة الأوروبيين مع اليابان، التي كانت المصدر الآخر للفضة التي تستوردها الصين. فقد تمتع البرتغاليون المتمركزون في «ماكاو» بنوع من الهيمنة على هذه التجارة لصالحهم عبر بضعة عقود، ولكن عندما أصبحت اليابان تحت سلطة مركزية في عشرينيات القرن السابع عشر، فإن هذه السلطة قد قيدت عمليات وصول الأجانب إلى اليابان، حيث حرم نظام حكم عائلة «توكوجاوا» Takugawa الجديد[10] اليابانيين من الذهاب إلى الخارج منذ عام 1635، وفرضوا على البرتغاليين التوقف عن إحضار الأوروبيين إلى اليابان، وبخاصة المبشرون، هؤلاء الذين اعتبرهم حكام «التوكوجاوا» عملاء محرضين على الفتن والقلاقل. ومنذ عام 1637 قيّد حكام «التوكوجاوا» على نحو شديد انتشار المسيحية هناك، وأعلنوا أن المبشرين الأجانب الذين يدخلون اليابان لهذا الغرض يُعَرِّضُون أنفسهم لعقوبة الموت. وقد ذهب مبشر جيزويتي كان وثيق الصلة بالحاكم «كوركويرا» في مانيلا، إلى اليابان متنكراً في وقت لاحق من تلك السنة (1637)، لكنه اكتُشِف في الحال، وعُذِّبَ وقُطِعَ رأسه لأنه انتهك ذلك القانون المعلن.

وعندما وصلت سفينة برتغالية إلى الشواطئ اليابانية على أمل الاستئناف للتجارة من جديد، أُعدِمَ معظم طاقمها، وتُرِكَ بعضهم

فقط كي يعودوا إلى «ماكاو» ويخبروا الجميع هناك. على نحو واضح صريح أن أي برتغالي غير مرحب به بعد ذلك هناك، ولم تسترد «ماكاو» عافيتها كاملة بعد ذلك نتيجة هذه الخسارة وذلك التراجع نحو حالة من الركود الاستعماري المنعزل. وكان الهولنديون هم الوحيدون من بين الأوروبيين المسموح لهم بالتجارة مع اليابان، ثم أصبح ذلك يتم فقط من خلال جزيرة صغيرة في مرفأ «ناجازاكي» وفي ظل شروط صارمة.

وكي تصبح الأمور أسوأ بالنسبة إلى مانيلا، فإنه عندما اعتلى إمبراطور جديد سدة الحكم في الصين عام 1628، فإن حكومته، والتي كان صدرها قد ضاق كثيراً بما يفعله القراصنة الهولنديون، قد أعادت فرض ذلك الحظر السابق الذي كان مفروضاً على التجارة البحرية. هكذا ركدت التجارة في مانيلا على مدى عامين، ثم إنها عادت واستأنفت نشاطها عائدة إلى مستوياتها السابقة. ولكن، وعندما عاد فرض الحظر مرة أخرى في عام 1638، فإن حجم السفن التي كانت تصل إلى «مانيلا» قد تراجع من أعلى مستوى مسجل، وهو خمسين سفينة «ينك» في عام 1637، إلى ست عشرة سفينة في عامي 1637و1638 وفي السنة التالية فإن ذلك النزاع الذي كان دائراً في بكين قد حُلّ في البلاط لصالح الرأي القائل بضرورة فتح الحدود، ومن ثَمَّ رُفِعَ الحظر على التجارة البحرية، ولكن، وبعد ذلك، وعندما وصلت ثلاثون سفينة (يَنْك) محملة جيداً بالسلع في عام 1639، فإن غرق السفينة «سان أمبروزيو» كان يعني أنه لن تكون هناك فضة كافية لشراء شحنات تلك

السفن. وفي ذروة تلك الأحداث، وخلال ثلاث سنوات متتالية، كان مندوب الملك في إسبانيا الجديدة يحاول أن يضع حداً لتدفق الفضة من هناك خلال ذلك التعامل الصارم مع عمليات استيراد الصينيين له في «أكابولكو» وقد رأى أن مقايضة الفضة بالواردات الصينية الرخيصة استنزاف للاقتصاد لا يفيد أحداً سوى التجار في مانيلا، وقد كان ذلك سبباً آخر من الأسباب التي جعلت «كوركويرا» يتأكد من عدم وجود بيان بالسلع المحملة على السفينة «كونسيبسيون». لقد كان يحاول أن يتجنب هذه القيود الجديدة.

وقد كانت النتيجة التي ترتبت على تلك الظروف كلها أن نحو عشرة أطنان من الفضة التي كان يتوقع وصولها إلى مانيلا، قد أخفقت في الوصول إلى هناك. ثم وصلت التجارة إلى حالة من التوقف التام. ثم حدث أن انهار ذلك التوازن المرهف الذي كان في قرية «كالامبا» Calamba جنوب شرق مانيلا خلال الليل في التاسع عشر من نوفمبر 1639، وذلك عندما اندفع عدة مئات من الفلاحين الصينيين في هياج نحو منزل «لوي إرياس دي مورا» luis Arias de Mora وقد كان هؤلاء الفلاحون قد تطوعوا بالمجيء إلى دغل هناك كي يحسِّنوا من حال حقول الأرز لصالح الإسبان في مقابل إعفائهم من الضرائب، لكن الأوضاع، كانت كلها مما يرثى لها، فالموارد لم تعد موجودة، والوعد الخاص بالتوقف عن فرض الضرائب لم يوفَّ به، وعندما اجتاح الاعتلال المجتمع الصيني كله، تحول الفلاحون نحو الهجوم على «مورا» mora، وقد كان «مورا» هو الحامي الصيني لـ «مانيلا»، لكنه أصبح

الآن المسؤول الإداري موضع الكراهية لتلك المستعمرة الزراعية، وقد وظف منصبه هذا في ابتزاز أموال الصينيين والضغط عليهم بقدر ما يستطيع، وقد كان واعياً بحالة السخط العامة بينهم هناك، لكنه لم يتبادر إلى ذهنه أدنى شك في أن شيئاً ما قد يحدث في تلك الليلة، وقد كان مستغرقاً في النوم عند وصلت الحشود إلى بيته، وقد جذبه الفلاحون وجروه إلى خارج البيت، واستنكروا بشدة ما يقوم به من قمع لهم، ثم قتلوه وبعد ذلك انطلق ذلك التمرد في مسيرة على الأقدام نحو مانيلا كي يلتمسوا الرحمة ويطالبوا برفع المعاناة عنهم.

وقد كان لمثل ذلك التفجر المحدود للعنف أن يُحتوى، لو كان ذلك الوفد الصيني الذي أُرسِلَ على وجه السرعة من «باريان» «المدينة التي لا تتوقف فيها المساومة»، للوساطة، قد حظي بتعاون تام من جانب الإسبان الذين أرسلوا القمع ذلك التمرد. على كل حال، فإنه خلال تلك المفاوضة لتهدئة الأوضاع قام ضابط إسباني صغير الرتبة بالهجوم على جانب من المتمردين، ربما لأنه لم يكن يدرك أن وقف إطلاق النار كان ساري المفعول. وعاد الصينيون إلى القتال، كما أن باقي القوات الإسبانية ما لبثت أن اشتركت في المعركة. وهكذا فإن الحرب التي أخمدت نارها قد اشتعل أوَارُها من جديد، كما أنه بمجرد أن انتشرت كلمة «العصيان» هناك، فإن الصينيين في «لوزون» Luzon كلها هبّوا عن بكرة أبيهم ولحقوا بالمتمردين، وتجمع المتمردون عابرين النهر من الجانب الآخر من مانيلا وتأهبوا لشن هجومهم. وقد حاول الصينيون الذين يعيشون في «باريان» (المدينة التي لا تتوقف عن المساومة)

جاهدين أن يحافظوا على حيادهم، ولكن في الثاني من ديسمبر من العام نفسه التحقوا بالمتمردين.

وقد رد الحاكم على ذلك بأن أمر بإعدام كل الصينيين داخل مانيلا، وفي مدينة ميناء «كافيتي» Cavite القريبة منها. وقد اختار حاكم مدينة «كافيتي»، «ألونسو جارثيار روميرو» Alonso Garcia Romero أن يُنَفِّذَ هذا الأمر ولكن بشكل ينم عن الخداع؛ ومن ثَمَّ فإنه أمر كل الصينيين في «كافيتي» أن يغلقوا منازلهم ويتجمعوا في الأماكن المسيحية داخل المباني الملكية (الضخمة) من أجل حمايتهم، كما أنه قام أيضاً بدعوة الكهنة الذين ينتمون إلى كل الطوائف الدينية كي يأتوا ويستمعوا إلى اعترافات كل المسيحيين الصينيين ويقوموا أيضاً بتعميد غير المسيحيين أو يطهروهم روحياً. ثم أعلن بعد ذلك موجهاً كلامه إلى الصينيين الذين أطاعوه وتجمعوا أنهم سيؤخذون من ذلك المكان في مجموعات تتكون كل مجموعة منها من عشرة أفراد وسيتم الذهاب بهم نحو مكان أكثر أمناً داخل أسوار مانيلا، وفي الحقيقة أنهم كانوا يُؤخَذُون أو يُسَاقُون نحو قطع رؤوسهم وقد سارت نحو ثلاثين مجموعة من تلك المجموعات في موكب، وعندما لاحظ أحدهم واحداً من الحرس وهو يمزق كيس النقود الخاص بأحد الصينيين الذين كان يتم ترحيلهم من المكان، فإنه فجأة بدا سلوك حاكم المدينة وكأنه خدعة لأخذ أموالهم منهم (ولم يدرك أحد منهم حتى تلك اللحظة أنها كانت خدعة لسلبهم حياتهم) فتزايد الاحتجاج والصخب وتحول الصينيون نحو حراسهم، الذين لاذوا بالفرار، ولكنهم قاموا أيضاً بإغلاق المخرج الوحيد الموجود

في الخارج والتمترس وراءه وحاصرت فرقة من حملة بندقية «القربينة» بمحاصرة المبنى، ثم دخلوه وأطلقوا النار على كل صيني كان بداخله. هناك مؤرخ إسباني للتتابعات الزمنية الخاصة بتلك الأحداث، والذي افترض أن الصينيين كانوا يخططون للثورة وقتل كل الإسبان وأعوانهم من الأوروبيين «كافيتي»، وصرح بأن مذبحة «كافيتي» كانت «رحمة كبيرة من الله»، وقد قدر حصيلة الموتى هنا بألف وثلاثمائة قتيل، وقد نجح ثلاثة وعشرون صينياً فقط في الهرب من تلك المذبحة.

وقد فرض المتمردون الآخرون من الصينيين الحصار حول مانيلا، لكن المدينة كانت محصنة تماماً، ومن ثَمَّ لم يجد الإسبان أدنى صعوبة في الصمود بداخلها. وبعد ثلاثة أسابيع، قام الإسبان بشن هجوم عبر «باسيج ريفر» pasig River. وتقهقر الصينيون إلى الخلف، ثم طُرِدُوا من تلك المنطقة بعد ذلك، وقد وجد الجنود الإسبان، وبينما كانوا يمرون عبر إحدى القرى المحترقة، تمثالاً للمسيح بين حطام إحدى الكنائس، وقد أصابته حروق سطحية، لكنه كان سليماً لم يلحق ضرر بتكوينه، وقد أحضره الجنود معهم وقدموه إلى «كوركويرا» فأعلن أن إنقاذ ذلك التمثال من بين النيران كان معجزة، وقام برفعه إلى أعلى فوق رؤوس قواته، ثم قال: لقد كان الله بجانبنا بعد أيام قليلة لاحقة، كان أحد الصينيين الذين تحولوا إلى المسيحية موجوداً في قرية عبر نهر «باسيج» (11) ينبش الأرض كي يستخرج منها تمثالاً كان قد دفنه من قبل للإمبراطور «قوان» Guan، «إله» الحرب والملاك الحارس للتجار، ويفترض أنه كان ينبغي لذلك المسيحي المتحول أن يحرق ذلك التمثال

ما دام قد تحول إلى المسيحية، لكنه قرر- بدلاً من ذلك- أن يدفنه ويخفيه خلف منزله، احتراساً مما قد تحمله الأيام غير المؤكدة القادمة، ووفقاً لما عرفه أحد الباحثين الإسبان، فإنه في اللحظة التي كان يخرج فيها تمثال الإمبراطور من مدفنه، كان الإمبراطور «قوان» قد وعد أتباعه أن يقف بجانبهم في تلك المعركة. لكن ظروف أتباعه لم تمكنه من الوفاء بما وعدهم به. فما دام أعداء الصينيين كانوا يفوقونهم عدة وعتاداً، كما أن حاكمهم لم يكن معهم، فإنهم قد أصبحوا كالأيتام على موائد اللئام، هكذا انتصر «إله» الهيمنة والسيطرة على «إله» التجارة.

في النهاية حاصر الإسبان فلول المتمردين الصينيين، وطلبوا من راهب جيزويتي أن يفاوضهم على الاستسلام. وقد أصر هؤلاء المتمردون على أنهم «لم يلحقوا أذى بمن لم يلحق الأذى بهم»، لكنهم وافقوا في النهاية على وقف كل تلك العمليات العدائية ضد الإسبان شريطة أن يسمحوا لهم بالتوجه جنوباً نحو الساحل على أن يعودوا بعد ذلك إلى الصين. وقد رفض «كوركويرا» تلك الشروط. وقدم شروطاً مناقضة لذلك تماماً من أجل استسلامهم: ألا يغادروا الفيلبين، فقد فهم ذلك الحاكم أن ثروة مانيلا وقوتها إنما تعتمدان على الصينيين هناك. لقد أرادهم أن يعودوا إلى مانيلا من أجل استئناف ترتيباتهم القديمة لو كان على مانيلا أن تستمر حية ولم يكن هؤلاء الصينيون مفتقرين إلى القوة والنفوذ فقط، لكنهم قدّروا أيضاً القيمة المتمثلة في عودة الأمور إلى ما كانت عليه. وفي الرابع عشر من فبراير 1640 وضع ثمانية آلاف مقاتل أسلحتهم ثم توجهوا في مسيرة عائدين إلى مانيلا في عرض احتفالي بالنصر أمام

أسوار المدينة. وقد تقدم سلاح الفرسان العرض العسكري ثم جاء بعدهم حلفاؤهم من أصل تلك البلاد، ثم جاء عقبهم – وفي اضطراب – الصينيون المهزومون. وفي نهاية المسيرة كان الحاكم «كوركويرا» ممتطياً صهوة جواده، وأمامه مباشرة، رفع عالياً فوق عمود (قائم) تمثال المسيح الذي سوَّدته النيران، والذي كان قد أُنقِذَ من بين ركام تلك الكنيسة المحترقة.

لم تكن الفضة السبب وراء تلك المذبحة التي راح ضحيتها آلاف الصينيين في الفيلبين، ومع ذلك فإن تلك الأحداث لم تكن لتقع ما لم يختل ذلك الجسر الخاص بذلك المعدن النفيس، والذي كان يتدفق عبر المحيط الأطلسي وينهار. لقد أجّج ذلك الانقطاع في تدفق الفضة حالات من القلق الشديدة على الجانبين، جعلت حادثة صغيرة واحدة تتدحرج مثل كرة الثلج وتتحول في النهاية إلى صراع خطير. ولا يمكننا رؤية ذلك العنف الذي كانت تلك الثروة قادرة على إثارته في لوحة «امرأة تمسك بميزان»، فبينما كانت «كاترينا بلونز» تستعد لوزن قطعها المعدنية لم تكن تزعج نفسها بذلك السُّعار الخاص بالامتلاك للفضة والصراع حولها، والذي كان مشتعلاً في ذلك العالم الأكثر اتساعاً.

لم يكن كل من كان يزن الفضة خلال القرن السابع عشر متسماً بذلك الهدوء الواضح الذي كانت عليه «كاترينا»، فقد كان «فولجينسيو أوروزكوه» Fulgenci Orozico مثلاً، قد بلغ الخمسين من عمره فعلاً عند وصول «بوتوزي» العام 1610 على أمل أن يجمع ثروة. ومع

أنه كان رجلاً نبيلاً كريم المحتد[5]، فإنه كان فقيراً جداً بحيث إنه لم يكن بمقدوره أن يدفع دينا عليه يقدر بثمانمائة «بيزو»، كما أنه لم يكن بمقدوره أيضاً أن يجمع مهراً لابنته، والتي كان يحتاج من أجلها إلى ألفي (2000) «بيزو» آخرين، وقد يسرت مكانة «أوروزكو» الاجتماعية له الدخول إلى عالم عائلات الصفوة في «بوتوزي» ومن خلال أحدهم كان قادراً على الحصول على توصية كي يعمل كبيراً للعمال في إحدى مصافي (معامل تنقية) المواد الخام النفيسة، وقد كانت تلك وظيفة تليق «بكرييولي» مولود في أمريكا، وليس رجلاً راقياً مولوداً في إسبانيا، لكن أوروزكو كان يائساً، وراغباً في أن يعمل في أي عمل يمكّنه من يفوز من خلاله بالفضة. ومع أنه كان يبذل أقصى ما يستطيع من جهد، فإن تلك الوظيفة لم تكن توفر له إلا ما يكفي بالكاد نفقاته الشخصية. ونتيجة لنفاد صبره وتلهفه إلى أن يكسب فضة أكثر، فإنه ترك تلك «المصفاة» بحثاً عن طرق أسرع للكسب. وبعد كفاح استمر عشرين شهراً في «بوتوزي» وجد نفسه لا يزال غير قريب من كسب قيمة المهر الخاص بإبنته، هنا تشوش عقله، وأصابه الخبل، وقام بعدة محاولات للانتحار وانتهى به الأمر في المستشفى الملكي هناك، يتحدث حديثاً صاخباً وبطريقة مسرحية – موجهاً إلى الشيطان؛ لأنه لم يفِ بوعده ويحقق الهدف الذي كان وراء صفقة اعتقد «أوروزكو» أنه عقدها معه، وكان ينبغي في ضوئها أن يصبح غنياً.

وقد كان صخبه أو حديثه المسرحي، يجتذب حشداً من المشاهدين

(5) المَحْتِد: الأصل، ومنها جاء القول: كريم المحتد، أي كريم الأصل.

حوله، وقد كان هؤلاء يعتقدون أنه ممسوس أو تلبسه الشيطان، فأرسلوا في طلب الكاهن الأوغسطيني «أنطونيو دي لا كالانشا» Antonio de la Calancha، كي يطرد الشيطان الذي في داخله. وقد رفض «أوروزكو» تلك المساعدة التي حاول ذلك الراهب أن يقدمها له، وأصبح شديد الغضب تجاه هؤلاء المارة المتحمسين، والذين كانوا يناشدون الشيطان أن يغادر جسده، فانتزع صليب الكاهن منه وضرب به بقوة جبهة أحد هؤلاء المارة، ووصلت الشرطة كي تفرق الحشد، لكن ذلك جعل الأمور تسوء أكثر مما كانت عليه، وقد قام الراهب «أنطونيو» بأداء أحد طقوس طرد الأرواح الشريرة من جسد «أوروزكو» لكن دون أثر واضح يذكر، ثم قام بأداء طقس آخر وتعاويذ أخرى، لكن ما حدث هو أن «أوروزكو» قد أصابته نوبة خبل وهياج كبيرة، واستمر يحاول إقناع الكاهن أن الشيطان ليس بداخله، ولكنه يقف هناك على رأس سريره، وإنه ليس هناك شيء داخل جسده يتطلب طقوساً كهذه لطرده.

وقد أدرك الراهب «أنطونيو» الغاية من هذه السخرية المنطلقة من ذلك الغضب؛ ومن ثَمَّ فإنه التفت إلى مريضه وسأله في إلحاح «لماذا يقوم رجل نبيل، مثلك، بالهذيان هكذا مثل مُهَرْطق أو يهودي؟».

هنا صاح «أوروزكو» نحوه قائلاً: «هل تريد أن تعرف لماذا أمقت المسيح بشدة؟ هذا لأنه يعطي الثروات للبشر الذين لا يستحقونها، ولدهماء القوم، في حين يبتليني أنا الإنسان المهذب الراقي، صاحب الالتزامات الثقيلة، بالفقر. ومنذ أن جئت إلى «البيرو» كي أكسب المال

المطلوب من أجل مهر ابنتي، فإنه كان يسلبني كل شيء كسبته، ويدفعني إلى أن أشاهد الآخرين بأم عينيّ يكسبون المال في مكان خسراني له، هل هناك أي إنسان في هذه المدينة قد عمل بجد واجتهاد مثلما فعلت ولم يكسب شيئاً؟ وخلال الوقت نفسه الذي أشاهد فيه الحقيقة الخاصة بأنه من خلال جهد أقل من جهدي ووقت أقل من وقتي وأيسر، هناك كثيرون قد نجحوا في وضع أياديهم على الآلاف». لم يكن القنوط الذي يعانيه «أوروزكو» متمثلاً فقط في أنه لا يزال فقيرا، ولكن أيضاً في اكتشافه أن الجهد والنيات الحسنة، والمنزلة المحترمة ليست لها علاقة بالنجاح في المجتمع التجاري. فالنقود لا تصل في النهاية إلى أيدي من يستحقونها، كما أن الطبقة الاجتماعية لم تكن كافية من أجل توفير الحماية وبالنسبة إلى أوروزكو، كانت «بوتوزي» قد أصبحت ما كانت عليه بالنسبة إلى أصحاب البلاد الأصليين الأوائل puna، أي مكاناً قاحلاً لا يمكن الإقامة فيه. وقد حاول «كالانشا» أن يغير هذا النوع من الجدل، بأن ذكر في نوع من التعاطف، ملاحظته التي فحواها أنه بينما قد يصبح الأخيار أثرياء لأن الله يريد لهم ذلك، فإن معظم الناس في «بوتوزي» قد حصلوا على ثرواتهم من خلال السرقة والمراباة والاحتيال. وإن الله قد يكافئ الأطهار الأفاضل بالثروات، لكن الثروات لا تذهب بالضرورة إلى الذين يباركهم الرب فقط. وإن أهالي «بوتوزي»- على نحو خاص- كانوا شديدي الحماسة في سعيهم وراء الثروات، وإنها- وعلى نحو ما - كان تُمنَح لهؤلاء الغارقين في الشهوات، وأما من أنعم الله عليهم ببركته فنادراً ما كانوا أثرياء. قد تبدو تلك الأقوال وكأنها

نوع من الاعتراف بصحة شيء تعوزه الحكمة، ومن جانب كاهن يبشر بمذهب سماوي يقول إن الثواب للأخيار والعقاب للأشرار، لكن مثل ذلك اللاهوت كان دائماً محاطاً بالإيمان الراسخ بأن الله يعمل بطرائق خفية، وأنه ليس على الإنسان أن يحكم على مثل تلك الأمور، وأن كل حسناته وسيئاته ستوزن وتقدر في يوم الحساب الأخير.

عند هذه النقطة تخلى «كالانشا» عن الاستدلال اللاهوتي أو الديني، وقدم له عرضاً ما. فقد افترض أن الناس المتجمعين حول سرير «أوروزكو» في المستشفى والذين كانوا مهتمين على نحو وثيق بالشائعة التي تقول إن أروزوكو ينطلق هنا وهناك ناشراً البدع والهرطقة – وقد كانت الجماعة المتحلقة حوله مشتملة من ثمانية إلى عشرة رهبان – افترض أنهم دفعوا مبلغ الألفين وثمانية بيزو، فهل يستثمر هذا المبلغ لتغطية حاجاته؟ هل يوافق على أن يقاوم الشيطان مزدرياً إياه، ويطلب، كذلك غفران الرب؟ هناك أصبح «أوروزكو» هادئاً لكنه لم ينبس ببنت شفة، لقد أراد أن يرى النقود. وذهب أربعة أو خمسة رهبان – من أجل اظهار إيمانهم العميق– بعيداً كي يسحبوا بعض الفضة من تلك الأرصدة التي كانت محاكم التفتيش تتحكم فيها، ثم وزنوها في مكاتب فحص المعادن وبالقدر الدقيق الذي كان «أوروزكو» يحتاج إليه، بل إنهم قاموا أيضاً بمراجعة مقدار نفقات تسليم الفضة لاحقاً إلى إسبانيا قبل أن يعودوا إلى سرير «أوروزكو».

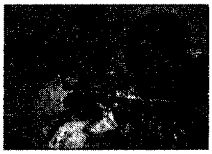
وقد نجح ذلك العرض الذي قُدِّم له، فعندما وضعت أكياس الفضة بجوار سريره في ذلك المساء، تاب الرجل المجنون عن ذنوبه، وندم،

ومجدّ الرب واعترف بخطاياه، للكاهن. ولأنه كان منهك القوى تماماً، فإنه فقد قدرته على الكلام في وقت لاحق من ذلك المساء، ثم مات خلال ساعات الصباح الأولى.

فبتكلفة بلغت ألفين وثمانمائة بيزو، إضافة إلى مصاريف النقل، كانت تلك عملية تحويل مكلفة لامرئ من عقيدته، لكن الكنيسة (مثلها مثل أية مؤسسة أخرى في «بوتوزي» كانت تتراكم لديها حصة كبيرة من الفضة) عبرت عن رضاها عن هذه الصفقة. لقد كان للإحسان مفعول السحر، حيث دُفع دين، ووفِّرَ مهرٌ، وأُنقذت روح، وقد كان العامل الفعال الذي حُقّقَ ذلك كله من خلاله، العامل المسؤول كذلك عن يأس إنسان وموته، هو الفضة، تلك التي كانت تستخرج من «بوتوزي»، وهي المادة نفسها التي كانت تنتظر «كاترينا» أن تزنها، وتقدّر بهدوء، قيمتها.

الفصل السابع

رحلات



يمكن التعرف بسهولة على أن لوحة «لاعبو الورق» Card playrs (انظر صورة اللوحة رقم 7)، لوحة تنتمي إلى فن التصوير الهولندي الخاص بالقرن السابع عشر، لكن ليس من غير المحتمل أن يخلط امرؤ بينها وبين لوحات فيرمير المعروفة؛ فالعناصر المألوفة في لوحات «فيرمير» حاضرة هنا، في هذه اللوحة أيضاً؛ كالنوافذ التي ناحية اليسار، ومربعات الرخام التي صُمّمت على شكل قطع شطرنج، والتي تمتد عبر الغرفة على نحو قطري (مائل)، وفي اصطفاف مع بلاط دلفت، حيث يلتقي الحائط بالأرضية، وهناك سجادة تركية مدفوعة جانباً فوق المائدة، حيث يجلس شخصان يتبادلان الحديث، وهناك إبريق خزفي مصنوع في دلفت على نحو يحاكي البورسلين الصيني ذي اللونين الأزرق والأبيض، كما ظهرت كأس خمر مرتفعة داخل اللوحة، وخريطة فوق الحائط لمنطقة هولندا، وأضف إلى هذا، ذلك الضابط الذي يرتدي سترة عسكرية وقبعة من فرو القُنْدس، ويقوم بمغازلة المرأة الشابة، وستبدو

تلك اللوحة مرة أخرى وكأنها تماماً لوحة «الضابط والفتاة الضاحكة» لـ «فيرمير»، لكنها ليست هي، إذ تحتوي هذه اللوحة على كل تلك العناصر التي كان «فيرمير» يضمنها لوحاته، ومع ذلك فإنها تفتقر إلى تلك الدقة الخاصة بالصانع الماهر المحترف، وكذلك إلى ذلك الاهتمام بالتكوين الذي يمكنه أن يحول مشهداً عادياً إلى لوحة مفعمة بالدينامية والحركة.

لقد كان الفنان صاحب تلك اللوحة، وهو «هندريك فان دير بيرش»، مصوراً حظي بسمعة طيبة وشهرة، ومارس نشاطه داخل الدوائر نفسها التي عمل «فيرمير» فيها، وربما وصل إلى المستوى نفسه من النجاح التجاري الذي وصل إليه فيرمير، فقد كان هذان الرجلان معاصرين، أحدهما للآخر، في المشهد الفني الخاص بمدينة دلفت. وقد ولد «بورش» في مكان قريب من دلفت قبل «فيرمير» بسنوات خمس، ثم انتقل إلى تلك المدينة عندما كان في الخامسة عشر من عمره، وقد درس فن التصوير هناك، ثم التحق بنقابة طائفة تجار وصناع القديس «لوقا» عندما كان في الثانية والعشرين من عمره، وفي العمر نفسه الذي انضم «فيرمير» إليها فيه بعد سنوات خمس لاحقة، وليست هنالك من وثائق كتبت أن الرجلين عرف أحدهما الآخر، ولكن من المستحيل افتراض أن ذلك لم يحدث؛ وذلك لأن أخت «فان دير بيرش» أو أخته غير الشقيقة، قد تزوجت الفنان الشهير «بيتر دي هوش» Pieter de Hooch، والذي كان «فيرمير» يقيناً يعرف لوحاته. ومن الصعب أن نثبت صلة بين «لاعبو الورق» و«الضابط والفتاة الضاحكة»؛ وذلك

لأن موضوع التودد والمغازلة كان موضوعاً شائعاً في الفن في ذلك الوقت، وربما أنجز «فيرمير» لوحته أولاً، وقبل «فان دير بيرش» بسنة أو اثنتين، كان «دير بيرش» خلالهما يعيش في ليدن أو أمستردام، ومن ثَمَّ فإنه ربما لم يكن قد رأى لوحة «الضابط والفتاة الضاحكة» من قبل.

وعلى الرغم من تلك التشابهات في الموضوع والأسلوب، فإنه لا توجد صور داخلية، أي داخل الغرف، في لوحات «فيرمير» تهيئنا لإدراك ذلك الشخص الذي يقف صامتاً جامداً هناك، في قلب لوحة «فان دير بيرش» ومركزها. فلم يرسم «فيرمير» أطفالاً، كما لم يرسم خدماً من الصبية، ولم يرسم كذلك أحداً من ذوي الأصول الإفريقية، أما «فان دير بيرش» فقد قدم لنا هؤلاء الثلاثة (الأطفال والخدم والأفارقة) من خلال ذلك الولد الإفريقي الذي يبلغ عمره نحو العاشرة، والذي يرتدي سترة ضيقة مزركشة مزخرفة وأقراطاً، ويلبي أوامر سيدته، ليس هذا فقط، لكنه ينظر مباشرة أيضا إلى الفنان وإلينا، والرجل والمرأة مندمجان تماما أحدهما مع الآخر في لعبتهما، مثلما هي الحال بالنسبة إلى تلك البنت الصغيرة التي تجلس في أحد جوانب الغرفة مندمجة في لعبها مع كلب الحضن، هناك فقط ذلك الصبي الإفريقي وحده غير المندمج في أي من هذه الألعاب، إنه فقط ينظر نحونا، تقريباً في نوع من الفهم والإدراك والتعمد. وإن ذلك لوضع غريب بالنسبة إلى شخص كان يصب كأساً من الخمر. إنه ينبغي أن ينظر إلى كأس الخمر لا إلينا. بل إن الأكثر غرابة هنا، أيضاً، هو ذلك الوضع الخاص بتلك الكأس، حيث يبين فحص هذه الكأس، وعن قرب، أن ذلك الصبي يحمله بيده

اليسرى. ولكن، ومن خلال نظرة سطحية، قد يعتقد المشاهد أن هذه المرأة هي التي تحمل تلك الكأس بين إبهامها وسبابتها، وقد كانت تلك هي الطريقة المهذبة في حمل الكأس ذات الساق في القرن السابع عشر، ولكن الإشارة الوحيدة الدالة على أنها لا تحمل الكأس إنما هي ورقة اللعب الموجودة في يدها، هذا مع أنه ينبغي لك أن تنظر إلى اللوحة عن قرب كي ترى هذه الورقة.

من وجهة نظري الخاصة، فإنني أعتقد أن وضع كأس الخمر مباشرة فوق يدها يوحي إلينا بأن «فان دير بيرش» كان يقصد منذ البداية أن هذه المرأة ينبغي أن تحمل الكأس هكذا كي يملأها خادمها الصبي، وقد كان ذلك سيكفي لتكوين ذلك الفعل التبادلي الأساسي في اللوحة ما بين السيدة البيضاء وخادمها الأسود، وقد كانت تلك مزاوجة أثيرة في لوحات القرن السابع عشر الخاصة بسيدات الطبقة العليا. لكن «فان ديربيرش» غَيَّر رأيه، وقرر أن يكون الفعل التبادلي الأساسي في اللوحة بين المرأة وذلك الرجل الذي كان يخطب ودها، أو يطلب يدها، هكذا لم تعد كأس الخمر التي تستلمها من ذلك الصبي هي مركز اللوحة، بل إن ورقة اللعب التي تعطيها هذه المرأة لمن يطلب ودها هي التي أصبحت المركز. وعند هذه النقطة، دهمه الوقت، وأصبح من المتأخر تماماً بالنسبة إلى الفنان أن يستبعد هذا الصبي من لوحته، ومن ثَمَّ فإننا نظل نجد داخلها ذلك الصبي الإفريقي الصغير، واقفاً هناك يصب الخمر من إبريق، ولكن مع ضرورة ملاحظة أن الكأس مملوءة، وأن لا خمر يُصَبُّ فعلاً من ذلك الإبريق المائل؛ وبالتالي فإنه لا عجب أن استطاع

ذلك الصبى أن يُحوِّل عينيه بعيداً عن تلك المهمة التي كان يؤديها ويقوم بالنظر إلينا.

وعندما ننظر نحن نحوه، لن يكون بمقدورنا أبداً أن نعرف لو اعتمدنا على مجموع لوحات «فيرمير» كلها أنه كان هناك أفارقة في دلفت. لكن لوحة «فان دير بيرش» قد تبين لنا أن بعضهم على الأقل، كانوا هناك. وقد كان الأفارقة يصلون بأعداد قليلة إلى أوروبا منذ القرن الخامس عشر، لكن أعدادهم تلك كانت تتزايد على نحو ملحوظ في الأراضي الواطئة خلال القرن السابع عشر، وقد وصل الأفارقة إلى هناك كبحارة وعمال وخدم إلى موانئ مدينتي أنتويرب وأمستردام، لكن معظمهم وصلوا هناك كعبيد أيضاً. وقد كانت قوانين هاتين المدينتين تسمح بتقديم عريضة التماس إلى سلطات المدينة من أجل العتق من العبودية، بمجرد دخولهم نطاق سلطة تلك المدن وسيادتها.

وفيما يبدو، فإن قليلاً منهم قد فعل ذلك، لكن ذلك الامتياز القانوني، ربما لم يحدث فرقاً كبيراً، بأية حال من الأحوال، بالنسبة إلى حياة هؤلاء الأفارقة الحقيقية في «الفلاندرز»[1] أو الأراضي الواطئة، فلم تكن لديهم بدائل متاحة كثيرة خارج نطاق العمل في خدمة البيوت، وقد كانوا في أفضل حالاتهم عندما يكبلون بالعيش في خدمة سيدهم أو سيدتهم اللّذين يمتلكانهم، حتى عندما يحكم القانون بأنهم أحرار شرعياً.

لم يكن «فان دير بيرش» استثناء بين المصورين الهولنديين في أن يظهر خادماً أسود داخل لوحته فقد رسم كثير من الفنانين الهولنديين الأفارقة، عادة، داخل سياقات ومواقع منزلية، مما يشير إلى أن هؤلاء

الخدم لم يكونوا يبقون بعيداً عن تلك العائلات البيضاء التي تمتلكهم. وفي الحقيقة، فإن هؤلاء الذين امتلكوا خدماً من الأطفال (وقد كانوا عادة من الأولاد والذكور) كانوا يريدون أن يظهروا ما يمتلكونه، أي يستعرضونه، ولم يكن الأمر هنا يشبه وضع أحد الفنانين زهرية صينية أثيرة مفضلة لديك داخل لوحة كلفته برسمها، والتي كانت ستدل على ثرائك، وذوقك البرجوازي الراقي، وكذلك على معرفتك أن تلك كانت هي العلامات ذات المعنى في العالم الاجتماعي الذي تزدهر فيه أمورك، ولو كنت امرأة، وكان عبدك الأسود ولداً، فإن حضوره المشترك معك في لوحة ما، سيلقي ضوءاً قوياً على لونك ومظهرك العام، ونوعك (أنوثتك)، وكذلك تفوق مكانتك.

إن هذا الصبي الذي في لوحة «لاعبو الورق» هو الباب الموجود في هذه اللوحة الذي يفتح لنا عالماً أوسع من الارتحال أو السفر، والحركة، والعبودية، والانتزاع قسراً من الموضع الأصلي، وقد كان ذلك العالم الأوسع أو الأكثر رحابة يتسرب داخل الحياة اليومية في الأراضي الواطئة، فيجلب بشراً حقيقيين من أماكنهم الحقيقة الواقعية، والتي كانت تقع بعيدة قَصِيَّة تماماً. نحن لا نعرف شيئاً محدداً يتعلق بهذا الصبي نفسه على نحو خاص، لا نعرف شيئاً يتجاوز حقيقة وجوده في هذه اللوحة، فإذا لم يكن قد ولد في دلفت، فإنه ربما كان واحداً من هؤلاء التعساء الذين وجدوا أنفسهم واقعين في شرك شبكة التجارة والأسر، والتي قامت بنقل البشر تماماً بالطريقة نفسها التي كانت تنقل من خلالها الأشياء، ومع ذلك، يظل الأمر هو أنه ما دام قد بقي حياً،

فلا بد أنه كان من المحظوظين بين عدد ضخم من هؤلاء الذين جذبتهم دوامة حركة العولمة تلك، ولم يخرجوا منها أحياء. فحتى هؤلاء الذين ذهبوا هناك بمحض إراداتهم وليس بالقوة والإجبار، لم تستثنهم تلك الدوامة أيضاً، لقد فرضت ضريبة القرن السابع عشر على الجانبين.

وكي نحسب تكاليف أو نفقات تلك الحركة غير المستقرة التي شتتت البشر وبعثرتهم، عبر عالم القرن السابع عشر، فإننا سنتبع مسار خمس رحلات بِيعَت خلالها أعداد كبيرة من البشر بأثمان زهيدة في أماكن وحالات بعيدة تماماً عن تلك الأماكن والحالات التي ولدوا فيها، وهذه الرحلات رحلات خاصة بـ: ثلاثة رجال في «الناتال» Natal على الساحل الجنوبي الشرقي لإفريقيا(2)، واثنين وسبعين رجلاً وصبياً فوق جزيرة قبالة ساحل جاوة، ورجل هولندي في جزيرة «تشيجو» cheju الكورية، ورجل إيطالي على ساحل «فوجيان» بالصين، ثم اثنين من البحارة الهولنديين كانا متهجين صوب بلدهما، على جزيرة «مدغشقر». وفوق رحلاتهم جميعاً، تتدلى معلقة صورة ذلك الصبي الأسود في لوحة فان «دير بيرش»؛ ذلك الصبي الذي بدت دلفت بالنسبة إليه آمنة، لكنها لم تصبح قط وطناً، وسوف يُختتم كلامنا بقصة رحلة كانت عزيزة على المسيحيين خلال القرن السابع عشر، وهي رحلة المجوس أو الملوك، كي ندرك السبب الذي جعل فيرمير يعلق لوحة خاصة بهذا الموضوع في منزله.

في آخر مرة شاهدهم أحدٌ فيها، كان هؤلاء الرجال الثلاثة يراقبون الآخرين من زملائهم ملاحي السفينة عبر النهر العريض الممتد أمامهم،

في حين كانوا يَرْتَدُّون إلى الوراء نحو منطقة نائية داخل إفريقيا، متجهين كما أملوا في اتجاه «موزمبيق». وقد كان الرجل الضخم البدين متكئاً على محفة[1] قام حمالوها بوضعها تحت ظُلة (تعريشة) نصبوها له على نحو مؤقت، كان ذلك الرجل برتغالياً، وفي انتظاره كان رجلان: أحدهما صيني والآخر إفريقي، وقد سقط اسما الصيني والإفريقي في زوايا التاريخ المهملة، فقد كان من النادر تسجيل أسماء عبيد الإمبراطوريات في السجلات العامة ما لم يكونوا قد ارتكبوا جرائم تعدها العدالة الاستعمارية جديرة بالحفظ والتسجيل. لكن ما نعرفه فقط هو اسم ذلك الرجل البرتغالي الذي كان يضطجع على المحفة، وقد كان المالك للعبدين الصيني والإفريقي، وكان اسمه: «سباستيان لوبو دا سيلفييرا» Sebastian lobo da Salveira، و«لوبو» اسمه، كان يعني «الذئب» وقد اكتسب سمعة بوصفه الرجل الأكثر بدانة في «ماكاو» في أربعينيات القرن السابع عشر. وفي فبراير 1647 أُعيدَ إلى البرتغال كي يُحاكم، وكان قد وصل إلى «ماكاو» منذ سنوات تسع قبل ذلك التاريخ من أجل أن يتولى المنصب المربح الخاص بالرُّبَّان العام (أو كبير القباطنة)، وهو منصب كان يمنحه سلطة السيطرة على التجارة الملاحية كلها بين «ماكاو» واليابان. وقد دفع «لوبو» للمسؤولين في لشبونة بسخاء من أجل أن يتمتع بذلك الاحتكار الذي توقع أن يدر عليه —في المقابل—، الأرباح بسخاء في «ماكاو» أيضاً، وقد كان البرتغاليون

(1) المحفة: التي تحمل على الأكتاف وتتكون من فراش أو مجموعة من الأخشاب المنظمة بشكل معين من أجل حمل شخص كبير السن أو له مكانة إجتماعية أو عسكرية معينة..

يحتكرون التجارة بين الصين واليابان، حيث ظهرت اتجاهات عدائية من جانب كل حكومة من هاتين الدولتين نحو الأخرى، وذلك فيما يتعلق بالتجارة المباشرة بينهما، لكنهما قد سمحتا أيضاً للبرتغاليين أن يقوموا بدور الوسطاء أو السماسرة بينهما. لقد كان عائد عملية واحدة لنقل السلع بين مستعمرة «ماكاو» البرتغالية وميناء «نجازاكي» الياباني، حيث عبر اتجاه، يُنْقَل الحرير الصيني، في حين تُنقل الفضة اليابانية في الاتجاه الآخر، كان من الممكن لذلك العائد أو الربح أن يضاعف رأس المال الخاص بك، هذا ما دام البرتغاليين لم يأسروا سفينتك. لكن التوقيت الذي ظهر «لوبو» فيه هناك كان نكِداً، وذلك لأنه كان قد اشترى منصبه في عام 1638، ومباشرة قبل أن تقوم اليابان بفرض حظر يمنع التجار البرتغاليين؛ من التجارة مع اليابان وذلك بسبب إخفاقهم في المراقبة والتقيد بالحظر الذي فرضته اليابان ضد دخول المبشرين المسيحيين إليها. هكذا طُرِدَ الرُّبَّانُ البرتغالي الذي انتهك ذلك الحظر عام 1639، ورُحِّلَ خارج اليابان، كما حوكم رُبَّانٌ آخر عام 1640، وأعدم هو ومعظم طاقمه. ومنذ ذلك الحين كان الهولنديون، الذين سعدوا بالموافقة على عدم تهريب المتحولين حديثاً عن الكاثوليكية إلى اليابان، هم فقط المسموح لهم بالتجارة في «نجازاكي»، ولم تعد هناك عمليات أخرى لنقل السلع من «ماكاو»، كما لم تعد هناك أرباح رخية سخية تصل إلى يدي الذئب».

عندما وجد «لوبو» أنه قد سُدَّت في وجهه سبل التجارة مع اليابان، فإنه تحول نحو مخططات أو مكائد أخرى، كأن يفرض مثلاً على تجار

«ماكاو» الأثرياء، والذين ربما احتاجوا إلى رأيه السديد في أمر من الأمور، أن يقرضوه مبالغ كبيرة من المال، دون أن يكون في نيته أن يردها إلى أصحابها. ويضاف إلى ذلك الإهانة والأذى، وكي يزيد من الإهانة والأذى للآخرين، فقد كان يستمتع بأن يتباهى كالطاووس مستعرضاً ثروته، كما اشتُهِرَ عنه الاستهانة بالتقاليد والأعراف. فكان يطوف مرتدياً زياً مضحكاً من أزياء طائفة «المور» من الذهب النفيس والحرير الأزرق السماوي، وهو يضع قلنسوة حمراء على رأسه أيضاً. وقد دفع به جشعه إلى الدخول في صراع مع المجلس الأعلى في «ماكاو»، وهو هيئة تتكون من كبار التجار في المدينة. وقد تطور ذلك الصراع في النهاية إلى معارك دارت في الشوارع بينهما، وخلالها جلب الخصمان المتنازعان المدفعية فعلاً كي يستخدماهما أحدهما ضد الآخر وعندما حاول مندوب ملك بلجيكا هناك في نهاية صيف 1642 أن يعيد الأمور إلى نصابها ويخضعها لسيطرته، فإن «لوبو» قام بخطفه وسجنه في زنزانة خاصة في السجن، ولمدة ثمانية شهور، ثم قام بضربه في النهاية حتى الموت.

لقد كان ذلك الاضطراب الذي انطلق متفجراً في شوارع «ماكاو» هناك، عند الطرف الجنوبي من الصين، اضطراباً لا يذكر مقارنة بتلك الفوضى التي أنشبت أظفارها واجتاحت المدن الموجودة في جنوب الصين خلال تلك اللحظة، حيث كانت الجماعات المتمردة تحارب الجيوش الحكومية، أو على الأقل كما كانت الحال غالباً تحارب بعضها البعض، في صراع من أجل السيادة والتفوق على نظام حكم «المنغ»

المتداعي. وفي عام 1644 قام واحد من قادة المتمردين هؤلاء، وقد كان مجرد حارس مخفر وجد نفسه زائداً على الحاجة، غير مطلوب، بسبب ذلك الانهيار الذي حدث في التمويل المركزي، بقيادة غارة جسورة على بيجين واستولى على العاصمة، وعندما وجد الإمبراطور «تشونغ تشن» ذلك الذي كان قد حاول أن يحضر رجال المدفعية البرتغاليين إلى بيجين، على الرغم من معارضة بعض رجال حاشيته، عندما وجد أن جميع من أقسموا أن يساندوا حكمه قد تخلوا عنه، فإنه شنق نفسه على شجرة في أقصى جنوب تلك «المدنية المحرمة»... على أية حال، لم تكن الصين، في وضع يسمح لأحد مواطنيها أن يسيطر عليها، بسهولة، هكذا، ومن ثَمَّ فإنه وخلال ستة أسابيع قام جيش موحد من بعض الصينيين والمانشو بالاندفاع جنوباً والانقضاض على بيجين من ناحية السور العظيم، وأجبروا ذلك القائد المتمرد على التخلي عن جائزته التي كان يمسك بها بيد ضعيفة. ثم قام المانشو بعد ذلك بتدبير انقلاب في الخفاء وضعوا من خلاله أحد أمرائهم الشباب على عرش الصين وأعلنوه الأول من سلالة «شنغ» الحاكمة، هكذا كانت سلالة المنغ الحاكمة قد انتهت.

خلال تلك السنة نفسها، وصل حاكم جديد إلى «ماكاو» من مستعمرة «جوّة» البرتغالية. وقد تم توجيه الاتهامات ضد «لوبو» في لشبونة، وقد كانت مهمة الحاكم الجديد أن يقاضيه في ضوء تلك الاتهامات، لكن هذا الأمر سيأخذ شهرين ونصف الشهر قبل أن يكون ذلك الحاكم قادراً على أن يرسل «لوبو» في النهاية، وعلى وجه السرعة، في «قوقورة» (سفينة شراعية كبيرة)، متجهة جنوب أوروبا. وقد غادرت

تلك السفينة «ماكاو» في فبراير عام 1647، وقد ذهب مع «لوبو» في تلك الرحلة أخوه المخلص، وخادمه الصيني، وعبد إفريقي أُعِيرَ إليه خلال مدة الرحلة. ولم تقم سفينتهم بالدوران حول رأس الرجاء الصالح؛ بل جنحت وارتطمت بالأرض في مكان ما، قبل أن تبلغ ذلك الرأس، وقد حدث ذلك في تلك المنطقة التي تعرف الآن باسم «الناتال» Natal وقد حسب الذين وصلوا إلى الشاطئ أن أفضل فرصهم في البقاء إنما تتمثل في أن يشقوا طريقهم ببطء وصعوبة شمالاً نحو موزمبيق، لكن ذلك لم يكن بالحل الذي يناسب تكوين «لوبو» الجسدي، فقد كان وزن ذلك التاجر كبيراً وبدانته مفرطة، وجسده منهاراً من الناحية الصحية نتيجة لأسلوب حياته المتهور والمسرف بإفراط – وقد كان قد وصل إلى درجة لم يعد يستطيع معها أن يمشي إلا بضع خطوات قليلة، في كل مرة، وقد كانت لدى أخيه أرجوحة شبكية مصنوعة من حبال الصيد وشباكه، وبالتالي فقد أقنع الغلمان الذين يشتغلون خدماً في السفينة بحمله من طريق هذه الوسيلة؛ نظير أجر يومي سخي.

وخلال يوم واحد، شعر هؤلاء الحمالون بالتعب من هذا العمل، وقرروا أن يتركوا «الذئب» في صحبة مجموعة من الراهبات اللائي لم يكن يقدرن على الذهاب إلى ما هو أبعد من ذلك. هنا تدخَّل شقيق «لوبو» في الأمر، ووعد ستة عشر بحاراً بمكافآت سخية كي يقوموا بهذه المهمة، وقرَن وعده بتهديدهم أنهم سيعدون مسؤولين عن الفشل في تحقيق أمر الملك بإعادة «لوبو» إلى لشبونة. ودون حماسة كبيرة ذهبوا، وتركوا الراهبات وراءهم، وبعد أسبوع من الحمل الثقيل له

ومخزون الطعام الذي يتضاءل تدريجياً، لم يكن لأي سعر مطروح – أياً كان– أن يقدر على شراء التعاون، فعلى الضفة الجنوبية لنهر كبير شعروا بأنه لم يعد ممكناً بالنسبة إليهم أن يحملوه بمشقة وجهد لعبور النهر، ومن ثَمَّ فإن هؤلاء البحارة قد أعدوا ظُلة (مظلة) من قطعة صغيرة من القماش وتركوا «لوبو» هناك، ولم يكن هناك خيار بالنسبة إلى خادمه الرقيق الصيني، ولا لعبده الإفريقي سوى أن يبقيا معه، فلم يكن التوقع المأمول بالنسبة إليهما أفضل من المأمول بالنسبة إليه. وقد مكث شقيق «لوبو» معهم ساعات قليلة ثم لحق بالآخرين. وعاد إلى البرتغال ولم يسمع أحد عن هؤلاء الرجال الثلاثة الذين تركهم هناك شيئاً بعد ذلك.

لقد كان الأفارقة يُشَاهَدُون في القرن السابع عشر في شرق آسيا، لكن نادراً ما شُوهِدَ الصينيون خارج تلك المنطقة، فقد حظر قانون أسرة «منغ» على الصينيين ترك مملكة الإمبراطور، وفرض عقاباً كبيراً على أي فرد يغادر المملكة دون ترخيص أو إذن رسمي بذلك، إذا كان عليه أن يعود. ولكن عبر أكثر من قرنين، كان كثير منهم يذهبون إلى جنوب شرق آسيا من أجل التجارة والعمل، ثم ينجحون في التسلل عائدين إلى الصين، ودون أية عواقب وخيمة. وقد كان معظم الموظفين الرسميين يتجاهلون هذا الأمر ما دام التجار البحريون يذهبون ويجيئون لا تُصَدِّرون مواد عسكرية، كالبارود، أما تجارة الرق أو العبيد، بالنسبة للأجانب، فقد كانت مسألة أخرى.

ومنذ ذلك الحين الذي شيَّد البرتغاليون فيه مستعمرتهم على شبه جزيرة «ماكاو» الصغيرة عام 1557، كان الصينيون يذهبون إلى هناك

بحثاً على العمل، وقد ذهب كثيرون منهم برغبتهم، لكن بعضهم انتهى أمره هناك عاملاً عبداً أو من الرقيق، وقد حدث ذلك إما بسبب أنهم باعوا أنفسهم في سوق العبيد من أجل أن يسددوا بعض ديونهم، أو لأنه قد تم اختطافهم، وقد كانت الخدمة الخاصة بالعبيد شرعية قانونية في الصين تحت حكم سلالة «منغ»، ما دامت تتم دون قهر وإجبار، وتتم كتابة عقود محددة لشروطها. لقد كان الاتجار بالبشر مع الأجانب، على كل حال، يخالف القانون الصيني، وقد كان موظفو المقاطعة الرسميون في كانتون يقظين فيما يتعلق بهذه النقطة، وقد كان حظر الاتجار بالبشر مهماً بدرجة كبيرة أيضاً بحيث إنه احتل المرتبة الثانية في قائمة التنظيمات الأساسية الخمسة التي أُجبِرَ البرتغاليون على الموافقة عليها بعد جولة من المفاوضات مع الموظفين الرسميين الصينيين عام 1614 (وهو نوع آخر من التنظيمات التي كانت تحظر على البرتغاليين اتخاذ خدم لهم من اليابانيين [أو «العبيد الأقزام»]، في «ماكاو») وبعد سنتين، نُقِشَت هذه الشروط المنظمة على لوح حجري كبير نُصِبَ في مركز المدينة، خشية أن ينسى أي فرد منهم على نحو يخدم أغراضه الخاصة ما الذي وافق على أن يحترمه، حيث لا يمكن شراء الصينيين وبيعهم.

وبصرف النظر عن ذلك الذي كان منقوشاً على الحجر، فقد أدرك المسؤولون الصينيون أنه لا عائق قانونياً يمكنه أن يمنع تدفق الفقراء الصينيين المتجهين بعيداً من أجل أن يكشطوا رقاقات صغيرة من جبل الذهب في «ماكاو» فلم يكن الناس العاديون يشغلون أنفسهم باحترام

تلك العزلة الإجبارية التي مالت دولة «المنغ» إلى فرضها بين الصينيين والأجانب، وبخاصة عندما كانت الفوائد المتحصلة من الذهاب إلى «ماكاو» ظاهرة للعيان، وتتجاوز في قيمتها أي واجب أخلاقي كان يفترض أن تدعمه تلك التنظيمات، هكذا تذمر موظف قائلاً: «إنهم يذهبون هناك كل عام». وأضاف: «وكل عام لا تعرف عدد الذين ذهبوا منهم». لم يكن الشغل الشاغل للحكومة الصينية إيديولوجياً بقدر ما كان مالياً، فقد كانت المشكلة المتعلقة بترك هؤلاء الصينيين يغادرون بلادهم تعني أنهم سيختفون من سجلات الضرائب الخاصة بوطنهم الأم. فقد كان الصيني الذي يدفع ضرائب أكثر في وطنه يدفع ضرائب أقل كخادم عبد في «ماكاو». وقد وقف رئيس كلية الجيزويت في «ماكاو» إلى جانب الموظفين الرسميين الصينيين من خلال تعبيره جهاراً عن رأيه الواضح ضد الاتجار بالأطفال الصينيين، ومع ذلك فإن هذا لم يؤدِّ إلى شيء فيما يتعلق بإيقاف تدفق هؤلاء البشر الذين حافظوا بعملهم وخدماتهم على استمرار تلك المستعمرة في حالة نشاط.

لو كان قد قدّر لسفينة «لوبو» أن تعود إلى لشبونة، فإن خادمه العبد الصيني كان سيصبح واحداً من الصينيين الذين يندر وجودهم في أوروبا. لقد ذهب قليل منهم إلى هناك قبله، وكان بعضهم يقوم بدور «القندلفت» أو مساعد الكاهن الجيزويتي في القداس، كي يقوم ذلك الكاهن بتدريبه، والبعض الآخر تم جلبه كغرائب تُعْرَض أمام الملوك العظماء، والباحثين المتنورين. وحيث إن تلك السفينة لم تصل، فإن خادم «لوبو» قد تُرِك في بلد غريب، وقد تقطعت به السبل ما بين عالم

سيده وعالمه الخاص. وبمجرد أن مات «لوبو» فإن علاقة العبودية التي كانت تربط بينهما قد انتهت، وكذلك فرصته في البقاء على قيد الحياة. لقد كان على وشك أن يصبح واحداً من هؤلاء جميعاً الذين التقطتهم ريح القرن السابع عشر الدوامية من مكان ما، ثم ذرتهم أدراجها في مكان آخر.

لقد كان الذهاب إلى البحر عملاً محفوفاً بالمخاطر، وقد كانت المؤسسات الاندماجية التجارية في أوروبا تبني سفناً كبيرة جداً بحيث إنها كانت تستطيع أن تتواءم مع الشحنات الكبيرة دائماً، وأن تصمد، على نحو أفضل، أمام الهجمات في البحر، وكذلك أن تسرع من خطوها حول العالم وفقاً لجداول صارمة دائماً، لكنه كلما كبرت السفينة قلت الرشاقة التي يمكن أن تناور من خلالها وتتدبر أمورها في طريقها عبر القنوات المائية بعيداً عن الشاطئ، وأن تمضي نحو شاطئ وترسو عليه بأمان عندما تعصف بها ريح صرصر عاتية، وأن تتحاشى، كذلك، المهاجم الصغير، لكنه الأكثر فطنة ورشاقة. ونتيجة لذلك كله كان القرن السابع عشر القرن العظيم في تحطم السفن. لقد كانت تلك مسألة بسيطة، وتتعلق تحديداً بالأرقام، فخلال العقد الأول من القرن السابع عشر تحطمت تسع وخمسون سفينة هولندية، وعشرون سفينة إنجليزية، كانت كلها مبحرة نحو آسيا. ولنقفز عقداً حتى نصل إلى عشرينيات القرن السابع عشر، وهنا نجد أن العدد يزيد فَيَصِلَ إلى مائة وثمانٍ وأربعين سفينة هولندية، وثلاث وخمسين سفينة إنجليزية، وكلما زاد عدد السفن التي مخرت عباب المحيط، زاد عدد السفن التي غرقت.

ويضاف إلى العدد أيضاً ذلك الضغط الخاص بالمنافسين، حيث كان رَبابنةُ السفينة يبدؤون في الإبحار بسرعات كبيرة، ويتعرضون لمخاطر كبيرة خلال محاولاتهم التفوق على منافسيهم في هذا المضمار. ونتيجة لذلك كله فإن عدداً كبيراً من طواقم تلك السفن والمسافرين عليها قد وجدوا أنفسهم ملقى بهم على سواحل بعيدة، مقذوفين بقوة، هناك، حيث يجدون أنفسهم في مواقف وأحوال لا يمكن تصورها، وحيث ينبغي لهم أن يستخدموا فطنتهم وذكاءهم كي يستمروا أحياء. لقد كان يتم هنا أيضاً، الالتقاء بثقافات في مواجهات ثقافية أخرى، حيث كان على كل تلك الثقافات أن تتغلب بنعومة ورشاقة على عقبة الفروق المرئية بينها في لون الجلد، والزي، والإيماءات، واللغة، والتي تفضي إلى وضع معالم الحدود الفاصلة بين من نحن ومن أنتم.

لقد وافق أن كانت سنة 1647 سنة سيئة على نحو خاص بالنسبة إلى السفن الهولندية التي كانت تمر في طريقها حول رأس الرجاء الصالح، فقبل أربعة أشهر، كانت السفينة «هارلم الجديدة» Nieuw Haarlem في مرحلة العودة من رحلتها الرابعة نحو «باتافيا» Batavia، لكنها غرقت قرب رأس الرجاء، تاركة ركابها هناك، وقد تقطعت بهم السبل مدة عام تقريباً، قبل أن يأتي من ينقذهم. وعندما عادوا إلى أمستردام حاول هؤلاء الناجون كسب تأييد شركة الهند الشرقية الهولندية كي تعيدهم إلى الطرف الجنوبي من إفريقيا ليستعمروه. ولم تكن تلك الشركة متحمسة تماماً لأن تجد نفسها متورطة في الاستعمار لمنطقة ما عبر البحار، تتجاوز ما تحتاج إليه كي تدير أمورها التجارية. وعلى غير شاكلة الإسبان

والبرتغاليين الذين اعتبروا وخططوا قوتهم التجارية على أن تمثل سلطة خاصة بالسيطرة العسكرية، كان الهولنديون يريدون ببساطة أن يجيئوا ويذهبوا كتجار أحرار فقط. وبعد خمس سنوات من المحاولات المكثفة لكسب تأييد الشركة، استطاع بعض هؤلاء الناجين أن يعود إلى ذلك المكان الذين كان قُذِفَ بهم على شاطئه عام 1647. وقد كانت تلك أول بعثة من المستوطنين الهولنديين تتوجه نحو رأس الرجاء الصالح؛ الخيط الأول في النسيج الذي تشكل من مستوطنات أو مستعمرات بيضاء، وعبودية سوداء في جنوب إفريقيا، والذي ستستمر عملية النسخ له والتكرار ثلاثة قرون، ثم عقوداً عديدة كثيرة من النزاعات والاضطرابات العنيفة خلال القرن العشرين حتى تنحل خيوط ذلك النسيج.

لقد خلقت المغامرات البحرية الثروات بالنسبة إلى قلة من المحظوظين، في حين زودت فقط بالوقود أحلام الآخرين. لقد ألزم بعض الرجال أنفسهم بالذهاب في رحلات بحرية طويلة كانت خلالها احتمالات كسب الثروات، بل حتى العودة، ليست احتمالات عالية، لكنها كانت أفضل من حال هؤلاء الذين ظلوا في بلادهم. وحتى بالنسبة إلى الذين ظلوا في أوطانهم، كانت ثمة متعة بديلة متعلقة بالحلم بالإبحار نحو الخارج سعياً وراء الثراء، ومتعلقة كذلك بحالة التشفي الناتجة من المعرفة بأن الموت والدمار يكمنان في كل منعطف بالنسبة إلى هؤلاء الذين ذهبوا إلى الخارج، وهكذا فإن الكثيرين كان من الممكن أن يصيبهم الإخفاق خلال تلك الرحلات البحرية الطويلة. فقد كانت الأمراض والجفاف والموت جوعاً تهلك على نحو منتظم طواقم تلك

السفن وركابها في البحر. وقد تمزق العواصف سفينة ما إرباً، ولا تترك وراءها ولا حتى لوحاً خشبياً كي يشير إلى أن تلك السفينة، أو من كانوا على متنها، كانوا موجودين أصلاً في هذه الحياة من قبل. كما كانت الخطوط غير المألوفة للسواحل على الخرائط تضلل الملاحين على نحو مستمر، وكذلك كانت الصخور المجهولة تمزق باطن السفن أو تجعل السفن تميل فتلقي بركابها فوق الأمواج وتسقط حمولتها في أعماق البحر. كذلك وكما اكتشف «أدريانو دي لاس كورتيس» فإن الوصول إلى الشاطئ لم يكن ضمانة للبقاء على قيد الحياة، وذلك في حالة ما إذا كان السكان المحليون قد تعلموا أن يصبحوا متشككين في التجار وبنادقهم، جشعين فيما يتعلق بأية سلع قد يحملونها.

وبالكاد، سيكون الأمر مدهشاً، لو علمنا أن خيال القرن السابع عشر كانت تستحوذ عليه الحكايات الخاصة بتلك الكوارث التي كانت تحدث في البحر. فمنذ بداية ذلك القرن، كان كُتَّابُ كل الأنواع الأدبية سعداء بتزويد القراء بكل تلك القصص، بل إنه حتى «وليم شكسبير» استحوذ عليه ذلك الطلب المتزايد على حكايات السفن المدمرة في مرحلة متأخرة من مسيرته في عالم الكتابة، وحتى لو كان «شكسبير» قد كتب مسرحية «العاصفة» من أجل أن يُسرَّ بها الذوق العام ويرضيه فقط، فإنه قد كتب من خلالها أيضاً ما يُعد اليوم واحدة من أكثر المسرحيات سحراً وجمالاً، ومن بين كل قصص تلك السفن المحطمة التي هرع الناشرون إلى طبعها في العقود الأولى من ذلك القرن، لم يبلغ أي من هذه القصص في مبيعاتها ما بلغته القصة التي كتبها «وليم

بونتيكو» Willem، Bonteko المعنونة بـ: «الوصف المستعاد لرحلة بحرية نحو الهند الشرقية» The Memorable Description of The East Indina voyage، حيث يُمتع «بونتيكو» القارئ بمغامرات يقف لها شعر الرأس، استمرت أحداثها ست سنوات تبدأ عام 1619، وذلك عندما كان رُبَّاناً للسفينة «هورن الجديدة»)، وكان يعبر المحيط الهندي على نحو كارثي، وقد زعم ذلك الكاتب أنه كتب تلك الرواية الخاصة التي تصف الأحداث التي مر بها أفراد عائلته وأصدقاؤه خلال عودتهم على متن تلك السفينة (وقد كان واحداً من إخوة ثلاثة قادوا سفن شركة الهند الشرقية الهولندية). وبسبب شعور ما بالشك راوده في أن هذا الكتاب قد يستثير اهتمام أي قارئ، فإنه طلب من قرائه أن يلوموا الناشر فقط لأنه أخذ ذلك المخطوط منه وقام بطباعته، هذا لو كانوا يحكمون على الكتاب في ضوء المعايير الأدبية السائدة. ومر عقدان زمنيان على تلك الأحداث التي كان «بونتيكو» يصفها، لكن ذلك لم يضعف من توق الجمهور العام الشديد إلى مثل هذا النوع من القصص. لقد كان النجاح التجاري بكتاب «بونتيكو» ذلك جامحاً.

لقد ضربت كارثة غير متوقعة السفينة «هورن الجديدة» Nieuw Hoorn خلال رحلة الذهاب، ففي أثناء عبور تلك السفينة للمحيط الهندي، قلب بحار مصباحاً (فانوساً) فأشعل النار في السفينة، وقد بذل طاقهما أقصى ما يستطيعونه من جهد لإطفاء النيران، لكن اللهب سرعان ما تغلب على تلك المحاولات وواصل طريقه حتى وصل إلى مخازن البارود وقام بتفجير مخزون السفينة كله. وقد قتل الانفجار كثيراً

ممن كانوا على متن السفينة وأغرق الكثيرين منهم أيضاً. لكن بعضهم كان قادراً أيضاً على أن يهرب نحو اثنين من قوارب النجاة المرافقة للسفينة، وذلك قبل أن يُفَجِّر ذلك الانفجار السفينة إرباً، تناثرت هنا وهناك. لكن «بونتيكو» ظل على متنها حتى النهاية. وقد دفعته قوة الانفجار الهائلة بعيداً تماماً عن السفينة، ثم التقطه بعض الناجين، والذين كانوا يركبون أحد القوارب من بين مياه البحر، وقد كان مصاباً بالجروح ويعاني الدوار، ثم دفعت المياه اثنين وسبعين رجلاً وصبياً من خدم السفن شرقاً، ولمدة أسبوعين، دون أن يكون لديهم شيء سوى المحيط حولهم. وبعد أن تبينوا أن مخزونهم من الطعام يتضاءل تدريجياً. بدأ البحارة ينظرون بشدة نحو الغلمان الذين كانوا يعملون خدماً على السفينة بوصفهم طعاماً ممكناً، ولحسن حظ الجميع أن المياه قد جرفت ركاب هذين القاربين من قوارب النجاة قبالة جزيرة ناحية ساحل سومطرة، وذلك قبل أن يقضي الجوع عليهم.

لم تكن تلك الكارثة نتيجة لخطأ ارتكبه «بونتيكو»، ومع ذلك فإن «جان كوين» Jan Coen، والذي كانت شركة الهند الشرقية الهولندية قد عينته حديثاً حاكماً في «باتافيا»، والذي كان أيضاً واحداً من أكثر قادة تلك الشركة كفاءة، وبَّخَهُ بعنف بمجرد وصوله إلى تلك المستعمرة الهولندية. ولقد كانت تلك الشركة قد طورت طريقاً جديداً يمر عبر المحيط الهندي، لكن «بونتيكو» أخفق في أن يسلك ذلك الطريق، وذهب بدلاً منه حول رأس الرجاء الصالح، ثم صعد نحو مدغشقر، ثم اتجه صوب الشرق، وهو طريق كان يضع السفن تحت رحمة التيارات

البحرية غير المرغوب فيها، وكذلك الرياح العاصفة، ومن ثَمَّ شُجِّعَت سفن تلك الشركة على أن تتجه نحو جنوب رأس الرجاء الصالح، ثم تلتقط الرياح التي تهب من الغرب، وسوف تحملها هذه الرياح بسرعة عبر الجانب السفلي من المحيط الهندي، وذلك قبل أن تذهب السفن في اتجاهها بعيداً نحو الشرق. وتتحطم على ذلك الشاطئ الصخري الغربي لأستراليا، فإنه على تلك السفن أن تسلك طريقاً مختصراً نحو الشمال حتى تصل إلى «باتافيا»، وقد اجتاز «بونتيكو» رأس الرجاء الصالح ثم سلك الطريق القديم. وقد برر اختياره لهذا المسار بملاحظة كتبها في السجل الخاص بتقدم السفينة اليومي فَحْواها أن «كل الناس الذين كانوا معنا لا يزالون في صحة جيدة، ولم تكن تنقصنا المياه، ومن ثَمَّ فإننا تركنا كل الأشرعة عالية». وفي النهاية، ومع من ذلك، استغرقت رحلته وقتاً أطول مما ينبغي أن يكون. لقد اختصر الطريق الجديد نحو ثلاثة أو أربعة أشهر من زمن تلك الرحلة التي كانت تستغرق أحد عشر شهراً ما بين أمستردام و«باتافيا»، وقد كان من الممكن أن يكون «بونتيكو» قد وصل إلى «باتافيا» قبل ثلاثة شهور من حدوث ذلك «الانفجار، الذي كان من الممكن ألا يحدث أبداً»[1].

لقد خطت أقدام الناجين من تلك السفينة - هورن الجديدة- فأدخلتهم إلى تلك الجزيرة التي عثروا عليها مصادفة، بحيث أدركوا في الحال أن هذه الجزيرة يمكن أن تكون أي شيء عدا أن تكون مهجورة، ففي الحال، وبعد أن ذهبوا إلى الشاطئ وجدوا هنا نار مخيم قد أُطفِئَتْ تواً، كما وجدوا ركاماً من لحاء شجر التبغ مكوّماً بجانب تلك النار،

لقد كان بعض أبناء شعب الملايي قد استمتعوا تواً بمباهج التدخين... وقد تعلم سكان تلك الجزيرة ألا يجعلوا أنفسهم مكشوفين أمام القادمين الجدد، بل أن يتسللوا بعيداً عن مجال الرؤية ثم يُقَدِّروا مدى قوة هؤلاء القادمين الجدد واستعداداتهم قبل أن يحتكوا مباشرة معهم، وقد ظهر «الملايي» في الصباح التالي من أجل التفاوض والمناقشة أو فرض شروط الاستسلام على هؤلاء الناجين.

وقد كان هناك معهم ثلاثة من البحارة الهولنديين الذين كانوا قد ذهبوا إلى آسيا من قبل، كانوا يعرفون قدراً من لغة «الملايي» تكفي لجعل ما يقولونه مفهوماً. وقد كان أول سؤال طرحه أبناء «الملايي» عليهم هو ما إذا كان هؤلاء الرجال يحملون أسلحة نارية معهم. وقد كان الهولنديون قد فقدوا جميع بنادقهم عندما حدث ذلك الانفجار، لكنهم كانوا ماكرين بدرجة كافية جعلتهم يبوحون بأنهم لم يكونوا مسلحين، فقالوا لمضيفيهم إن بنادقهم مخبوءة في القوارب. ثم كشفت الأسئلة التالية الموجهة إلى هؤلاء البحارة عن أن هؤلاء القوم من أبناء «الملايي» كانوا يعرفون قدراً كبيراً من المعلومات حول التجارة الهولندية، ثم أبدوا رغبتهم في أخذ القطع المعدنية من الهولنديين مقابل تزويدهم بالطعام، وقد كان سكان تلك الجزر يعرفون اسم حاكم «باتافيا»: «جان كوين». وكانوا يعرفون أيضاً أن التجار الهولنديين غالباً ما يحملون معهم بضائع عالية القيمة، ومن ثَمَّ فإنهم حاولوا عمل كمين لهم في اليوم التالي. وقد فشل ذلك الهجوم، مع أنه أودى بحياة كثيرين من الهولنديين.

وقد هرب «بونتيكو» ورجاله عائدين إلى البحر باستخدام قوارب

التجارة ووصلوا في النهاية إلى بعض السفن الهولندية التي حملتهم إلى «باتافيا»، وهناك حصلوا على عمل في سفن شركة الهند الشرقية الهولندية التي كانت تبحر في المياه حول جنوب شرق آسيا، وبعد سنوات ثلاث، وفي يونيو من عام 1622، اشترك «بونتيكو» في ذلك الهجوم الفاشل على «ماكاو»، وخلال ذلك الهجوم انطلقت قذيفة من المدفع كان يوجهه «جياكومو روهو»، وأصابت براميل البارود الخاصة بالمهاجمين إصابة قاتلة، فانفجرت مشتعلة، وقد وصف «بونتيكو» ذلك الانفجار بطريقة دقيقة فقال عنه «لقد وضع رجالنا في مأزق». وعندما وجد الهولنديون أنهم غير قادرين على الاستيلاء على المدينة، انسحبوا وأمضوا بقية الصيف في المحيط يعوقون البرتغاليين، ويزعجون بغارات مستمرة الرحلات البحرية الصينية، حيث إنه ما دامت شركة الهند الشرقية الهولندية غير قادرة على الاستيلاء على «ماكاو»، فإنه كان يمكنها أن تجبر الصينيين على فتح علاقات تجارية منعزلة معهم، هنا وهناك، على الساحل. ولعل ذلك كان هو السبب الذي وجد من أجله الناجون من السفينة «السيدة العذراء من غويا» Nossa Senhora da Guia —وبعد ثلاثة فصول صيف لاحقة— أنفسهم واقعين تحت تهديد رجال من الجنود الرديف (الميليشيا) عندما جنحت سفينهم نحو اليابسة وارتطمت بالأرض. لقد عَلَّم ذوو الشعر الأحمر (الهولنديون) سكان السواحل درساً واحداً أولاً قبل غيره من الدروس، وهو: الخوف من الأوروبيين.

وقد استمر صيف المناوشات ذلك حتى الخريف، عندها وصل

أربعة بحارة واثنان من الغلمان خدم السفن الذين كانوا على متن سفينة «بونتيكو» في وضع بائس إلى الشاطئ، وقد كان الستة يركبون قارباً، وكانوا قد كُلِّفُوا بحماية سفينة صينية أُسِرَتْ، عندما هبت ريح عاتية وقذفت بهم على الشاطئ، وقد كُتِبَ لهم البقاء على قيد الحياة عندما تعلقوا ببعض حطام السفينة، ونجحوا في الإمساك ببعض بنادقهم معهم حتى وصلوا إلى ذلك الشاطئ. ومع أن تلك البنادق كانت مشبعة بالمياه، ولا يمكن إطلاق النار منها؛ فإنهم صوبوها في وضع تهديدي، من أجل تحذير أي شخص قد يقترب منهم. وفي اليوم الثاني من وجودهم على الشاطئ، كانوا قادرين على الحصول على نار من أحد المنازل كي يعيدوا إشعال فتيل البارود في بنادقهم... وقد كانت هناك جثث ستة صينيين ملقاة على الشاطئ، وقد قتلهم هولنديون آخرون، وقد كان لديهم مبرر كافٍ لأن يخشوا عودة السكان المحليين من أجل الأخذ بالثأر. ولم يمضِ وقت طويل حتى وجد هؤلاء البحارة الهولنديون أنفسهم محاطين بحشد من البشر، مع أن ذلك الحشد ظل محتفظاً بمسافة بعيدة حذرة منهم، يراقبهم. ومن أجل التأكد من أن الصينيين سيحافظون على هذه المسافة، أطلق الهولنديون نار بنادقهم في الهواء لتحذيرهم من الاقتراب منهم أكثر من ذلك، وقد وصفوا ببعض الرضا بعد ذلك أن الصينيين «كانوا يرتعشون بقوة» نتيجة لذلك الصوت، لكن لا بد أن هؤلاء الصينيين قد رأوا بندقية «القربينة» هذه من قبل، وقد قالوا أيضاً إن الصينيين قد «حدقوا فيهم بتعجب ودهشة»، وربما كان هؤلاء البحارة هم الأوائل من بين أصحاب الشعر الأحمر الذين رآهم الصينيون في حياتهم.

لقد كان هؤلاء السكان المحليون متسلحين بالسكاكين (المُدَى) والرماح المستدقة الأطراف، ولم يكونوا تواقين للبدء في القتال، وبدلاً من أن يقوموا بتحدي ذوي الشعر الأحمر، فإنهم قرروا أن الأكثر أمناً هو أن يقوموا بتلطيف مشاعرهم واحتوائهم ومن ثَمَّ فإنهم أظهروا إيماءات أشاروا من خلالها إلى أحد معابد القرية، وأبدوا علامات أيضاً على أنهم يريدون إطعامهم، وقد اتخذ الرجال الهولنديون جانب الحيطة والحذر، خشية أن تكون تلك خدعة للإيقاع بهم، لكنها لم تكن كذلك، ولا بد أن الصينيين قد حسبوا أن رجالاً يتضورون جوعاً لا بد وأن يسلكوا على نحو أقل عقلانية من رجال ذوي مِعَدٍ (جمع معدة) مملوءة. وبعد أن تناول الهولنديون وجبتهم انسحبوا وذهبوا إلى الشاطئ على أمل أن يجذبوا انتباه سفينة هولندية تكون مارة من هناك. وقد كان من حسن حظهم أنهم لم يضطروا إلى القتال هناك؛ وذلك لأنه لم يكن معهم سوى أربع طلقات فقط من البارود ظلت موجودة في أحزمتهم العريضة التي وضعت على أكتافهم وداخل جيوبها تلك «الرصاصات» لقد أمضوا ليلة قلقة على الشاطئ، وفي الصباح التالي قاموا ببناء رَمَث[2] (طوْف) مؤقت وهربوا به نحو البحر أملاً في النجاة.

لقد كان هؤلاء الرجال الستة والصبية محظوظين لأنهم ظلوا أحياء بعد تلك المغامرة؛ وبالنسبة للناس العاديين التي مثل هؤلاء الذين وجدوا

(2) الرمث: طوْف أو مجموعة من الأخشاب والأعشاب تشبه القارب ينتقل بها الناس من ضفة أحد الأنهار إلى الضفة الأخرى..

أنفسهم مشدودين بإحكام أو متعلقين بالنجوم الخاصة بربابنتهم الذين كانوا يبحرون عبر العالم، فإن الأرجحية هنا بالكاد لصالح البقاء على قيد الحياة. فحصيلة خسائر هؤلاء الذين كانوا يخدمون تحت إمرة «بونتيكو» خلال الشتاء والربيع القادمين – وهذا لا يعد شيئاً مقارنة بحصيلة الخسائر بين الصينيين – كانت تتزايد باطراد مثبط للهمم، فقد مات «هندريك برايز» Hendrick Bruys وهو من «بريمن» بسهم صيني مسمم في الرابع والعشرين من يناير 1623، ومات «كلايز كورنيلايس» Claes Cornelisz وهو من «فيدلبرج» في السابع عشر من مارس، وخلال الليلة التالية فقدوا «جان جيرتيز بروير» Jan Gerritz Brouwer وهو من من أبناء «هارلم»، والذي كان قد رقى إلى منزلة وكيل الربَّان الثاني منذ ستة أسابيع سابقة، وقد كانت أسوأ تلك الحالات هي الخاصة بذلك الشاب المجهول الاسم الذي مات في التاسع عشر من إبريل، فقبل أربعة أيام من موته قفز خارجاً من عنبر سفينة (يَنْك) صينية كانوا قد أسروها، وكانت تبحر مقيدة بسفينة «بونتيكو»، وقد فعل ذلك من أجل أن يلقي نظره خاطفة على ذلك الجانب الذي كان زملاؤه موجودين فيه يختبرون مدفعاً جديداً تم نصبه خلفه فاخترقت قذيفة المدفع ساقه، وقد قام جراح السفينة ببتر ساق ذلك الشاب بعد أربعة أيام من تلك الحادثة من أجل أن يوقف التلوث فيها، لكنه مات خلال ساعة.

أما بالنسبة إلى هؤلاء الذين نجحوا في النجاة من الموت، فقد ظلت الأمراض والإصابات تهاجمهم على نحو متكرر. وفي نهاية جولة

فرض الرسوم الجمركية التي كان «بونتيكو» يقوم بها في مايو من تلك السنة كان لا يزال هناك تسعون رجلاً يعملون معه، ونصفهم تقريباً كانوا هم فقط القادرين على العمل على نحو جيد. ومع ذلك فقد كان ذلك الطاقم كافياً كي يقوم «بونتيكو» بعمله الجريء الأخير بمحاذاة ساحل الصين، وهو: أن يعترض سبيل سفينة صينية (يَنَك) كانت متجهة صوب مانيلا وعلى متنها مائتان وخمسون راكباً وشحنة سلع تجارية، وفي طريقها إلى القيام بتجارة تستغرق عاماً في «أكابولكو»، وقد أسر «بونتيكو» السفينة واستولى على شحنتها، والتي كانت كما كُتِبَ تساوي «الآلاف»، ونقل هؤلاء الركاب السَّيِّئي الطالع وطاقم السفينة معه إلى جزر «بيسكادور» pescadore عند مضيق تايوان، حيث كان الهولنديون يحتاجون إلى العمال من أجل بناء تحصينات خاصة بقاعدتهم التجارية هناك. وقد أقنع المسؤولون الرسميون الصينيون، بعد ذلك، الهولنديين، من أجل مغادرة تلك القاعدة والانسحاب إلى «تايوان»، ولم تتم إعادة هؤلاء العمال إلى أوطانهم، على كل حال، بل شُحِنوا بعيداً من أجل بيعهم في سوق العبيد في «باتافيا»، وقد كانت تلك القرصنة هي السبب كما لاحظ أحد المعلقين اليابانيين في «نجازاكي» الذي كان يجعل السفن الصينية المتجهة صوب «نجازاكي» عندما تلمح سفن ذوي الشعر الأحمر، «تفعل ما يفعله الفأر عندما يرى قطة»، وقد كان ذلك المبدأ الذي وظف لخدمة لشركة الهند الشرقية الهولندية ولصالحها، والذي يقر بالحق الأصيل لكل الأمم في التجارة، هو الذي استخدم لتبرير الاستيلاء على شحنات هؤلاء الذين ينكرون

هذا المبدأ، وقد كان «بونتيكو» واحداً من تلك القطط.

ليس كل من جنحت سفينته من الهولنديين على ساحل آسيوي عاد إلى سفينته. فبعد أربع سنوات من قيام «بونتيكو» بأسر تلك السفينة الأخيرة، وجد بحار هولندي نفسه مدفوعاً إلى ما وراء الطرف الشمالي البعيد لساحل الصين، وعلى جزيرة «تشيجو» الكورية، ولم يُسْمَع شيء عن «جان جانزون» و«يلتيفري» Jan Janszoon Weltevree بعد ذلك، ولمدة ست وعشرين سنة، وفي عام 1653 كانت السفينة «الباشق» Sparrow Hawk في طريقها من «تايوان» إلى «نجازاكي» محملة بشحنة من الفُلفُل والسكر، وكذلك عشرون ألفاً من جلد «الأيائل»، وقد أصبحت تلك السفينة في مهب ريح عاصفة لمدة خمسة أيام، فدفعتها بعيداً عن مسارها، وطوحت بها نحو جزيرة «تشيجو». ومن بين طاقمها المكون من أربعة وستين بحاراً، بقي ستة وثلاثون منهم فقط على قيد الحياة، بعد تحطم السفينة، ولم يسمع أحد شيئاً عن هؤلاء البحارة أيضاً حتى تمكن ثمانية من بين هؤلاء الستة والثلاثين الناجين من الهرب عن طريق البحر، ووصلوا إلى مخفر حدودي هولندي أمامي في «نجازاكي»، بعد ثلاث عشرة سنة من تحطم سفينتهم، وقد حملوا معهم رواية فحواها أنه كان هناك رجل هولندي يُدعى «ويلتيفري» قد عاش في كوريا لمدة تسع وثلاثين سنة.

كان «ويلتيفري» قد أبحر إلى آسيا، على متن السفينة «الهولندية» Hollandia، وبعد أن وصل إلى «باتافيا» في يوليو عام 1624، وجد نفسه يعمل على سفينة أصغر هي «أويركرك» Ouwerkerck. وحيث

إنه لم تكن هناك أية سفينة بنتها شركة الهند الشرقية الهولندية قد أبحرت تحت هذا الاسم من هولندا خلال تلك الفترة، فلا بد وأن تلك السفينة قد بُنيَت في «باتافيا»، من أجل القيام بالتجارة الداخلية في آسيا، وقد كانت تلك السفينة متجهة من تايوان إلى «نجازاكي» في يوليو من عام 1627، عندما قامت سفينة صينية (يَنَكْ) متجهة نحو مرفأ القمر Moon Harbour في «فوجيان» بعبور مرمى نيرانها: فأر آخر قد وقع في مخالب قط آخر. وقد كانت السفينة الشراعية الصينية تحمل معها مائة وخمسين راكباً عائدين إلى «فوجيان» بعد موسم تجاري في مانيلا، ومن المفترض أنهم كانوا محملين بالفضة الأمريكية.

وقد كانت تلك السفينة الصينية غير مسلحة، ومن ثَمَّ تم الاستيلاء عليها بسهولة. وقد جلب القبطان الهولندي نصف هؤلاء الركاب الصينيين إلى السفينة «أويركرك»، وقام بنقل ستين من بحارته إلى السفينة الصينية كي يتولوا أمر العناية بها. وقد كانت الخطة التي رسمها هي أن يبحر بالسفن إلى تايوان، ويفرغ السفينة الصينية (اليَنَكْ) من حمولتها، ثم يقوم بنقل هؤلاء الركاب السَّيِّئي الطالع جنوباً نحو «باتافيا» كي يعملوا هناك عبيداً، وعندما ضربت ريح صرصر عاتية السفن قبل وصولها إلى تايوان، فقد القط فأره وتخلى رُبَّانُ السفينة «أويرك» عن الأمل في أن يجد غنيمته مرة أخرى، واتجه بدلاً من ذلك جنوباً كي يَغِيْرَ على السفن البرتغالية المتجهة صوب اليابان، وقد قُدِّرَ أنه لو لم يكن قد استطاع أن يسرق الفضة الأمريكية من الصينيين، فإنه ربما قد يسرق الحرير الصيني أيضاً من البرتغاليين. وفي التو ظهرت قافلة من خمس

سفن برتغالية في مرمى سفينته. ولم يكن ذلك الرُّبَّان يعرف أن تلك السفن قد جُهّزتْ على نحو جيد للقتال، وأنها كانت تبحر متنكرة كي تغري الهولنديين الذين لا يساورهم الشك في قدراتهم بالهجوم عليها. وقد أعطى الهجوم الهولندي عكس النتائج المرجوة منه، فقد أُسِرَ ذلك القبطان وطاقمه المكون من ثلاثة وثلاثين بحاراً، وقُطِرَتْ سفينته إلى «ماكاو»، حيث أضرمت النيران فيها. أما السفينة الشراعية الصينية التي كانت السفينة «أويركرك» قد أسرتها سابقاً، فكانت تعصف بها الريح في الاتجاه المقابل، ثَمَّ فقدت قدرتها على الحركة عند الطرف الجنوبي بعد كوريا، وقد وصل ثلاثة من الهولنديين الذين كانوا على متنها، ومن بينهم ويلتفري، إلى شاطئ جزيرة «تشيجو» بحثاً عن الماء. وبينما كانوا يقومون بالنهب وانتزاع المؤن، استعاد الصينيون الموجودون على متن السفينة السيطرة على سفينتهم وأبحروا بها بعيداً، تاركين وراءهم هؤلاء الذين ذهبوا إلى الشاطئ. وهكذا، وكما قال أحد المؤرخين المعاصرين الذين أعادوا بناء قصة «ويلتيفري»، «فإن القرصان قد خدعه ضحاياه».

لا بد أن «ويلتيفري» قد أدار مواجهته الأولى مع الكوريين بمهارة؛ وذلك لأن الكوريين فقط لم يقطعوا رأسه، كما فعل الصينيون مع بعض زملاء «لاس كورتيس» الناجين من تحطم سفينته، بل إنهم أيضا جَنّدوه لخدمتهم بسبب ما كان يتمتع به من مهارات، وقد كان الشرط الوحيد لتوظيفه (هناك) هو ألا يغادر ذلك البلد أبداً، فهو الآن قد أصبح موجوداً في كوريا، وعليه أن يقبل البقاء هناك إلى الأبد. أما زميلاه الآخران

اللّذان نجحا في الوصول معه إلى الشاطئ، فقد ماتا وهما يحاربان ضد غزو «المانشو» لتلك البلاد عام 1635، لكن «ويلتيفري» بقي على قيد الحياة، بل ازدهرت أحواله، كصانع أسلحة نارية تابع للملك هناك، وربما كانت البنادق (القربينة) التي حملها الكوريون الذين اعتقلوا طاقم السفينة «الباشق»، قد صنعت هناك تحت إشرافه.

وقد قام «ويلتفري» بما هو أكثر من مجرد التكيف مع ظروفه الجديدة في كوريا، فقد نجح وازدهرت أحواله؛ فعمل بجد واجتهاد وارتفعت مكانته، وتزوج امرأة كورية، وأنجب أطفالاً عُهد إليهم بعد ذلك بمواصلة حرفة والدهم كصناع أسلحة ماهرين. وفي ذلك الوقت الذي تحطمت فيه السفينة «الباشق» على ساحل «تشيجو» كان «ويلتيفري» يتكلم اللغة الكورية، ومن المفترض أنه كان يقرؤها، لمدة ست وعشرين سنة، ولأنه كان قد مضى عليه وقت طويل لم يتحدث خلاله الهولندية، فإنه عندما واجه البحارة الهولنديين وجد صعوبة كبيرة في الحديث معهم بلغتهم. وكما سجل ذلك واحد من الناجين من السفينة «الباشق» بعد ذلك، فإنهم قد شعروا بالدهشة لأن «رجلاً في الثامنة والخمسين من عمره، كما كان عمره قد وصل خلال ذلك الوقت، قد نسي هكذا، لغته الأم، بحيث إنه كان علينا أن نبذل مجهوداً كبيراً في البداية كي نفهمه، لكن الجدير بالملاحظة أيضاً أنه قد استعاد هذه اللغة ثانية خلال شهر». لقد كان «ويلتيفري» في ذلك الوقت قد عبر فوق حاجز اللغة في الثقافة المضيفة له، وإلى درجة أنه وجد صعوبة في أن يعبرها ويعود بها إلى الخلف، أو أن يتجاوزها عندما احتاج الأمر إلى ذلك، وربما

كان قد تعلم لغات آسيوية أخرى، وذلك لأنه كان من بين واجباته، أن يتولى أمر العناية بالبحارين والصيادين الأجانب وأغلبهم كانوا من اليابانيين والصينيين الذين كانت سفنهم تتحطم على الساحل، وقد كان يتولى مهمة القيادة المشتركة للبحارة الهولنديين الذين تحطمت سفينتهم حديثاً مع (رقيب أول) صيني، والحقيقة أنهما كانا يتواصلان من خلال لغة أخرى غير الكورية».

هكذا اندمج «ويلتيفري» على نحو جيد في المجتمع الكوري بحيث تقبله الكوريون كواحد منهم، وقد ضَحكَ الموظف الرسمي الكوري الذي قَدّمه إلى الناجين من السفينة «الباشق» عندما عبروا عن سرورهم لأنهم وجدوا رجلاً هولندياً هناك، وأخبرهم قائلا «إنكم مخطئون... لأنه كوري». ربما كان «ويلتيفري» من حيث شكله هولندياً في نظر الهولنديين، أما بالنسبة إلى الكوريين فقد كان شيئاً آخر. وقد وجد الهولنديون الذين اكتشفوه هناك بعد جيل لاحق أنه يصعب عليهم تخيل حدوث ذلك التحول الذي حدث له. لقد كان دخوله إلى كوريا مسألة تتعلق بالضرورة الملحة في ذلك الوقت، ولكن، وفي ذلك الوقت الذي تحطمت فيه السفينة «الباشق» على الساحل، لم تكن لدى «ويلتيفري» أية رغبة في مغادرة تلك البلاد. لقد وصل إلى منصب أعظم من ذلك الذي كان يمكن أن يصل إليه لو عاد إلى وطنه، وفي ظل تلك الظروف عاش حتى وصل إلى السبعينيات من عمره، وكان محاطاً بأولاده، لقد تحولت حياته كـ «كوري»، على نحو أفضل إلى حد كبير، وبشكل يفوق ما كان يمكن أن تصبح عليه هذه الحياة لو

عاد كرجل هولندي إلى وطنه.

عندما علم الناجون من السفينة «الباشق» خلال مقابلتهم الأولى مع ملك كوريا أنه لا يُسمح لهم بالعودة إلى ذلك المخفر أو مركز الحراسة الهولندي المتقدم على سواحل اليابان، فإنهم أصيبوا بالصدمة، لقد كانت عملية إعادة الأسرى واللاجئين إلى بلادهم تتم في ضوء معاهدة خاصة بالسفن المحطمة معمول بها في أوروبا، وقد توقعوا أن تُحْتَرَمَ هذه المعاهدة في آسيا.

«نحن، بتواضع، نتوسل إلى جلالتكم» هكذا خاطب البحارة الهولنديون الملك من خلال «ويلتيفري»، حيث «إننا فقدنا سفينتنا في عاصفة، فإنكم قد يسركم أن ترسلونا مباشرة إلى اليابان، وإنه وبمساعدة الهولنديين هناك، قد نتمكن يوماً من العودة إلى وطننا، كي نستمتع بصحبة زوجاتنا وأولادنا وأصدقائنا».

أما الملك فأجابهم قائلاً: «ليس من عادة كوريا أن تسمح للغرباء بأن يغادروا المملكة». ثم أضاف: «ينبغي أن تقرروا أن تقضوا حياتكم في الأراضي التي أمتلكها، وسوف أزودكم بكل الضرورات التي تحتاجون إليها». ولم ير ذلك الملك أي مبرر لتغيير تلك الإجراءات المعيارية المتبعة؛ وذلك لأن الأجانب الذين يتركون كوريا قد يأخذون معهم معلومات استراتيجية قد تستخدم بعد ذلك ضد الملك في المستقبل.

ثم أصبح الملك عالم أعراق بشرية ethnologist [3] فأمر الهولنديين بغناء الأغاني الهولندية، ورقص بعض الرقصات الهولندية حتى يتمكن من أن يشاهد الثقافة الأوروبية مباشرة أو من مصادرها الأولى، وبعد أن

تم الأداء أو العرض، مُنِحَ كل واحد منهم «طقم» ملابس «على ذوقهم» كما عبر واحد من الناجين عن هذا الأمر، ثم عينهم الملك في خدمة البلاط الملكي حراساً شخصيين، وقد كان عليهم منذ الآن فصاعداً أن يعيشوا باعتبارهم كوريين. وقد نجح بعضهم في تعلم الكلام باللغة الكورية على نحو طيب، لكن معظمهم لم يكن راضياً عن وضعه الجديد، وبعد سنتين اقترب ربان السفينة وأحد قاذفي طلقات المدفعية فيها من سفير بلاد «المانشو» الذي كان يزور كوريا كي يناشداه أن يأخذهما معه خلال عودته إلى الصين، وقد فهما منه أنه يمكنهما العودة إلى وطنهما، وعندما علم الكوريون بهذه المناشدة، كانوا شديدي العناد وقساة قلوب، وبذلوا كل ما يستطيعون من أجل ألا يحدث ذلك. هكذا قاموا برشوة سفير بلاد «المانشو» كي يعيد هذين الرجلين الهولنديين إليهم، ثم إنهم وضعوهما في السجن حتى ماتا في النهاية. وبعد إحدى عشرة سنة من تلك الحادثة، هرب ثمانية هولنديون آخرون، كانوا رافضين أن يقضوا حياتهم كلها هناك، في قارب إلى اليابان، وقد كانوا هم أنفسهم الذين نقلوا قصة «ويلتيفري»، وإلا فإنه كان يعتقد أن تلك القصة كانت ستضيع في ذلك البحر، ولا يعرف عنها العالم الخارجي شيئاً.

لقد ترتب على ذلك أن أصبح هناك ثمانية من الطاقم الأصلي لتلك السفينة قادرين على أن يعيشوا بعيداً عن تلك الحياة التي عاشوها «كوريين»، ومن بين هؤلاء الثمانية كان هناك بحار يُدعى «ألكسندر بوسكيه» Alexander Bosquet، وقد اتخذ ذلك الرجل لنفسه هويات متعددة قبل أن تتقطع به السبل ويترك غريباً هنا في كوريا،

وقد بدأ حياته كـ «اسكتلندي»، وربما كان واحداً من أفراد التجمع الاسكتلندي الذي كان في المنفى في فرنسا إبّان ذلك الوقت، ثم ذهب بحثاً عن العمل في هولندا، وهناك غَيَّر اسمه إلى «ساندرت باسكيت» Sandert Basket، ثم أبحر إلى آسيا، كمدفعي في إحدى سفن شركة الهند الشرقية الهولندية، ثم انتهى به المطاف في كوريا، وحيث هناك لا بد أنه أُجبِرَ على أن يتخذ أيضاً اسماً آخر، أحد الأسماء الكورية. وفي هذه المرة لقد نجح «بوسكيه باسكيت» في أن يكون اسكتلندياً وفرنسياً هولندياً وكورياً وعلى التوالي، فكم عدد الرجال الهولنديين الآخرين أيضاً الذين كانوا على متن السفينة «الباشق»، والذين كانوا قد بدؤوا كشيء معين ثم انتهى بهم الأمر شيئاً آخر؟

لم يقصد «ويلتيفري» قط أن يهبط على الأرض الكورية. كما لم تكن لديه أية نية للبقاء هناك عندما هبط على تلك الأرض، مع أنه على الفور قد تقبل سلطة من وقع في أيديهم. أما الصين فقد عالجت مثل هذه الأمور على نحو مختلف كما رأينا من قبل، فقد سُمح لـ «إدريانو دي لاسي كورتيس» والناجين معه من السفينة «جوّيا» بالعودة إلى وطنهم بعد أن قاموا بتبرئة أنفسهم من الشكوك التي أحاطت بهم وظن أصحابها أنهم قراصنة، ولكنّ، هناك أوروبيين آخرين كانوا قد دخلوا إلى الصين قاصدين البقاء فيها، وهم: المبشرون.

وقد كانت هناك طريقتان للحصول على إقامة دائمة في الصين: إحداهما تتم عن طريق التوسل إلى السلطات المحلية للحصول على موافقتها على البقاء هناك، وهذه هي الطريقة التي نجح المبشرون

الجيزويت في استخدامها بنجاح بدءاً من ثمانينيات القرن السادس عشر. وقد كان مفهوماً على الجانبين، أنهم بدخولهم الصين بإرادتهم، فإنهم يوافقون على أن يظلوا في الصين بقية حياتهم. فمن وجهة النظر الصينية، كان المبرر الوحيد لدخول الأجانب إلى الصين ثم خروجهم منها، فضلاً عن تقديم الإجلال والاحترام والهدايا... إلخ، هو التجسس. أما الطريقة الأخرى لدخول الصين فكانت عن طريق التسلل خفية، وهذه هي الطريقة التي بدأ مبشرو طائفة الدومنيكان في استخدامها منذ ثلاثينيات القرن السابع عشر، وقد توافق أن كانت هاتان الطريقتان لدخول الصين من خلال «الباب الأمامي» عبر ماكاو (الطريق الجيزويتي)، ومن خلال «الباب الخلفي» على طول وبمحاذاة ساحل فوجيان (الطريق الدومينيكاني)، توافق أن كانا هما الطريقين اللذين دخل التبغ من خلالهما أولاً إلى الصين أيضاً.

كانت الاستراتيجية التي اتبعها الجيزويت في العمل مع السلطات السياسية الصينية تقوم على أساس الأمل في أن تعاونهم مع تلك السلطات قد يتحول إلى نوع من التسامح من جانبها معهم، وكذلك إلى نوع من القبول الجماهيري لهم، وقد كان أكثر أعضاء طائفة الجيزويت الأوائل نجاحاً هو المبشر الإيطالي «ماثيو ريتشي» Matteo Ricci، الذي دخل إلى الصين عن طريق «ماكاو» عام 1583. وبعد أن أمضى عقداً من الزمن وهو يرتجل ويجرب مستخدماً رداءه وسلوكه المميزين، نجح «ريتشي» في إقامة علاقة تكيفية مع العادات والمعتقدات الصينية مكنته من أن يشق طريقه نحو مجتمع النخبة هناك. ثم إنه بعد عام 1604 نجح

في التعاون مع «سيوه» في مشروعات للترجمة. وقد شجع نجاحها في ذلك أفراد طائفة الجيزويت على أن يتبعوا مثل ذلك المسار في التكيف هناك. وعند الوقت الذي مات فيه «سيوه» عام 1633، كان هناك اثنا عشر مبشراً تقريباً من الجيزويت يعملون عبر تلك المملكة.

أما الاستراتيجية التي اتبعها الدومينيكان فقد كانت مضادة على نحو مباشر للموقف التكيفي الذي اتخذه الجيزويت، لقد أبدوا شكوكهم التي فحواها أن ذلك التكيف السياسي والديني إنما يمثل تنازلاً عن متطلبات النزاهة والأمانة الخاصة بالمذهب المسيحي. وقد فضل أفراد طائفة الدومينيكان أن يتجنبوا طبقة الموظفين، وأن ينغمسوا بأنفسهم في الشبكات الاجتماعية المحلية، بعيداً عن أنظمة رقابة الدولة. ولعل هذا هو السبب الذي جعل راهباً إيطالياً من هذه الطائفة، وكان يُدعى «أنجلو كوتشي» Angelo Cocci، يهبط على جزيرة قبالة ساحل فوجيان في اليوم الثاني من عام 1632، ولم يكن ذلك الرجل ضحية أخرى سيئة الطالع من ضحايا جنوح السفن وتحطمها، ويسعى من أجل العودة إلى الوطن، لكنه كان شخصاً قد قصد غاية محددة من رحلته هنا في الصين.

وقد كان «كوتشي» محظوظاً لأنه وصل إلى الصين، ووفقاً لكل الضوابط والقوانين فإنه كان ينبغي أن يموت قبل أن يصل إلى تلك الأراضي، وكان قد دفع قبل يومين أجرة السفر ومعه مجموعة من أتباعه عددهم اثنا عشر فرداً، على متن سفينة كانت ستسافر إلى تايوان. وكان «كوتشي» قد ذهب إلى تلك الجزيرة خلال السنوات الثلاث السابقة

على رأس بعثة تبشيرية من طائفة الدومينيكان، والتي كانت قد أُسِّسَتْ منذ خمس سنوات سابقة على ذهاب تلك البعثة (بعد وقت قصير سيغادر الإسبان موطئ قدمهم الصغير هناك ويتركون تايوان للهولنديين)، ثم كـان أن طلب «جوان دي الكارازو» Juan de Alcarazo الحاكم الإسباني للفيلبين من «كوتشي» أن يشرع في مفاوضات تجارية مع حاكم فوجيان الصيني «شيونغ وينشان» Xiong Wencan، وقد وافق «كوتشي» على هذا الطلب مرحباً؛ لأن ذلك كان سيمنحه فرصة طالما سعى إليها للذهاب إلى الصين. وقد كان حلمه الخاص بتحويل الصينيين إلى المسيحية قد جذبه وسيطر عليه منذ عام 1610، عندما كان في الثالثة عشرة من عمره، مجرد صبي من فلورنسا كان قد انضم إلى نظام الرهبنة الدومينيكاني كراهب مبتدئ. وربما تشكلت هذه الفكرة عبر العقد التالي من عمره، والذي قضاه في الدراسة في «فيسول» Fiesole «وسالامانكا» Salamanca، أو عندما غادر «كارديز» Cardiz متوجهاً إلى بنما عام 1620، أو عندما أبحر بسفينة من «أكابولكو» إلى مانيلا عام 1621، وقد كانت تلك الفكرة مسيطرة عليه يقينا عام 1627، عندما طُلب منه أن يتعلم لهجة أهل فوجيان الذين يعيشون في «كافيتي»، أي في ذلك الميناء التابع لمدينة مانيلا، حيث ذُبِحَ كل الصينيين، وربما كان منهم معلمه السابق، وعلى نحو منظم عام 1639.

في الثلاثين من ديسمبر عام 1631 حصل «أنجلوكوتشي» على تصريح بالذهاب من تايوان إلى فوجيان على متن سفينة شراعية (يَنَكْ) صينية، وقد كانت البطانة التي سافرت معه تتكون من زميل دومينيكاني من

إسبانيا، هو: «توماس دي لاسييرا» Tomas de la Sirera، واثنين من الحرس الإسبان، وسبعة من الفيلبينيين، ومكسيكي، ومترجم صيني، وقد مثّل كل ما كانوا يجلبونه معهم على شكل هدايا، ومؤونة، وفضة كانت تتناثر حولها الشائعات، مثّل ذلك كله نوعاً من الإغراء العظيم لبحارة تلك السفينة، ولم يضع طاقم السفينة وقتاً. ففي أثناء الليلة الأولى في البحر، هاجموا الأجانب، قاصدين أن يقتلوهم جميعاً ويستولوا على ممتلكاتهم، وقد قُتل بالفعل خمسة من الفيلبينيين، والمكسيكي الذي كان معهم، وواحد من الإسبان. أما بقية هذه المجموعة فقد انسحبوا إلى حجرة للأحمال تحت مركب صغير وتمترسوا داخلها، وقد قضى كل طرف منهما اليوم التالي منتظراً خروج الطرف الآخر. وفي الليلة التالية، وقد كانت عشية ليلة ميلاد السنة الجديدة، صَعَدَت عصابة أخرى من القراصنة على متن السفينة، وسلبت كل ما كانت تحمله من أشياء، وذبحوا طاقمها كله، وتركوا ذلك المركب على غير هدى تجرفه المياه. هل كان هؤلاء القراصنة يعرفون أن إيطالياً وصينياً واثنين من الإسبان واثنين من الفيلبينيين يختبئون أسفل ظهر ذلك المركب؟ يبدو أنهم لم يكونوا يعرفون؛ وذلك لأنهم كانوا سيعدون وجود الأجانب يعدِل أو يساوي وجود الفضة معهم، وأنهم لا بد أن يشتركوا معهم في قتال للحصول عليها.

في صباح اليوم الأول من تلك السنة الجديدة 1632، برز «أنجلو كوتشي» حذراً من مكمنه في تلك القمرة التي كان يختبئ فيها وزملاؤه، الخمسة المسافرون، وقد كان اثنان منهم قد جرحا، لكن كان

عليهما أن يتحصنا بمتراس أيضاً داخل تلك الغرفه خلال ليلتين ويوم واحد. وقد وجدوا سفينتهم الشراعية (اليَنْك) قد جرفتها الأمواج قبالة ساحل فوجيان، كما أنها كانت خالية تماماً إلا من أجساد من ذبحوا، والتي كانت لا تزال ترقد فوق متن المركب. وقد نجحوا في جعل تلك السفينة ترسو على جزيرة ما، وفي تلك الجزيرة قام صيادوها بنقلهم إلى البر الرئيس، ربما بدافع من الشفقة الخالصة، هذا مع من أن الأمر الأكثر احتمالاً هو أنهم قد حصلوا على تلك السفينة الشراعية مقابل ما قدموه من مساعدة، ثم إنهم نُقِلُوا بعد ذلك إلى موقع تابع لمقاطعة «كوانجوه»Quanzhw، وقد كان أحد الموانئ التي تتولى شؤون التجارة مع مانيلا، ومن هناك أرسلوا إلى الحاكم «شيونغ» xiong في «فوتشو» Fuzhou، عاصمة المقاطعة وقد استقبل الحاكم «شيونغ» «كوتشي» بلياقة وتهذيب، لكنه لم يكن في نيته أن يمنحه إقامة هناك، أو حتى أن يفتح معه باب المناقشة، حول التجارة وبدلاً من ذلك، فإنه أرسل تقريراً عن وصول «كوتشي» إلى بيجين، وطلب من المسؤولين هناك تعليماتهم الخاصة بهذا الأمر. كما أنه أمر أيضاً باعتقال القراصنة الذين كانوا قد اعتلوا متن سفينة كوتشي وتنفيذ حكم الإعدام فيهم أيضاً، وقد حدث ذلك على الرغم من الالتماس الذي قدمه «كوتشي» إليه بأن يُبقِي على حياتهم.

بعد أربعة أشهر لاحقة أرسل بلاط البلاد الإمبراطوري رده مع أمر لابد وأن الناجين من السفينة قد شعروا بالبهجة لتلقيهم استجابة سريعة مثل هذه: هؤلاء الناس ينبغي أن يردوا على أعقابهم، فقد كان

يُسْمَحُ للمبشرين الأوروبيين بدخول الصين ما دام أنهم أطاعوا الشروط الأربعة التي احترمها الجيزويت، ويُشكر على ذلك الارتجال الذي قام به «ماتيو ريتشي»: فقد وصل من خلال قنوات شرعية، وارتدى الملابس الصينية، وتحدث باللغة الصينية الرئيسة (الماندارين)، وسلك وفقاً للمعايير والأعراف الصينية، وقد أخفق «كوتشي» في أن يضع في حسبانه كل تلك الشروط (هل كانت لغته الصينية دون المستوى، أم كانت اللهجة التي تعلمها في «كافيتي» غامضة غير مفهومة؟)، ومن ثَمَّ وُجِّه إليه أمر بالخروج من تلك البلاد، وقد كان تسليمه إلى الفلبين هو ما لا يريده «كوتشي». لقد أراد أن يبقى في الصين، ورغب في أن يُكَرِّسَ بقية حياته لنشر المسيحية بين الصينيين، فهو لم يرغب قط في أن يعود إلى مانيلا، كما لم يرغب أكثر من ذلك في أن يعود إلى فلورنسا.

عندما جاء اليوم الذي كان ينبغي أن يركب فيه «كوتشي» ذلك المركب الذي أُعِدّ كي يأخذه ويعود به إلى مانيلا، أخذ مسيحي ياباني، كان يريد أن يذهب إلى الفيلبين، مكانه، وقد نظمت عملية الإبدال للركاب هذه بواسطة «لوكي ليو» luki liu، وقد كان «ليو» مسيحياً صينياً من «فويان» Fuan، وهي مركز مجاور في تلك المقاطعة حيث كانت طائفة الجيزويت قد أسَّسَت لها من قبل إرسالية هناك ونجحت بتحويل عشرة من الصينيين إلى المسيحية. ما الذي كان ذلك الياباني المسيحي يفعله في «فوتشو»، وكيف خدع السلطات المختصة هناك، تظل تلك ألغازاً بلا إجابات، لكن تلك الخدعة نجحت فعلاً، فبعد أن تم ذلك الإبدال، انطلق «ليو» liu ومعه «كوتشي» بسرعة وخفة خارج

العاصمة، وبعيداً نحو «فويان»، حيث شرع في تحويل مظهر كوتشي وكلامه إلى المظهر والكلام الصينيين.

وقد نجح «كوتشي» في البقاء بعيداً عن أنظار سلطات المقاطعة، وإلا فإنهم كانوا سيعتقلونه وينفونه لو عرفوا أنه كان هناك، ومع ذلك، فإنه قد مارس نشاطه علناً بدرجة كانت كافية لتحويل أفراد كثيرين هناك إلى المسيحية، وبناء كنيستين أيضاً. لقد كان واثقاً تماماً من قدرته على تحقيق طموحه الذي مفاده أن ينشئ حضوراً بارزاً لطائفة الدومينيكان في «فويان»، وقد وصل به طموحه هذا إلى درجة أنه هو وأتباعه قد نجحوا في ابتكار خطة لتهريب عدد أكبر من المبشرين من «مانيلا»، مرة أخرى عن طريق «تايوان»، وفي هذه المرة أُرسِلَت السفينة من الصين لهذا الغرض، وقد كانت تحمل أربعة من الصينيين المتحولين إلى المسيحية للتأكد من عدم وجود شيء خاطئ في تلك الرحلة. وقد سارت الخطة في خطها المرسوم لها دون أي تعثر أو خطأ، وفي يوليو عام 1633 رَحَّبَ «كوتشي» بوصول اثنين من الكهنة الإسبان (كان أحدهما وهو «جوان دي موراليس»، قد قاد بعثة إرسالية فاشلة إلى كمبوديا) إلى «فويان». ولم يكن ذلك كله ليحدث دون ما كان يقوم به مساعدو «كوتشي»، من الصينيين، من جهود، ومع ذلك فإنهم لم يكونوا ليصبحوا متورطين في تلك الأمور لو كان كوتشي قد فشل في الحصول على ثقتهم وإخلاصهم. بعد ذلك بأربعة أشهر ونصف الشهر، وبينما كان في السادسة والثلاثين من عمره، سقط «أنجلو كوتشي» فجأة مريضاً، ثم مات في المكان نفسه الذي كانت لديه رغبة دائمة في أن يقضي حياته

فيه، ولكن ليس بهذه السرعة.

لقد اختار «كوتشي» مثله مثل «ويلتيفري» ألا يعود أبداً إلى وطنه، وقد عاش هذان الرجلان في قلب ما قاما به من اختيار، على الأقل في البداية، كما أن كليهما بدأ يُكَيِّف حياة جديدة لنفسه في ظروفه الجديدة تلك، أحدهما راهباً، والآخر موظفاً في دار صناعة الأسلحة التابعة للملك. ولم تكن ظروفهما هي فقط الظروف الوحيدة التي عاشها الأوروبيون الذين انتهى بهم الأمر في أرض غريبة بعيدة تماماً عن أوروبا، أو قرروا ألا يعودوا إليها. لقد كانت هناك ظروف أخرى.

فالسفينة «هولانديا» أو «الهولندية»، والتي كان «ويلتيفري» على متنها، كانت قد أبحرت أولاً نحو آسيا، ثم عادت إلى أوروبا عام 1625، بشحنة تحملها من الفُلفُل، وقد اختار اثنان من طاقمها ألا يكملا تلك الرحلة. ونحن نعرف بالفعل بعض المعلومات عنهما؛ وذلك لأنه وبالمصادفة لم يكن هناك شخص آخر سوى «ويليم بونتيكو» هو الذي تولى مهمة قيادة السفينة «هولانديا» في طريق عودتها مرة أخرى، وقد كان «بونتيكو» مثل (مغناطيس) يجذب سوء الحظ، وذلك لأن عواصف عنيفة هبت على تلك السفينة وأتلفتها في أثناء عبورها المحيط الهندي، وعندما وصلت إلى جزيرة مدغشقر، كان عليها أن تتقدم ببطء نحو خليج «سانتا لوتشيا» من أجل إصلاحها وترميمها، وهي عملية كانت تشمل أيضاً على الرفع لدفَلٍ أو صارٍ جديد.

وقد كانت «سانتا لوتشيا» مكاناً لرسو السفن اعتاد بحارة السفن الهولندية أن يستخدموه في مثل تلك المواقف، ومن ثَمَّ فإن أهالي

مدغشقر، والذين كانوا يعيشون حول ذلك الخليج، كانوا على ألفة جيدة بالأوروبيين، وقد أرسل «بونتيكو» بعضاً من رجاله إلى الشاطئ «للحديث مع السكان»، مما يشير إلى أن طرفاً من هذين الطرفين على الأقل كان يتحدث لغة الآخر، وقد وافق أبناء مدغشقر على نزول راكبي السفينة على الأرض لترميم سفينتهم، بل إنهم أيضاً تطوعوا لمساعدتهم في جر قطعة الخشب الكبيرة التي كانوا يحتاجون إليها لصناعة الصاري الجديد، وقد سحبوا تلك القطعة الخشبية معهم من داخل البلاد إلى الساحل، وقد أدى العمل جنباً إلى جنب إلى توليد الألفة بينهم، والأكثر أن طاقم تلك السفينة قد قضى هناك أكثر من ثلاثة أسابيع، «وخلالها كان هؤلاء الرجال يتجولون هنا وهناك بحثاً عن المتعة». وكما صاغ «بونتيكو» هذا الأمر، على نحو مُتَّسِم بالفظاظة، «فإن النساء هناك كن تواقات لإقامة علاقات مع رجالنا»، وقد كان شغله الشاغل الوحيد هو ألا يغيب هؤلاء الرجال كثيراً عن أعمالهم، هذا مع أنه أدرك أن تلك العلاقات الجنسية التي قامت هناك، قد رفعت الروح المعنوية لرجاله، «فعندما كانوا مع النساء» كما لاحظ «كانوا يعودون خنوعين إلى أعمالهم كالحملان الوديعة»، وقد وجد هؤلاء الزوار دليلاً واضحاً على أن تلك لم تكن المرة الأولى التي يقيم فيها البحارة الهولنديون علاقات مع النساء المحليات هناك. فعلى الرغم مما لاحظه «بونتيكو» من أن أهالي تلك البلاد كانوا «في الغالب سود البشرة»، وأن شعرهم «مجعد» مثل صوف «الغنم»، فإنه يبدي ملاحظة أيضاً فحواها «لقد رأينا هناك كثيراً من الأطفال الذين كانوا في الغالب بيض البشرة وكان شعرهم ذو

اللون الأشقر، يتدلى من فوق رؤوسهم»، ولم يكن «بونتيكو» يحتاج لأن يفسر أكثر. لقد وصل طاقم السفينة «هولانديا» هناك بعد عقد من الزمان من وصول الآباء الهولنديين لأطفال مدغشقر من الكرييوليين.

في صبيحة يوم الرابع والعشرين من إبريل، وبينما كانت تلك السفينة تستعد للمغادرة، اكتشف «بونتيكو»، بعد نحو شهر تقريباً من الإقامة المؤقتة في سانتا لوتشيا، أن اثنين من رجاله، وخلال قيامهما بالحراسة الليلية، قد اختفيا. ولم يقم «هايك يوبكنز» H.Jopkins و«جيريت هارمينز» G.Harmenrz فقط بالاختفاء، بل إنهما أخذا أحد القوارب المرافقة للسفينة أيضاً معهما، وقد عَبَّر «بونتيكو» عن ذلك بقوله: إن «يوبكنز» و«هارمنز» قد «هربا نحو النساء السوداوات»، وربما كانت الشواهد المتعلقة الخاصة بعلاقات الرجال والنساء هناك قد شجعت «هايك يوبكنز» على أن يأخذ فرصة في الحياة في ذلك المكان، وألا يعود إلى بيته في «فرايزلاند» Friesland، كما أن تلك العلاقات ربما هي التي شجعت «جيريت هارمينز» أيضاً على ألا يعود إلى عائلته في «نودين» Nodin، وأليس من المعقول حتى أن نفترض أن أياً من هذين الرجلين لم يكن لديه بيت أو عائلة في أوروبا؟ لقد سافرا نحو الشرق منذ سنوات عدة سابقة، وهي فرصة كانت، بالنسبة إلى الكثيرين، الملاذ الأخير، وربما لم يكونا قد امتلكا شيئاً أيضاً حتى يعودا إليه. فلماذا لا يبدآن حياة جديدة في مكان تلوح فيه بعض فرص السعادة، أو حتى مجرد البقاء على قيد الحياة؟

أما «بونتيكو» فقد أرسل فرقة من جنوده لاعتقال من تخليا عن

صحبته وإعادتهما إلى السفينة. لقد كان ما يقومان به من عمل مطلوباً تماماً. وقد حُدِّدَ المكان الذي كانا فيه، في موقع معين. ولكن، ومن خلال تستر أهل مدغشقر، لم يكن ممكناً القبض عليهما، ولم يحقق البحث عنهما شيئاً سوى تأخير مغادرة السفينة «هولانديا» يوماً إضافياً. هكذا تخلى «بونتيكو» عن محاولاته وتركهما كي يعيشا الحياة التي اختاراها.

لم يكن القفز فوق الثقافات بسهولة القفز من فوق السفن، فقد كان يشتمل على التخلي عن اللغة والطعام والمعتقدات وأصول اللياقة الخاصة بمسقط رأس المرء من أجل ما يوازيها في أرض أخرى يتم اختيارها، وقد كانت مثل تلك الأمور مختلفة بالنسبة إلى الأغنياء من البشر، أي هؤلاء الذين كانت لهم حصة مؤكدة في الطريقة التي تُدَارُ بها الأمور في الوطن. أما «يوبكنز» و«هارمينز» فقد كانـا مجرد رجلين فقيرين، وعادة ما تكون الظروف بالنسبة إلى الفقراء هي نفسها إلى حد كبير في أي مكان يوجدون فيه. وقد كان الفقير الهولندي يأكل أنواعاً من الحبوب تختلف عن التي يأكلها الفقير الإفريقي، لكن (النشا) يظل هو المكون الرئيسي في نظام الحمية الغذائي الخاص بهما معاً. إنهما قد يلبسان زياً شعبياً بسيطاً مختلفاً من النسيج الصوفي أو الكتاني، لكن الملابس الخشنة هي نفسها الملابس الخشنة في أي مكان. وقد يصليان هنا لـ«إله» مختلف عن ذلك «الإله» الذي يُصلى له هناك، لكنهما قد عرفا كلاهما أن الحياة الأخرى -أياً كانت- هي أكثر جمالاً من هذه الحياة، التي يتدبران أمورهما الآن، إن كل ما يستطيعانه هو فقط الصلاة والأمل من أجل حياة أفضل.

لقد كان الممثلون القائمون بالأدوار الرئيسة في دراما الهرب هذه،

ليسوا هم الرجال الأوروبيين، مع أن «بونتيكو» قد أعطاهما الأدوار الرئيسة عندما كتب مذكراته. لقد كانت النساء المدغشقريات هن صاحبات الأدوار الرئيسة في تلك الدراما، فلو لم تكن هؤلاء النسوة راغبات في مساعدة الرجلين الهولنديين، «يوبكنز» و«هارمينز»، فإنهما لم يكونا ليحلما بالبقاء في «سانتا لوتشيا». ربما تمكنا من العيش دون علاقات حميمة مع هؤلاء النسوة، بالطبع، لكنهما لم يكونا ليستطيعا العيش دون موارد غذائية، أو دون براعة النساء في إعداد هذا الطعام وتقديمه، وإضافة إلى ذلك كله، هناك أيضاً الموضع الخاص داخل شبكات القرابة والمصاهرة التي تقدمها مثل تلك العلاقات مع النساء لهما.

لقد كانت تلك الحسابات هي نفسها الجارية عبر العالم كله. لقد شجَّع «شامبلين» بالفعل رجاله على أن يتخذوا زوجات من «الهورون»، وقد كان من بينهم من أخذوا زوجاتهم الشرعيات معهم عند عودتهم إلى فرنسا. ولم تكن هناك طريقة أفضل لضمان البقاء على قيد الحياة، من دمجهم بين هؤلاء القوم الذين يستطيعون أكثر من غيرهم تقديم المساعدة لهم في تجارتهم. ومن ناحية، فقد شجب المبشرون الدينيون المسيحيون بشدة مثل تلك الاندماجات العابرة للأعراق والسلالات، ووصموها بأنها لا أخلاقية، أما من الناحية الأخرى، فقد تعجب رجال قبيلة «الهورون» كيف تستطيع نساؤهن أن يتحملن رفاقاً بهذا القبح؟ فكما قال أحد رجال تلك القبيلة بعد أن قابل أحد الرجال الفرنسيين أول مرة: «هل من الممكن لأي امرأة أن تحب حقيقة مثل ذلك الرجل؟»، لكن لم يكن لديهن مبرر آخر للرفض؛ وذلك لأن التجارة على الجانبين

قد استفادت من هذا الأمر، فهذه المصاهرات منحتهم حرية وصول إلى السلع التجارية على نحو تفضيلي أكثر من غيرهم. وقد أطلقت المؤرخة الكندية «سيلفيا فان كيرك» sylvia van Kirk على هاتيك النسوة المحليات لقب «نساء في وضع بينَ بينَ» Women in between، حيث تتوسط هؤلاء النسوة أو يوجدن بين نوعين من التشكيلات الثقافية المختلفة على نحو متمايز، ويكن قادرات من خلال ذلك على الربط بين هذين النوعين من التشكيلات الثقافية، وأن يقمن، أيضاً، جسور العلاقات بينهما، ويستمتعن بنفوذهن ومكانتهن نتيجة لذلك. على كل حال، فإنه وما إن مالت كفة التوازن بين الفرنسيين والسكان المحليين، لصالح الفرنسيين، فإن تلك القناة التي كانوا قد فتحوها فيما بينهم قد أغلقت. ومنذ ذلك الوقت، بدأت النساء الأوروبيات في الوصول إلى «فرنسا الجديدة»، وبأعداد كافية، كي يطردن النساء المحليات من سوق الزواج، ويعدن فرض التمييز العنصري كمبدأ أساسي في المجتمع الكندي.

لقد قامت مثل تلك العلاقات أيضاً على أساس ما سماه المؤرخ الأمريكي «ريتشارد وايت» Richard White «الأرض الوسطى» Middle ground، أي المكان الذي تتقابل فيه ثقافتان، ويكون واجباً عليهما تعلم كيفية التفاعل المناسب بينهما. وتظل نقطة التقاطع المكانية هذه بينهما قائمة ما دام أن إحدى هاتين الثقافتين لا تتوافر لها القوة لقهر الأخرى، وما دامت هذه النقطة باقية، فإن كل ثقافة من هاتين الثقافتين تكون في وضع يُمَكِّنُها من التكيف مع الاختلافات التي بينهما،

وكذلك من المناقشة والتفاوض حول نوع من الوجود المشترك المعقول بينهما، ومن خلال الحرب والتجارة والزواج، حافظ الفرنسيون وقبيلة الهورون على نوع من الأرض الوسطى المشتركة بينهما خلال النصف الأول من القرن السابع عشر. كذلك تشارك أهل جزيرة مدغشقر والهولنديون في مثل هذه الاستراتيجية في «سانتا لوتشيا»، حيث هناك أيضاً، لم يكن أي طرف في وضع يمكنه من فرض إرادته على الآخر، وإلا كان ذلك على حساب قطع العلاقة المفيدة القائمة بينهما. وفي مثل تلك الصلة بين الثقافات، لعب من تقطعت بهم السبل بعد غرق سفنهم، وكذلك الأسرى، أدواراً كثيرة. لقد تعلموا وعلَّموا اللغات، وأعطوا المعرفة، وحصلوا عليها، وأضفوا المعنى الذي استطاعوا الوصول إليه على الأعراف والأفكار التي واجهتهم، ثم قاموا بتفسيرها وتأويلها للجانب الآخر.

لقد اعتمدت هذه الأرض الوسطى على رؤية كل جانب لضرورة الوصول إلى تسوية أو حل وسط مع الجانب الآخر. وفي عام 1611 توافر لدى «شكسبير» نوع من الحدس تكهن من خلاله بهشاشة مثل تلك العلاقات، وخاصة عندما كتب مسرحية «العاصفة» فعلى نحو سريع أكثر مما ينبغي، – وكما تحدث «كاليبان» بشكل غاضب إلى «بروسبيرو»، الربان الأوروبي للسفينة المحطمة، مشيراً على نحو غاضب – فإن ما بدأ كنوع من الرحمة قد تحول إلى عبودية ومحو ثقافي «لقد عاملتني بلطف، وقدمت لي الكثير»، هكذا يُذكّر كاليبان تلك الشخصيةَ المتخيلة، الشخصية الأخرى، لربان السفينة، «بروسبيرو»،

«لقد علمتني اللغة... وماذا استفدت أنا منها، فقط تعلمت أن أسب وألعن». هكذا عبَّرت هذه الشخصية الخيالية التي ابتكرها «شكسبير» عن ذلك اليأس والقنوط الذي شعر به السكان المحليون الواقعيون عندما شعروا بفقدانهم لغتهم وثقافتهم، كذلك تذمر أحد قبيلة الألجونكين شاكياً لأحد المبشرين الفرنسيين، والذي كان قد حول بعض أبناء قبيلته إلى المسيحية، فقال: «إنك أنت الذي قلبت عقولهم وجعلتهم يموتون». وقد تمثلت النتائج المترتبة على التعرض لتلك الثقافات الجديدة في تحول لا يمكن إيقافه، وكما كتب الشاعر الذي ينتمي إلى قبائل المونتاني «أرمان كولار» A.Collard فإنه «حدث الأمر كله على نحو شديد السرعة»، ثم أضاف: «إنه لا يكون لديك متسع من الوقت كي تقوم بردة فعل، ومن ثَمَّ فإنك تخضع لما يحدث»، هكذا ضاقت الأرض الوسطى بما رَحُبَتْ، ومعها ضاقت فرص اللقاء مع الغرباء كأنداد متساوين.

لم يكن الوجود في هولندا من اختيار ذلك الصبي الذي ظهر في لوحة «فان دير بيرش» السابقة الذكر، وكل ما كان يستطيعه هو أن يخضع، وأن يتصور كيف يمكنه أن يدبر أموره في هذه الظروف الجديدة المحيطة به. انظر إليه كيف يقدم نفسه هكذا متخذاً سمت خادم هولندي، إنه يبدو وكأنه تَكَيَّفَ مع الأمر تماماً، ومع ذلك فإن هناك إشارة خفية أو إلماعة في نظرته الصريحة التي ينظر إلينا بها، إلماعة ربما تدل على وعيه بأنه ليس في مكانه الصحيح.

لم يرسم «فيرمير» أي شخص لم يولد في نطاق خمسة وعشرين كيلومتراً حول دلفت، وقد كانت المرة الوحيدة التي اهتم فيها برسم أناس لم يكونوا

هولنديين تماماً، كانت عندما كان في العشرينات المبكرة من عمره، وذلك عندما اضطلع برسم بعض الشخصيات الكلاسيكية والتوراتية التي كان يتوقع في ذلك الوقت من مصور لا يزال يدرس التصوير أن يصورها. وفي الجيل السابق على جيل «فيرمير»، قام «رمبرانت فان ريجن» Rembrandt Van Rijn في أمستردام، و«ليونايرت بريمر» Leanaert Bramer في دلفت، بتحويل المشاهد التوراتية إلى شخصيات مؤثرة بصرياً، فأسَّسَا بذلك أسلوباً لم يكن أمام «فيرمير» الشاب خيار سوى أن يبدأ العمل من خلاله، وقد كان التحدي الأساس الذي واجه مصوري المشاهد المستمدة من الماضي البعيد، خلال القرن السابع عشر، هو كيفية القيام بتكوين تلك المشاهد بطريقة ما تعمل على ردم أو سد تلك الفجوة الطبيعية التي بين العالم الذي يراه المشاهدون حولهم، وبين ذلك العالم الذي قد يمكن أن ينظروا إليه في زمان ومكان آخرين. لقد أراد المصور أن يجعل مشاهديه يشعرون أنهم كانوا هناك، يرون فعلاً ما كان يحدث في ذلك الزمان والمكان. هل كان من الأفضل تحقيق هذا من خلال جعل الماضي التوراتي يبدو شبيهاً بالحاضر الهولندي، أم من خلال جعلهما الماضي والحاضر مختلفين؟ هل كان يمكن استثمار أو تأكيد ذلك المطلب الخاص بالواقعية على نحو أفضل من خلال التحاشي لمثل ذلك الانتحال للشخصيات، وأن تلبس شخصياتك أزياء هولندية معاصرة، وتظل في الوقت نفسه أميناً في التعامل مع التفاصيل المعمارية للمباني؟ فإذا لم يكن الأمر كذلك فهل ينبغي للمصور أن يملأ قماشة رسمه بتفاصيل شرقية التُقِطَتْ من ثقافة تنتمي إلى الشرق الأدنى المعاصر؟ هل كانت هذه

ستكون هي الحيلة الأكثر قوة في جعل المشاهدين يوقفون أو يقومون بتعليق حالة عدم التصديق الخاصة بهم؟[4].

لقد كان المصورون من جيل «بريمر» و«رمبرانت بارعين» في تطويرهم مشهداً مهجناً في لوحاتهم، ينطوي على نوع من الاستلهام للشرق في بعض جوانبه، وعلى نوع من الاحتفاظ كذلك بلمسة قوية من واقعهم في جوانبه الأخرى مألوفة بداخله. أما غريزة «فيرمير» فذهبت به في الاتجاه المعاكس: ألا يبذل أية محاولة لتقديم واقعية تاريخية مستعارة، ولكن أن يترجم اللحظات التاريخية ويحولها إلى الحاضر. فعندما رسم مثلاً المسيح في لوحته المبكرة «المسيح في بيت ماري ومارثا» فإنه صوره مرتدياً ذلك اللباس التقليدي غير المحدد، والذي كان المصورون في عصره يميلون إلى رسم المسيح (عليه السلام) وهو يرتديه، هذا مع أنه رسم «ماري» و«مارثا» وهما ترتديان ملابس تماثل تقريباً ما ترتديه النساء الهولنديات، وكذلك كانت حال تلك الغرفة الصغيرة التي تظر في اللوحة والأشياء متناثرة فيها أو بداخلها، و«ماري» و«مارثا» تجلسان فيها وعيونهما تملؤها الشكوك والريب، لقد كانت تلك الغرفة تشبه غرف البيت الهولندي أيضاً. لقد كان «فيرمير» في سن الثانية والعشرين، وكذلك كان «فيرمير» قد نأى بنفسه فعلاً عن لمسات الشرق الأدنى، والتي كان المصورون السابقون عليه يلجأون إليها. لقد أقلع تماماً عن مثل هذا النوع من النزعة التاريخية الزائفة، ولم يرسم شيئاً بعد ذلك سوى العالم الواقعي الموجود في الحياة اليومية العادية في دلفت.

وإذا كان «فيرمير» قد أقلع عن تصوير المشاهد التوراتية، فإنه لم

يكن يعارض تعليق هذه المشاهد على جدار بيته، كما كان يفعل أرباب وربات البيوت الكاثوليك في هولندا البروتستانتية كي يُذكّروا أنفسهم بتأويلاتهم الأكثر حرفية للعقيدة المسيحية، وقد كان من الأعمال الفنية التي وضعت في قائمة الممتلكات التي عرضت (أو صُفت) بعد موته «لوحة الملوك الثلاثة»، والتي تصور رحلة المجوس أو الملوك الثلاثة إلى بيت لحم من أجل تبجيل المسيح (عليه السلام)، الطفل المولود حديثاً. وقد كانت تلك اللوحة ضمن إرث والدة زوجته، «ماريا ثاينز»، والتي ظلت متمسكة بالمذهب الكاثوليكي، وقد كانت تلك اللوحة معلقة في حجرة الجلوس الرئيسة داخل المنزل، حيث منحها ذلك الموضع مكانة بارزة توحي بأنها كانت لوحة موضوعة هناك، كي تُرى دائماً، ربما بسبب تلك الدلالة التعبدية الخاصة بها (فالانتقادات الشديدة التي وجهها «لوثر» و«كالفن» إلى طائفة المجوس ربما أوحت بنوع من الولاء الديني الخاص من جانب الكاثوليك التواقين كثيراً إلى تأكيد أهمية الرفع من دور التوقير والوقار في أثناء العبادة)، أو بسبب أن تلك اللوحة كانت موضوعاً لنوع ما من القيمة المالية. وحيث إنه ليس هناك شيء آخر يمكننا أن نعرفه حول هذه اللوحة، فدعنا نفترض أنها كانت اللوحة الوحيدة التي لا تزال موجودة من بين كل تلك اللوحات التي رسمها مصورو «دلفت» الذين ينتمون إلى تلك الفترة، وأيضاً أن «فيرمير» قد استطاع وعلى نحو جدير بالتصديق ظاهرياً أن يرى لوحة «ليونايرت بريمر» التي عنوانها «رحلة المجوس الثلاثة إلى بيت لحم» (انظر صورة اللوحة رقم 8).

لقد كان «بريمر» هو الفنان الأكبر في دلفت خلال حياة فيرمير. وقد ولد هناك عام 1595، وأمضى عقداً من الزمن، يتعلم حرفته في فرنسا وإيطاليا قبل أن يعود إلى الوطن عام 1628، ويرسخ في مهنته التي زاولها، فناناً تشكيلياً مصوراً. وقد كان أيضاً فناناً بارعاً في رسم الاسكتشات أو الرسوم المجملة التخطيطية، وقد حوّر مصورو البورسلين في المدينة لوحاته وحولوها إلى مصنوعات خزفية، وقد كان «بريمر» صديقاً لعائلة «فيرمير»، وربما كان قد باع بعض أعماله من خلال والد «فيرمير» الذي كان وسيطاً في بيع الأعمال الفنية. وقد اقترح بعضهم أن «بريمر» ربما كان أول معلم تعلم «فيرمير» على يديه فن الرسم والتصوير، حيث تشير مهارة «فيرمير» الحرفية إلى حصوله على تعليم فني تقني قوي ومركّز، مما يجعل «بريمر»، الذي كان في السابعة والثلاثين من عمره، الأستاذ المرشح المعقول له. وعلى أقل تقدير، أن بريمر الفنان الأكبر سناً، لو لم يكن هو المعلم المباشر للفنان الشاب «فيرمير»، فلا بد أنه كان المرشد والناصح الأمين له؛ وذلك لأنه كان واحداً من وفد يتكون من شخصين فقط قاما بزيارة قصيرة إلى «ماريا ثاينز»، ونيابة عن «فيرمير»؛ كي يسألاها أن تكف عن اعتراضها على زواج ابنتها «كاترينا» بـ«فيرمير» الفنان المصور ذي الثالثة والعشرين عاماً.

رسم «بريمر» لوحة «رحلة المجوس الثلاثة إلى بيت لحم» في ثلاثينيات القرن السابع عشر[5]، عندما كان «فيرمير» لا يزال طفلاً، والشخصيات الرئيسة في اللوحة هي الملوك الثلاثة أو الثلاثة الحكماء، كما نعرفهم الآن، «جاسبار» و«ميلشيور» اللّذَان يقفان على أقدامهما

ويسطع الضوء فوقهما جيداً، ثم «بالتازار» الذي يركب فوق جمل، وفي الظل يتبعهم ثلاثة «ملائكة» في طريقهم إلى بيت لحم. والوقت في اللوحة وقت الغسق، أو ظلمة أول الليل، و«الملائكة» الثلاثة يحملون في أيديهم شعلات مضيئة كي تنير الطريق. ويصاحب المجوس الثلاثة حاشية من الأتباع يتبعونهم في غير نظام خارجين من المكان المظلم الذي خلفهم، وقد ارتدى المجوس أثواباً من الفرو المخطط الباهظ الثمن، وهم يحملون معهم أواني ذهبية بداخلها البخور والمُر اللّذان ذكرها «متى» في إنجيله. والعنصر الوحيد المفقود هنا هو الطفل المسيح عليه السلام. لم يكن هؤلاء الرجال الحكماء الثلاثة قد وصلوا بعد إلى بيت لحم، لكنهم كانوا على مقربة منه.

عندما يحكي كاتب أو مصور قصة، وخاصة قصة دينية، فإنه يختار ما يناسبه من بين كنز كبير من مثل هذه القصص. وفي حالة رسم لوحة معينة حولها، فإنه ينبغي أن يختار أيضاً جانباً واحداً من تلك القصة كي يحكيه، حيث قد يقوم مشهد واحد بنقل القصة كلها ويوصلها. وهكذا فإن «بريمر» عندما قرر أن يمثل ميلاد المسيح عليه السلام، كانت أمامه قرارات كثيرة كي يتخذها، فقد كان يمكنه مثلاً أن يرسم القصة التي في «إنجيل لوقا» حول المَلَكِ جبريل عليه السلام الذي ظهر للرعاة بدلاً من القصة التي في «إنجيل متى» حول ملوك المجوس الثلاثة، أو أنه قد كان يمكنه أن يصور المجوس الثلاثة وهم يقفون وقفة تقليدية ويقدمون خلالها، بدلاً من يصورهم وهم يحملون الهدايا للمسيح عليه السلام وهو في المشهد معهم في طريقهم إلى بيت لحم. ومع التسليم

بالاختيارات التي كان يمكن لـ«بريمر» أن يختارها، فإن علينا أن نطرح ذلك السؤال الذي طرحه المؤرخ لعصر النهضة «ريتشارد تريكسلر» Richard Trexler مرة بعد أخرى في دراسته لتاريخ المذهب الديني الخاص بالمجوس الثلاثة. ما الذي كان يبزغ أو يوشك على الظهور ويتكشف خلال ذلك الوقت الذي سُرِدَت فيه قصة هؤلاء الحكماء الثلاثة؟ وما الذي يقدمه الخطاب الذي تقدمه لنا قصة المجوس هذه؟ وإذا ركزنا على لوحة «بريمر»، فما الذي كان يحاول أن يتحدث عنه عندما اختار أن يصور رحلة المجوس بهذه الطريقة؟ أو، إذا قمنا بالرجوع إلى الأداة أو الوسيلة التي استخدمها عبر هذا الكتاب، فما الأبواب الموجودة في هذه اللوحة؟ ونحو أية ممرات تقودنا هذه الأبواب؟

بالنسبة إليّ، فإن الأبواب الموجودة في هذه اللوحة هي البشر، فعندما رسم ذلك الفنان مشهداً توراتياً من خلال أسلوب واقعي يستلهم الشرق أو يستعيره، فإن هذا الفنان الهولندي قد وجد نفسه مضطراً إلى أن يرسم بشراً، لم يكونوا في الحقيقة هولنديين. وحيث إن «بريمر» لم يكن مهتماً بتحقيق الواقعية عن طريق نقل المشاهد التوراتية إلى مدينة دلفت، فإنه كان عليه أن يزخرف شخصياته ويزينها ببعض التفاصيل المأخوذة، من الشرق، حيث قد تغري هذه التفاصيل المشاهدين بالعودة إلى تلك الأزمنة التوراتية. ولعل اللمسة الأكثر اتساقاً في لوحة «رحلة المجوس الثلاثة»، هي العمامة، وهي صيغة معيارية صالحة للاستخدام دائماً في بناء المشاهد التوراتية، وهناك عمامة بالنسبة إلى كل واحد من المجوس الثلاثة، لكن «ميلشيور» فقط هو الذي خلعها من فوق رأسه،

حيث يحملها بيدهِ يده اليمنى في نوع من التراخي. وإضافة إلى ذلك كله، فإن خادم «بلتازار» الأسود، وكذلك واحد على الأقل من الأتباع يرتدي كل منهما عمامة أيضاً، ومن خلال الإشارة على نحو متزامن للشرق الأدنى المعاصر، وكذلك الماضي البعيد، تمزج العمامة بين الحاضر الشرقي والماضي التوراتي في معارضة فنية pastiche [6] لا تحتاج أن تشغل نفسها بالواقعية التاريخية. لقد استخدم «بريمر» ما يتعلق بارتداء الملابس كي يحقق بعض الأثر المرجو من لوحته، حيث قدم لنا مزيجاً توفيقياً من الأثواب أو الأردية الكنسية والأثواب الشرقية المصنوعة من الفرو المخطط، وكذلك الألبسة غير المحددة التي تبدو واقعية، في حين استثار لدينا الشعور بالمسافة الزمنية والبعد المكاني من خلال وضع ذلك المشهد كله في حقبة تاريخية توراتية[2].

على كل حال، فإنه تحت هذه الأثواب والعمائم، هناك البشر الذين يرتدونها، وهؤلاء هم من ينبغي أن نبدأ منهم كي نكتشف ما كان «بريمر» يحاول أن يعبر عنه عندما أنتج هذه اللوحة، فهناك بشر من أصول متعددة قد أُلقي بهم معاً في رحلة، وهم متوجهون معاً نحو مكان يقصدونه، لكنه لم يظهر أمامهم بعد. وقد تمت الإشارة إلى هذا التنوع العِرْقي أو الإثني الذي في هذه القافلة، وعلى نحو شديد الحيوية من خلال شخصية «بالتازار»، الإفريقي الأسود، لقد تقبل التفكير اللاهوتي ولوقت طويل فكرة أن «بالتازار» قد يكون أسود اللون، لكن التجسيد الفني لهؤلاء الملوك الثلاثة لم يلحق بالجانب اللاهوتي بهم ويدركه إلا في أربعينيات القرن الخامس عشر، عندما بدأ أول عبيد

من إفريقيا يصلون إلى لشبونة، وعلى الفور، بدأ الفنانون الأوروبيون يصورون «بالتازار» الأسود في لوحاتهم، بل إن بعضهم قد رسمه فوق «بالتازار» الأبيض الذي كانوا قد رسموه في لوحات سابقة لهم. في لوحة «بريمر» هذا، من الصعوبة بمكان رؤية ذلك الملك الأسود، لقد تمت إدارته أو ترحيله بعيداً عنا. وهناك خادم أسود يظهر ثاليا في الصورة بعد جمل «بالتازار»، لكنه أيضاً غير مميز أو واضح الملامح، مما قد يعكس نقصاً واضحاً في الأفارقة، في دلفت والذين كان يمكن لـ «بريمر» أن يستخدمهم نماذج للوحته. وربما اضطر إلى أن يرسم هذه الشخصيات من خلال تذكره لهؤلاء الأفارقة الذين رآهم في إيطاليا. أما بالنسبة إلى الملكين الآخرين من ملوك المجوس، فإن «بريمر» قد جعل «جاسبار» ذا الوجه الضارب بالحمرة ويصعب أن يكون غير ذلك يبدو على نحو كامل لا مناص منه، هولندياً (هل كان «بريمر» يعمل ضمن تراث فني أو تقليد يسمح لفنان بأن يصور في لوحته أحد رعاته كواحد من المجوس؟) لكنه قام أيضاً بجعل ذلك الملك الأصلع كَثّ اللحية «ميلشيور»، يبدو غريباً أو دخيلاً، فأسبغ عليه ملامح يمكن أن تُقرأ على أنها يهودية أو أرمينية وهناك اثنان من الأتباع يستجيبان، أو يتوليان أمر حصان ينتصب على قدميه الخلفيتين، وملامحهما هولندية على نحو واضح وكأنهما خرجا على نحو مباشر وبلا تردد ولا روية من إحدى لوحات «رمبرانت»، لكن «الملائكة» ذات البشرة البيضاء تكون هناك غير محددة من حيث انتماؤها العرقي أو الإثني.

هل يفترض منا أو يجب علينا بصفتنا مشاهدين أن نلاحظ كل

هذه التفاصيل؟ فإذا كان جوهر القضية الكلية التي يُوجِّه إليها الفنان مهارته الفنية وبراعته هي جعلنا نعتقد أن ما يحدث في اللوحة هو شيء يحدث فعلاً في الواقع أو قد حدث، فإنه إذن لا يفترض منا أن ننتبه لكل تلك التفاصيل التي يضعها في لوحته. إن آخر ما يريده الفنان المصور الواقعي هو أن يترك أياً من أدواته تثقل المشهد، شخصيته مرسومة بطريقة رديئة، أو تفاصيل عشوائية لا يمكن أن تنتمي إلى ذلك الزمان أو المكان، حيث تعمل مثل تلك التفاصيل على تشتيت خبرة المشاهدة، وتذكرنا بأن ما ننظر إليه هو مجرد صورة ما. لكن أية صورة أو لوحة وليس المنفذ منها بشكل سيء فقط، تكون متصلة بمكان وزمان إنتاجها أيضاً، ولا يمكن لصورة أو لوحة أن تهرب من ذلك التوتر الذي بين ما يحدث داخل الإطار الخاص بها، وما يحدث خارجه في العالم، وهو العالم الذي أولاً وقبل كل شيء، عالم يعيش فيه الفنان والمشاهدون لأعماله، وإن ما كان يحدث في زمن «بريمر»، إنما كان مزجاً غير مسبوق بين البشر، ومن ثَمَّ كانت تلك الأوديسة متعددة الثقافات في لوحته. قد يكون ذلك المشهد توراتياً، لكن ذلك الفنان لم يتخل قط عن خبرته الاجتماعية، ولا عن فهمه العام المشترك عندما قام بتجميع هذه الشخصيات كلها معاً. كما أنه ليس علينا نحن أيضاً أن نتخلى عن عالمنا، وعن خبراتنا الاجتماعية أو فهمنا المشترك، وهذا هو ما يجعل توجيه الانتباه إلى العلاقات الإثنية (العِرقية) للشخصيات التي في اللوحة أمراً يستحق الاهتمام، مع ضرورة أن يخامرنا كذلك الشعور بأن ذلك التنوع في البشر، والذي

نراه في اللوحة، هو تنوع عايشه «بريمر» وعايشه في زمنه أيضاً.

لقد كان الهدف الظاهري من لوحة الملوك الثلاثة هو الاحتفاء بالتعرف والتسليم بميلاد المسيح عليه السلام، وكذلك تعزيز تمسك والتصاق المشاهدين الورع بحقيقة هذا التعرف أو التسليم. هذا هو المعنى الأول لهذه اللوحة. لكن المعنى الثاني، المعنى الباقي للوحة «الملوك الثلاثة»، معنى ينتمي إلى المكان والزمان الخاصين بالفنان الذي أنتجها، ويظل هذا المعنى الثاني أيضاً، يتغير مع استمرار تحركنا وانتقالنا نحن المشاهدين عبر الزمان والمكان، واستمرار نظرنا كذلك، إلى كل تلك الأبواب التي يمكننا أن نفتحها.

إن ما نراه في اللوحة بشر من أصول ثقافية مختلفة، وقد تجمعوا معاً في رحلة عبر منظر طبيعي معتم، متجهين نحو الوعد بمستقبل لا يزال لم يتجلَ بعد أو يظهر، وهو ليس فيما أعتقد وصفاً سيئاً أيضاً لذلك العالم الذي كان موجوداً في القرن السابع عشر. ربما لم يكن ذلك ما كان «بريمر» يقصده، لكنه مع ذلك عاش في عالم واقعي، وفي ذلك العالم الواقعي كانت الحدود المحددة أو الواضحة للثقافات تُخْتَرَق تحت وطأة وضغط تلك الحركة المستمرة الدائمة للبشر. لقد كان البشر يسافرون عبر العالم، بدءاً من هؤلاء النفر القليل من التجار الذين كانوا يتعاملون في سلع عالية الثمن والقيمة عبر مسافات طويلة حتى ذلك العدد الضخم من عمال النقل والمستخدمين الذين يقدمون خدماتهم المختلفة، والذين كانوا جميعاً يجربون ويرتحلون ويشقون طريقهم متابعين أثر تلك الثلة الغنية في حِلِّها وارتحالها.

(هذه هي المعرفة التي يمنحنا إياها استرجاع الأحداث الماضية عندما نفكر في لوحة الملوك الثلاثة المعلقة في حجرة الجلوس الرئيسة في بيت «فيرمير»). إن دافعنا الغَلاَّب لوضع هذه اللوحة داخل السياق التاريخي الأوسع يرسلنا إلى ما وراء مقاصد «فيرمير» تماماً، فربما كان قد علّق هذه اللوحة لغرض تعبدي تماماً، كأن يجعل صيغة أو كاثوليكية من العقيدة المسيحية مرئية على نحو يومي في بيته، مرئية على الأقل بالنسبة إلى والدة زوجته، فإذا كانت تلك اللوحة من عمل «بريمر» فعلاً، فربما كان «فيرمير» قد عَلَّقها تكريماً لمرشده الأمين، ذلك الذي نجح في إقناع «ماريا تاينز» بالموافقة على زواجه أي فيرمير بابنتها، لكن لماذا نقف فقط عند الباب الأول، خاصة عندما تكون هناك معرفة متوافرة لدينا تدفعنا لأن نخطو خطوة صحيحة عبر اللوحة، حتى يتبدى لنا ذلك الجانب الآخر من مدينة دلفت، حيث كان الرجال الذين يرتدون ملابس فاخرة، والذين كانوا قد تاجروا في المعادن النفيسة، والمصنوعات الغريبة (التحف)، والتوابل التي تعادل وزنها فضة، وأحضروا معهم حشداً كبيراً متنوع الأعراق، أشعث أغبر من الأوروبيين والمور والأفارقة، والملايي، وربما بعض أهل مدغشقر الغرباء الذين التقطوهم من «سانتا لوتشيا»، وكل واحد من هؤلاء كان بدوره قد ارتجل وشق طريقه بأفضل ما يستطيع من جهد كي يظل باقياً على قيد الحياة.

هنا، لدينا واحد منهم ينتظر، الآن سيدته التي تُرَفِّهُ عن طالب يدها

وودّها في غرفة علوية في أحد بيوت دلفت، صبي أسود، لم تكن لديه قط نية أن يكون حيث كان موجوداً، هناك، وهو كذلك الذي لن يكتشف أبداً طريقاً للعودة إلى مكانه الذي بدأ فيه حياته، وهو الذي ستنتهي أمر سلالته بالذوبان في المجتمع الهولندي وكما لو أنهم لم يكونوا قط سود البشرة من قبل.

الفصل الثامن

نهايات: لا أحد جزيرة بمفرده



«ليس هناك إنسان هو جزيرة وحده، وليس هناك إنسان كامل بمفرده»، هذا البيت من الشعر مأخوذ من كتاب «صلوات حول ظروف طارئة» Devotions upon Emergent occasions، وهو للشاعر العالم باللاهوت الإنجليزي «جون دَنْ»، John Donne، وقد كتب «دَنْ» هذه التأملات في ضوء الأفكار الرئيسية للعقيدة المسيحية عام 1623، وهو مريض على فراش الموت، وفي وقت كان يواجه فيه العديد من «الظروف الطارئة» في حياته. وقد اشتمل التأمل السابع عشر، وكان عنوانه «ربما كان هو من يُقرع من أجله الناقوس»، على شذرات من كتاب «دَنْ» التي يتم تذكرها اليوم جيداً، ومنها قوله: «لا أحد جزيرة بمفرده» ولم يكن «دَنْ» يهدف إلى رسم صورة خاصة بجزيرة ما هناك، لكنه أخذ هذه الاستعارة وأدخلها داخل رؤية أكثر اتساعاً، جاء فيها، «كل إنسان هو جزء من قارة، جانب من الكل، فلو تآكلت كتلة من طين الأرض بفعل مياه البحر، لكانت أوروبا أصغر حجماً، وكذلك تكون

الحال لو حدث ذلك الأمر لـ «قُنة»[3] جبل. ثم يعود «دَنْ» بعد ذلك إلى الغرض الرئيس الذي من أجله هذه الصورة، ويصرح قائلاً: «كل موت لإنسان يضعفني؛ وذلك لأنني أنتمي إلى النوع البشري وموصول به». وعند نهاية هذا التأمل يعود «دَنْ» إلى ذلك الجرس أو الناقوس الذي يُقْرَعُ، والذي بدأ به، ويقول: «ولهذا لا ترسل أحداً لمعرفة لمن يُدَقُّ الناقوس»، ثم يختم تأمله قائلاً: «إنه يُدَقُّ من أجلك أنت»[1].

عندما كتب «دَنْ» هذه المقطوعة، كان يتأمل حالة الروح، وليس حالة العالم. لقد كان يخشى موته الخاص، ولكن تحت وَقْعِ ذلك الخوف وجد نفسه يكافح أيضاً من أجل المسؤولية الروحية، من أجل رفاهية كل روح مفقودة، وليس روحه هو فقط. وعندما ينظر مؤرخ إلى الخلف، إلى عام 1623، فإن الاستعارة الخاصة بالجزيرة والقارة وهي هنا نوع من الاختيار المردد للصدى الخاص بسكان الجزر الإنجليزية، هؤلاء الذين يكون من بين المهددات التي يستشعرونها، ذلك الخوف من تلك الهجمات التي قد تأتيهم من القارة الأوروبية تقف – هذه الاستعارة – بالنسبة إلى المؤرخ الذي ينظر إلى الخلف، وإلى عام 1623، كبديل أقوى مقارنة بذلك اللاهوت الذي اتكأت عليه أصلاً لدى «دَنْ». واللغة التي اختار «دَنْ» أن يستخدمها هي لغة الجغرافيا، وقد كان مجال الجغرافيا واحداً من أكثر مجالات البحث من حيث سرعة التغير، خلال القرن السابع عشر، وقد قَدَّم له ذلك الاتجاه السائد داخل هذا النظام العلمي في ذلك الوقت الذي كان «دَنْ» يكتب تأملاته،

(3) الجزء المنخفض من الجبل أو هي الجبل الصغير أو الجزء المنبسط منه.

والذي كان يقوم على أساس التجميع لنسق شامل أو عالمي من المعرفة حول المحيطات والقارات التي جذبت انتباه الأوروبيين، ثم التصنيف والرسم للخريطة الأكثر اكتمالاً حتى الآن للعالم، قدم له نموذجاً يفكر من خلاله حول الصلات الروحية التي يمتلكها كل عضو في المجتمع الإنساني مع الآخرين، وهي صلات تمتد نحو الخارج لتضم شبكة عالمية كاملة. ومثلما كان عالم ذلك الشاعر الروحي يمتلئ قلبه بالبشر، فكذلك كان كثير من أرجاء العالم الأرضي أو الدنيوي، تحل أكثر فأكثر، وتظهر على الخريطة، وربما خطرت استعارة الأرض والقارة، على نحو طبيعي، في بال «دَنْ» في تلك اللحظة التي كان الأوروبيون يتحركون خلالها عبر وجه الأرض، في أعداد متزايدة دوماً، ثم يعودون إلى أوروبا أو إلى آسيا جالبين معهم معرفة جديدة، ومن أجل هذا الأمر أيضاً، بدأ رسامو الخرائط خلال القرن السابع عشر، في الصين واليابان، برسم صور جديدة مدهشة لذلك العالم، عام 1623.

كان خيال «دَنْ» مركزاً حول صور أخرى مناسبة لذلك الوقت، فمن بين الصور التي استخدمها في هذا التأمل أيضاً تلك الصورة الخاصة بالترجمة. فقد صرح بأن موته ليس «خُسراناً» أو «فقداناً»؛ لكنه ترجمة للروح إلى شكل آخر، فقد كتب يقول: «عندما يموت إنسان لا يُمَزّقُ فصلٌ من الكتاب؛ لكنه يترجم إلى لغة أفضل، وهكذا ينبغي ترجمة كل فصل من أي كتاب». وحيث إن الموت يأتي في أشكال عدة، فكذلك «يستخدم الله مترجمين مختلفين»، وليس الأمر هكذا فقط، بل أيضاً إن يد الله موجودة في كل ترجمة».

لقد كانت غاية «دَنْ» لاهوتية في المقام الأول، لكنه كان شاعراً أيضاً يفكر من خلال الصور التي أثارت اهتمامه في ذلك العصر الذي عاش فيه. وقد كان المترجم أحد الذين قامت حولهم تلك الصور. وداخل الحيز الخاص بحياة «دَنْ» أيضاً أسس الإنجليز والهولنديون شركات الهند الشرقية، وشركة الهند البريطانية، وشركة الهند الشرقية البريطانية، من أجل الإعداد والإعلاء من شأن الحملات التجارية عبر العالم كله. وكما عبر عن ذلك «بونتيكو» عندما وصل إلى مدغشقر في عام 1625، فإنه حيثما ذهبت سفنهم، فإن البشر الذين على متونها كان «ينبغي لهم الكلام مع السكان القاطنين هناك»، وقد كانت الثروة، بل حتى البقاء على قيد الحياة، يعتمدان أساساً على وجود شخص على متن السفينة يعرف كيف يتحدث إلى السكان المحليين، وقد أكد «دَنْ» أن الله يستخدم مترجمين كثيرين، وكذلك كان على تلك المؤسسات التجارية الكبيرة أن تستخدم أو تؤجر مترجمين كثيرين كي يقوموا بالترجمة والوصل بين الحاجات الخاصة لطرف والمطالب الخاصة بالطرف الآخر، كما أنه كان عليهم أن يتحركوا في أغلب الأحوال، بين لغات عدة في وقت واحد. ولم يكن لعدد المترجمين أن يتزايد إلا مع امتداد الشبكات التجارية وتوسعها، ومع زيادة تعمق تجارتها في أماكن متفرقة من العالم. مع بداية خمسينيات القرن السابع عشر كان هناك أكثر من أربعين ألفاً يرحلون، كل عقد من السنوات، نحو آسيا، وعلى سفن شركة الهند الشرقية الهولندية، كما كان هناك آلاف آخرون يغادرون على سفن تمتلكها شركات أخرى، وقد التقط كثير من المسافرين واحدة

على الأقل من تلك اللغات المبسطة التي تُستخدم للتفاهم بين الشعوب الناطقة بلغات مختلفة، في تلك الأماكن التي ألقت بهم رحلاتهم إليها، وقد تحول كثير من هؤلاء الأفراد إلى مترجمين.

وأحياناً ما أجبرت الحوادث الطارئة بعض البحارة مثل «جان ويلتيفري» على أن يصبح متسماً بالطلاقة في لغة أجنبية، دون أن يكون لديه خيار أبداً في هذا الأمر. أما الآخرون فقد اختاروا فعلاً أن يدرسوا لغة أجنبية بحيث يمكنهم ترجمة لغتهم في سياقات جديدة، فمثلاً عندما عبر المبشر الإيطالي أنجلو كوتشي من تايوان إلى «فوجيان» في نهاية عام 1631، فإنه أخذ مترجماً صينياً معه. وقد كان كوتشي قد درس الصينية فعلاً في مانيلا، لكنه توقع فداحة ثمن الفشل في توصيل رسالته عندما يصل إلى الصين، والذي سيكون، في أقل حالاته ضرراً، ألا وهو: الطرد مُن الصين؛ وذلك لأن الترجمة ليست متعلقة فقط بمعرفة الكلمات الصحيحة الخاصة بالأشياء في لغة أخرى، إنها تتعلق بالنقل الدقيق للأفكار فيما بين لغتين، وتتعلق كذلك بمعرفة كيفية تشكيل التوقعات التي تخلقها الكلمات عامة.

وماذا عن مترجم «كوتشي» الصيني؟ كيف استطاع أن يدرس الإسبانية؟ هل كان أحد المقيمين لفترة طويلة في «باريان» (المدينة التي لا تكف عن المساومة)، والتقط اللغة عن طريق العيش في المستعمرة الإسبانية في مانيلا؟ هل تحول إلى المسيحية وتعلم الإسبانية خلال ذلك المسار الخاص بتعامله مع المبشرين؟ هل درس اللغة الإسبانية فعلاً، أم أنها كانت بالنسبة إليه شيئاً اكتسبه من خلال الاستخدام اليومي لها؟ على

كل حال، انتهى به الأمر وهو يترجم من الإسبانية إلى الصينية، ليس فقط من أجل الإسبان؛ ولكن أيضاً من أجل أحد الإيطاليين، والذي كان قد تعلم اللغة، بدوره، أيضاً، عندما كان في معهد لاهوتي في «سلامنكا». وفي عام 1631، لم تكن أية شركة تجارية أو إرسالية تبشيرية تقوم بعملها دون أن يكون معها «مترجمون كثيرون»، وقد كان كثير منهم ماهراً في الترجمة ما بين لغات عدة.

هناك استعارة أخرى في تأمل «دَنْ» السابع عشر تبرز مهمة في دلالتها بالنسبة إلى القراء في أيامنا هذه، فقد كان «دَنْ» إنساناً تستحوذ عليه الأفكار والمشاعر الخاصة بخطاياه الخاصة، وعلى نحو قهري، وقد سعى من أجل أن يستخدم تلك المشاعر محورَ ارتكاز يثب بواسطته إلى الإيمان. ومن أجل تفعيل هذا التحويل للمشاعر من الأدنى إلى الأعلى، فقد كان ينصح نفسه وقُرَّاءَهُ أن يعكسوا أو يقلبوا القيمة التي يعطونها أو يضفونها على أشياء، مثل الرضا أو القناعة. وكما يُؤَكِّدُ «دَنْ» فمثلاً قد نقول: «الابتلاء كنز، وإنه كلما ازداد مقدار هذا الابتلاء الكنز، كان ذلك أفضل، لكن ذلك الكنز ينبغي أن يوجه أيضاً نحو شيء ذي فائدة». وهنا يفسر «دَنْ» هذا الكنز الابتلاء الذي لم نسعَ وراءه أو نبحث عنه، بأنه كالفضة: «فلو كان إنسانٌ يحمل معه كنزاً من سبائك الفضة أو عروق الذهب، ولم يكن يمتلك أي قسم من ذلك الكنز في شكل أموال من العملات المتداولة في حينه، فإن كنزه لن يفيده في دفع نفقات سفره. والمحنة والبلوى كنز كذلك بحكم طبيعتها، لكنها لا تكون أموالاً متداولة من حيث فائدتها، غير أننا نقترب أكثر فأكثر من

موطننا، أي من السماء، بواسطتها». والشيء الوحيد، كما يقول «دَنْ»، الذي يقنعنا بتحويل سبيكة الفضة الخاصة بالمحنة التي نعانيها إلى عملة معدنية، هو أمر يتعلق بإدراك هذه المحنة دينياً، وهذا الإدراك هو صوت ذلك الجرس أو الناقوس الذي يُدَقُّ، والذي هو نذير الموت.

إن ما هو مثير للاهتمام هنا هو أن «دَنْ» كان عليه أن يفكر في تلك العلاقة الموجودة بين سبيكة الفضة أو الذهب وبين القطع المعدنية المتداولة كعملات، وذلك من أجل أن يصل إلى تلك الاستعارة الخاصة بالمحنة والخلاص من الخطايا! لقد كانت الفضة دائماً تمثل أشكالاً دائمة للمقايضة مع حركتها عبر مناطق تداول العملة حول العالم. ففي بعض المناطق، كالصين مثلاً، كان ينبغي تداول العملة من خلال الشكل الذي أطلق عليه «دَنْ» اسم «المال المتداول». أما في أمريكا الإسبانية، فقد كان من الضروري أن تكون الفضة على شكل العملة الخاصة بالمملكة الإسبانية، وهي الريال. وفي هولندا الجمهورية، وكما رأينا، كان من الممكن تداول عملات ممالك عدة، بدءاً من الريال حتى الجيلدر، اعتماداً على حجم المعروض أو المتوافر منها. وفي المنطقة التجارية الخاصة ببحر الصين الجنوبي، كان من الممكن تداول الفضة من خلال مزيج من السبائك والريالات الإسبانية. وعندما طلب «ويليم بونتيكو» من اثنين من الصينيين في الثامن من إبريل عام 1623 أن يجلبوا بعض الخنازير إلى سفينته، فإنه أعطاهم خمسة وعشرين ريالاً، وقد رحبوا بأخذ هذه العملات المعدنية. ربما كانت السبائك شيئاً جيداً بالنسبة إلى هذين الصينيين، لأن كل ما كانا يريدانه هو الفضة، لكن «بونتيكو» لم تكن معه

سبائك، بل عملات فضية هي الريالات. ومثل كل الدول الأوروبية فإن المقاطعات الهولندية المتحدة منعت استخدام الفضة غير المختومة. من أجل أن تتحكم بمقدار النقود الموجودة في عمليات التداول، فإذا كنت قد أردت تستخدم الفضة التي تمتلكها أولاً وكأنها نقود، في أوروبا، فإنه كان عليك أن تمتلكها في شكل عملات معدنية... وفيما وراء تلك هذه التفصيلات التاريخية، تلوح للعيان الحقيقة البسيطة التي، مع ذلك، مفادها أنه في عام 1623، وعندما كان «دَنْ» يبحث عن الصور التي يعبر من خلالها عن تراكم البلايا والمحن، والذي يمكن أن يدفع الشخص الخَطَّاء نحو التقوى، كانت مادة الثروة القابلة للتكديس اللا محدود، أي الفضة، قد أوحت بنفسها له، وألهمت عقله المحموم.

الفضة والترجمة، هما الجزر المنعزلة والقارات المتصلة. لم يكن «دَنْ» يعرف أنه كان يقوم بتركيب وإطلاق حركة الأبواب الأساسية للقرن الذي عاش فيه عندما أَلَّف ذلك النص، لكنها كانت هناك هكذا: أبواباً تفتح على نحو عَرَضي أو غير رسمي على ممرات تقودنا نحن إلى الماضي الخاص بذلك العالم. ومثله مثل «فيرمير»، فيما أعتقد، كان «دَنْ» مستغرقاً في عملية فهم أو إدراك المعنى المتعلق بوجوده الخاص، إلى درجة أنه لم يجد أي مبرر يحاول من خلاله أن يتخيل كيف سينظر الناس في عصور أخرى إلى عمله. لقد كان هذان الرجلان، فيرمير «ودَنْ»، كلاهما، مشتبكين في صراع مع الحاضر، وقد كان ذلك عبئاً أثقل كاهليهما على نحو كافٍ. لم يكن أحدهما مهتما بإعداد ملف للتاريخ القادم الذي لم يأت بعد بالطبع، ونحن لسنا مختلفين عنهما

في هذا الشأن، فنحن عندما نكون منغمسين تماماً في الحاضر، نكون كذلك غير واعين بتلك الأبواب التي نتركها وراءنا لهؤلاء الذين يأتون من بعدنا، وقد يرغبون في استخلاص معنى عالمهم بأنفسهم وهو عالم لا نستطيع نحن أن نتخيله من خلال التفكير في المكان الذي جاء ذلك العالم من خلاله وتطور.

وإذا كان «دَنْ» قد اُسْتُثِيرَ عام 1623 كي يكتشف أنه ليس هناك أحدٌ هو جزيرة بمفرده، فقد كان ذلك بسبب أنه –وللمرة الأولى– في التاريخ الإنساني كان ممكناً إدراك أنه لم يكن هناك تقريباً، إنسان كذلك، أي جزيرة بمفرده. فلم يعد العالم منذ ذلك التاريخ، سلسلة من المواقع المكانية المعزولة تماماً بعضها عن البعض، وبحيث يمكن أن يحدث شيء في مكان فيها ولا يكون له أدنى تأثير فيما يحدث في مكان آخر. لقد كانت فكرة الإنسانية المشتركة تنبثق في تلك اللحظة، وبازغة معها أيضاً الاحتمالية الخاصة بالتاريخ المشترك[1]. ويعد اللاهوت الذي قام على أساسه إحساس «دَنْ» بالترابط المشترك للأشياء كلها معاً لاهوتاً مسيحياً، لكن مذاهب دينية وعلمانية أخرى كانت قادرة أيضاً على تأييد هذا الاستنتاج ودعمه أيضاً، كما كانت تلك المذاهب مُتَّسِمَة بالكفاءة على نحو مماثل أيضاً في إثارة وعي خاص بوضعنا الخاص المشترك في هذا العالم، وكذلك مسؤوليتنا جميعاً نحوه، فكما هي الحال عبر قارة «دَنْ»، وشبكة «إندرا» أيضاً، فإن كل حفنة تراب، وكل لؤلؤة، كل خسران وموت، وميلاد وتجلٍ أو ظهور، يؤثر في كل شيء آخر يشترك معه في الوجود. إن هذه رؤية للعالم أصبحت، بالنسبة إلى معظم الناس،

قابلة للتخيل على نحو واضح، خلال القرن السابع عشر.

إننا نحتاج، الآن، أكثر من أي وقت مضى، إلى كل تلك الاستعارات التي ظهرت فوق سطح كل أنواع التراث الإنساني، وعبر العالم كله، هذا إذا كان علينا أن نقنع الآخرين، بل أن نقنع أنفسنا أيضاً، بالتعامل الكفء مع المهام التي تواجهنا. إن هذا هو أحد البواعث المحفزة لهذا الكتاب، وهو: أن نعرف أننا بوصفنا جنساً بشرياً نحتاج إلى أن نفهم كيف نسرد الماضي بطريقة تمكننا من الاعتراف والتوصل إلى تفاهم مشترك يتعلق بالطبيعة العولمية لخبراتنا. إن ذلك قد يكون نوعاً من المثال الطوباوي (أو اليوتوبي)[4]، مثال لم ندركه من قبل، وقد لا نصل إليه في المستقبل، ومع ذلك فإنه أمر يتخلل خبراتنا اليومية العادية ويهيمن عليها. وإذا كنا نستطيع أن نرى أن تاريخ مكان بعينه يمكن أن يربطنا بالأماكن الأخرى، ويربطنا كذلك، وعلى نحو جوهري، بالتاريخ الخاص بالعالم كله، فلن يكون أي جزء من الماضي إذن لا محرقة ولا إنجاز، مثلاً، لا يمثل الإرث الجمعي الخاص بنا جميعاً. لقد تعلمنا فعلاً أن نفكر «إيكولوجياً» Ecologically أو بيئياً بهذه الطريقة[2]. وفي حقيقة الأمر، فإن ارتفاع درجات الحرارة في العالم في أيامنا هذه إنما يعكس، وبدرجة معينة، ذلك التأثير المضطرب المُشَتَّت للبرد القارس الذي ساد العالم في أيام «فيرمير»، أي عندما عرف البشر أن التغيرات تجري على نحو نشيط، حتى إنها أثرت في العالم كله. وفي أواخر حياته كان صانع الأسلحة الهولندي الذي نجا من تحطم سفينته وبرع في صناعة الأسلحة بعد ذلك، كان يستعيد ذكريات طفولته

(4) الطوباوية أو اليوتوبي وهما بمعنى واحد يعني: المكان المثالي أو المدينة الفاضلة.

في هولندا، وبينما كان يتحدث إلى صديق كوري له في كوريا، أخبر صديقه الكوري هذا أنه بينما كان صبياً يافعاً، في هولندا، كان هناك قول مأثور يردده الكبار في تلك الأيام التي يلفها الضباب، وعندما كان البرد القارس يخترق مفاصلهم يقول: «اليوم يسقط الثلج من السماء في الصين»، فحتى عندما كان التغير المناخي يقلب العالم رأساً على عقب، كان الناس يستشعرون أن ما يحدث في الجانب البعيد من العالم، لم يعد يحدث فقط هناك، بل أصبح يحدث الآن، هنا أيضاً.

لقد دارت القصص التي حكيناها في الصفحات السابقة حول تأثيرات التجارة في العالم، وفي البشر العاديين. ولكن هناك أيضاً الدولة، تلك التي تأثرت بدورها على نحو قوي بتاريخ التجارة، وأثّرت فيه أيضاً. لقد قامت التجارة والحركة خلال القرن السابع عشر بتقوية شوكة الدولة، على الأقل في أوروبا، حيث تلك الممالك الخاصة بملوكها، والتي ما إن حظيت بولاء السادة المالكين أصحاب الإقطاعيات الذين كانوا متسمين بالعناد والمشاكسة، حتى تحولت إلى كيانات عامة تعمل على خدمة مصالح الشركات الكبرى، كما أنها أصبحت مأهولة بالسكان الذين يجنون ثروات خاصة. ويُعد تكوين الجمهورية الهولندية أحد الأمثلة الخاصة فقط بمثل ذلك التحول، بل إنه حتى في الأقطار التي ظلت ملكية، بريطانيا مثلاً، فإن الحرب الأهلية العنيفة قد تدخلت كي تحول الحاكم المطلق هناك إلى ملك دستوري يحترم المصالح التجارية للمواطنين. ولم تستطع الحكومات مقاومة الاعتماد على القوة الاقتصادية الجديدة الهائلة الخاصة بالشركات

التجارية الاندماجية، فمن خلالها أصبحت تلك الحكومات نفسها أكثر قوة، وأكثر ميلاً إلى السيطرة.

اشتملت معاهدة سلام «ويستفاليا» Westphalia التي عقدت عام 1648، — والتي تعد على نحو مُتَّفَقٍ عليه أنها التي حددت المعالم المميزة لبزوغ نظام الدولة الحديثة— على مفاوضات كثيرة وضعت نهاية للحروب التي دارت عبر فترة طويلة من الزمن فيما بين الدول القوية الجديدة المتنافسة على جانبي ذلك الانقسام الذي نشأ بين الكاثوليكية والبروتستانتية، وكان من بينها حرب الثماني سنوات، والتي نشبت بين إسبانيا وهولندا (أو ما يسمى الأراضي الواطئة)، وهي الحرب التي بمقتضاها فُرِضَ الحظر على دخول الهولنديين إلى ميناء مانيلا.(3)

لقد رسَّخ النظام الجديد معايير لسيادة الدولة، كانت تعد هي الأساس الجديد للنظام العالمي اليوم، فالدول أصبحت هي الفاعلين (الممثلين) الرئيسيين في النظام العالمي، كما أصبحت كل دولة تمتع بسيادة منيعة، فلا تنتهك حرمتها، ولا يكون لأية دولة أيضاً الحق في التدخل بالشؤون الداخلية لدولة أخرى. ولم تعد الدول الآن مجرد إقطاعيات خاضعة على نحو مطلق لملوكها، بل كيانات عامة تقوم بتوزيع الموارد من أجل أهداف وطنية. إن لدينا كل تلك التحولات العالمية التي حدثت في القرن السابع عشر والجديرة بالشكر لفضلها على هذا النظام الجديد، لو كان الشكر واجباً. وقد تمتعت الدول التي أصبحت قوى عالمية بعد معاهدة سلام و«يستفاليا» بمواقع جيدة مَكَّنتها من التمتع بأفضلية في التجارة العالمية، ولم يكن هناك من هو أفضل في هذا الأمر من الجمهورية الهولندية، وقد

قامت بذلك خلال تلك المجموعة الكبيرة من الشركات الاندماجية الاحتكارية العالية التنظيم والتي كانت تتبعها. ومع ذلك، فإنه مع نهاية ذلك القرن، قام الإنجليز بإزاحة الهولنديين جانباً، وأصبحوا هم القوة التجارية العالمية الرئيسية. ويرجع هذا التفوق للإنجليز والتراجع للهولنديين إلى أسباب كثيرة، من بينها غزو فرنسا للأراضي الهولندية في عام 1672، وذلك لأن الفرنسيين كانوا يشعرون بالغيرة من تجارة الهولنديين عبر البحار، فقد أرسل الفرنسيون جيشا برياً إلى الأقاليم الواطئة (هولندا) كان أكبر كثيراً من أن يستطيع الهولنديون رده على أعقابه، وقد تجسد الدفاع الأخير الذي قام به الهولنديون عن أراضيهم في فتح بوابات السدود على الفرنسيين، لكنه كان انتصاراً انتُزِعَ بثمن باهظ جداً لم تستطع الجمهورية الهولندية أن تستعيد قوتها بعده على نحو كامل. وقد قدمت تلك الهزيمة الدعامة التي ساعدت في فتح الباب أمام التوسع الاستعماري البريطاني، مما مكن البريطانيين من التفوق على الهولنديين والتجاوز لهم، فأصبحوا هم القوة التجارية العالمية المهيمنة خلال القرن الثامن عشر.

إن نمو الإمبراطورية البريطانية كان يُعْزَى إلى أمور عديدة ليس أقلها شأناً ما يتعلق بإدخالهم تجارة الأفيون والتي قامت شركة الهند الشرقية الإنجليزية من خلالها بالربط وإقامة الصلات بين سيطرتها الإقليمية على الهند وبين أسواق الصين، والتي كانت تلك الشركة تشتري من تلك الأسواق الشاي، والمنسوجات، كما أن نجاح تلك الشركة ينبغي أن يُرْبَطَ، بعد ذلك، أو تباعاً، بحالة الفراغ في القيادة بشبه القارة

الهندية قرب موت مؤسس إمبراطورية المغول العظيم «أورانجزيب» Aurangzeb في عام 1707. ولعدم وجود أحد بعده في مثل إصراره وشخصيته كي يتمكن من الإمساك بأطراف إمبراطورية المغول كلها معاً في يديه. كانت شركة الهند الشرقية البريطانية قادرة على تدبير أمورها ببراعة ودهاء هناك، بحيث وصلت إلى وضع السيطرة على الهند، ثم، ومن هناك، استطاعت أن تهيمن على التجارة مع الصين. وقد سار الغزو الاستعماري والاحتكار التجارى، جنباً إلى جنب، خلال القرن الثامن عشر، مما منح البريطانيين وضعاً لا منافس لهم فيه في التجارة العالمية.

وقد استمرت شركة الهند الشرقية الهولندية حتى نهاية القرن الثامن عشر، لكن الهولنديين لم يستطيعوا قط أن يستعيدوا ذلك الوضع التجاري الرئيس الذي كان لهم في اقتصاد العالم، والذي تَبوَّؤوه خلال القرن السابع عشر، ثم أكمل انتصار البريطانيين على الفرنسيين في معركة «ووترلو» عام 1815 الهيمنة البريطانية التامة على المكان، ونُفِي «نابليون» إلى جزيرة سانت هيلينه، وبعد فترة طويلة من ذهاب البحارة الذين كانوا يحتاجون إليها كمنطقة توقف في جنوب المحيط الأطلسي. أما تاريخ الدول فقد تعاقب على نحو مختلف في آسيا، مع أنه يمكننا أن نرى نوعاً من الاشتداد والقوة للعمليات الخاصة بالدولة هناك أيضاً، حيث قام كلٌّ من نظام حكم «التوكوجاوا» في اليابان، ونظام حكم سلالة «شنغ» الحاكمة في الصين بتقوية الإدارات الحكومية البيروقراطية التابعة لهما، كما مارسا نوعاً من السيطرة أو التحكم الأكثر صرامة مقارنة بالسلالات الحاكمة السابقة. وفي الحقيقة كان

الأوروبيون متأثرين تماماً بالإدارة الخاصة بنظام أسرة «شنغ» بحيث إنهم اعتبروا الصين نموذجاً مثالياً للدولة البيروقراطية الصارمة، وهذا هو السبب الذي أصبحت من أجله الكلمة التي استعارها البرتغاليون من اللغة السنسكريتية كي يشيروا من خلالها إلى الموظفين الرسميين الصينيين، المصطلح العام الذي يشير إلى موظفي الدولة البيروقراطيين الأقوياء: «الماندرين» Mandaraine، أو كبار الموظفين. وقد استجابت اليابان لذلك الصعود في حالة التجارة العالمية بأن أغلقت حدودها أمام الجميع، ما عدا قلة أُختِيرَت على نحو خاص من التجار الهولنديين والصينيين، ومن ناحية أخرى، فإنها قد اتبعت نموذجاً اقتصادياً يقوم على أساس الاكتفاء الذاتي، وقد سمحت سلالة «دنغ» Ding الحاكمة في الصين بقدر من التجارة البحرية المحدودة عبر «كانتون»، وصعوداً عبر النهر من «ماكاو». لكن أنظار حكام «المانشو» كانت مركزة على التوسع داخل القارة أكثر من اهتمامهم بالقوة البحرية. لقد قامت الإمبراطوريتان، البريطانية والصينية، كلٌّ منهما بمنع الأخرى من التقدم وحصرها داخل مواقع تجارية احتكارية محدودة حتى القرن التاسع عشر، عندما اقتطعت شركة الهند الشرقية الإنجليزية جزءاً مهماً من الاقتصاد السياسي للصين، بأن جلبت إلى «كانتون» سفناً محملة بالأفيون الهندي، فاستنزفت عن طريق ذلك، كميات ضخمة من الفضة إلى خارج الصين، وأمالت ميزان المدفوعات لصالح البريطانيين، ثم جاء عقب ذلك أيضاً تحول في القوة العسكرية. وقد احتاج ذلك الأمر من الصين إلى معظم القرنين الأخيرين كي تشفى من انهيارها، وتسترد عافيتها، وتبدأ في

إعادة بناء نفسها من جديد، ولتصبح قوة عالمية.

دعنا نختتم هذا الكتاب بأن نلتفت إلى الخلف وننظر إلى تلك الشخصيات الثلاث التي التقيناها على طول الطريق، ونتساءل عما حدث بالنسبة إليها: حاكم مانيلا «سبستيان كوركويرا»، ومؤلف كتاب «مبحث حول الأشياء الزائدة على الحاجة»، «ون جن هنغ» Wen zhenheng، ثم مصورنا ومرشدنا عبر هذا الكتاب، «يوهانس فيرمير».

لقد اعتقد الحاكم «كوركويرا» أن انتصاره على الصينيين في مانيلا عام 1640، ينبغي أن يجلب إليه ثقة وتصديقاً ضخماً، ليس فقط بالنسبة إلى منصبه حاكماً، ولكن أيضاً بالنسبة إلى الموارد المالية الملكية هناك، والتي كان مسؤولاً عنها أيضاً، لكن هذا التصديق والمصداقية لم يتحققا، وذلك لأنه ولمدة تصل إلى أربع سنوات قبل تلك الثورة التي قام بها الصينيون هناك، كان «كوركويرا» مشتبكاً في معركة أخرى مع المؤسسة الإكليركية (الكنسية) عن بكرة أبيها في الفيلبين، وقد تمثلت ذروة الشراسة في هذه المعركة في تلك العلاقة الشديدة التوتر بين «كوركويرا» ورئيس الأساقفة في الفيلبين، فقد طرده ذلك الحاكم من هناك أكثر من مرة، وكذلك قام كبير الأساقفة، بالمثل، بحرمان ذلك الحاكم من شرف الانتساب إلى الكنيسة وعضويتها، أكثر من مرة. وفي قلب ذلك الصراع كانت هناك تجارة الفضة، فعلى الرغم من نهر تجارة الفضة الذي كان يتدفق داخل تلك المستعمرة، فإن ذلك الحاكم كان مسؤولاً عن إدارة باهظة التكاليف كانت قد وصلت إلى حالة ميؤوس منها من العجز المالي، وقد تمثل جوهر هذه المشكلة من وجهة نظر

«كوركويرا» في تلك المزايا المالية الضخمة التي تنعم بها الكنيسة الكاثوليكية في الفيلبين، وقد هداه تفكيره إلى أنه لو استطاع أن يختزل هذه المزايا، فإن ذلك سيقلل من العجز المالي الذي تعانيه إداراته، وقد حذره الملك «فيليب» من القيام بأية تغيرات في هذا الشأن، ربما لأنه تذكر أن حاكماً سابقاً قد اغتاله الكهنة لأنه تدخل في الإيرادات المالية المتوقعة الخاصة بالكنيسة هناك.

لم يكن رجال الدين المسيحي راغبين في التعامل مع قمع «كوركويرا» للتمرد الصيني هناك على أنه مبرر للتسليم بمطالبه الأميرية، أي تلك الأموال التي كان يطلب منهم أن تدخل خزينة الدولة، وبدلاً من ذلك، فإنهم استمروا في شن هجومهم المضاد عليه، مؤكدين بإصرار أنه كان هو المسؤول، في المقام الأول، عن قيام تلك الثورة، فالمبرر كما قالوا للمسؤولين في إسبانيا والذي جعل الفلاحين يقومون بتمردهم ذاك كان مرجعه كليةً رغبة «كوركويرا» في زيادة الموارد الملكية. وأنه لو لم يكن متسماً بكل تلك القسوة والخشونة في جمع تلك الموارد، لما وصل الفلاحون إلى مثل تلك الحالات البائسة من العُسر المالي، وكذلك لما شعر الصينيون الآخرون بالمظالم أو الضيْم، واندفعوا في ثورة صريحة واسعة المدى، ولم يكن أعداء ذلك الحاكم من رجال الكنيسة راضين عن القول إنه كان شديد الحماسة في قيامه بوظيفته، لكنهم تمسكوا بدلاً من ذلك بقولهم إنه كان يفعل ذلك من أجل مصلحته الخاصة فقط، وإن القول إن تلك الحملة التي كان يقودها إنما كان مرجعها مسؤوليتهِ عن جمع الأموال لصالح خزينة الدولة، ليس صحيحاً، فقد كانت تلك

مناورة مدروسة منه لإخفاء حقيقة أنه كان أكبر مختلس للأموال هناك. لقد وجد «كوركويرا» نفسه مضطراً، وبسبب النفقات الباهظة لقمع ذلك التمرد، إلى أن يضغط على الناس هناك، ويشق عليهم أكثر كي يجمع أكبر قدر ممكن من الدخل للدولة، وقد كان من بين تلك الحيل التي استخدمها أن ضاعف الثمن الذي ينبغي أن يدفعه التجار الصينيون للحصول على تصاريح التجارة هناك. وقد كان يخطط من خلال ذلك لأن يعاقب التجار الصينيين بسبب مساندتهم للتمرد الذي حدث، لكن خطته تلك انقلبت عليه عندما قام التجار الصينيون أنفسهم بتحويل هذه الزيادة في الرسوم وفرضها على المستهلكين الذين يشترون منهم السلع هناك. ونتيجة لذلك كله، ارتفعت الأسعار في مانيلا كلها، «حيث أصبح الحذاء الذي كان سعره من قبل ريالين، يباع الآن بأربعة ريالات، أو بنصف بيزو» (وتعني هذه الكلمة قطعة تعادل ثمانية ريالات)، وقد عَبَّر المندوب المالي للملك في مانيلا عن تذمره مما يحدث هناك فقال: «إن ذلك كله قد نشأ أصلاً وتفاقم بدءاً من عام 1639، عندما فرضت تلك الزيادة بكل ما تحمله من أعباء على التصاريح العامة»، لقد وضع «كوركويرا» نفسه في وضع بائس؛ وذلك لأنه جعل الإسبان هم الذين يدفعون ثمن انتصاره هناك، وليس الصينيين.

عندما وجد «كوركوير» نفسه عاجزاً عن أن يضع حداً لتلك المعارضة المستمرة الموجهة ضده هناك، فإنه طلب أن يتقاعد من منصبه. ولم يكن في مقدوره أن يفعل ذلك إلا بعد أن يصل البديل الذي عُيِّنَ مكانه؛ وذلك لأنه كانت من مهام الحاكم الجديد أن يراجع حسابات

سلفه، قبل أن يُسْمَحَ له بالرحيل. وحيث إن الكنيسة كانت قد وجهت تسعاً وخمسين تهمة تتعلق بالتقصير، وعدم الصلاحية ضده، فإن مدريد قد قررت في عام 1641 أن «كوركويرا» يجب أن يوضع في السجن إلى حين إعادة النظر من محكمة أعلى في الدعاوى المرفوعة ضده. ولم يصل الحاكم الذي سيحل محله حتى عام 1644، مما ترتب عليه أن «كوركويرا» ظل محتجزاً رهن الإقامة الجبرية، ولمدة سنوات ثلاث، كان خلالها ينتظر المحاكمة. وبعد سنة من مراجعة الحاكم الجديد لأوراق تلك هذه القضية وجد أن «كوركويرا» مذنب في بعض التهم (كما أضيف إلى سجل جرائمه فقدان الإسبان لموطئ القدم الذي كان لهم في تايوان لصالح الهولنديين)، لكنه قام بتبرئته من تهم أخرى، ثم قام بتحويل القضية برمتها إلى مدريد كي تصدر الحكم النهائي بشأنه. وقد كان هناك في إسبانيا، بعض الأنصار المؤيدين لـ «كوركويرا»، ومن ثَمَّ فإنهم قد أطلقوا جولة جديدة من الاتهامات المضادة ضد الكنيسة، فأصبحت الأمور أكثر تعقيداً، ولم تكن تبدو ثمة ملامح حل لقضية «كوركويرا» في الأفق في ذلك الوقت.

من بين تلك التهم التي وصل عددها إلى تسع وخمسين تهمة، والتي وجهت إلى «كوركويرا»، أنه اختلس بعض الأشياء المعدنية النفيسة التي تخص الملك وأرسلها إلى إسبانيا كي يُكَوِّنَ من خلالها ثروة شخصية خاصة به. وقد اشتملت قائمة تلك الأشياء على طبق من الفضة الخالصة، وإبريق وملحقاته، كانت مرسلة كهدية من ملك إسبانيا إلى إمبراطور اليابان على أمل فتح مجال العلاقات التجارية بين البلدين.

لكن الطبق الذهبي والإبريق اختفيا، واتُهم «كوركويرا» بأنه أرسلهما كملكية خاصة به على حمولة السفينة «كونسيبسيون»، والتي كانت مُحَمَّلَة بشحنات تفوق طاقتها وغرقت في «ماريانا» عام 1638، وقد أنكر «كوركويرا» بشدة هذه التهمة. ولم تظهر حقيقة هذا الأمر بعد ذلك،لأنه كان قد منع القيام بإعداد بيان تصنيفي مفصل بشحنة تلك السفينة. وفي النهاية تخلت مدريد عن هذه القضية، وتراجعت عن إدانة «كوركويرا»، واستأنف «كوركويرا» عمله في خدمة الإمبراطورية الإسبانية، وعُيِّنَ حاكماً لقرطبة، وأنهى حياته المهنية وحياته في منصب رفيع حاكماً لجزر «الكاناري».

لم يظهر طبق الفضة ولا الإبريق فوق السطح، في ذلك الوقت، كي يقفا شاهدين يدينان «كوركويرا»، خلال محاكمته لكن بعد ثلاثمائة وخمسين عاماً، ظهر أحد هذين الشاهدين. فعندما كانت مجموعة من علماء الآثار البحرية في ثمانينيات القرن العشرين، يمسحون ويفحصون منطقة الشعب المرجانية التي غرقت فيها السفينة «كونسيبسيون»، وجدوا على أرض المحيط العميقة: الإطار أو الحافة الخارجية الخاصة بطبق ذهبي، ويُعَدُّ هذا أفضل دليل متاح حتى الآن على أن «كوركويرا» كان مذنباً في التهم التي وجهت إليه.

ربما كان بمقدور «ونْ جن هنغ» Wen Zhenhing، الخبير المتمكن في الأشياء الزائدة على الحاجة، الصعود إلى منصب رفيع، مثله مثل «كوركويرا»، لو كان قد تمكن فقط من أن يجتاز بنجاح امتحانات الدولة، لقد كان قد نجح في اجتياز امتحانات الإقليم المؤهلة لما بعدها

في عام 1621، لكنه لم يستطع فيما يبدو أن ينظم كتابته في الصيغ التي أرادها الممتحنون هناك، ومن ثَمَّ فإنه كان مضطراً إلى أن يزيف بعض الأمور، إذا كان عليه أن يكمل طريقه للتعيين في منصب رسمي.

لم يكن عقد العشرينيات من القرن السابع عشر، عقداً ملائماً أو مبشراً بالخير له كي يسعى وراء أي ارتقاء وظيفي بأية حال من الأحوال، ففساد المخصوصين السَّيِّئي السمعة المحيطين بالعرش خنق أية عملية تقدم، وأبطأ من سرعتها، كما أنه لطخ الإدارة هناك بإثاره السلبية، وقد كان على أي إنسان يسعى وراء منصب حكومي أن يتماشى مع تلك الشؤون العامة الجارية، وإلا كان عليه أن يواجه الاتهام بالتقصير وعدم الصلاحية، أو ما هو أسوأ من ذلك.

بعد أن فشل «وِنْ» مرة ثانية في امتحانات المقاطعة عام 1624، خرج من سباق الفئران الخاص بالامتحانات، وحول اهتمامه نحو أشياء أخرى كان يحبها، كالعزف على الآلات الموسيقية، والغناء الأوبرالي على المسرح، ثم تشييد الحدائق في «سوزو»، والتي كانت مركز الثقافة العالية والاستهلاك في نهاية حكم سلالة «منغ». وقد مكنته ثروة أسرته الطائلة من أن يعيش حياة ذلك الإنسان الذي يتذوق الجمال، والذي رفعه «وِنْ» نفسه إلى مرتبة البطولة في كتابه «مبحث حول الأشياء الزائدة الحاجة».

وقد كان هناك شقيق موهوب لـ «وِن» هو: جن مينغ، وقد كان ذلك الشقيق قد تمكن من اجتياز الامتحانات العليا بنجاح عام 1622، وواصل طريقه عبر مسيرة مهنية حكومية بيروقراطية أعادت الشرف والاحترام

إلى عائلة «وِن»، لكنها جلبت إليه نكبة سياسية، عندما قاوم ذلك النفوذ المتزايد لزمرة المخصوصين هناك. وقد مات عام 1636، تاركاً مسؤولية قيادة الأسرة لأخيه «جن هينغ» Zhenheng. وبعد سنة إلزامية من الحِداد والحزن، وجد وِن «جن هنغ» لزاماً عليه أن يتابع مسيرته على المنوال نفسه الخاص بأخيه. وقد حصل على منصب صغير في «بيجين»، ثم إنه في الحال توطدت علاقاته مع الطرف الخطأ من رجال السياسة في البلاط الإمبراطوري، وانتهى به الأمر بعد وقت قصير بأن وُضِعَ في السجن. وبعد سنتين وُظّف كي يخدم مع تلك الجيوش التي كانت تدافع عن الحدود الشمالية لنظام «المنغ» ضد شعب «المانشو». وقد كانت تلك هي سنة 1632، السنة الأسوأ في تاريخ تلك السلالة الحاكمة، حيث كانت قوات «المانشو» تتدفق بأعداد كبيرة على الحدود، وتشن هجمات سريعة مفاجئة على الأرض التابعة للصين، ثم إن الطاعون قد عبر الحدود من «منغوليا» أيضاً، وأَهْلَكَ كثيراً من البشر في شمال الصين، وقد كانت تلك فترة من المرض غير العادي في خبثه وقسوته. ففي بعض الأماكن التي ضربها الطاعون، هلكت قرى بكاملها. لقد نجح «وِن» في أن يروغ من ذلك التعيين الذي حُدِّدَ له ووجد عذراً يمكنه من الانسحاب والعودة إلى موطنه في سوزو في الجنوب. وقد كان منهمكاً هناك في إنشاء حديقة جديدة لنفسه عندما وصل الغزاة من «المانشو» إلى «سوزو» عام 1654. وقد مات خلال عملية استيلائهم على المدينة، فماذا يمكن أن يكون الموضع الخاص برجل مثله في الستين من عمره، أو كان له ذلك الطابع المِزاجي الخاص، في ذلك النظام الجديد؟

إن سيرة حياة وِن «جن هنغ»، هي واحدة فقط من عدد كبير من سِيَرِ الحياة التي يمكن أن تروي للباحثين الصينيين الذين يستثير اهتمامهم ذلك الانهيار الذي لحق بالصين في منتصف القرن السابع عشر.

لقد عانى «يانج شيكونج» yang–shicong، نائب الوزير الذي لاحظ ظهور المدخنين في كل زاوية من شوارع «بيجين»، مصيراً مماثلاً، فلم ينسحب «يانج» من العاصمة عندما فعل «وِن» ذلك عام 1642؛ لقد ظل في وضع جيد حتى جاء ذلك الوقت الذي استولى فيه أحد المتمردين على المدينة ربيع عام 1642، وعندما حاول الإمبراطور الأخير أن يقتل بناته بدلاً من أن يدعهن يقعن في أيدي المتمردين، وُجِدَ بعد ذلك وقد شَنَقَ نفسه على شجرة خلف قصره. أما ابنة «يانج» فقد قامت واثنتان أخريان من محظياته، باتخاذ ذلك الإمبراطور قدوة لهن، وانتحرن، لكن خدم «يانج» منعوه من قتل نفسه، وقاموا بتهريبه خارج العاصمة التي سقطت في أيدي المتمردين؛ وذلك من أجل أن يلحق بجند المقاومة. لقد عاد إلى بلدته، لكنه كان عليه أن يهرب على نحو أبعد جنوباً عندما قامت جيوش «المانشو» بغزو تلك البلدة. ولم تستطع جيوش الغزاة أن تلحق به كما فعلت مع «وِن»، لكن عملاءهم قاموا بذلك في النهاية، ثم اقترحوا عليه أن يتخلى عن ولائه لسلالة «منغ» الحاكمة، وأن يعمل في خدمة النظام الجديد، لكنه رفض العرض الذي قدموه له ومات بعد ذلك، بوقت قصير، في منفى فرضه على نفسه هناك في الجنوب.

ربما كان القرن السابع عشر هو القرن الذي جَمَّعَ شعوب العالم معاً، أما بالنسبة إلى بشر مثل «يانج شيكونج» و«ون من هنغ» فقد كانت

تأثيراته في مكانهما وزمنهما أصعب من أن يحتملاها.

كذلك واجه «جوهانس فيرمير» مشقات في السنوات الأخيرة من حياته، فلم تنعم أسرته من قبل برغد العيش، لكنها كانت قادرة على تدبير أمورها ومواصلة الحياة اعتماداً على بيع لوحات «فيرمير» وأعماله الفنية، إضافة إلى ممتلكات «ماريا ثاينز» (والدة زوجته) واستثماراتها. وعندما قامت فرنسا بغزو هولندا في عام 1672، انهارت سوق الفن التي كان «فيرمير» يعتمد عليها في دفع نفقات ديونه، فقد كان التعامل في الأعمال الفنية بالبيع والشراء أحد حقول التجارة التي تنشط عندما يزدهر الاقتصاد، وقد أَدَّتْ وفرة الأموال وتدفقها داخل الاقتصاد الهولندي إلى دعم إنتاج هذه الأشياء المدهشة «الزائدة عن الحاجة» وتيسيره، وقد أصبح أرباب البيوت هنا مولعين على نحو كبير بتعليق اللوحات الفنية على جدران منازلهم، ومنذ منتصف القرن السابع عشر قاموا بشراء الأعمال الفنية بشكل غير مسبوق من قبل، ولعل هذا هو أحد الأسباب التي جعلت المتاحف الفنية عبر العالم كله تمتلك عدداً كبيراً من اللوحات الفنية التي أنتجت خلال القرن السابع عشر. وفي سبعينيات القرن السابع عشر كان لاختفاء فائض الأموال من اقتصاد «دلفت» أثره الكارثي على الفنانين أمثال «فيرمير»، والذي كان عيشه معتمداً على مبيعات لوحته. وعندما نضب معين عمليات الشراء للوحات أو التكليف من آخرين برسمها، فإن الطريقة الوحيدة التي كانت متاحة أمامه لإعالة أسرته هي أن يحصل على قروض، وآخر قرض سُجِّلَ كان قد قام استدانه من تاجر في أمستردام (ربما كان قد

اشترى مقدماً اللوحات التي سترسم في المستقبل من خلال تقديم عرض بعض الأسعار الخاصة لها)، وقد كان مبلغ ذلك القرض هو ألف جيلدر من الفضة، وهو يعد مبلغاً ضخماً ويصعب رده أو دفعه ثانية، وقد أَدَّى الضغط الذي سببته تلك المشكلات وصعوبات الحياة إلى جفاف معين إلهام «فيرمير». فمن بين اللوحات الثلاث التي ظلت موجودة، والتي تنتمي إلى تلك السنوات الأخيرة من حياته، والتي كانت كلها لوحات حول امرأة منهمكة في عزف الموسيقا، توجد من بينها هناك لوحة واحدة فقط تكاد تقترب في براعتها من أعماله المبكرة الأولى.

وفجأة، وفي الخامس عشر من ديسمبر 1675، وبينما كان في الثالثة والأربعين من عمره، مات «فيرمير»، وبعد عام ونصف من وفاته، تقدمت زوجه «كاترينا»، بالتماس إلى السلطات المحلية في «دلفت» تطلب منهم مساعدتها مالياً، وقد شهدت خلال ذلك الطلب وأثبتت أن موت زوجها إنما كان راجعاً إلى ذلك الانهيار المالي الذي حدث نتيجة لتلك الحرب «المدمرة والطويلة الأمد»، وأن زوجها وجد نفسه غير قادر على بيع أعماله الفنية. وكذلك، فقد أضيف إلى ما لحق به من ضرر، ضرر آخر تمثل في أنه تُرِكَ وحيداً يجلس مع لوحات الفنانين الكبار التي كان يتعامل فيها، بيعاً وشراء، غير قادر على التصرف بها، وبسبب ذلك كله، وكذلك العبء الثقيل الملقى على كاهله والخاص بأطفاله الذين ينبغي أن يعيلهم، ولأنه لم يكن كذلك يمتلك أي شيء، فإنه انحدر إلى تلك الحالة من التدهور والاعتلال، وتأثر بذلك كله مع نحو عميق، إلى درجة أنه بدا عليه كما لو كان أنه قد وقع في براثن

حالة من الجنون المؤقت، وخلال يوم ونصف يوم تحول من إنسان مفعم بالصحة إلى إنسان استسلم للموت، ويُوحِي عنصر المفاجئة الذي أحاط بموت «فيرمير» بأن نوعاً من العدوى المميتة قد أصابته، وجعلت حالته تتدهور، ومع ذلك التفسير المسهب الذي قدمته «كاترينا» لموت زوجها، فإنها ربما كانت على حق في اعتقادها أن حالة الاكتئاب التي أصابته قد أضعفت مقاومته. وإذا كان الأمر كذلك، فإن ما قتل «فيرمير» قد يكون هو الشيء نفسه الذي وهب الحياة ومنحها لمسيرته المهنته في المقام الأول، ألا وهو: موقع دلفت ومكانها في الشبكات الاقتصادية التي امتدت حول العالم. فعندما ازدهرت تلك الشبكات، فإن تلك الروائع الفنية التي أنتجها فيرمير ببراعة ودقة فنية واضحة قد جعلته يكسب الرزق الذي يعول به أسرته، ويوفر الوقت الذي يقضيه كما يحب ويرضى كي يكمل لوحة من لوحاته، أما عندما انهارت تلك الشبكات وضعفت، وأصبحت الطريقة الوحيدة للحصول على الفضة هي من خلال الاستدانة، فإن اليأس والموت وضعا نهاية لحياة «فيرمير» وعمله أيضاً.

تم دفن «فيرمير» في اليوم التالي لموته في الكنيسة القديمة، في مكان ما قريب من الموضع الذي قمتُ بزيارته. ولحسن حظ تلك العائلة أن «ماريا ثاينز» والدة زوجة فيرمير كانت قد اشترت هذا القبر منذ خمسة عشر عاماً عندما كانت عائلة «فيرمير» لا تزال تنعم بقدر من الوفرة المالية المناسبة، فهي لم تكن ترغب قط في أن تجد نفسها على باب الموت دون مكان خاص، ترقد فيه وتستريح، لكن ما لم تتوقعه تلك المرأة هو أن

تجد زوج ابنتها يسبقها إلى هناك، ولم يكن «فيرمير» أول من يذهب إلى ذلك القبر من تلك الأسرة، فقد كان قد دفن وزوجته ثلاثة من أطفالهما هناك، من قبل. وعندما رفع حفارو القبور الحجر المرصوف الموضوع فوق ذلك القبر كي يدفنوا الفنان فيه، وجدوا جسد طفله الذي دفنوه هناك منذ سنتين لا يزال سليماً لم يمسسه سوء، فأبعدوا الجسد الصغير بعنايه ورفق، ثم أنزلوا التابوت المُسَجَّى فيه جسد «فيرمير» إلى داخل القبر، ثم وضعوا الطفل كي يرقد مستريحاً هناك أعلى رأس أبيه، وفي تلك اللحظة قُرعت الأجراس من أجل فيرمير. هكذا كانت الحقبة العظيمة لفن التصوير في «دلفت» قد وصلت إلى نهايتها، ومع ذلك فإن تلك الأبواب التي كانت التجارة والسفر والحرب قد فتحتها، ليس في تلك المدينة فقط؛ بل عبر العالم كله، تبقى أبواباً مفتوحة دائماً.

شكر وتقدير

لم يكن هذا كتاباً بيناً يمكن للشخص المتخصص في التاريخ الصيني أن يكتبه، لكنه كتاب حوى عالم التاريخ كما ينبغي أن يكتب في ضوء الخبرة المتراكمة البارزة، وتعد الصين مكاناً، مثلها مثل غيرها من الأماكن، التي ربما كانت الأفضل منها، لتتبع مسار التغيرات العالمية التي حدثت خلال القرن السابع عشر. وقد ظهرت الفكرة الخاصة بكتابة مثل ذلك التاريخ إلى حيز الوجود في ضوء خبراتي المتراكمة أثناء قيامي بتدريس أحد المقررات حول تاريخ العالم في جامعة ستانفورد وكذلك جامعة تورنتو... وخلال تطور أفكار هذا الكتاب، دُعيت لتقديم بعضها في مركز الدراسات الصينية بجامعة كاليفورنيا بيركلي، ومركز التاريخ الحديث المبكر (الفترة الأولى من التاريخ الحديث) في جامعة مينسوتا، وقسم التاريخ في جامعة مانيتوبا (محاضرة هنري. أ. جاكسون التذكارية)، ومركز الدراسات التاريخية بجامعة ماريلاند، وجماعة الدراسات الصينية بجامعة كولومبيا البريطانية.

لقد حصلت على دعم مالي سخي لهذا المشروع – في جانب منه – من مشروع «العولمة والاستقلال» تحت رئاسة ويليام كولمان بجامعة «ماكماستر»، أونتاريو.

وقد وفرت جماعة «العولمة والاستقلال» أيضاً سياقاً مميزاً للدراسات البينية interdisciplinary في ضوءه استطعت تطوير أفكاري. وقد كنت محظوظاً أيضاً من خلال ذلك الدعم الذي حصلت عليه عبر

سنوات عدة من مجلس البحوث الإنسانية والدراسات الاجتماعية في كندا. وقد أكملت مخطوط هذا الكتاب بينما كنت أتمتع بمنحة زمالة من مؤسسة جون سيمون جوجنهايم التذكارية Memorial.

ومن بين هؤلاء الذين قاموا بتشكيل أفكار وتكوين المنطق الذي سار عليه هذا الكتاب، غالباً دون أن يعرفوا أنهم كانوا يقومون بذلك، أود أن أشكر جوريجوري بلو، وجيم شابلن، وتيم تشيك، وكريج كلوناس، وبول إبريل، وشن إيماي، وكن ميلز، وكن بوميرانز، وريتشارد أونجر، وداني فيكرز، وبن وونج. لإجاباتهم على التساؤلات الخاصة بي حول موضوعات بعيدة من معرفتي الخاصة وخبرتي، كما أشعر بالامتنان لـ«جريج بانكوف، وليام بروكي، وباتريشيا بروكمان، وجيم كاهيل، وتيموثي فرنسيس، وجيوفري باركر، وجيم ستيفنسون، وماجي تشير وهسينغ – يووان تسو Hsing – Yuan Tsau.

كما أكرمتْ سوزان جالاس وفادتي واستضافتني خلال زيارتي لمجموعة «فرايك» في نيويورك كي أشاهد لوحة «الضابط والفتاة الضاحكة» عن قرب في المكان الضيق الذي توجد به، وكذلك إلى إلسي بوكس من Germeente Musea Delft التي زودتني وبمودة بالصور الفوتوغرافية الخاصة بلوحة فان ميرتن، موضوع الفصل الخامس من هذا الكتاب وكذلك أتقدم بالشكر الجزيل إلى إيريك لاينبرجر الذي قام برسم الخرائط الموجودة في هذا الكتاب.

ولا أعتقد أن مثل هذا الكتاب كان سيرى النور، دون الدعم المتواصل من وكيلي الأدبي بيفرلي سلوبن Beverly Slapen وكذلك الناشرين في

دار بلومسبري للنشر، بيتر جانيا وكاترين هندرسون، واليزابيث بيترز، وأتوجه بشكري الأخير إلى فان سيمز بسبب تذكيرها الدائم لي بأنني ينبغي أن أكتب بعض ما أكتبه للقراء مثلها.

ملحق: المنشورات الصينية واليابانية

Advantages and Disadvantages of the Various Regions of the Realm (*Tianxia junguo libing shu*)

A Brief Account of Macao (*Aomen jilue*)

Case Summaries from Mengshui Studio (*Mengshui zhai cundu*)

Collected Writings from Jade Hall (*Yutang wenji*)

Compendium of Archives and Documents on the Macao Question in the Ming-Qing Period (*Ming- Qing shiqi Aomen wenti dang) an wen-xian huibian*)

Compendium of Pictures and Writings (*Tushu bian*)

Comprehensive Gazetteer of Guangdong (*Guangdong tongzhi*)

Comprehensive Gazetteer of Guizhou (*Guizhou tongzhi*)

The Complete Works of Master Jingyue (*Jingyue quanshu*)

The Condolence Collection (*Zhuai ji*)

Continuation of My Record of Extensive Travels (*Guangzhi Yi*)

Dew Book (*Lu shu*)

Diary from the Water-Tasting Studio (*TiVeishui xuan riji*)

Further Deliberations on My Record of Extensive Travels (*Guangzhi yi*)

Gazetteer of Jining Subprefecture (*Jining zhouzhi*)

Gazetteer of Songjiang Prefecture (*So ngjia ng juzhi*)

Illustrated Account of the Eastern Foreigners (*Dongyi tushuo*)

Investigations of the Eastern and Western Oceans (*Dongxi yangkao*)

Jottings from the Hall of Benevolence (*Renshu tang biji*)

Miscellaneous Notes from Zai Garden (*Zaiyuan zazhi*)

Miscellaneous Records from the Wanping County Office (*Wanshu zaji*)

New Standard History of the Tang Dynasty (*Xin Tang shu*)

Notes on Rare Historical Sources from the Ming-Qing Period (*Ming Qing· xijian shiji xuiu*)

Pharmacopoeia of Edible Wild Plants (*Shiwu bencao huizuan*)

A Popular History of Smoking in China (*Zhongguo xiyan shihua*)

Provisional Gazetteer of Shouning County (*Shouning daizhi*)

Questions and Answers. on First Meeting (*Chuhui Wenda*)

Sights of the Imperial Capital (*Dijing jingwu Lue*)

Smoking Manual (*Yanpu*)

Standard History of the Ming Dynasty (*Ming shi*)

Studies in the Early History of the Opening of the Port of Macao (*Aomenkaipu chuqi shi yanjiu*)

Supplement to the Agricultural Treatise, annotated edition (*Bu nong-shu jiaozhu*)

A Survey of the Age (*Yueshi bian*)

The Swords of Canton (*Yuejian pian*) *Tobacco* Manual (*Yancao pu*)

Toward a History of the National Language: A Festschrift in Honour of Professor Doi Tadao (*Kokugoshi e no michi: Doi sensei shoju kinen ronbutshu*)

Treatise on Superfluous Things, annotatd (*Zhangwu lun jiaozhu*)

Twilight Tales of Nagasaki (*Nagasaki yawagusa*)

Unedited Records of the Chongzhen Reign (*Chongzhen changbian*)

Veritable Records of the Tianqi Reign of the Ming Dynasty (*Ming Zizong Shilu*)

The Woof of the Earth (*Di Wei*)

القراءات المقترحة والمصادر

يقدم لنا ثبت المراجع هذا سجلاً بالمصادر التي أعتمدت عليها في أثناء كتابتي لـ«قبعة فيرمير»، وهو يشتمل على المصادر الأصلية من القرن السابع عشر وكذلك الدراسات التالية التي كتبها الباحثون في القرن العشرين. وقد تم ذكر المصادر الموجودة في الكتاب بلغات آسيوية أولاً، 0مصحوبة بترجمة إنجليزية لعنوان كل مصدر ثانياً. وبالنسبة لهؤلاء الراغبين في المزيد من القراءات حول بعض الموضوعات الواردة في هذا الكتاب والتي تم مسها مساً خفيفاً بسبب عدم الحاجة للتنقيب الأعمق في الإشارات التفصيلية الخاصة بها؛ فإنني أوصي بالكتب الثمانية التالية:

Anthony Bailey's Vermeer: A View of Delft (New York: Henry Holt, 2001)

فهو ترجمة عميقة غنية ليوهانس فيرمير وأيضاً

John Michael Montias's more scholarly Vermeer and His Milieu: A Tif1eb of Social History (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1989)

فهو يفحص على نحو شامل كل دليل استطاع المؤلف – وهو مؤرخ للاقتصاد – أن يكتشفه حول حياة فيرمير في دلفت. إن هذا الكتاب أشبه بحلم لمؤرخ.

وبالنسبة للمقالات الممتعة القصيرة حول تاريخ السلع الأساسية والأسواق العالمية خلال الخمسمائة سنة الماضية، انظر:

Kenneth Pomeranz and Steven Topik, The WOrld That <Trade Created: Society, Culture, and the World Economy> 1400 to the Present (Armonk, NY: M. E. Sharpe, 1990).

وحول الصين تحت حكم سلالة المينغ يقدم المؤلف الحالي تاريخاً اجتماعياً وثقافياً عريضاً لتلك الفترة في كتابه:

The Confusions of Pleasure: Commerce and Culture in Ming Society (Berkeley: University of California Press, 1998)

وقد اعتمد كريج كلوناس إلى حد كبير على دليل الرقابة التي كتبه تشن هنج وذلك من أجل تحليل ثقافة المصنع، انظر كتاب كريج كلوناس:

The <Treatise on Things> Superfluous Things to analyze Ming Culture in his book: Material Culture and Social Status in Early Modern China (Cambridge, MA: Polity, 1991).

ويظل أكثر التفسيرات أهمية بالنسبة لتاريخ إرسالية الجيزويت التبشيرية في الصين خلال حكم المنغ هو:

Jonathan Spence, The Memory Palace of Matteo Ricci (Harmondsworth: Penguin, 1985).

ويعد الكتاب التالي:

Marc and Muriel Vigie's L'Herbe a Nicot: amateurs de tabac, fermiers generaux et contrebandiers sous l'Ancien Regime (Paris: Fayard, 1989)

تاريخاً ثقافياً ممتعاً حول التدخين في القرن السابع عشر.

ومن أجل استكشاف وفحص هذا الموضوع في اللغة الإنجليزية أنصح بالكتاب التالي:

V G. Kiernan, Tobacco: A History (London: Hutchinson Radius, 1991).

والاقتباس الذي قدم به الكتاب مأخوذ من:

GARY Tomlinson, Music in Renaissance Magic Toward a Historiography of Others (Chicago: University of Chicago Press, 1999), p. 20.

Chapter 1

The view from delft

بدأت معرفتي بـ«فيرمير» من خلال:

Ludwig Goldscheider, Vermeer (London: Phaidon, 1958, 1967).

وحول حياة فيرمير وأعماله، فبالإضافة إلى كتاب:

John Montias's Vermeer and His Milieu and Anthony Bailey's Vermeer,

فقد استفدت من قراءاتي للمصادر التالية:

Gille Aillaud, Albert Blankert, and John Montias, eds., Vermeer (Paris: Hazan, 1986); Arthur Wheelock, Vermeer and the Art of Painting (New Haven, CT: Yale University Press, 1995), and his edited volume,] ohannes Vermeer (Washington, D. c.: National Gallery of Art, 1995); Ivan Gaskell, Vermeer's):luzger:

Speculations 0/1 Art History Theory and Art Museums (London: Relation Books, 2000); Wayne Franits, The Cambridge Companion to Vermeer (Cambridge: Cambridge University Press, 2001); and Bryan Jay Wolf, Vermeer and the Invention of Seeino (Chicago: University of Chicago Press, 2001); also the Web site http://www.essentialvermeer.com.

وحول الأراضي الواطئة خلال حياة فيرمير انظر:

Jonathan Israel, The Dutch Republic: Its Rise, Greatness, and Fall, 1477-1806 (Oxford: Oxford University Press, 1995): see p. 621 for population figures..

وحول تاريخ الفن والثقافة الهولندية في القرن السابع عشر انظر:

E. de Jongh, Questions of Meaning: Theme and Motif in Dutch SeventeenthCentury Painting, trans. Michael Hoyle (Leiden: Primavera, 2000); and David Kunzle, From Criminal to Courtier: The Soldier in Netherlandish Art 155 -1672 (Leiden: Brill, 2002). On Delft's history, see Ellinor Bergrelt, Michie! Jonker, and Agnes Wiechmann, eds., Schatten in Delft: burgers verzamelen 1600-1750 [Appraising in Delft: Burghers' Collections, 1600-1750 (Zwolle: Waanders, 2002); and John Montias, Artists and Artisans in Delft: A Socio-Economic Study of the Seventeenth Century (Princeton, N]: Princeton University Press, 1982).

وحول حديقة يويووان في شانغهاي انظر:

Gazetteer of Songjiang Prefecture [Songjiangfuzhi], (1630), 46.59b.

الجزء الخاص بالتصوير كألغاز محيرة مأخوذ من:

James Elkins, My Are Our Pictures Puzzles? On the Modern Origins of Pictorial Complexity (New York: Routledge, 1999).

والمنظر من دلفت معروض في:

Epco Runia and Peter van der Ploeg, In the Mauritshuis: Vermeer (Zwolle: Waanders, 2005), pp. 42-59;

ومناقشتهما لأنماط القوارب وخاصةً ما بين صفحتي 48–49 مفيدة جداً. ومن أجل الحصول على نظرة طائر حول خريطة شركة الهند

الشرقية الهولندية في القرن السابع عشر انظر:

H. L. Loutzager et al., De Kaart Figuratief van Delft [A Pictorial Map of Delft] (Rijswijk: Elmar, 1997), pp. 177, 197.

وحول ارتباطات دلفت بالعالم الأوسع انظر:

Kees van der Wiel, «Delft in the Golden Age: Wealth and Poverty in the Age of Johannes Vermeer,» in Dutch Society in the Age of Vermeer, ed. Donald Haks and Marie Christine van der Sman (The Hague: Haags Historisch Museum, 1996),pp. 52-54.

وحول العصر الجليدي الصغير والتحول في صيد سمك الرنكة، ومشاهد بروجل الشتائية، والصقيع الذي قتل أشجار البرتقال في الصين انظر:

H. H. Lamb, Climate, History and the Modern World (London: Methuen, 1982), pp. 218-23,227-30.

والبيانات حول تجمد القناة في هولندا قام بتصنيفها:

Jan de Vries, appear in H. H. Lamb, Climatic History and the Future (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1985),p. 476,n. 1.

وحول الطاعون انظر:

William McNeill, Plagues and Peoples (New York: Doubleday, 1976).

وقد ذكرت فترات الطاعون في أمستردام بعد عام 1587 في:

N. W Posthumus, Inquiry into the History of Prices in Holland (Leiden: Brill, 1946), vol. 1, p. 641.

وبالنسبة لفينيسيا انظر:

Carlo Cipolla, Fighting the Plague in Seventeenth-Century Italy (Madison: University of Wisconsin Press, 1981), p. 100.

وتقديرات أعداد الهولنديين الذين غادروا هولندا مأخوذة من:

Jaap Bruijn, Femme Gaastra, and I. Schaffer, Dutch-Asiatic Shippin~fI in the 17th and 18th Centuries (The Hague: Martinus Nijhoff, 1987), vol. 1, pp. 143-44.

أما المعلومات حول أبناء عمومة فيرمير الموجودين في الشرق الأقصى فمذكورة في:

Montias, Vermeer and His Milieu, p. 312.

والمقتطفات المأخوذة عن فرنسيس بيكون مأخوذة من:

Joseph Needham, Science and Civilisation in China, vol. 1 (Cambridge: Cambridge University Press, 1954), p. 19.

وحول أثر الأسلحة في التغيرات التي طرأت على القرن السابع عشر انظر:

Jack Goody, Capitalism and Modernity: The Great Debate (Cambridge: Polity, 2004), pp. 77-78.

وحول الانتقال عبر الثقافي انظر:

Fernando Ortiz, Cuban Counterpoint: Tobacco and Sugar (1940; repro Durham, NC: Duke University Press, 1995), pp. 98,103.

والتأثيرات الأوروبية الخاصة على الفن في عصر المينغ اقترحها:

James Cahill, The Compelling Image: Nature and Style in Seventeenth-Century Chinese Painting (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1982), pp. 82-86; and Richard Barnhart, «Dong Qichang and Western Learning-a Hypothesis,» Archives of Asian Art 50 (1997-98), pp.

وحول التأثيرات الصينية على فيرمير انظر:

Bailey, Vermeer, p.177.

والدراسات حول اللآلىء في فن فيرمير موجودة في:

Runia and van der Ploeg, In the Mauritshuis: !/ermeer, pp. 66-67. On Chinese taste in pearls, see Gu Yanwu, Advantages and Disadvantaoes if the various Regions the Realm |Tianxia jUll,fIUO libing shu] (1662) (Kyoto: Chiibun shuppansha, 1975), 29.126a;

وانظر أيضا:

Sung Ying-hsing, Chinese Technology in the Seventeenth Century, trans. E-tu Zen Sun and Shiou-chuan Sun (University Park: Pennsylvania State University Press, 1966), p. 296.

جاءت تعليقات سونغ ين شنغ في مقدمته لكتاب:

Sung Yinghsing, Chinese Teclmolhgy in the SevC11teC11th Century, p. xi.

أما المقتطفات الخاصة بويليم شوتن فقد ظهرت في:

to Willem Schouten appears in Willem Y sbrantsz Bontekoe, Memorable Description of the East Indian Voyage, 1618-25, trans. Mrs. C. B. Bodde-Hodgkinson and Pieter Geyl (New York: Robert M. McBride, 1929), p. 157. The Chinese comment of 1609 is quoted in my Confusions of Pleasure: Commerce and Culture in Ming China, p. 153.

Chapter 2.

Vermeer's hat

حول قبعة فيرمير انظر:

Wheelock, Vrmeer and the Art of Painting, p. 58.

وحول استخدام فيرمير للخرائط انظر:

James We1u, «Vermeer: His Cartography,» The Art Bulletin 57:4 (Dec. 1975), pp. 529-47; Evangelos Livieratos and Alexandra Koussoulakou, «Vermeer's Maps: A New Digital Look in an Old Master's Mirror,» e-Perimetron 1:2 (Spring 2006), pp. 138-54.

ومن أجل إلقاء نظرة أولى حول عائلة بالتازار وفان برنكورد من رسامي الخرائط:

Edward Lynam، «Floris Balthasar، Dutch Map—Maker and His Sons،» Geographical Journal 67:2 (Feb. 1926)، pp. 148—161.

والمصدر الأول للمعرفة هو تفسير صمويل شامبلين الخاص الذي نشره عام 1613 ثم ثانية مع تعديلات طفيفة في 1632 وقد ظهر الأول في لغتين في:

The Works Samuel de Champlain, ed. H. P. Biggar (Toronto: University of Toronto Press, 1922), vol. 2, pp. 65--107; the second is in vol. 4, pp. 80-105.

وباستثناء الصفحات الأولى الموجودة في صفحات 97—99 المجلد الرابع فإن كل الاقتباسات المباشرة مأخوذة من شامبلين وبخاصة الفصل الذي كتبه حول هذا الأمر في المجلد الثاني مع تغييرات طفيفة لاستبعاد غير المناسبة.

وقد تم وصف الصراع الذي حدث في 1609 على نحو كامل في كتاب:

Bruce Trigger, The Children of Aataensic: A History of the Huron People to 1 GGO (Montreal: McGill-Queen's University Press, 1976),

ch. 4.

ومن أجل قراءة الدراسات العلمية الحديثة حول شامبلين انظر:

Champlain: The Birth of French America, ed. Raymonde Litalien and Denis Vaugeois, trans. Kathe Ross (Montreal & Kingston: McGill-Queen's University Press, 2004).

وبينما كنت أنتهي من هذا الكتاب سررت عندما اكتشفت أن كريستيان موريسينو في دراستها «Champlain's Dream» قد وصلت إلى ما وصلتُ اليه أنا نفسي حول مكانة الصين في حسابات شامبلين.

وحول وجهة نظر أوليف ديكاسون القائلة أن عام 1609 كان لحظة حاسمة في تاريخ العلاقة بين السكان الأصليين والبيض انظر:

Canada's First Nations: A History of Founding Peoples froI'11 Earliest Times (Toronto: McClelland and Stewart, 1992), P: 122.

وبالنسبة لوجهة النظر المتشككة في دلالة هذا الأمر انظر:

W J. Eccles, The Canadian Frontier, 1534-1780 (rev. ed., Albuquerque: University of New Mexico Press, 1983), p. 25.

وحول شامبلين وأحزمة الوامبم، انظر:

Tehanetorens, «Wampum Belts» (Onchiota: Six Nations Indian Museum, 1972; Ohsweken, Ont.: Iroqrafts, 1993), pp. 11, 59.

وبالنسبة للأسماء والكلمات الهندية، قمت بشكل عام باتباع الاستخدامات الموجودة في:

The Cambridge History of the Native Peoples of the Americas, ed. Bruce Trigger and Wilcomb E. Washburn (Cambridge: Cambridge University Press, 1996), vol.

أما بالنسبة للأصول الفقهية اللغوية للأسماء فمأخوذة من:

John Steckley, Beyond Their Years: Five Native Women's Stories (Toronto: Canadian Scholars' Press, 1999), pp. 15-16,63,243-45.

وحول تاريخ بندقية القربينة، انظر:

Carl Russell, Guns on the Early Frontiers: A History of Firearms from Colonial Times Through the Years of the Vliestern Fur Trade (Berkeley: University of California Press, 1957; Lincoln: University of Nebraska Press, 1980), pp. 1-18.

وقد عولج التاريخ المبكر للأسلحة في اليابان في:

Noel Perrin, Giving Up the Gun Japan's Reversion to the Sword, 1543-1879 (Boston: David Godine, 1979), pp. 5-31.

والطلب على الأسلحة الهولندية مذكور في:

C. R. Boxer,Jan Compaonu: in Japan, 1600-1850 (The Hague: Martinus Nijhoff 1950), p. 26.

وحول التعذيب في الثقافات المحلية الأصلية انظر:

Georg Priederici, Gabriel Nadeau, and Nathaniel Knowles, Scalping and Torture: vVcufare Practices AnlOng North American Indians (hsweken, Ont.: Iroqrafts, 1985).

وملاحظة جورج سيوي مأخوذة من كتابه:

For an Amerindian Autohistory: An Essay on the Foundations (of a Social Ethic (Montreal & Kingston: McGill-Queen's University Press, 1992), p. 52.

وحول تاريخ قبعات القندس انظر:

Hilda Amphlett, Hats: A History of Fashion in Headoear (1974), pp. 106-109; Bernard Allaire, Pelleteries, manchons et chapeaux de castor:

les fourrures nord-americaines a Paris Fur Trade, Muffs and Bearer Hats: North American Furs in Paris) (Quebec: Septentrion, 1999).

وحول تجارة الفرو:

Harold Innis, The Fur'Irade in Canada (Toronto: Umversity of Toronto Press, 1956); Paul Phillips, The Fur Trade (Norman: University of Oklahoma Press, 1961); Raymond Fisher, The Russian Fur Trade, 1550-1700 (Berkeley: University of California Press, 1943).

و تدمير المواطن الطبيعية في القرن الخامس عشر في أوروبا مذكورٌ في:

David Levine, At the Dawn of Modernity: Biolo2,y, Culture, and Material Life in Europe After the Year 1000 (Berkeley: University of California Press, 2001), pp. 153-55.

وقد رد ذكر خطاب الملكة إليزابيث لإمبراطور الصين في:

Morissonneau, «Champlain's Dream,» p. 260.

وحول سعي شامبلين للوصول إلى مياه مالحة عام 1603 انظر:

Works of Samuel de Champlain, vol. 1, pp. 156-62.

وخرائط شامبلين مع الفحص الدقيق لها موجودة في:

Conrad Heidenreich and Edward Dahl, «Samuel de Champlain's Cartography,» in Champlain: The Birth of French America, pp. 312-32; see also Christian Morissonneau, «Champlain's Place-Names,» op. cit., pp. 218-29.

وقد تكرر ذكر التفسير المعترف به لرحلات جان نيكوليه (وتنطق أيضاً Nicolet) بينما تمَّ ذكر ركوبهِ القوارب على نحو متكرر في طريقة إلى الخليج الأخضر في كتابي:

Confusions of Pleasure, p. xv.

ولكني الآن أتقبل التصحيح القائل إن نيكوليه قد ذهب إلى بحيرة نيبيغون وليس إلى الخليج الأخضر وكما أقترح ذلك جيتان جيرفيه في كتابه:

«Champlain and Ontario (1603-35),» in Champlain: The Birth of French America, P: 189.

من أجل قراءة ما يتعلق الخرائط المبكرة التي كانت تسمى خليج جرين باسم خليج puans انظر:

Derek Hayes, Historical Atlas of the United States (Vancouver: Douglas & McIntyre, 2006), pp. 38,41, 90,92,94.

ورد ذكر الاتصالات التي تمت بين الوينباغو عقب الوباء الذي حدث هناك في:

Wilcomb Washburn in The Cambridge History of the Native Peoples qf the Americas, vol. 1, pt. 2, p. 409.

وحول لقد «كانت هناك أثواب فخمة، مطرزة، ومزخرفة بنسيج من الذهب ملونة أيضاً بألوان جميلة» أنظر:

For «glorious Vests, wrought & embroidered on cloth of Gold,» see John Evelyn, The Diary c:f John Evelyn (Oxford: Claendon, 1955), vol. 2, pp. 460-61, writing of what he saw in 1664.

De la Franchise's poetic dedication to Champlain's On Savages of 1603 appears in VliOrks of Samuel de Champlain, vol. 1, p. 86.

Chapter 3.

A Disli Of Fruit

معظم المعلومات حول السفينة الأسد الابيض مستمدة من التقرير الخاص بانتشالها من:

the Groupe de Recherche.Archeologique SousMarine Post-Medievale, The Ceramic Load oj the (Witte Leeuw' (1613), ed. C. L. van der Pijl-Ketel (Amsterdam: Rijksmuseum, 1982). The price of pepper is from Posthumus, Inquiry into the History oj Prices in Holland, vol. 1, p. 174.

والمعلومات حول رجلات سفن شركة الهند الشرقية الهولندية مأخوذة من:

Bruijn, et al., Dutch-Asiatic Shipping, vol. 1, pp. 74,86,89,91,188, 192; vol. 2,pp. 12, 18,22, 26; and vol. 3,pp. 8,12-13,16-17.

وموجودة أيضاً في الموقع الإلكتروني:

A complete catalog VOC ships is available online at www.vocsite.net schepen.

هناك مُصَنَّفٌ كامل حول سفن شركة الهند هو:

A. R. Disney, Twilight of the Pepper Empire: Portuguese Trade in Southwest India in the Early Seventeenth Century (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1978), p. 172. Van der Pijl-Keter identifies the Nossa Senhora do Monte da Carmo as the Nessa Senhora de Conceicdo,

والمعلومات حول التجارة البحرية الهولندية مأخوذة من:

C.R.Boxer,The Dutch Seaborne Empire:' 1600-1800 (New York: Knopf,

1965), pp. 22-25; Kristof Glamann, Dutch-Asiatic Trade} 1620-1740 (1958; rev. ed., Gravenhage: Martinus Nijhoff, 1981), pp. 16-20, 57-59, 112-18, 134, 153; Els Jacobs, In Pursuit of Pepper and Tea: The Story ~l the Dutch East India Company (Amsterdam: Netherlands Maritime Museum, 1991), pp. 11-12, 51-53, 73-74, 84-95; Dietmar Rothermund, Asian Trade and European Expansion in the Age of Mercantilism (New Delhi: Manohar, 1981), especially pp. 27-30; and Niels 5teensgaard, The Asian Trade Revolution oj the Seventeenth Century: The East India Companies and the Decline of the Caravan Trade (Chicago: University of Chicago Press, 1973), pp. 101-113. The dose to 3 percent growth rate in Dutch imports is given in Kevin O'Rourke and Jeffrey Williamson, «After Columbus: Explaining Europe's Overseas Trade Boom, 1500-1600,» journal oj Economic History 62:2 (June 2002), p. 419. The Wapen van Delft voyages are noted in A. J. H. Latham and Heita Kawakatsu, eds.,japanese Industrialization and the Asian Economy (New York: Routledge, 1994), app.2.1.

وقد تم استكشاف التأثيرات الخاصة بهذه التجارة في:

Violet Barbour, Capitalism in Amsterdam in the 17th Century (Ann Arbor: University of Michigan Press, 1963), pp. 35-41; and Om Prakash, «Restrictive Trading Regimes: VOC and the Asian Spice Trade in the Seventeenth Century,» in Emporia, Commodities and Entrepreneurs in Asian Maritime Trade} c. 1400-1750, ed. Roderick Ptak and Dietmar Rothermund (Stuttgart: Franz Steiner, 1991), pp. 107-126.

وحول الأسد الأحمر في اليابان عام 1609 انظر:

Boxer, jan Compagnie in japan, p. 27. For the two ships named China, see Bruijn et al., Dutch Asiatic Shipping, vol. 2, pp. 22-23,196.

وحول تاريخ استيراد البورسلين انظر:

Volker, Porcelain and the Dutch East India Company, 1602-1682 (Leiden: Brill, 1954); Maura Rinaldi, Kraak Porcelain:A Moment in the History of Trade (London: Bamboo, 1989); Christian J. A. jorg, «Chinese Porcelain for the Dutch in the Seventeenth Century: Trading Networks and Private Enterprise,» in The Porcelains of jingdezhen, ed. Rosemary Scott (London: Percival Foundation of Chinese Art, 1993), pp. 183-205; and John. Carswell, Blue & Mite: Chinese Porcelain Around the World (London: British Museum Press, 2000). On Sino-Persian interaction in porcelain design, see Lisa Golombek, «Rhapsody in Blue-and- White,» Rotunda 36:1 (Summer/Fall 2003), pp. 22-23.

وتم وصف تطور البورسلين في أوروبا في:

Hugh Honour, Chinoiserie: The Vision of Cathay (New York: Harper & Row, 1961), pp. 103-5.

والمقتطفات المنسوبة إلى جروتيوس مذكورة في:

from The Freedom of the Seas, trans. Ralph Van Deman Magoffin (Toronto: H. Milford, 1916), pp. 12-13; see also Hamilton Vreeland, Hugo Crotius, the Father oj the Modern Science oj International Law (New York: Oxford University Press, 1917), pp.47-58.

ورُتَبُ البورسلين ومستوياته مذكورة في:

Volker, Porcelain and the Dutch East India Company, p. 23.

وحول عمولات البرتغاليين من تجارة البورسلين انظر:

Rui Guedes, Companhia das indias: porcelanas (Com.pany of the Indies: Porcelains] (Lisbon: Bertrand, 1995). لشحنة السفينة «ناساو» انظر: «Cargo van twee Oost-Indische Shepen» (Cargo of Two East India

(Company) Ships] (Amsterdam: Gerrit Jansz, 1640), on display at Amsterdam's Maritime Museum.

تعليقات ون جن هنج المذكورة في هذا الفصل مأخوذة من كتابه:
Treatise on Superfluous Things, Annotated [Zhangwu lun jiaozhu], ed. Chen Zhi (Nanjing: Jiangsu kexue jishu chubanshe, 1984), pp. 97 (preference [or earlier Ming porcelain), 260 (brush pots), 317 (ideal characteristics), 352 (use of vases), and 419 (Potter Cui). The logic of the book is explored. in Clunas, Supe1fiuous Things;

وانظر على نحو خاص تعليقاته الموجودة حول الاشباح الأجنبية في:
pp. 58-60,85. The Beijing guidebook comment comes from Liu Tong, Sights oj the Imperial Capital [Dijingjingwu We] (Beijing: Beijing guji chubanshe, 1980), p. 163. Reports of kraak porcelain in Chinese tombs appeared in the journal Cultural Objects [lillen wu], 1982, no. 8, pp. 16-28, and 1993, no. 2, pp. 77-82; my thanks to Craig Clunas for pointing out these references.

بالنسبة للتعليق الخاص على ذوق الأوروبيين خلال القرن السابع عشر الخاص بالذهب والفضة انظر:
Pascale Girard, ed., Le Voyage en Chine d'Adriano de las Cortes S. J. (1625) (Paris: Chandeigne, 2001), p. 253.

وجاء ذكر تعليق ديكارت الخاص بعام 1631 في:
Fernand Braudel, The Perspective oj the liViJrld (London: Collins, 1984), p. 30. For Evelyn's comment on Paris in 1644, see Diary oj John Evelyn, vol. 2, p. 100.

وجاء ذكر المصدر التالي بين مصادر أخرى:

Pieter Isaacsz's 1599 painting, The Corporalship of Captain G Jasz. Valckenier and Lieutenant P [acobs: Bas, in A. 1. Spriggs, «Oriental Porcelain in Western Paintings, 1450-1700,» transactions
the Oriental Ceramic Society vol. 36 (London: 1965).

من أجل فكرة تخطيطية عامة حول تاريخ بلاط الأرضيات بدلفت انظر:

Bailey, vermeer, pp. 173-77; the quote appears on p. 175. The Amsterdam satirist on Chinese art is mentioned in Edwin Van Kley, «Qing Dynasty China in Seventeenth-Centpry Dutch Literature, 1644-1760» in The History of the Relations Between the Low Countries and China in the Qing Era (1644-'1911), ed. W. f Vande Walk and Noel Golvers (Leuven: Leuven University Press, 2003), p. 230.

حول استخدام مصنع البيرة المهجور في دلفت لصناعة الخزف انظر:

Richard Unger,A History oj Brewing in Holland: Economy, <Technology and the State> (Leiden: Brill, 2001), p. 324.

تظهر مناقشة لاي رايهو مع التاجر زيا في:

Diary from the lillater- Tasting Studio [Vleishui xuan riji] (Shanghai: Yuandong chubanshe, 1996), p. 84.

Richard Cocks; see William Schurz, The Manila Galleon (New York: Dutton, 1959), p. 352.

Chapter 4.

Geography lessons

نشر وصف لاس كورتيس حول تحطم السفينة عام 1625 بالفرنسية في:

French by Pascale Girard as Le Voyage en Chine. I have drawn particularly from pp. 37-55,65-69,85-87,97,106-9,354-57.

حول مفهوم «المور» في القرن السابع عشر انظر:

Allison Blakely, Blacks in the Dutch liVOrld: The Evolution oj Racial Imagery in a Modern Society (Bloomington: lndiana University Press, 1993), pp. 33-36; Kim Hall, Things of Darkness: Economies oj Race and Gender in Early Modern England (Ithaca, NY: Cornell University Press, 1995), P: 12.

والوصف الصيني للأسبان في مكاو مأخوذ من:

Guangren and Zhang Rulin, A Brief Account of Macao [Aomen jilue] (1751; 1800),2.81.

وظهر وصف لاي رايهوا للزنوج لـ«اللوتنج» في:

Diary from the lillater- Tasting Studio, p. 103;

وحول وصفه لذوي الشعر الأحمر انظر: ص 43من الكتاب نفسه، وجاءت حكايات وتأويلات وانج شاي شنج حول الزنوج في مكاو في:

Macao comes from his Continuation of My Record of Extensive Travels [Guangzhi yi] (Beijing: Zhonghua shuju, 1981), p. 101. The price of oxen (four taels a head) is noted in C. R. Boxer, The Great Ship from Amacon: Annals oj Macao and the Old Japan Trade (Lisbon: Centro de

Estudos Historicos Ultra- marinos, 1959), p. 184.

وتظهر مذكرات جاو لونغ وأوراقه الحافلة بالذكريات في:

Unedited records of the Chongzhen Era (Chongzhen changbian], 34.42a-44a, 35, 41.13a-14b, and 43.29a-b; reprinted in Compendium oj Archives and Documents on the Macao question in the Ming-Qing Period [Ming-Qing shiqi Aomen wenti dang'an wenxian huibian], ed. Yang Jibo et al. (Beijing: Renmin chubanshe, 1999), vol. 5, pp. 41-45. See also Huang Yi-long, «Sun Yuanhua (1581-1632): A Christian Convert Who Put Xu Guangqi's Military Reform Policy into Practice,» in Statecraft and Intellectual Renewal in Late Ming China: The Cross-Cultural Synthesis of Xu Guangqi, ed. Catherine Jami, Gregory Blue, and Peter Engelfriedt (Leiden: Brill, 2001), pp. 239-42.

ظهر الوصف الخاص بهولندا في السجلات الحقيقية خلال الشهر القمري الرابع من السجلات الواقعية لعام 1623 في:

Veritable Records of the Tianqi Reign [Xizong shilu], 33.3a~b.

والاقتباس المأخوذ من ديا جاو يوجد في الفصل الرابع من:

Wang Linheng, The Swords of Canton [Yuejian pian], quoted in Tang Kaijian, Studies in the Early History of the Opening of the Port of Macao [Aomen kaipu chuqi shi yanjiu] (Beijing: Zhonghua shuju, 1999),p. 113.

وحول تجنيد رماة المدفعية البرتغاليين انظر:

Michael Cooper, Rodrigues the Interpreter: An Early Jesuit in Japan and China (New York: Weatherhill, 1994),pp. 337-51.

وتكوين الدورية العسكرية الأول في عام 1623 مذكور في:

the Veritable Records of that year, Veritable Records of the Tianqi

Reign, 33.13a.

وظهر تعليق يان يونيان غير المؤرخ على رودريجو في كتابه:

Case Summaries from Mengshui Studio [Mengshui zhai wndu] (Beijing: Zhongguo zhengfa daxue chubanshe, 2002), p. 704.

ويظهر حماس «جاولونج» الحميم في مقدمته لكتاب «يان» مما يدل على أنهما كانا أصدقاء.

Lu Zhaolong's warm endorsement in his preface to Yan's book shows they were friends.

أشعر بالامتنان لأيليسون بيلي لأنها عرفتني بكتاب يان وما هو مذكور عن رودريجو مذكور في:

book. Rodrigues is mentioned in the Veritable Records of 1630 [ChOt~I{zhen changbian], ch. 44, reprinted in The Macao Question in the Ming-Qing Period, vol. 5, p. 45.

وحول تسو قوانغ كي انظر:

Jami et al., Statecraft and Intellectual Renewal in Late Ming China. On Xu's interest in Japan, see my «Japan in the Late Ming: The View from Shanghai,» in Sagacious Monks and Bloodthirsty vVctrriors: Chinese Views c!fJapan in the Ming-Qing Period, ed. Joshua A. Fogel (Norwalk, CT: EastBridge, 2002), pp. 42-62.

والدراسة الكلاسيكية حول هجوم شن كوسي على إرسالية نان تشنج هي دراسة:

Edward Kelly, «The Anti-Christian Persecution of 1616-1617 in Nanking» (Ph.D. diss., Columbia University, 1971),

وقد قام ادريان دودنك بمراجعة وتنقيح النقاط الجوهرية بأنها في:

«Christianity in Late Ming China: Five Studies» (Ph.D. diss., Rijksuniversiteit, Leiden, 1995).

وحول تقييم الجيزويت لـ«شن كوي» على أنه فشل على نحو متكرر، انظر:

The Jesuit assessment of Shen Que's persecution as having failed is repeated in George Dunne, Generation of Giants: The Story of the Jesuits in China in the Last Decades of the Ming Dynasty (Notre Dame: University of Notre Dame Press, 1962), pp. 128-45. Semedo's description is taken from the 1642 English edition of his history of the Jesuit mission, Imperio de la Chinae [Empire of China], pp. 219-20; I am grateful to Gregory Blue for making this passage available to me.

وحول التجارة المبكرة لهولندا مع الصين انظر:

Leonard Blusse, «The VOC as Sorcerer's Apprentice: Stereotypes and Social Engineering on the China Coast,» in Leyden Studies in Sinology, ed, W L. Idema (Leiden: Brill, 1981), especially pp. 92-95.

وحول الجدل ما إذا كان اليابانيون أم الهولنديون هم الأكثر خطراً انظر:

Veritable Records.of the Tianqi Reign, 3SAa-b. For Li Zhizao's argument in favor of Portuguese cannon, see op. cit., 35.3a-b.

وحول موضع «مكاو» في استراتيجية الجيزويت لاختراق الصين انظر:

George Souza, The Survival of Empire: Portuguese Trade and Society in China and the South China Sea, 1630-175 4 (Cambridge: Cambridge University Press, 1986), especially pp. 25,37,195-98.

وخطاب رودريجو والخاص بعام 1633 مطبوع في:

Cooper, «Rodrigues in China: The Letters of joao Rodrigues, 1611-1633,» in The Path to a History of the National Language: A Festschrift in Honor of Professor Doi Tadao [Kokugoshi e no michi: Dei sensei shoju kinen ronbunsho] (Tokyo: Sanseido, 1981), p. 242.

وردت شهرة ريتشي بين المفكرين الصينيين بوصفه الجاسوس الذي جندته «مكاو» عام 1609 في:

Li Rihua, Diary from the VIIater- Tasting Studio, p. 43.

.Dudink، «Christianity in Late Ming China،» pp ،151،258

وما جاء ذكره حول بان رونمين مذكور في:

the 1846 Comprehensive Gazetteer of Guangdong [Guangdong tongzhi] (Shanghai: Shangwu yinshuguan, 1934), p. 375; and the Comprehensive Gazetteer of Cuizhou [Guizhou tongzhi] (1741), 26.8b.

وحصل «بان» على درجة الـ «الموصى عليه» أو الشخص الحقيقي عام 1607 وتظهر تعليقات يان يونيان في تلخيصه للحالة الراهنة التي سمعها في كانتون في:

collected in his Case Summaries, p. 702.

تعليق ظهر من جانج تساي وتقديم الكاتب Wong Qizong له في:

Investigations of the Eastern and VVt:stern Oceans [Dongxi yangkao] (Beijing: Zhonghua shuju, 1981), pp. 14, -20.

«ليس عليك أن تغادر منزلك» مأخوذة من:

Zhang Huang, Compendium of Pictures and Writings [Tushu bian] (1613), Ch. 29.

Chapter 5.

School for smoking

جاءت ملاحظات يانج شيكونج من المصادر التالية:

Jade Hall [Ytltang wenji] (repr, Taipei, 1968), p. 80. Fragments' of his biography appear in Gazetteer of Jining Subprejeaure (Jining zhouzhi] (1672), 5.19a, 56a; 8.49b; and Zhang Tingyu, Standard History of the lvIing Dynasty [Ming shi] (Beijing: Zhonghua shuju, 1974), pp. 3658, 7942.

وبالنسبة لتكلفة التبغ وثمنه في قائمة أسعار بيجين انظر:

For the cost of tobacco on the Beijing price list, see Shen Bang, Miscellaneous Records from the TVanping County Office [TVanshu zey'i] (Beijing: Zhonghua shuju, 1980), pp. 134,146.

وحول تاريخ التبغ فالإضافة إلى كيرنان وكتابه انظر:

Tobacco: A History and Vigie and Vigie, L'Heibe a Nicot,انظر Sarah Augusta Dickson, Panacea or Precious BanetTobaao in Sixteenth-Century Literature (New York: New York Public Library, 1954);Jordan Goodman, TObacco in History: The Cultures of Dependence (London: Routledge, 1993); Bernhold Laufer, «Introduction of Tobacco into Europe,» Anthropology Leeiflet 19 (Field Museum of Chicago, 1924).

وحول خبرة الهولنديين انظر:

Georg Brongers, Nicotana Tabacum:The History of Tobacco and <Ibbaao Smoking in the Netherlands (Amsterdam: H.J. W Bechts Uitgevcrsmaatschappij, 1964).

وحول ممارسات السكان الأصليين للتدخين انظر:

Ralph Linton, «Use of Tobacco Among North American Indians,»

Anthropology Lecfiet 15 (Field Museum of Chicago, 1924); Johannes Wilbert, TObacco and Shamanism in South America (New Haven, CT: Yale University Press, 1987). On taba,qies, see Morris Bishop, Champlain: The Life of Fortitude (Toronto: McClelland and Stewart, 1963), p. 39.

وحول ارتباط التبغ بالسحرة انظر:

Dickson, Panacea or Precious Bane, pp. 161--62; regarding the papal bull of 1642, see pp. 153-54.

وحول تعليق الرجل الانجليزي حول التبغ بأنه كان يتم تعاطيه بدرجة كبيرة ويستخدم في إنجلترا انظر:

«gretlie taken-up and used in England,» see Laufer, «Introduction of Tobacco into Europe,» p. 7, quoting William Harrison's Great Chronologie; the quotes from Camden and James I appear on pp. 10-11,27-28. The quote from Thomas Dekker comes from the foreword to The Guls Horne-Book (London: R.S., 1609).

وحول الملاحظة «هذا العشب ينتشر استخدامه في مواجهة كل المتاعب والعلل» انظر:

John Gerard, The Herbal! or General! Histories of Plantes, quoted in Dickson, Panacea or Precious Bane, p. 43. Gerard based his claims on the earlier herbal of Rembert Dodoens.

وحول دور الهولنديين في تجارة التبغ والعبيد انظر:

Jonathan Israel, Dutch Primacy in Vf;Orld <Trade, 1585-17 40 (Oxford: Oxford University Press, 1989), وقد تم تلخيص ذلك بشكل جيد في كتابه حول: Dutch Republic, pp. 934-36, 943-46.

وحول مكانة الرق في اقتصاديات التبغ انظر:

Goodman, Tobacco in History, pp. 137-53; also Kiernan, Tobacco:A History, pp. 13-19.

وقد كتبت حول ثقافة التبغ ودورها في الصين الإمبراطورية مقالين انظر:

«Is Smoking Chinese?» Ex/Change: Newsletter of Centre Jor Cross-Cultural Studies 3 (February 2002), pp. 4-6; and «Smoking in Imperial China,» in Smoke: A Global History oj Smoking, ed. Sander Gilman and Zhou Xun (London: Reaktion Books, 2004), pp. 84-91. Still the best survey of Chinese smoking practices is Bernhold Laufer, «Tobacco and Its Uses in Asia,» Anthropology Leeiflet 18, (Field Museum of Chicago, 1924).

واستخدام التعبير «مولع بالتدخين»، «الأتراك» في كتاب جوليا كورنر غير المؤرخ انظر:

The expression «as fond of smoking as the Turks» is used by Julia Corner in her anonymously published China, Pictorial, Descriptive, and Historical (London: H. G. Bohn, 1853), p. 196.

Regarding Las Cortes's encounter with tobacco, see Girard, Le Toyage en Chine, p. 59.

وقد ورد الاستشهاد بملاحظات فانج تيزي حول التبغ في:

Yuan Tingdong, A Popular History oj Smoking in China [Zhongguo xiyan shihuaJ Shangwu,1995) p. 35. The account of tobacco in Shanghai is from Ye Mengzhu, A Survey oj the Age [Yueshi bian] (Shanghai:

.167 .p،(1981 ،Shanghai guji chubanshe

وحول تاريخ التدخين في الأمراطورية العثمانية انظر:

James Grehan, «Smoking and <Early Modern' Sociability: The Great

Tobacco Debate in the Ottoman Middle East,» American Historical Review 111 (2006), pp. 1352-77.

وحول الأصل الياباني للمصطلح Yan انظر:

Li Shihong in his Jottin{?s jrom the Hall of Benevolence [Renshu tang biji], quoted in Yuan Tingdong, A Popular History of Smoking in China, p. 52.

وذُكِرَ التعبير «المحيط الغربي العظيم» في:

Xiong Renlin, The Uloof of the Earth [Di wei], quoted in Chen Cong Tobacco Manual [Yancao pu] (1773; 1 repr. Shanghai: Xuxiu siku quanshu, 2002), 1.2b. Chen's comment, originally came from beyond the borders,» appears on 1.5b.

كان المبشر الفرنسي ريجيه أفرسن حول (1813–1860) الذي أعتقد أن المانشو هم من عرفوا التزامن انظر:

Hue and Joseph Gabet, <Travels in Tartary, Thibet and China, trans. William Hazlitt (London: George Routledge and Sons, 1928), p. 123.

جاء ذكر بان أصل التدخين هو «كوريا» في:

Liu Tingji, Miscellaneous Notes from Zai Garden [Zaiyuan zazhi], quoted in Chen Cong, Tobacco Manual, 1. 3a.

وحول المانشو انظر:

L. Carrington Goodrich, «Early Prohibitions of Tobacco in China and Manchuria,» Journal qf the American Oriental Society 58:4 (1938), pp. 648-57.

Yao Lii's account comes from his Dew Book [Lu shu] (repr. Shanghai: Xuxiu siku quanshu 1999), 10.46a. On the quality of tobacco in Fujian, see Zhang Jiebin, The Complete Ulorks of Master Jingyue [Jingyue

qUarISI1U] (repr. Shanghai: Renmin weisheng chubanshe 1991), 48.44b.

Wu Weiye's comment referring to the biography of Li Deyu in New Dynastic History qf the Tang [Xin Tang shu] (Beijing: Zhonghua shuju, 1975), p. 5330, is approvingly cited in Wu Xinli, Notes on Rare Historical Sources from the Ming-Qing Period [Ming Qing xijian shiji xulu] (Nanjing: Jinling shuhua she, 2000), p.225

وجاءت تعليقات الشاعر جانغ جيبن في كتابه: 45a-48,42b؛ وما دونه حول بذرة الفوفل ظهرت في الصفحات 32.b-49,30b، وشهد أحد الشعراء في المختارات التي جمعها الشاعر جين غونغ بأن تذوقه لبذرة الفوفل قد أدت به إلى القيام بالتدخين بعد ذلك، انظر:

Chen Cong, TObacco Manual, 9.5a.

حول الفهم الطبي لدى الصينيين لتأثير التبغ في منتصف القرن السابع عشر انظر:

Laufer, «Tobacco and Its Uses in Asia,» pp. 8-9.

والفكرة القائلة بأن التدخين يقاوم البرد والكآبة كانت منتشرة أيضاً في الفلبين، حيث استخدمت هذه الفكرة لتفسير السبب الذي كان من أجله يدخن الأطفال انظر:

Juan Francisco de San Antonio, The Philippine Chronicles of Fray San Antonio, trans. D. Pedro Picornell (Manila: Casalina, 1977), p. 18.

وبالنسبة للإشارة إلى النساء المدخنات انظر:

YuanTingdong, A Popular History of Smoking in China, p. 129, quoting Shen Lilong, Pharmacopoeie Compendium of Edible Foods [Shiwu bencao huizuan] (1681); John Gray, China: A History of the Laws,

Manners, and Customs of the People (London: Macmillan, 1878), vol. 2, p. 149.

وحول نساء «سوزو» وتصفيف شعرهن في أثناء النوم انظر:

Chen Cong, Tobacco Manual, 3.3h «Making Fun of my Long Tobacco Pipe» is quoted in Yuan Tingdong, A Popular History of Smoking in China, p. 71.

ظهرت القصائد في كيفية التدخين في:

Tobacco Manual, 5.8a, 9.3b.

أما خلفية تشن كونغ العائلية فمذكورة على نحو عام في:

Gazetteer of Qingpu County (1879) [Qingpu xianzhi], 19.43b-44a.

والاقتباس المأخوذ «لو ياو» موجود في كتيبه عن التدخين:

Smoking Manual, (Yanpu] (repr. Shanghai: Xuxiu siku quanshu, 2002), 3b-4b. The advice on writer's block is taken from Yuan Tingdong, A Popular History of Smoking in China, p. 128.

وحول دخول الأفيون الى الصين، انظر:

Spence, «Opium Smoking in Ch'ing China,» in Confiictand Control in Late Imperial China, ed. Frederic Wakeman and Carolyn Grant (Berkeley:

وحول ذلك القاتل الذي وقع تحت تأثير المخدر انظر:

Arthur H. Clark, 1905), vol. 16, p. 303; vol. 27, p. 183; see vol. 29, p. 91

وقد تعامل تشين كونغ مع التاريخ المبكر للأفيون في الصين في كتابه:

Tobacco Manual, 1.12b-14a, 3.4a.

وحول التأثير السياسي الواسع للأفيون في القرنين التاسع عشر والعشرين في كتابه:

Opium Regimes: China, Britain, and Japan, 1839-»1952, coedited by Timothy Brook and Bob Tadashi Wakabayashi (Berkeley: University of California Press, 2000).

بالنسبة للقصيدة التي بدايتها يتلعون ضباب الفجر انظر:

Zhao Ruzhen, The Condolence Collection [Zhuaiji] (1843), 4.13b.

ظهرت أنشودة لوفير للتبغ في نهاية كتابه:

«Tobacco and Its Uses in Asia» on p. 65.

وهناك مثال موضع لرقص التبغ والذي ربما كان قد أثر على هذا الباليه يمكننا أن نجده في:

L'Hetbe a Nicot, p. 56.: Vigié and Vigié Theodore dc Bry's Americae tertia pars (Frankfurt, 1593), reprinted as fig. 1 in Jeffrey Knapp, «Elizabethan Tobacco,» Representations 21 (Winter, 1988), p. 26

Chapter 6

Weighing Silver

حول سلة العملة في هولندا انظر:

On Dutch coinage, see Posthumus, Inquiry into the History oj Prices in Holland, vol. 1, pp. liv-Ivii, civ-cxv.

وحول تجارة شركة الهند الشرقية الهولندية في الفضة انظر:

Bruijn et al., Dutch Asiatic Shipping, vol. 1, pp. 184-93,226-32.

وحول الأسعار الكبيرة لتبغ فرجينيا انظر:

Knapp, «Elizabethan Tobacco,» pp. 36, 42.

والاقتباس من باولو تسو موجودة في:

Richard von Glahn, Fountain of Fortune: Money and Monetary Policy in China, 1000-1700 (Berkeley: University of California Press, 1996), p. 199.

وجاء ذكر التذبذبات في عدد سكان بوتوزي في:

Enrique Tandeter, L'Argent du Potosi: Coerdtion et marche dans l'Amerique coloniale [The Silver of Potosi: Coercion and Market in Colonial America] (Paris: EHESS, 1997), p. 96.

وحول التمرد الذي حدث عام 1647 انظر:

Bartolome Arzans de Orsua y. Vela, Historia de la villa imperial de Potosi, trans. Frdnces Lopez – Morillas, in Tales of Potost, ed. R. C. Padden (Providence, RI: Brown University Press, 1975), pp, 49-50.

وحول حجم الفضة التي تدفقت من اليابان وأمريكا وإسبانيا إلى الصين انظر: Von Glahn، Fountain f Fortune، pp. 124 – 41;

وبالنسبة للدراسات حول أتباع الفضة في إسبانيا انظر:

The current best estimats are summarized in the table on p. 140,

The chapters by harry Cross،John TePaske، and Femme Gaastra in Precious Metals in the Later Medieval and Early Modern Worlds، ed. J F. Richards (Durham، NC: Carolina Academic Press، 1983).

تم وصف الاتصال الأول بين الصين والإسبان في:

Margaret Horsley, «Sangley: The Formation of Anti-Chinese Feeling in the Philippines.A Cultural Study of the Stereotypes of Prejudice»

(Ph.D. diss., Columbia University, 1950), p. 106.

وتم الحصول على المعلومات الخاصة بالعلاقات الاسبانية في مانيلا من:

Blair and Robertson, Philippine Islands: for Francisco Sande's remark, see vol. 4, p. 67; «all that the human mind can aspire or comprehend,» vol. 6, p. 198; «all of this wealth passes into the possession of the Chinese,» vol. 12, p. 59; descriptions of the Parian, vol. 22, pp. 211-12; vol. 29, p. 69; the obligation of Chinese Christians to wear hats, vol. 16, p. 197.

ووصف بحارة فوجيان مأخوذ من:

Zhou Qiyuan's preface to Zhang Xie, Investigations oj the Eastern and VVestern Oceans, p. 17; «cramming winter» (yadong) appears on p. 89. «Cramming winter boys» appears in a poem by You Tong, in Yin Guangren and Zhang Rulin, Brief Account of Macao, 2.8a.

وحول مذبحة عام 1603 انظر:

Antonio de Morga's 1609 account in Philippine Islands, vol. 15,pp. 272-77; also vol. 16, pp. 30-45, pp. 298-99.

وحول أن هذه الحادثة قد حدثت نتيجة نوع من سوء الفهم الصيني

في: Schurz، Manila Galleon، pp 85–90; see also p. 258 on the galleon sinkings.

أما الأكثر موثوقية على الرغم من عدم اكتماله فهو:

Jose Eugenio Borao, «The Massacre of 1603: Chinese Perception of the Spanish on the Philippines,» Itinerario 22: 1 (1998), pp. 22-39. Zhang Xie, Investigations of the Eastern and J.iT;fstern Oceans, p. 92,

gives a higher estimate of twenty-five thousand killed. The figure of thirty thousand is cited from a 1637 report in Schurz, Manila Galleon, p. 81. The minister of war's estimate of the number of Fujianese going abroad appears in Unedited Records of the Chongzhen Era, 41.21. The dynastic history simply says «tens of thousands»; Zhang Tingyu, Standard History of the Ming Dynasty, p. 8368.

ما جاء ذكره الذي شورتز حول غليون مانيلا هو المعتمد علميا أكثر من غيره حول تجارة الغليون

Schurz's Manila Galleon is the authority on the galleon trade; the quotes come from pp. 265 (scurvy and starvation) and 91 (the 1643 comment on the lack of business causing the uprising). Regarding thirty ships arriving in 1639, see Souza, Survival of Empire, p. 84, table 4.8.

التعليق حول الأقواس الموجود في سوزو مأخوذ من:

Girard, Le voyage en Chine, p. 103.

حول صيد اللؤلؤ في جنوب الصين انظر:

On pearl diving in south China, see Gu Yanwu, Advantages and Disadvantages, 29. 126a-b.

ذكر مينج لونج ما يتعلق بحراسة مناجم الفضة في:

Provisional Gazetteer of Shouning County [Shouning daizhi] (1637) (Fuzhou: Fujian renmin chubanshe, 1983), pp. 36-37.

وحول أن واحد في المائة فقط من الناس كانوا أغنياء، انظر:

For «one man ina hundred is rich,» see Brook, Confusions of Pleasure, p. 238. On tl:J.e price of rice in Shanghai in 1639-47, see Ye Mengzhu, A SurvsY of the Age, p. 153; on selling two children for a peck of wheat, see Zhang Lixiang, Supplement to the Agricultural

Treatise, annotated edition [Bu nongshu jiaoshi] (repr. Beijing: N ongye chubanshe,1983),p.174.

وحول سفن الينك الصينية انظر:

Pierre-Yves Manguin, «The Vanishingjong: Insular Southeast Asian Fleets in Trade and War (Fifteenth to Seventeenth Centuries),» in Southeast Asia in the Early Modern Era: Hade, Power, and Belief, ed. Anthony Reid (Ithaca, NY: Cornell University Press, 1993), pp. 197-213.

وتعليق فرنشيسكو كايري مأخوذ من:

Schurz, Manila Galleon, p.253.

وحول جدل الصينيين ضد استيراد الفضة بعد عام 1644 انظر:

von Glahn, Fountain of Fortune, pp. 219-22; Gu Yanwu's comment about «resorting to wine» appears on p. 221.

Andre Gunder.Frank, Reorient: Global Economy in the Asian Age (Berkeley: University of California Press, 1998), pp. 237-48,

وحول الأزمة العالمية التي أحدثها الإنتاج الكبير للفضة ومن أجل التفسيرات المتعارضة، انظر:

Jan de Vries, «Connecting Europe and Asia: A Quantitative Analysis of the Cape-route Trade, 1497-1795," in Global Connections and Monetary History, 1470 – 1800, ed. Dennis Flynn, Arturo Giraldex, and Richard von Glahn (Aldershot: Ashgate, 2003), pp. 35-106.

وجاء ذكر غرق السفينتين كونسيبسيون وسان أمبريو في:

Schurz, Manila Galleon, p. 259.

وما يتعلق بانتشالها فمذكور في:

Eugene Lyon, «Track of the Manila Galleons,» and William Mathers,

«Nuestro Senora de la Concepcion,» both in National Geographic, Sept. 1990, pp. 5-37 and pp. 39-55. Excavated in 1987--88, the ship was the first Manila galleon to have cargo retrieved through underwater archaeology.

وقد كانت هذه السفينة أول سفينة من نوع غليون مانيلا، وتم سحبها بواسطة علماء الآثار الغارقة، والمصدر الأساس حول تمرد عام 1639 مجهول المؤلف انظر:

The principal source for the 1639 uprising is the anonymous «Relation of the Insurrection of the Chinese,» translated in Blair and Robertson, Philippine Islands, vol. 29, pp. 208-58. On the history of Chinese in the Philippines, see Ch'en Ching-ho, The Chinese Community in the Sixteenth Century Philippines (Tokyo: Center for East Asian Cultural Studies, 1968); also Edgar Wickberg, The Chinese in Philippine Life, 1850-1898 (New Haven, CT: Yale University Press, 1965)

The Chinese-Franciscan conversation on silver is taken from Pedro de la Pifiuela, Questions and Answers on First Meeting [Chuhui wenda], 111 Pascale Girard, Les Religieux ocddentaux en Chine a l'epoque moderne (Lisbon: Centre Culturel Calouste Gulbenkian, 2000), pp. 388,472.

For «until recently has supported the full weight of the Monarchy,» see Jeffrey Cole, The Potosi Mita, 1573-1700: Compulsory Indian Labor in the Andes (Stanford: Stanford University <Press, 1985), pp. 52-53.

قصة فولجنسيو لأوروزكو مأخوذة من:

Tales of Potosi, pp. 27-32.

وحول ما ذكره كالانشا حول أهل بوتوزي وكونهم «متحمسين

كثيراً في سعيهم وراء الثروات» انظر: Lewis Hanke، The Imperial City of Potosi (The Hague: Martinus Nijhoff، 1956)، p.2.

Chapter 7.

Journeys

ناقش ميتشل كيرستين لوحة «لاعبو الورق»، لفان دير بيرش في:

Delft Masters, vermeer's Contemporaries: Illusionism Through the Conquest of Light and Space, ed. Michiel Kersten and Danille Lakin (Zwolle: Waanders Publishers, 1996), pp. 174-75. Two Dutch paintings of the period depicting Afr;ican servants in the British Royal Collection are Jan de Bray, The Banquet of Cleopatra (1652), and Aelbert Cuyp, The Negro Page (ca. 1655), the former published in Christopher Lloyd, Enchantil1g the Eye: Dutch Paintings of the Golden Age (London: Royal Collection Publications, 2005), pp. 50~51. Note that de Bray includes a carrack porcelain on the table before Cleopatra.

وحول تجارة الهولنديين بالعبيد انظر:

Peter Emmer, «The Dutch and the Slave Americas,» Slavery in the Deveiopmen: of the Americas, ed. David Eltis, Frank Lewis, and Kenneth Sokoloff (Cambridge: Cambridge University Press, 2004); pp. 70-86.

وحول تاريخ الزنوج في الفن والمجتمع الهولندي في القرن انظر:

Blakely, Blacks in the Dutch VTIorld, especially pp. 82-115,226-28.

وحول دور ذوي اللون الأسود في التاريخ الحديث المبكر للمجتمع الأوروبي، انظر:

Hall, Things of Darkness, especially pp. 1-15 and ch. 5; also Steven Epstein, Speaking of Slavery: Color, Ethnicity, and Human Bondage in Italy (Ithaca, NY: Cornell University Press, 2001), pp. 184-97.

كما أشار إبشتين فإن الأسود كانوا آخر من ظهر من جمهور العبيد أوروبا وتم سرد تاريخهم وهو موجود في:

C. R. Boxer, Fidalgoes in the Far East. 1550-1770: Fact and Fancy in the History of Macao (The Hague: Martinus Nijhoff, 1948), pp. 149-53.

وحول نهاية تجارة البرتغاليين مع اليابان انظر:

C. R. Boxer, Great Ship.from Amacon p. 155.

The Jesuit rector's objection to trafficking in children is cited in Souza, Survival of Empire, p. 195.

وصفت رحلة بونتيكو في:

Memorable Description of the East Indian Voyage, pp. 57-59,92-95, 105-13, 142~43. For Co en's rebuke, see Bruijn et.al., Dutch Asiatic Shipping, vol. 1, p. 7l.

تم تسجيل الرحلة التي قامت بها السفينة هارلم الجديدة في عام 1664 و1647في:

The 1646-47 voyage of the Nieuw Haariem is recorded in Bruijn et al., Dutch Asiatic Shipping, vol. 2, p. 96, and vol. 3, p. 52.

بالنسبة لجملة «لقد سلكوا مثل الفأر عندما يرى قطة»، انظر:

For «they behaved like a mouse does when it sees a cat» see Nishikawa joken, Twilight Tales of Nagasaki [Nagasaki yawagusa], referring to an incident in 1665, quoted in Boxer,Jan Compagnie in Japan, 121.

تم سرد قصة ويلتفري في:

Gari Ledyard, The Dutch Come to Korea, (Seoul: Yaewon, 1971), pp. 26-37; the quotes appear on pp. 28, 36, 181-82,186,221;

وحول بوسليه أمو انظر: pp. 204،144.

وهناك سفينة أخرى باسم «الهولندية» أبحرت من جويري ووصلت إلى «باتافيا» في 29 أغسطس 1625، لكن ويلتيفري قال إنه أبحر من أمستردام، ومن ثم ربما كان على متن السفينة الهولندية التي أبحرت من تيكسيل انظر:

Bruijn et al., Dutch-Asiatic Shipping, voL 2, pp. 52, 56; vol. ~, p. 28. The fate of the Ouwerkerck is noted in Boxer, The Great Ship from Amacon, pp. 114-15.

وردت قصة كوتشي في:

Dunne Generation of Giants, pp. 235-39, and by Antonio Sisto Rosso in the Dictionary of Ming Biography, ed. 1. Carrington Goodrich and Chao-ying Fang (New York: Columbia University Press, 1976), pp. 409-10.

وحول النساء في «المابين» انظر:

Sylvia van Kirk, «Many Tender Ties»: Women in Fur- <Trade Society in Vl1estern Canada, 1670~ 1870 (Winnipeg: Watson & Dwyer, 1980), pp. 4~8, 28-29, 75~77.

وحول الأرض الوسطى انظر:

Richard White, The Middle Ground: Indians, Empires, and Republics in the Great Lakes Region, 1650-1815 (Cambridge: Cambridge University Press, 1991), p. 52.

لقد ورد الاقتباس الخاص لدى كاليبان القائل «لقد كنت أنت الذي حولت عقولهم وجعلتهم يموتون» في:

act 1, scene 2 of William Shakespeare's The Tempest. For «it is»

وانظر أيضاً:

Penny Petrone, ed., First People, First Voices (Toronto: University of Toronto Press, 1983), p. 8. Armand Collard's poem, «Barefoot on the Massacred Earth,» is quoted in Sioui, For an Amerindian Autohistory, p. 33.

قصيدة أرمان كولار جاءت في:

The Journey of the Magi: Meanings in the History of a Christian Story (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1997), p. 6; see pp. 102-7 on the black magus and the eccentric position of the third king.

Chapter 8.

Endings: no man is an island

التأمل الثامن عشر لجون دن موجود في:

John Donne, Devotions upon Emergent Occasions (Cambridge: Cambridge University Press, 1923), pp. 97-98; I have modernized some spelling and punctuation

وبالنسبة لشراء بونتيكو للخنازير انظر:

His Memorable Description, 109.

وبالنسبة لعبارة «اليوم أنها تمطر في الصين» انظر:

Ledyard, The Dutch Come to Korea, p. 28.

حول نزاع كوركويرا مع الكنيسة ومسيرته العملية التالية انظر:

Cushner, Spain in the Philippines, pp. 159 – 67; "for where shoes were worth two reals before," see Philippine Islands, vol. 35, p. 195.

وحول تعليقات كاترينا حول الآثار المدمرة والدائمة للحرب انظر:

Montias, Vermeer and his Milieu, p. 351.

وحول الأجساد التي دفنت في مقبرة ثاينز – فيرمير انظر:

O. H. Dijkstra, "Jan Vermeer van Delft: drie archiefondsten" [jan Vermeer of Delft: three Archival Discoveries], Oude Holland 83 (1968, p. 223

هوامش المؤلف

الفصل الأول
منظر من دلفت

1–تم تأسيس حكم سلالة المينغ عام 1368 وتمت الإطاحة بحكم هذه السلالة عام 1644، وذلك عندما استولى أحد جنود الجيش المتمردين على بيجين، فاضطر الامبراطور الأخير إلى الانتحار، ثم قام أحد جيوش المانشو بغزو بيجين من ناحية الشمال الشرقي وأجبر ذلك المتمرد على الفرار منها. وقد استمر حكم سلالة المانشو حتى عام 1911.

2–لقد ثَمّن الأوروبيون عالياً اللآلىء الكبيرة، وقد كانت تلك اللؤلؤة كذلك، أعلوا من قيمة اللآلىء المستديرة، لكن هذه اللؤلؤة لم تكن كذلك. أما الصينيون فثمنوا عالياً قيمة اللآلىء كبيرة الحجم، فاللؤلؤة من الطراز الأول والرتبة الأولى، ينبغي ألا يقل قُطْرها عن 3,75 سنتيمتراً، لكنهم فضلوا أكثر اللؤلؤة التي «تكون» مسطحة قليلاً عند أحد جوانبها، مما يمنحها الشكل المميز الخاص «بالقدْره شديد الاستدارة». إذا اقتبسنا الصيغة التي قال بها أحد الكتاب الصينيين حول اللؤلؤ. وقد كان يطلق على اللؤلؤة التي تكون من هذه النوعية اسم «اللؤلؤة المتدلية» وقد كانت تستخدم بشكل استثنائي في صناعة الأقراط.

الفصل الثاني

قبعة فيرمير

1- تصور هذه الخريطة وتصف الشطر الساحلي للأقاليم المتحدة الجديدة، وقد وضع الجانب الغربي منها أعلى الخريطة. وقد صممت هذه الخريطة وصنفت بواسطة عائلة فان بيركزود Van Berckerade، وقد كانت عائلة من صناع الخرائط في دلفت، وتم نشر هذه الخريطة عقب عام 1620 مباشرة، بواسطة وليم بلاو، الرائد في مجال الخرائط التجارية في أمستردام. وربما قام فيرمير بتضمين هذه الخريطة داخل لوحته كي يلمّح من خلالها ويشير مداراة أو حتى أن يتهكم ويسخر من ذلك التراث الهولندي التصويري المبكر الذي كان يستخدم صوراً من العالم، مثل الخرائط، كي يستخف بتلك الانشغالات الدنيوية الخاصة بالشخصيات الموجودة في لوحة، وبخاصة منها، النساء.

2-أفراد قبيلة المونتاني معروفون في كندا اليوم على أنهم الأمة الأولى وهذا الاسم يكتب بحروف رومانية هكذا innus، وهي كلمة تعني «الشعب».

3-تم استخدام الاسم الألجونيكين، والذي يعنى الأقارب أو الحلفاء على القبائل التي تتحدث اللغة الالجونيكية، وهي قبائل تنتشر اليوم على نحو واسع اليوم عبر كيبك وأونتاريو في كندا أما حلفاء تشامبلين الأساسيون فكانوا من المنازل الطويلة والذين يعرفون اليوم باسم الأمة الألجونيكية الصغيرة.

4–كان القسم الذي حارب مع شامبلين من الهورون هم الـ Arendarhonone الناس الموجودون عند الصخرة، وأحد القبائل الأربع التي شكلت الاتحاد الكونفدرالي. واسم هورون، يبدو أنه صِيغَ بواسطة الفرنسيين كنوع من الاختزال أو الاستخدام المختصر لكلمة Arendarhonon، في نوع من التورية واللعب اللفظي بالمصطلح الفرنسي الخاص الذي يشير إلى وجود الشعر على الـ boar الخاص بالرأس (الرأس/ الخاصة بالرأس) (lwre de sanglier) ويطلق الهورون على أنفسهم اسم «الويندات» أي رجال الجزر، في إشارة إلى إحدى الأساطير الكونية الخاصة بهم والتي تضعهم على ظهر جزيرة ذات سطح محدب تطفو على بحر الكون. ويعرف أسلافهم اليوم في كيبك باسم مجموعة «الويندات» Wendat، وفي أوكلاهوما باسم جماعة الوايّندوت wyandats.

5–تطور اتحاد «الإيركوا» فوصل عدد أعضائه المنتمين إليه إلى ست أمم في أواخر القرن، وتعيش هذه الأمم الست الآن في جنوبي غربي أونتاريو ويطلق «الايركوا» اسم الـ Ratinonhsionni، أي بناة البيت (والتي حولها الفرنسيون إلى Hodenosounee، أي سكان البيوت الطويلة) أما بالنسبة لأفراد قبيلة «الألجونكين فقد كانوا يعرفون باسم Naadawe أي «الثعابين» أما «الموهاك» فيسمون أنفسهم Kanyenkehaka والتي تعني «شعب» المكان الصُلب، وتعد كلمة «موهاك» إهانة أطلقها أفراد قبيلة الألجونكين عليهم وتعني: «آكلي الأشياء الحية، والتي تعني ضمناً أيضاً: آكلي لحوم

البشر أما الفرنسيون فيسمونهم Anniehronnon.

6–لم يطلق هذا الاسم بواسطة شامبلين نفسه، بل من خلال بعض الساخرين من محاولة «رينيه روبرت دي لاسال في عام 1669 لاكتشاف طريق مائي يوصل إلى الصين. فعندما عاد هؤلاء المستكشفون إلى كيبك بخفي حنين، أطلق عليه لقب ilachene أي الصين. وما زال ذلك الاسم الخاص بذلك المكان مستخدماً حتى الآن.

7–تشتمل خريطة جان جيرارد الخاصة بعام 1634 والمسماة «الخريطة العالمية لوصف المياه» على الملاحظة التالية المكتوبة بجوار خليج هدسون على الخريطة: (لقد تم اكتشاف الخليج العربي عام 1612 بواسطة الرجل الإنجليزي هنري هدسون. ويعتقد أنه يوجد ممر من هناك يوصل إلى اليابان).

8–البحيرة التي وضعها شامبلين على خريطته، على الرغم من أنه وصفها في المكان الخاطىء، هي بحيرة نايبيجون، ونايبيجون هي ترجمة ثانية من auinigipavs وسيتم تبني الاسم مرة أخرى ثانية بالنسبة لمستعمرة كبيرة أخرى في مانيتوبا Manitoba، في Winnipeg.

9–وقد أطلق الفرنسيون عليهم أيضا لقب: شعوب البحر، وأيضا المستوى المجاور للبحر، وقد كانت الرغبة الخاصة لدى الفرنسيين في الربط بينهم وبين مياة المحيط رغبة قوية لا تقبل الشك أو الاهتزاز.

الفصل الثالث

طبق من الفاكهة

1-كانت الحقيبة الواحدة من الفُلفُل تزن 12 كيلو جراماً. وفي ضوء سعر البيع بالتجزئة في أمستردام، فإنه في مقابل كل رطل قديم كان يدفع 00,08 فلس، تلك الشحنة من الفُلفُل كانت تساوي 364,000 ألف جيلدر.

2-في عام 1603 أرسل «جوا كاي» Goa cai وفداً شبه رسمي إلى مستعمرة «مانيلا» الأسبانية في الفيلبين لبحث حقيقة الحكايات التي سمعها حول «جبل الذهب» وقد كان ذلك كافياً لإنذار الأسبان كي يشعروا بمخاوف الغزو. ومن ثَمَّ فقد قاموا بمذبحة ضد السكان الصينيين في المدينة وهي حادثة ستكرر بعد ستة وثلاثين عاماً، وهي موضوع الفصل السادس من هذا الكتاب.

3-كان الهولنديون يفضلون إطلاق اسم «الأسد»، على سفنهم، خاصة في الأيام الأولى من تأسيس شركة الهند الشرقية الهولندية. وتمثيلاً لا حصراً، فإن «الأسد الأحمر»، اسم السفينة التي أبحرت عام 1609 متجهة إلى اليابان، كذلك استخدم الهولنديون أسماء بعض الأماكن ومن ذلك، تمثيلاً لا حصراً أيضاً، السفينة «دلفت» التي تم تدشينها العام 1607، وقامت بثلاث رحلات كاملة (ذهاباً وإياباً) إلى جوّه وجاوة، وهناك سفينة جديدة أخرى بإسم «دلفت» أيضاً تم بناؤها عام 1640. أما السفينة «الصين» فقد فُقِدَت عام 1608 عندما كانت ترسو بمرساة في ملاذ آمن عندما هبت عاصفة قوية قبالة تيرنيت

Ternate في جزر التوابل (البهار) عام 1676. وقد أطلقت غرفة أمستردام التجارية أيضا سفينة أخرى باسم «الصين» كانت أكبر في حجمها بما يعادل مرتين ونصف من حجم السفينة الأولى التي كانت بهذا الاسم. وعلى النقيض من ذلك فإن البرتغاليين كانوا يسمون بواخرهم الضخمة بأسماء القديسات. طلباً لبركتهن وحمايتهن. أما الصينيون فاستخدموا أسماء الطيور، آملين من خلالها أن تصبح سفنهم قوية وتمتلك الطاقة التي تمكنها من الحركة السريعة عبر المياة.

4-عندما قامت سفينة هولندية وكما اتفق أن كان اسمها «الأسد الأبيض» بنهب بعض السفن الفرنسية في نهر سانت لورتس في عام 1606، فإن ملك فرنسا تقدم بشكوى إلى الحكومة الهولندية أعلن خلالها أن الهولنديين ليس لديهم أي حق في التجارة في تلك المناطق التي تقع ضمن نطاق سلطته وسيادته وقد وافق الهولنديون على تعويض مالك تلك السفن عن خسائره، لكنهم استخدموا أيضا «الاستقصاء» كخطة أو كـ«منبر» كي يعلنوا من خلاله أن الفرنسيين ليس لديهم أي حق كي يمنعوا الهولنديين من خلاله من التجارة في أي مكان يحبون أن يتاجروا فيه.

الفصل الرابع

دروس في الجغرافيا

1-كلمة مور «Moor» هي مصطلح أوروبي كان يستخدم في البداية للإشارة إلى التجار المسلمين الذين يجيئون (ويقيمون) في جزيرة

مورية Morea على ساحل الجزر البيلبونيزيه Peloponnesian ثم اتسع مدى هذا المصطلح بعد ذلك كي يطلق على كل المسلمين الموجودين على جانبي البحر الأبيض المتوسط أو حوله، ثم أصبح يطلق على المسلمين في كل مكان، وكلمة «ماذموت» masmamat قد تكون هي صورة (أو نسخة) مترجمة من كلمة «محمد» (صلى الله عليه وسلم)، كذلك أطلقت كلمة «مور» على الزنوج الأفارقة أيضاً.

2–كانت تلك هي المرة الأولى التي تقوم فيها حكومة المنغ بتجنيد بعض البرتغاليين الذين كانوا يعيشون في «مكاو» للعمل لحسابها ومساعدتها عسكرياً. وقد كان الإمبراطور السابق قد قام بالأمر نفسه بعد أن اعتلى العرش. وقد ذهب سبعة من رجال (خبراء) المدفعية البرتغاليين نحو الشمال عام 1622 ومعهم مترجم وحاشية تتكون من ستة عشر رجلاً. لكن سياسات البلاط الامبراطوري انقلبت ضدهم، ومن ثَمَّ فإنه عندما انفجر مدفع خلال الاستعراض العسكري الذي تم عام 1623، وقتل أحد رجال المدفعية وجرح ثلاثة من الصينيين، تم رد هذه المجموعة من البرتغاليين على أعقابها، إلى مكاو.

3–كان «رودريجو» محظوظاً لأنه تمكن من العودة إلى مكاو، حيث مات اثنا عشر من خبراء المدفعية البرتغاليين ورجالها خلال الشتاء الماضي لذلك في شاندونج، عندما قام الجنود الصينيون بالتمرد من أجل الحصول على مستحقاتهم المتأخرة؛ فعندما احتاج المتمردون

المدينة؛ كان البرتغاليون يدافعون عنها، أما رودريجو فنجح في الهرب، بأن قفز من فوق سور المدينة فوق ركام جليدي، وبفضل ذلك الصقيع الذي عَمَّ العالم، فإنه لم يُكْسَر له سوى ذراع واحد خلال السقوط.

الفصل الخامس

مدرسة التدخين

1–بعد أن انتقلت كلمة petum من الأمريكتين إلى فرنسا، عادت تلك الكلمة مرة أخرى إلى هناك مع الفرنسيين، الذين كانوا في حاجة إلى اسم يطلقونه على قبيلة محلية موجودة خارج اتحاد الهورون (الكونفيدرالي) وقد كان أفراد تلك القبيلة أكبر الوسطاء في تجارة التبغ، ومن ثَمَّ فإن الفرنسيين قد أطلقوا عليهم اسم البيتونز petuns.

2–هنا يصف ديكر «سيجاراً» حيث يتم لف أو تكوير أوراق شجر التبغ في شكل كتلة اسطوانية، ثم يتم إدخالها في غلاف سميك (يشبه السجق) ثم تدخن. وقد كان تدخين ذلك الشيء السميك يمثل جانباً من جوانب فكاهة ديكر. حيث كلمة سجق أو (نقانق) هي الكلمة العامية النابية التي استخدمت في العصر الإليزابيثي للإشارة إلى العضو الجنسي للرجل أما ترينيدادو Trinidado، فهو اسم ذلك التبغ الذي كان يأتي من ترينيداد.

3–تخلى اليابانيون عن استخدام كلمة en التي تعنى «التبغ» واستخدموا

بدلاً منها كلمة «تاباكو» «tabako» في القرن التاسع عشر عندما تحولوا من استخدام الغليون إلى تدخين السجائر، لكن الكلمة ظلت باقية بعد ذلك في علامة التخدير من التدخين Kin en ومعناها «التدخين محظور».

الفصل السادس

وزن الفضة

1–كانت الثمانية ريالات تساوي في قيمتها «بيزو» واحداً، والذي كان يعادل قيمة 26,4487 من الفضة الخالصة، وحتى عام 1728 كانت تتم عملية تنقية الفضة من الشوائب حتى تصل إلى درجة من النقاء تعادل 931. ومما جعل قيمة العملة تساوي من حيث وزنها 28,75 جراماً. والترجمة الإنجليزية لكلمة «بيزو» peso هي pieces أي أجزاء أو قطع، حيث التعبير قطعة من ثمانية كان يعني بيزو يتكون من ثمانية ريالات.

2–فرضت الحكومة احتكاراً خاصاً للدولة على أماكن وجود اللؤلؤ في قاع البحر نتيجة للشعور بالقلق للسبب نفسه، حيث تم الاعتقاد أن الثروة في أيدٍ وملكية خاصة تهدد السلالة الملكية. وفي حالة اللؤلؤ، كان فقد «التانكا» Tanka أو شعوب القوارب أو بشر القوارب، الذين يعيشون جنوب الصين، هم المسموح لهم بصيد اللؤلؤ وفي ضوء بعض التصاريح الحكومية التي تمنح إليهم في هذا الشأن. أما أبرع الغواصين الباحثين عن اللؤلؤ فكانوا مجموعة من

الصبيان في العاشرة من أعمارهم والذين دربوا أنفسهم على الغوص نحو الأعماق، ويكسرون بلح البحر (الأصداف) ثم يبتلعون اللؤلؤ الموجود داخلها في أفواههم، ثم يسبحون عائدين إلى سطح المياه.

3–أُستُخدِمَ مصطلح «جيتو» للمرة الأولى عندما انتقل يهود فينيسيا (البندقية) عام 1516 إلى جزيرة صغيرة في مقاطعة Cannaregio وكلمة «جيتو» هي كلمة كان يستخدمها أهل البندقية (فينيسيا) وتعني «مسبك المعادن» وقد كانت مقاطعة خاصة بالصناع المهرة كان يتم فيها صناعة الزجاج حتى تم نقلها بعد ذلك إلى جزيرة مورانو Murano من أجل التقليل من أخطار النيران الخاصة بتلك الصناعة وتهديداتها. وقد كان يتم إغلاق بوابات الجيتو ليلاً، وكان أمر إغلاقها أو فتحها يعتمد على المناخ السياسي السائد في البلاد. وقد تمت إزالة هذه البوابات عام 1797 ثم أعيد بناؤها مرة أخرى عام 1815 خلال الاحتلال النمساوي. ولم يحصل اليهود على حرية الإقامة في فينيسيا إلا عام 1866 فقط.

4–دخلت كلمة يَنْك junk اللغات الأوروبية في العقد الثاني من القرن السابع عشر كي تُتَرجِمَ صوتياً كلمة jong، وهي الكلمة الموجودة في لغة الملايي، والتي تستخدم لوصف قواربهم الكبيرة واسعة القاع ثم قام الأوروبيون وعلى نحو سريع بتضييق المدى الخام باستخدام الكلمة فأصبحت تشير على نحو استثنائي إلى سفن الشحن التي كان التجار الصينيون يستخدمونها في جنوب شرق آسيا، والتي كانت تشتمل بداخلها على بعض عناصر التصميم الخاص بالملايي

للسفن والمرادف الإنجليزي لهذه الكلمة هو كلمة Rubbish والتي تعني نفاية أو سقط متاع، وهي كلمة مستمدة من أصول بحرية ساحلية مختلفة فقد كان الجنك (أو الينك) قطعة من حبل طويل قديم خاص بالبحارة والسفن، رثٍّ بالٍ تماما بحيث لا يصلح للاستخدام في الأشرعة والصواري وصالح للاستخدام في أغراض أخرى فقط كأن يكون حشوة، أو لربط الامتعة.

الفصل السابع

رحلات

1–ربما كانت السفينة «موريتشيوس» التي أبحر عليها جيكوب، الشقيق الأصغر لـ «بونتيكو» متجهاً نحو الشرق، بعد ثلاث سنوات، قد اتخذت المسار نفسه في رحلتها نحو الخارج؛ وذلك لأن حصيلة المتوفين من الذين كانوا على متنها كانت مرتفعة على نحو مفزع وصادم، وقد فقدت السفينة «موريتشيوس» وشقيقتها السفينة سلاح روتردام Wapen Van Rotterdam 275 (مائتين وسبعين وخمسة) من الرجال الذين كانوا يسافرون عليهما. وقد تُرِكَت السفينة سلاح روتردام على الساحل الجنوبي لـ «جاوة» رغبة في الحصول على قوة بشرية إضافية، وتم إرسال جيكوب بعد ذلك كي يستعيد السفينة، وقد قام بذلك فعلاً، وتم تعيينه قائداً لها. (نقلاًعن Memorable Description p.114).

2–بعض هذه الثياب ربما كانت متخيلة، ولكن ليس جميعها، ووفقاً

لحصيلة ممتلكات فيرمير التي تم احصاؤها بعد وفاته، فقد كان يمتلك اثنتين العباءات التركية وثوبا تركياً» وزوجاً من السراويل التركية، وكذلك اثنتين من السُترات الهندية. فهل كانت هناك لدى بريمر مجموعة من الأزياء الشرقية التي كان يمتلكها والتي من بينها قام بجعل النماذج التي كان يرسمها ترتدي هذه الملابس؟

الفصل الثامن

نهايات: لا إنسان جزيرة بمفرده

1– قامت الرغبة الخاصة المتعلقة باكتشاف تاريخ مشترك للجنس البشري بتحفيز الباحثين الأوروبين أيضاً ودفعهم نحو تكوين تصنيفات زمنية متتابعة عامة وشاملة للإنسان، وقد حدث هذا، عادة، من خلال التوسيع للمدى الخاص بالتاريخ التوراتي والامتداد به كي يشمل الإطار الخاص بالعالم كله. وقد أدَّت بحوث من هذا القبيل بباحثين أمثال جيمس أوشر J. Ussher في عام 1665 وعلى نحو مشهور لأن يحدد تاريخ بداية العالم على أنه عام 4004 قبل الميلاد، وهو تاريخ مختلق طبعاً، لكنه يبدو أنه ما يزال يلقى – ظاهرياً – بعض القبول في دوائر معينة خاصة ببعض الاتجاهات الدينية الأصولية.

هوامش المترجم

الفصل الأول

(1) الأراضي أو الأقاليم الواطئة: معظم أراضي هولندا منخفضة عن سطح البحر، ويعني اسمها الأراضي الواطئة (في الإنجليزية) Netherlands وفي الهولندية Nederland.s الأراضي المنخفضة، وقد كان اسم الأقاليم الواطئة في القرنين السادس عشر والسابع عشر في يشير إلى هولندا وبلجيكا ولوكسمبورغ، وكلها الآن دول مستقلة وقد كانت تلك المنطقة واقعة تحت حكم آل هابسبورغ الأسبان، ثم بعد حروب عدة أُعلِنَت جمهورية الأراضي الواطئة المتحدة عام 1581م، ثم اكتمل استقلالها عام 1648، وقامت بعدها هولندا باستعمار دول كثيرة عبر العالم، أما الآن فنظامها ملكي برلماني وعدد سكانهاحوالي 16 مليون نسمة وعاصمتها أمستردام.

(2) يشير المؤلف هنا بالطبع إلى نفسه، في شبابه الأول.

(3) لم يكن التصوير الفوتوغرافي قد ظهر بالطبع في عصر فيرمير، خلال القرن السابع عشر، وذلك لأن هذا النوع من التقنية والفن قد ظهر في فرنسا على يد داجير عام 1839، وحينها قال الفنان الفرنسي ديلاكروا «إن فن الرسم الملون Painting قد مات»، وبالطبع تلك قضية خلافية وليس هذا موضع المناسب لمناقشتها، ولمن يرغب في الاستزادة من المعلومات حولها يمكنه أن يعود إلى كتابنا: عصر الصورة، السلبيات والإيجابيات. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، عدد يناير 2005.

(4) تم إنتاج أحد الأفلام السينمائية الحديثة حول هذه اللوحة تحديداً وحول كيفية رسم فيرمير لها وحول حياته في دلفت وقد أنتج هذا الفيلم عام 2003 وعرض عام 2004 وبالاسم نفسه الخاص بهذه اللوحة. وهو من إخراج «بيتر ويبر» ويقوم على أساس رواية للمؤلفة الأمريكية تريسي شيفالييه، وقامت بدور هذه الفتاة الموجودة في اللوحة الممثلة الأمريكية سكارلت جوهانسون، وقام بدور فيرمير الممثل البريطاني كولن فيرث، ووصلت ميزانية هذا الفيلم إلى 12 مليون دولار وعندما عرض في قاعات العرض العربية لم يهتم به أحد ورفع من هذه القاعات بعد أسبوع أو اقل.

(5) النافذة الثانوية: نافذة ثانية توضع متصلة بالجانب الداخلي من النافذة الموجودة فعلاً، وهي تصمم بحيث تكون مكملة للنافذة الأولى الأصلية، ولا تعوق حركتها.

(6) القوارب التي تجرها الخيول: قوارب وسفن تجرها خيول فعلية تقوم بتحريكها وهي مربوطة بها بحبال يتم جر السفن بها بينما تتحرك الخيول على الشاطئ أمامها.

(7) مركب الجمد Iceboat:أي مركبة شبيهة بالمركب الشراعي تستخدم للتزلج على الجليد.

(8)امتد حكم أسرة مينغ Ming في الصين من عام 1368م إلى عام 1644 وامتد حكم أسرة تشينغ من عام 1644 حتى عام1911.

(9) خط السماء أو الصورة الظلية Skyline وهي: الصورة الظلية (أو السلويت) الناتجة في السماء من رسم خط خارجي يَحْجِبُ الأشكال

المبينة للمدينة، وبخاصة الأجزاء العلوية منها.

الفصل الثاني

1–القبعة المترهلة Klapmut: قبعة عريضة الحافة مسترخيتُها. تتدلى جوانبها على الأذنين وتشبه في شكلها العام رأس حيوان الفقمة، أو ذلك الحيوان المائي المسمى أيضاً كلب البحر والذي تتدلى أذناه الطويلتان على جانبي رأسه. وهذه القبعة أشبه بالتطوير الخاص للشكل الذي يشبهها من أطباق البورسلين الصينية، ويقال أيضاً أن العكس صحيح، أي أن تلك الأطباق قد ظهرت تطويراً لشكل هذه القبعة وأحياناً: ما يطلق على هذه القبعة في هولندا قبعة المساء، وأحياناً: قبعة النساء.

2–الكالفنية: نسبة إلى المصلح الديني المسيحي «جون كالفن» (1509–1564) بسبب دوره البارز والرائد المرتبط بحركة لاهوت الإصلاح الديني البروتستانتي، خصوصاً خلال القرن السادس عشر.

3–الشامانية Shamanism: مجموعة من المعتقدات والممارسات التي يقوم بها ممارسو الطب الشعبي والديني في بعض المجتمعات، والتي ترتبط بالتواصل مع العالم الروحي. وهو مصطلح بارز في التراث الأنثروبولوجي، والشاماني وسيط أو حامل رسائل ما بين العوالم الطبيعية والجسدية وعوالم الروح، ومن ثَمَّ فإنه يمكنه – كما يقال – أن يعالج الجسد من خلال تخفيفه وتلطيفه من الصدمات والعلل والأرواح الشريرة المؤثرة في الروح، وبذلك يعيد التوازن والكلية إلى الجسد والحياة.

4-القُنْدس: حيوان ثديي من القوارض المائية وفصيلة السّموريات. يوجد منه أنواع كثيرة تزيد على عشرين نوعاً. يعيش عادة في الماء، ويبني السدود من أخشاب الأشجار التي يقطعها بأسنانه الحادة. وقد كان القُنْدس منتشر بكثرة في أوروبا وآسيا. وقد أدَّى اختفاء الغابات الكبيرة، وأدَّى تعرض القُنْدس المستمر للصيد للاستفادة من فرائه، إلى تقليل المساحات التي يعيش فيها. ويقتصر وجوده الآن على بعض المناطق في أوروبا وأمريكا الشمالية، وخاصة كندا.

5-الخان: كلمة صينية وتركية تعني: العظيم. وهو لقب استخدم أولاً في آسيا الوسطى للإشارة إلى الحاكم أو القائد العسكري. ظهر أولاً في شمال الصين ومنشوريا مرتبطاً بأسماء زعماء المغول، أمثال جنكيزخان.

6-أنتويرب: مدينة ومنطقة رئيسة في بلجيكا.

7-الهيدروجرافيا: علم وصف المياه، كمياه البحار والمحيطات والأنهار.

8-البوشل: مكيال للحبوب وغيرها، يساوي ثمانية جالونات، أي نحو 32 لتراً ونصف اللتر.

الفصل الثالث

1-العذراوية Virginal: آلة موسيقية شبيهه بالبيانو الصغير عديم القواعد.

2-نسبة إلى مدينة فلوشنغ في هولندا.

3-الأزرق الكوبالتي: لون هادئ مشبع بدرجة ما بالأزرق، والكوبالت معدن صلب لامع يستخدم في إعداد السبائك المقاومة للتآكل، وإنتاج الأحبار والأصباغ. وقد استخدمت مُرَكَّبَات الكوبالت منذ قرون عدة

لإضافة اللون الأزرق إلى الزجاج والخزف، وكُشِفَ عن وجوده أيضاً في التماثيل والآثار المصرية القديمة، وكذلك المجوهرات الفارسية، منذ الألف الثالثة قبل الميلاد. وفي الصين يرجع استخدامه إلى أيام سلالة أسرة تانج الحاكمة (618–907م)، وكذلك أسرة مينغ (1368–1644م).

4–ميسين: بلدة تقع على بعد نحو خمسة وعشرين كيلومتراً إلى الشمال الغربي من مدينة دريسدن على ضفة نهر الألب في ولاية ساكسونيا بألمانيا، وهي مشهورة بصناعة البورسلين. وبورسلين ميسين كان – كما يقال – أول بورسلين ينتج خارج الصين. وهذه قضية خلافية، حيث يشير مؤلف الكتاب الحالي مثلاً إلى أن البورسلين قد أنتج في بلاد فارس القديمة قبل إنتاجه حتى داخل الصين نفسها.

5–البورسلين: مادة تستخدم عادة لصنع الأواني المنزلية والتماثيل، والبورسلين هو مادة الخزف التي تنتج من حرق بعض المواد الخام، مثل الطمي، في الأفران في درجات حرارة تتراوح بين 1200و1400 درجة مئوية وأصل كلمة بورسلين يعود إلى كلمة بورسيلانا Porcellana الإيطالية التي تعني الودعة أو القوقعة البحرية (نوع من الرخويات)، وذلك بسبب مشابهته لشكلها. وفي أوروبا تستخدم كلمة بورسلين للإشارة إلى الصين؛ لأنها – كما يقال – الموطن الأصلي له. وبسبب الخصائص المميزة للبورسلين، مثل: النعومة، والمرونة، والصلابة، والشفافية، واللمعان، وجمال الألوان، وخاصةً الأبيض والأزرق، وروعة الأشكال، فإنه اكتسب الشهرة العالمية له المستمرة حتى الآن.

وقد امتد تأثير البورسلين إلى الفنون أيضاً، فمثلاً نجد أنه خلال فترة

ازدهار الكوميديا في الفن التشكيلي في أوروبا في أواخر القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر، – وكما تجلى ذلك لدى الفنانين أمثال جان أنطوان واتو (1684–1721) ونيكوس لانكرت (1690–1743)، وتيبولو (1727–1804)، وغيرهم–، ظهرت فنون زخرفية كثيرة، وتجلى ذلك في أشكال المنسوجات المزدانة بالصور والرسوم والمراوح الملونة والأثاث والأواني الزجاجية، لكن البورسلين – أو الخزف الصيني– كان أهم الإنجازات الفنية (التقنية) في تلك الفترة. وقد وافق هذا الإنجاز إنجازاً مماثلاً كان يحدث في المسرح، وهو الكوميديا المرتجلة (كوميديا لارتي)، ووجدت هذه الكوميديا في فن البورسلين صداها الخاص، وألهمت هذه الكوميديا الفنانين البارعين الذين كانوا يستخدمون مادة البورسلين في أعمالهم، وقد كان هؤلاء الفنانون هم الذين يجسدون أبرز العناصر الممثلة لأساليب الباروك والروكوكو في الفن.

هكذا ظهرت تماثيل ومنحوتات خزفية من البورسلين لشخصيات مثل «ويلي» المخادع الماكر، و«بيرو» المتأمل الحالم الحزين، وهاركلوين الرشيق الحركة، السريع البديهة.. إلخ.

انظر كتابنا: الفكاهة والضحك، رؤية جديدة، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة، العدد 289، يناير 2003، وبخاصة الفصل التاسع.

6–بورسلين القرقورة: تمت تسمية هذا النوع من البورسلين بهذا الاسم بما يتفق كما يعتقد مع السفن الهولندية الضخمة القرقورة Carrack، وفي الأسبانية والإيطالية Caracca والتي كانت بدورها كلمة مشتقة

من المصطلح العربي «قراقير» الذي كان يستخدم في التجارة عبر البحر المتوسط خلال عصر النهضة للإشارة إلى السفن التجارية.

الفصل الرابع

1–لوزون: أكبر الجزر وأكثرها أهمية من الناحية الاقتصادية والثقافية في الفيلبين، وهي تشتمل بداخلها على عدة جزر صغيرة أيضاً وهي تشكل مع بيسايا (مجموعة الجزر الوسطى) ومنداناو (مجموعة الجزر الجنوبية) ما يعرف بأرخبيل الفيلبين، وفيها توجد العاصمة مانيلا.

2–المور أو موزو (بالإنجليزية Moor وبالإسبانية Moros) اسم كان يطلق على سكان شمال إفريقيا. وقد استخدم الاسم في الغرب للدلالة على الشعوب السمراء القادمة من شمال إفريقيا، والذين اشتركوا مع المسلمين في غزو إسبانيا. ويقال إن أصل هذا المصطلح كلمة يونانية هي «ماوروس» Maouros، أي أسود أو «مظلم جداً». كما استخدم في المسيحية للإشارة إلى الصبي المسيحي غير المُعَمَّد في الكنيسة. واستخدم الاسم مع تحوير خاص له بعد ذلك، فأصبح «موريسكي» ليطلق على كل مسلم استمر موجوداً في إسبانيا بعد خروج المسلمين منها عام 1492، حتى لو كان من أصل إسباني، ثم امتد استعمال الكلمة بعد ذلك ليطلق على كل مسلم (خاصةً عند الإسبان)، وخاصةً بالنسبة إلى مسلمي الفيلبين الذين لا يزالون يعيشون الآن في الجزر الجنوبية، وهكذا فإن في هذه الكلمة خليط من المعاني المرتبطة بالمسلمين، والسود، وسكان شمال إفريقيا، وسكان الجنوب عموماً، ومن بقي في

إسبانيا من المسلمين بعد عام 1942.. إلخ.

وللمصطلح جذوره القديمة أيضاً التي تمتد قبل الميلاد حتى الحرب القرطاجنية الإغريقية والتي ارتبطت باسم هانيبال الذي اكتسح شمال إفريقيا وإسبانيا وفرنسا وسويسرا وحاصر روما خمسة عشر عاماً، وكادت تسقط في يده لولا أن قامت ثورة عليه في قرطاج (تونس) في القرن الأول قبل الميلاد، ويعتقد أن أصله أسرة ملكية فينيقية سورية جاءت هاربة مع أنصارها من صُوْر، وأسَّست قرطاج عام 814 ق.م

3–التغالوغ: هي اللغة الرسمية للفيلبين ويتحدث بها الآن نحو خمسين مليون نسمة.

4–كوتسنشاينا: منطقة تضم الثلث الجنوبي من فيتنام والمدينة الرئيسة فيها هي سايجون (أو هوشي منه حالياً)، وكانت مستعمرة فرنسية ما بين عامي 1862 و 1948، وقد أُسِّست دولة فيتنام الشمالية عام 1954 من خلال التوحيد بين جنوب كوتشتشانيا وأنام. واسمها في الفيتنامية هو: ماين نام. وفي الفرنسية: مستعمرة كوتشتشانيا.

5–تونكين: تقع في أقصى شمال فيتنام، جنوب مقاطعتي يون نان Yunnan وقوانجتشي الصينيتين، جنوب شرق لاوس وغرب خليج تونكين، توجد في الدلتا الخصبة للنهر الأحمر.

الفصل الخامس

1–من المعاني الخاصة في الثقافة الصينية التي تشير إلى الشخص الخالد والأشخاص الخالدين، والخالد في تراث المذهب الطاوي في الصين،

الحكيم، والروحاني، والإنسان الأعلى الخالد جسدياً، والقديس، والخيميائي، والمتصوف الممارس لوسائل يحصل من خلالها على الخلود، والساحر، والشاماني، والاشراقي، وساكن الجبال، والموهوب، والخارق للعادة القادرة على اجتراح المعجزات والإتيان بالعجائب من الأمور القادرة على تحويل المعادن الخسيسة إلى نفيسة، والقادر أيضاً على السمو بروحه من المرتبة الأدنى إلى المرتبة الأسمى؛ ومن ثَمَّ الوصول إلى حالة ما من الخلود، والمقاوم للبرودة والحرارة، وغير المتأثر بالعناصر الطبيعية، والقادر على الصعود إلى أعلى والطيران بحركة رفرفة تشبه حركة الطيور، ويعيش إعتماداً على الهواء والندى وهو ورفاقه لا يشعرون بالقلق مثل الإنسان العادي. لهم بشرة ناعمة ووجوه بريئة كالأطفال وعلى هذه الأفكار يقوم المذهب «تاو» أو الطاوية في الصين.

2–جان ستين (1625–1675): فنان هولندي يعرف بأعماله التي يغلب عليها المرح والانطلاق وقد صَوَّر الحياة كما قيل – بوصفها كوميديا كبيرة تتشكل من أساليب وطرائق السلوك والتعبير الإنساني وتأتي مرتبته في تاريخ الفن الهولندي تالية لمرتبة رمبرانت وفيرمير وهالز. وقد صَوَّر «ستين» الشخصيات والموضوعات التاريخية والدينية والأسطورية، وكذلك الطيور والحيوانات والحياة الصامتة والتجمعات الاحتفالية وتعد صوره التي رسمها للأطفال من العلامات البارزة في مسيرته، وفي رسوم الفنانين الكبار للأطفال الصغار بشكل عام، وإضافة إلى تنوع أسلوبه وثراء رسمه للشخصيات وبراعته في التكوين، كان «ستين»

متميزاً في مهارته كرسام مُلَوِّن يتحكم في الألوان وحالاتها وتحولاتها، ومثله مثل مواطنه رمبرانت، ورسم «ستين» نفسه في لوحات كثيرة له. لكن بينما كان رمبرانت يأخذ السمة الجادة كان «ستين» دائماً مرحاً ضاحكاً ساخراً من نفسه ومن الحياة.

3–القطا: كما جاء في لسان العرب: «القطا طائر معروف سمي بذلك لثقل مشيه. والقطو: تقارب الخطو من النشاط والرجل يقطوطي في مشيه إذا استدار وتجمع. وقطَّت القطا: صوتت وحدها. وجاء في المثل: إنه لأصدق من قطاة. وفي المثل أيضاً: لو ترك القطا لنام، يضرب مثلاً لمن تهيج إذا تُهيج. ويقال في المثل أيضاً: إنه لأدل من قطاة، لأنها ترد الماء ليلاً من الفلاة البعيدة. وفي رواية أخرى: إنه لأهدى من القطاة «دلالة على الهداية والاهتداء والصدق والبعد عن الضياع أو الطريق السليم».

وللقطاة حضورها الكثيف في أشعار امرئ القيس، والنابغة الذبياني، وذي الرمة والبعيث، وأبي الأسود الدؤلي، والكميت، وغيرهم. هكذا تكون القطاة هنا طائراً ثقيل المشي، يمشي الهوينا لا تعجل في مشيه، وطائراً وحيداً يصوت بمفرده وطائراً صادقاً، لكنه قابل للاستثارة والتنبه فإذا استثير خرجت منه أصواته المميزة، ولدى الشاعر أحمد عبد المعطي حجازي:

قلت أصطاد القطا

كان القطا يتبعني من بلد إلى بلد

4–الين واليانج: يُستَخدَم هذان المصطلحان لوصف الكيفية التي تبدو من

خلالها تلك القوى التي تظهر متعارضة ومنفصلة في العالم الطبيعي، ثم كيف تتفاعل هذه القوى وتتصل وتعتمد بعضها على بعض، مما يعمل على بروز كل واحدة منها في أشكال متنوعة ويكمن هذا المفهوم في قلب كثير من فروع العلم والفلسفة الكلاسيكية الصينية كما أنه أصبح المرشد الأساس في الطب الصيني التقليدي أو الشعبي وكذلك في بعض الفنون والممارسات الفنية الصينية الشعبية والتقليدية. في ضوء ذلك كله فإن كثيراً من القوى الطبيعية الثنائية كالعتمة والنور، والذكر والأنثى، والأدنى والأعلى، والبارد والحار، هي في ضوء الفكر الصيني تجليات للين واليانج، وهما معاً قوتان متعارضتان، لكنهما تكمل إحداهما الأخرى داخل النظام الكلي الأعظم ويوجد في كل شيء، وفي كل مخلوق جوانب مختلفة من الين واليانج، هذا مع أن عناصر من الين (القوى السلبية) أو اليانج (القوى الإيجابية) قد تتجلى على نحو أقوى في أشياء معينة وأوقات معينة وظروف معينة. وتتفاعل هاتان القوتان معاً، على نحو مستمر، ولا توجدان أبداً في حالة من الاستقرار أو الاتزان، وهناك رموز ممثلة لهاتين القوتين مثل رمز «التاي تشي» Taÿitu المعروف جيداً في الثقافة الغربية والذي هو عبارة عن دائرة بداخلها شكلان بيضاويان على شكل حرف S في اللغة الإنجليزية أحدهما أبيض بداخله دائرة سوداء والآخر أسود بداخله دائرة بيضاء. وهناك سوء فهم لدى البعض خاصة في الغرب على أن الين واليانج يمثلان الخير والشر هذا على الرغم من المذهب «الطاوي» يرفض التمييزات الخاصة بين الخير والشر بوصفها تسميات سطحية، ويفضل التركيز أكثر

على فكرة التوازن. وهناك بعد أخلاقي في هذا المذهب تمتد جذوره إلى مدرسة كونفوشيوس وخاصة لدى دونج تشونج شو (نحو القرن الثاني قبل الميلاد) كما أن هذه الأفكار هي الأساس الذي أقام عليه المحلل النفسي الشهير كارل جوستاف يونج (1875–1961) نظريته في التحليل النفسي واللاشعور الجمعي وأفكاره حول القناع (المظهر الاجتماعي من الشخصية) والظل (الجانب الداخلي الحقيقي، غالباً الشرير، من الشخصية) وكذلك فكرة الأنيما (الأنثى داخل الذكر) والأنيموس (الذكر داخل الأنثى) وغيرها. والجدير بالذكر أن كلمة «كاو» تعني الطريق المستقيم وهي من الركائز الأساسية التي قامت عليها تعاليم كونفوشيوس أيضاً.

5–يشير الشاعر هنا إلى تلك المادة التي يصنع منها غليون التدخين (ناب الفيل العاجي).

6–الرطل: يساوي حوالي 453 جراماً.

7–لاحظ أن نطق هذه الكلمة قريبة من كلمات «مذاق» و«مزاج» و«مدغة» في العربية.

الفصل السادس

1–نقطة التلاشي أو الزوال: النقطة التي يلتقي عندها خطا البصر، وتقع عند مستوى يحدد مدى النظر ويُسَمَّى خط الأفق أو نهاية الرؤية وهي تتحكم في الإحساس بالبعد الثالث أو العمق من خلال إظهار مدى بعد الجسام أو قربها وهي النقطة التي تلتقي فيها الخطوط المتوازية التي تنفذ

في عمق الصورة.

2–الأسلوب الفلمنكي في الفن: يشير هذا المصطلح إلى فنون التصوير والنحت التي ظهرت في بلاد الفلاندرز (المعروفة الآن باسم دول مثل: بلجيكا وهولندا وفرنسا)، وقد ظهر التمييز الخاص للفن الفلمنكي خلال القرن الخامس عشر، وحددت خصائصه على أنها تقوم على أساس الملاحظة الدقيقة والانتباه المرهف للتفاصيل والألوان البراقة المشعة اللامعة، والأسلوب المتسم بالثراء. وقد كان التصوير الزيني أحد إنجازات الفن الفلمنكي وإضافة إلى اهتمامه بالصور الشخصية (أو Portrait) فإن الفن الفلمنكي فن ديني في جوهره، ولوحاته تتعلق غالباً بالمناظر الطبيعة ومشاهد المدن والمناظر الداخلية في البيوت والغرف والكنائس مثلاً، ومن أقطابه في القرن الخامس: عشر جان فان إيك، وجيرارد ديفيد. وخلال القرن السادس عشر: هيرونيموس بوش، ولومبرت لومبارد، وبيتر بروجل الأكبر وخلال القرن السابع عشر: أنطوني فان دايك وبيتر روبنز ويعتبر بعض النقاد أن ما قدمه بول دلفو ورينيه ماجريت من لوحات سيريالية تصور عوالم الحلم والداخل الإنساني خلال القرن العشرين أشبه بامتداد لذلك التراث الفلمنكي القديم.

3–الأمثولة: صياغة رمزية لأفكار فلسفية أو مواعظ أخلاقية، وبناء رمزي تكمن قيمته فيما يوحي به من تساؤلات، وما ينبه عليه من مقاصد كتلك الحكايات التي ترد على لسان الحيوان مثل «كليلة ودمنة» وغيرها.

4–الأيكونوجرافي: Iconography فرع من تاريخ الفن يدرس عمليات

التحديد والوصف والتفسير لمحتوى الصور. وتعني كلمة Iconography حرفياً «الكتابة بالصورة» ومصدرها كلمتان إغريقيتان إحداهما تعني: «صورة» والأخرى تعني «يكتب» وهناك معنى ثانٍ أو ثانوي للكلمة يشير إلى اللوحات الخاصة بالأيقونات Icons التي في التراث المسيحي، والتي تنتمي إلى العصرين البيزنطي والأرثوذكسي، وإلى هذا المعنى ينتمي ذلك التاريخ الخاص بتحطيم الصور iconoclassim. وعدا عن تاريخ الفن فإن هذا المصطلح يستخدم في حقول معرفية أخرى مثل علم العلامات (السيموطيقيا) ودراسات الإعلام والاتصال أيضاً.

5-بيتر دي هوش: (1629-1684): مصور هولندي من عصر التصوير الذهبي في هولندا عاصر فيرمير وروبنز وغيرهما من عظماء هذا الفن، وهو الأقرب من بين الفنانين الهولنديين إلى فيرمير من حيث الأسلوب والموضوعات.

6-اللغات الجرمانية: هي مجموعة من اللغات الهندية الأوروبية تشمل الإنجليزية والألمانية واللغات الأسكندنافية وغيرها.

7-النطاق الشجري The Tree Line: أي الحد الذي لا ينمو الشجر بعده في الجبال أو المناطق القطبية بسبب البرد.

8-المايتا Mita: أسلوب عمل إجباري لعدد معين من الساعات استخدم خلال إمبراطورية الأنكا في أمريكا الجنوبية واستخدمه الإسبان بعد ذلك للعمل في مناجم الفضة هناك بما يتفق وحاجاتهم إلى استخراج هذا المعدن بوفرة وقد امتدت إمبراطورية الإنكا هذه منذ القرن الثاني عشر الميلادي في مناطق جبال الإنديز فاشتملت على البيرو وبوليفيا

وإكوادور وأجزاء كبيرة من تشيلي والأرجنتين وكولومبيا وقد استمرت حتى قام الإسبان بغزوها والسيطرة عليها في منتصف القرن السادس عشر.

9–الإنيادة: قصيدة ملحمية لاتينية كتبها فرجيل في أواخر القرن الأول قبل الميلاد، وتحكي القصة الملحمية الخاصة لـ: إنياس، ذلك أحد ابطال طرواده الذي رحل إلى إيطاليا وأسَّس سلالة الرومان هناك. وتتكون هذه القصيدة من 1000 بيت شعري.

10–سلاسلة «التوكوجاوا»: السلالة التي حكمت اليابان خلال الفترة ما بين عامي 1603 و1868، وهي الفترة قبل الحربين والتي تميزت بالاستقرار الأمني والاقتصادي.

11–نهر باسيج: نهر في الفيلبين يربط بين بحيرة لاجونا ومانيي باي، أو المرفأ الطبيعي الذي يخدم ميناء مانيلا (أو لوزون) في الفيلبين وهو يقسم منطقة العاصمة الرئيسة هناك إلى قسمين.

الفصل السابع

1–الفلاندرز: هي مكان التجمع السياسي للفلمنك، ولكنها أيضاً إحدى المؤسسات institutions الرئيسية في بلجيكا، وهي منطقة جغرافية كانت تضم أجزاء من بلجيكا وفرنسا وهولندا.

2–الناتال: منطقة في جنوب إفريقيا تمتد من المحيط الهندي في الجنوب والشرق حتى دراكنزبرج في الغرب وجبال لومباريو في الجنوب وهي منطقة رئيسة لقبائل علم الزولو.

3-الإثنولوجيا Ethnology: فرع من الأنثروبولوجيا يدرس ويقارن ويحلل الأصول والتوزيعات والتقنيات والممارسات الخاصة بالديانات واللغات والبنيات الاجتماعية للسلالات والأعراق وتقسيمات الأقوام أو الأمم الخاصة للجنس البشري.

4-حالة تعليق الحكم أو الإيقاف المؤقت لحالة عدم التصديق. ويقصد بها أننا حين نتعامل مع أعمال فنية، إبداعاً أو تذوقاً، ينبغي أن نتوقف عن التفكير المنطقي المرتب المتسلسل، ونطلق الحرية للتفكير الخيالي المتحرر من القيود والروابط كي يستطيع أن يأتي بالجديد حتى لو بدا هذا الجديد غير منطقي عندما ننظر إليه في المرة الأولى.

5-المجوس، أو الرجال الحكماء الثلاثة، أو الملوك الثلاثة، أو ملوك الشرق الثلاثة، هم مجموعة من الأجانب المتمايزين، يقال إنهم زاروا السيد المسيح (عليه السلام) عقب ولادته، وأحضروا معهم هدايا من الذهب والمر (الصمغ) واللبان والبخور. وقد ورد ذكرهم في إنجيل متى، الإصحاح الثاني، جاؤوا من المشرق إلى «أورشليم»، وشخصياتهم متداولة في الحكايات التراثية حول ميلاد المسيح (عليه السلام)، وفي احتفالات «الكريسماس» أو أعياد الميلاد أيضاً.

6-المعارضة الأدبية أو الفنية Pastiche: نوع من المزج الإبداعي الذي يتم بين تقنيات وأساليب أدبية أو فنية متنوعة، أحياناً بهدف الإضافة الجادة وأحياناً بهدف التهكم والسخرية، وغالباً بهدف الإبداع الجديد. وأبرز ما يمثل المعارضة في الفن التشكيلي ذلك المزج الإنتقائي وكما فعل ذلك بعض الفنانين أمثال براك وبيكاسو ودوشامب وآندي وارهول

وغيرهم. ويعد هذا النوع من التقنيات من المعالم المميزة للإتجاهات ما بعد الحداثة في الأدب والفن والعمارة.

الفصل الثامن

1–جون دن (1572– 1631) شاعر إنجليزي ورجل دين والممثل الرئيس لتيار الشعراء الميتافيزيقيين في تلك الفترة – وأسلوبه متميز بسبب ما اشتمل عليه من قصائد واقعية وحسية وعاطفية وأغنيات وأبيجرامات ومرثيات واستعارات مبتكرة. وعلى الرغم من موهبته العظيمة وثقافته الراقية فقد عاش في فقر مدقع لفترات طويلة معتمداً في إعاشته على أصدقائه الأغنياء، وفي عام 1621 أُختِير عميداً لكاتدرائية القديس بولس في لندن.

2–علم الإيكولوجيا Ecology: هو علم من علوم البيئة يدرس علاقة الكائنات الحية بالبيئة التي تعيش فيها والبيئات المحيطة بها وما يقصده المؤلف بهذا النوع من التفكير هو الإشارة إلى العلاقات المشتركة بين البشر وبيئاته المختلفة من مناخ وثروات وتغيرات.

3–معاهدة سلام ويستفاليا: عُقِدَت في 15 مايو 1648 وأنهت حرب الثلاثين عاماً التي دارت داخل الإمبراطورية الرومانية المقدسة (1618–1648) وحرب الثمانين عاماً (1568–1648) التي دارت بين إسبانيا والأمم الهولندية (الأراضي الواطئة) المتحدة (303).

نبذة عن المترجم:

من مواليد جمهورية مصر العربية محافظة أسيوط، يعمل حالياً مديراً لبرنامج تربية الموهوبين في جامعة الخليج العربي _كلية الدراسات العليا_ مملكة البحرين.

عمل سابقاً نائباً لرئيس أكاديمية الفنون وعميداً لمعهد النقد الفني في جمهورية مصر العربية، وله عدد كبير من المؤلفات، منها:

«العملية الإبداعية في التصوير»، و«الطفولة والإبداع»، «الأدب والجنون»، «الفكاهة والضحك»، «الحلم والرمز والأسطورة».

ومن الكتب المترجمة:

«الأسطورة والمعنى» كلودليفي شتراوس، «بدايات علم النفس الحديث» و.م. أونيل، «سيكولوجية فنون الأداء» جلين ويلسون، معجم المصطلحات الأساسية في علم العلامات (السيموطيقا).

قبعة فيرمير

في دلفت، غرب هولندا، على بحر الشمال، ولد فيرمير(1632 - 1675)، ورسم لوحاته المهمة التي خلَّدت اسمه، ومنها لوحة «الضابط والفتاة الضاحكة»، حيث الضابط يرتدي قبعة خاصة كبيرة من الفرو - ومن هنا جاء عنوان الكتاب- وفي «دلفت» كان الفرع الرئيس لشركة الهند الشرقية الهولندية أيضاً، ومن هناك انطلقت السفن نحو الشرق وعادت منه، انطلقت بالبحارة والسلع، وعادت ببعض البحارة فقط، وبسلع أخرى كثيرة متنوعة، هكذا بدأ التاريخ الحقيقي للعولمة - كما يقول تيموثي بروك - من هناك، من ذلك المكان، وذلك الزمن.

هكذا ينتقل بنا مؤلف هذا الكتاب من الفن إلى الحياة، ومن الحياة إلى الفن، من الفن الذي في الحياة: تجارة اللوحات والخزف والفراء والمنسوجات والفضة وغيرها، إلى الحياة التي في الفن، ومن صناعة السفن، وتجارة التبغ والعبيد والشاي والقهوة والتوابل، وعمليات التبادل الثقافي، والحروب والصراعات الكبرى التي استهلت الحقبة الاستعمارية الكبرى في تاريخ البشرية، والتي رصدها الفن أو سَجَّلَ آثارها المتناثرة، وخلال ذلك كله يقدم لنا حكايات متنوعة قصيرة وممتعة عن بشر عاديين مثلنا، لكنهم كانوا أيضاً البشر الذين طَوَّحَت بهم أحلامهم ودفعتهم أمانيهم نحو بناء هذا العالم الكبير المتميز.

المعارف العامة
الفلسفة وعلم النفس
الديانات
العلوم الاجتماعية
اللغات
العلوم الطبيعية والدقيقة / التطبيقية
الفنون والألعاب الرياضية
الأدب
التاريخ والجغرافيا وكتب السيرة

كلمة KALIMA

أبوظبي للثقافة والتراث
ABU DHABI CULTURE & HERITAGE

9 789948 018209